

كتاب منهج علم التوحيد لطلاب المعاهد الإسلامية

تأليف
محمد قطب

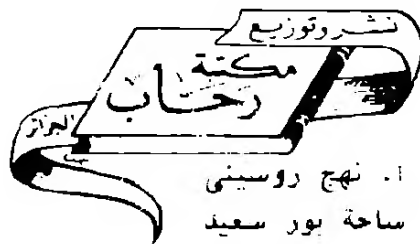


هـ : 14 02 64 - 22 31 63

كتاب منهج عالم النوحيد لطلاب المعاهد الإسلامية

الجزء الأول

تأليف
محمد قطب



١٤ - ٠٢ - ٦٤ - ٢٢ - ٣١ - ٦٣ هـ

حقوق المؤلف وقف لله تعالى على
جمعية تحفيظ القرآن الكريم
مدرسة ومعهد دار القرآن
وادي الزناتي ولاية قالمة
الجزائر

الطبعة التاسعة

1410 هـ - 1990 م

سحب دار البعث للطباعة والنشر - قسنطينة (الجزائر)

رقم الايداع القانوني : 1990/45035 و. قسنطينة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

نحمد الله تعالى ونثنى عليه بما هو أهله ، ونصلي ونسلم على نبيِّنا محمد صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين وأكرم المرسلين ، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان الى يوم الدين .

وبعد ، فهذا كتابٌ يتضمَّن منهج علم التوحيد المُقرَّر على السنة الأولى الثانوية . ويتناول بالحديث موضوع الإيمان بوجود الله ووحدانيته وصفاته ، راعيتُ فيه أن يكون مُبسَّط العرض مُيسِّر الفهم ، شارحاً بقدر الإمكان ما ورد في الكتاب من استشهادات بالآيات والأحاديث ، شرحاً يجعل الطالب يعيش بفكره ووحدانه في معانيها الكريمة . ويحاول أن يستشعر في قلبه عظمة الله سبحانه وتعالى ، فإنَّ المعنى الحقيقي للإيمان لا يتحقَّق في النفس بمجرد الاطلاع على النصوص ومحاولة حفظها عن ظهر قلب ، بل بتدبر معانيها ، واستشعار عظمة الله من خلالها . بما يملأ القلب بالخشية منه سبحانه والتعلُّع إلى رحمته وإحسانه والعمل بما بعثه ويرصده ، كما قال تعالى في سورة الإسراء : ﴿ يَسْتَسْنُونَ إِلَى رَبِّهِمْ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ﴾ . نسأل الله أن ينفعنا بما علمنا ، وأن يوفقنا إلى حبه وطاعته . ويهدينا إلى سواء السبيل .. والله ولي التوفيق .

محمد قطب

الإسلام

الإسلام بمعنى العام هو إسلام الوجه لله والخلوص من الشرك وأهله ، أى التوجه الكامل إلى الله ، والخضوع الكامل لأوامر الله .

يقول القرآن الكريم :

﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرٌ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (١١٢)

(سورة البقرة : الآية ١١٢) .

ويقول : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ ؟ (سورة النساء : الآية ١٢٥) .

وإسلام الوجه لله ، بمعنى إسلام النفس كلها لله ، هو الأمر الذى يطلبه الله من البشر كافة بما أنه هو خالقهم سبحانه وخالق هذا الكون كله والمتصرف فيه وحده . فهو حق الإله على الخلق ، وهو كذلك مقتضى عبودية الخلق لربهم وخالقهم .

وهذا الإسلام هو الذى كان عليه آدم ونوح والنبيون من بعده إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، حيث كان الاعتقاد واحداً وإن اختلفت الشرائع فى الأحكام الفرعية وكان عليه كذلك كل من اتبع الأنبياء منذ مولد البشرية .

جاء فى القرآن الكريم عن إبراهيم عليه السلام :

﴿ وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّمَا مِنْ سِفَةِ نَفْسِهِ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لِمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (١٣٠) إِذْ قَالَ لَهُ

رَبُّهُ اسْلِمْ قَالَ اسْلَمْتُ رَبِّيَ الْعَالَمِينَ ﴾ (سورة البقرة : الآيتان ١٣٠ - ١٣١) .

ويتول على لسان إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام :

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (١٣٧) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ

وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَإِزِدْنَا مُسْلِمِينَ إِنَّكَ أَنْتَ النَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (١٣٨)

(سورة البقرة : الآيتان ١٢٧ - ١٢٨) .

ويقول : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يُحْكَمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا الَّذِينَ هَادُوا ﴾

(سورة المائدة : من الآية ٤٤) .

ويقول عن يعقوب وبنيه :

﴿ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَاللَّهُ أَبَانُكَ إِنْرِهِمْ
وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (البقرة : ١٣٣) .

ويقول على لسان يوسف عليه السلام :

﴿ رَبِّ مَدِّ يَدِي مِنَ الْمَلِكِ وَعَلَّمَنِي مِنْ نَاقِلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ الْدُنْيَا وَالْآخِرَةِ
تَوْفَى سَيِّدًا وَالْحَقُّنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ (سورة يوسف : الآية ١٠١) .

فالإسلام بهذا المعنى هو دين الأنبياء جميعاً ودين المؤمنين بالله ورسله من لدن
آدم حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

ولكنَّ الله تفضَّل على أُمَّة محمد ﷺ فخصَّها باسم « الأُمَّة المسلمة » وباسم
« المسلمين » استجابة لدعاء سيدنا إبراهيم من قبل وتفضلاً منه سبحانه . يقول القرآن :

﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ فَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الَّذِينَ مِنْ حَرَجٍ إِلَيْكُمْ إِزْمِيَهُمْ هُوَ تَسْمِيَتُكُمُ الْمُسْلِمِينَ
مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ
وَأَعِصُوا بِاللهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَعَمَّ الرُّسُلُ وَفَعَلَ النَّصِيرُ ﴾ (سورة الحج : الآية ٧٨) .

وفي هذا التفضل من الله سبحانه وتعالى تكريم لهذه الأُمَّة ، فكأنما تحقق فيها
معنى الإسلام بأكثر مما تحقق في أى أُمَّة من قبل حتى استحققت أن تسمى بالمسلمين .
ولا عجب في ذلك فالله سبحانه وتعالى يقول في وصف هذه الأُمَّة :

﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾

(سورة آل عمران : الآية ١١٠) .

والآن فلننظر في عقيدة هذه الأُمَّة التي رفعتها إلى هذه المنزلة السامية التي استحققت
عليها هذا التكريم الرباني ، بأن يكون اسمها الأُمَّة المسلمة ، وأن تكون ﴿ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ
لِلنَّاسِ ﴾ .

أُصُولُ الْعَقِيدَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، قال : بينا نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم ، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لا يرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحد ، حتى جلس إلى النبي ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ، ووضع كفيه على فخذيه ، وقال : يا محمد ! أخبرني عن الإسلام . قال : « الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً » . قال : صدقت . فعجبنا له : يسأله ويصدقه ! قال : فأخبرني عن الإيمان . قال : « الإيمان أن تؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسوله ، واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره » . قال : صدقت . قال : فأخبرني عن الإحسان . قال : « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » . قال : فأخبرني عن الساعة . قال : « ما المسئول عنها بأعلم من السائل » . قال : فأخبرني عن أمارتها . قال : « أن تلد الأمة رببتها ، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان » .

قال : ثم انطلق فلبث ملياً ، ثم قال لي : « يا عمر ! أتدري من السائل ؟ قلت : الله ورسوله أعلم . قال : « فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم » . رواه مسلم .
فيتبين من هذا الحديث أن هناك أصولاً ستة للعقيدة الإسلامية :

١ - الإيمان بالله .

٢ - الإيمان بالملائكة .

٣ - الإيمان بالكتب السماوية .

٤ - الإيمان بالرسل .

٥ - الإيمان باليوم الآخر .

والإيمان بالله هو موضوع حديثنا في هذا الكتاب . ولكننا نعرض عرضاً موجزاً لهذه الأصول الستة لكي نتبين المقصود من كل منها .

(١) فالإيمان بالله يعنى الإيمان بوجوده سبحانه وتعالى وبوحدانيته في العبادة والأسماء والصفات التي وصف بها نفسه في القرآن الكريم .

(٢) والإيمان بالملائكة يتضمن الإيمان بوجودهم ، وبأنهم خلق من خلق الله ، يعبدونه سبحانه وتعالى ، ولا يفترون عن عبادته ليلاً ونهاراً ، ولا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون . وأن لهم أعمالاً كلفهم الله بها وهم يؤدونها في طاعة كاملة لله ، ومن بينها التنزل بالوحي على رُسُل الله وأنبيائه ، ومن بينها كتابة أعمال البشر وتسجيلها ، ومن بينها التنزل على قلوب المؤمنين بالطمأنينة والبشرى ... الخ .

(٣) والإيمان بالكتب السماوية يتضمن الإيمان بكل ما أنزل الله على رُسُله من الكتب بما فيها القرآن الكريم وإن كانت الكتب السماوية السابقة كلها قد حُرُفتْ إلا القرآن الكريم وحده حفظه الله وقال سبحانه : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ .

(٤) والإيمان بالرسل يقتضى الإيمان بأن الله سبحانه وتعالى أرسل إلى البشرية رُسُلاً متعددين ، منهم من قصه الله على نبيه محمد ﷺ في القرآن ومنهم من لم يقصصه عليه كما قال تعالى :

﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَنْبِيَاءِ وَعِيسَى وَإِيُوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآدَمَ وَدَاوُدَ زَبُورًا ۖ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ۝ ﴾ (سورة النساء : الآيتان ١٦٣ - ١٦٤) .

وإن هؤلاء الرُسُل جميعاً قد أوحى الله إليهم أن يبشروا الناس وينذروهم يبشروهم بالجنة لمن أطاع الله ورسله ، وينذروهم بالنار لمن عصى الله ورسله ،

كما قال القرآن بعد الآيتين السابقتين :

﴿رُسُلًا بُشِّرًا وَمُنْذِرًا لِّئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ١٣٥﴾ .

وأنهم جميعاً جاءوا بكلمة واحدة تلقوها من عند الله وأمروا بتبليغها للناس .
وهي كلمة ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ والأمر بعبادته وحده دون شريك ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ
الْوَعْدِ﴾ .

٥) والإيمان باليوم الآخر معناه الإيمان بالبعث بعد الموت ، وأن الله يبعث الناس
جميعاً يوم القيامة ويحشرهم إليه ، ويحاسبهم على كل شيء فعلوه في الدنيا ثم
يجزيهم به : ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ٨﴾
كما يشمل الإيمان بالجنة والنار وكل ما جاء في القرآن والحديث عن البعث
والحشر والحساب والجزاء .

٦) والإيمان بالقضاء والقدر يقتضى الإيمان بأن كل ما يحدث للإنسان من خير
أو شر هو مقدر له : « وأن ما أصابك لم يكن ليخطئك وأن ما أخطأك لم يكن
ليصيبك » ، كما يقتضى الإيمان بالعدل الإلهي فيما يجرى به القضاء والقدر .
تلك هى الأصول الستة للعقيدة الإسلامية . وأولها وأعظمها الإيمان بالله . الذى
سنفرد له الحديث من هذا الكتاب .

أسئلة

- ١ - ما الإسلام بمعناه العام ؟ دلل على ما تقول .
- ٢ - فى أى شيء تجتمع شرائع الأنبياء ؟
- ٣ - لماذا جعل الله تعالى أمة محمد ﷺ خير الأمم ؟
- ٤ - للعقيدة الإسلامية أصول . اذكر ثلاثة منها .
- ٥ - ماذا يتضمن الإيمان بالكتب السماوية ؟

الدين والفطرة

كل مولود يولد على الفطرة .

والفطرة بذاتها تتجه إلى الله ، عارفة بوجوده سبحانه ، ومؤمنة بأنه إله واحد لا يوجد في الكون كله سواه .

كيف تمتدى الفطرة إلى خالقها ؟

إن الله سبحانه وتعالى يخبرنا في كتابه الكريم أنه حين خلق الخلق عرفهم بنفسه ، وبأنه جلّت قدرته هو ربهم الذي خلقهم ، والذي ينبغي أن يدينوا له بالعبودية :

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنْ بُنَىٰ آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا ۚ ﴾

(سورة الأعراف : الآية ١٧٢) .

والرسول الكريم ﷺ يخبرنا كذلك :

« ما من مولود إلا يولد على الفطرة . فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما

تنتج البهيمة بهيمة جمعاء ، هل تحسون فيها من جدعاء^(١) ؟ » ، ثم يقول :

﴿ فَطَرَنَاهُ الْبَشَرَ الْفِطْرَةَ الْفِطْرَةَ لَا تَبْدِيلَ لِمَوْلَاهُ ذَلِكَ الَّذِي لَقِئَهُ ۚ ﴾ متفق عليه .

والحقيقة أن الفطرة البشرية تتيقظ لوجود الخالق في سن مبكرة جداً ، أصغر

بكثير مما نظن !

فنحن نظن عادة أن الشخص الكبير وحده هو الذي يتفكر في وجود الله سبحانه

وتعالى وفي وحدانيته . ولكننا إذا لاحظنا حياة الطفل الصغير نجد أنه في مرحلة معينة

من عمره يبدأ بسأل والديه أسئلة لا تنتهى :

من الذى عمل السماء ؟ لماذا كانت السماء زرقاء ؟ أين تذهب الشمس فى الليل ؟

لماذا لا تظهر الشمس لنا فى الليل ؟ أين يذهب النور حين يأتى الظلام ؟ لماذا تلمع

(١) الجمعاء هى السليمة المكتملة الأعضاء ، والجدعاء هى المقطوعة الأذن

النجوم ؟ أين تنتهى الأرض ؟ لماذا كانت هذه الزهرة ذات رائحة والزهرة الأخرى ليس لها رائحة ؟ من أين جثت ؟ أين كنت قبل أن أجيء ؟ ... الخ .. الخ ...

فما معنى هذه الأسئلة فى الحقيقة وما دلالتها ؟

إن دلالتها الحقيقية أن فطرة هذا الطفل قد بدأت تستيقظ . بدأت تتعرف على خالق السماوات والأرض من خلال مخلوقاته المشهودة المحسوسة . بدأت رويداً رويداً تتعرف على حقيقة الألوهية التى أشهدها الله عليها منذ خلقها ، وبدأ إدراكها لها ينمو كما تنمو البذرة الكامنة فى باطن الأرض ، حتى تترعرع وتخضر .
وأن هناك تأثيرات عدة تقع على حس الإنسان فتوقظه إلى حقيقة وجود الله ووحدانيته وتفردة .

فالكون بضخامته الهائلة لا بُدَّ أن يوقظ الإنسان إلى هذه الحقيقة .

فهذه الأبعاد الهائلة فى السماوات والأرض . وهذه الأجرام السماوية الضخمة التى لا يحصىها العد ... من أوجدها ؟

إن الأرض - وهى جرم صغير جداً بالنسبة للأجرام السماوية - تحتوى من الجبال والسهول والمحيطات والبحار والأنهار ما نستغرق سنوات العمر كلها فى محاولة التعرف عليه ، ثم لا نستطيع أن نتعرف إلا على جزء يسير منه ، فكيف - مثلاً - بالمجموعة الشمسية التى تكون أرضنا جزءاً منها ؟ وكيف بالمجرة التى تعتبر مجموعتنا الشمسية جزءاً ضئيلاً منها ، وكيف بالكتل السماوية الأخرى التى تشمل ملايين وملايين من مثل مجرتنا ؟ وملايين وملايين من النجوم التى تُعتبر شمسنا صغيرة بالقياس إليها ؟ !

والكون مع ضخامته هذه دقيق دقة معجزة

فالليل والنهار يتعاقبان فى دقة متناهية إلى حد أننا نضبط ساعاتنا عليها ! والحقيقة أن الكون كله مضبوط فى دورته الفلكية لدرجة أن ساعات المراقص - التى هى أدق

الساعات التي بين أيدينا ، والتي نضبط عليها ساعات الإذاعة وغيرها ، والتي تقيس الوقت بجزء على ألف من الثانية - هي ذاتها تضبط على دورة الفلك المتناهية في الدقة . والتي لا تضطرب دورتها على مر العصور والأجيال ، إلى أن يشاء الله ...

ثم إن كل كائن من الكائنات التي خلقها الله يتسم بهذه الدقة المعجزة سواء أكان من الكائنات الحية أم الكائنات الجامدة .

هل رأيت إلى الخلية الحية الدقيقة المتناهية في الصغر حتى أنها لا ترى إلا بالمجهر ؟ ومع ذلك فهي تنمو وتنقسم وتقوم بمهام عجيبة غاية في العجب . يقف الإنسان إزاءها حائراً ، خاشعاً أمام قدرة الله . فمن الذي أودعها سر الحياة ؟ ومن الذي هداها لهذا النشاط العجيب الذي تقوم به إلا الله سبحانه وتعالى ؟!

إن الجرثومة لا يمكن أن ترى بالعين . ومنها نوع دقيق يسمى « الفيروس » لا يرى حتى بالمجهر العادى . ومع ذلك فأنت تعرف مما درست في العلوم أنها يمكن أن تصيب الإنسان بأفك الأمراض ما لم يتحصن ضدها بالأدوية أو الأمصال .

والكائن المتعدد الخلايا - وفي قمته الإنسان - يكون في منشئه خلية واحدة ملقحة . ثم نظل تنقسم وتنمو حتى تصبح كائناً مُتكاملاً . فأى قدرة تمنحه الحياة والحركة والنشاط غير قدرة الله ؟

وإن أعجب ما في عملية الانقسام هذه أن الخلايا تكون كلها متماثلة - لظاهر العين - في نشأتها الأولى . ثم يصدر إليها الأمر فتتخصص وتشكل بشكل مُعَيَّن . فخلية تتجه إلى مكان مُعَيَّن وتصبح أُذنًا أو جُزءاً من أُذن . وخلية تتجه إلى مكان آخر فتصبح عَيْنًا أو جُزءاً من عين . وثالثة تصبح خلية من خلايا المُخ . ورابعة تتحوّل إلى عظام ... وهكذا . فأى أمر هذا الذي صدر إليها فإطاعته ونفذته بهذه الدقة العجيبة وهي شيء لا يكاد يرى بالعين ؟ إنه أمر الله الخالق المُبدع . يأمرها فتطيع . وتنحرك

بمقتضى مشيئته سبحانه فتكوّن كما أَرادها الله ، وتقوم بالدّور الذى أَراده لها الله .
وهل رأيت إلى تلك الزهرة الجميلة ذات الرائحة العطرة والألوان المتعددة
المتداخلة ؟

من الذى أودع فيها هذا العطر ؟ وكيف تجمّعت فيها تلك الألوان ؟
ترى لو حاولتَ أنتَ أن تُعطّرَ زهرة واحدة عطراً يفوح من الصباح إلى المساء
دون أن يتبدّد ويضيع . ولو حاولتَ أن تُلوّنَ بكلّ ما لديك من ألوان زهرة واحدة
بحيث تبقى ألوانها ما بقيتِ الزهرة ، فكم يُكلّفك ذلك من الجُهد ، وإلى أى مدى
تنجح محاولتك ؟

ولو أن كل البشر على ظهر الأرض شغلوا أنفسهم بهذه المهمة بالنسبة لكل
الزهور النابتة على سطح الأرض أو جوف البحر .. فهل يستطيعون ؟ وإن استطاعوا
فكم يبقى من وقتهم وجهدهم ليقوموا بغير ذلك من الأعمال ؟
ولكن الزهرة - وملايين الزهور فى الأرض - تخرج هكذا معطرة ملوّنة بهيجة
المنظر من عند الله ، بغير جهد على الإطلاق ! ودون أن يشغله هذا الأمر سبحانه
عن تدبير الكون الهائل العريض كله : ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا ^(١) وَهُوَ
الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ^(٢) ﴾ لأنه سبحانه يقول للشئ : ﴿ كُنْ فَيَكُونُ ^(٣) ﴾ .

» » »

وظاهرة الموت والحياة كذلك تلفت حسّ الإنسان إلى قدرة الله المعجزة التى
تحبى وتميت .

فما الحياة فى حقيقتها ؟ إنها سرّ معجز لا يعلم أحد كنهه ولا يستطيع تفسيره . وكل
ما حاوله البشر حتى اليوم هو تفسير بعض ظواهر الحياة من حركة ونمو ووظائف

(١) أى لا ينفد سبحانه من حفظهما

مختلفة تقوم بها الأعضاء . أمّا الحياة ذاتها : ما هي ؟ كيف توجد في الكائن الحي ؟
كيف توجهه إلى أداء وظائفه التي يقوم بها ؟ هذا كله سرّ مُبهم لا يقدر البشر على إدراكه . وعبثاً حاول البشر - بكل علمائهم ، وبكل ما لديهم من علم - أن يخلقوا خلية واحدة . واحدة فقط ، من بلايين البلايين من الخلايا الحية التي يزخر بها الخلق الرباني ، والتي أوجدها الله بعلمه وقدرته دون شريك .

والرزق الجارى على الإنسان ، سواء في صورة مطر هائل من السماء ، أو زرع نابت من الأرض ، أو أسماك وطيور وحيوان ، أو كنوز ومعادن في باطن الأرض ، أو هواء يتنفسه ، أو ريح تُجرى سفنه في البحر ، أو طاقات تدبر آلاته كطاقة البخار أو طاقة الكهرباء أو طاقة الذرة أو طاقة الوقود أو طاقة الماء المنحدر من المرتفعات ... كل ذلك مَنْ يجريه إلا الله ؟ ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ .

والأحداث التي تجرى في الكون وفي حياة الإنسان ، من فرح وحزن ، وضحك وبكاء ، وفقر وغنى ، وصحة ومرض ، وموتى يموتون ومواليد يولدون في كل لحظة من لحظات الليل والنهار ... من ذا الذي يحدثها ويرتبها ويدبرها إلا الله مدبر كل شيء في هذا الكون ؟

والغيب المجهول الذي لا يعلمه إلا الله يتشوف^(١) الإنسان لمعرفة فلا يستطيع مهما حاول ..

ويريد أن يعرف كيف ستكون حياته في المستقبل . بل يريد أن يعرف ماذا يكون

(١) أى يتطلع بشدة وينشوق .

نصيبه فى العام المقبل . بل يريد أن يعرف ما يحدث بعد شهر أو أسبوع أو يوم ...
بل يريد أن يعرف ماذا يحدث بعد ساعة من الزمان بل بعد لحظة . لحظة واحدة من
الزمن المقبل لا يستطيع أن يعرف ما وراءها ، وما تجلبه إليه من خير أو شر ... فمن ذا
الذى يعلم ذلك الغيب المجهول كله علم شمول وإحاطة وإطلاع إلا الله وحده الذى
يخلق كل شىء ويعلمه ، ولا يند عن علمه شىء فى السماوات ولا فى الأرض ؟

• • •

وكثير من الأمور وكثير ، يلقى تأثيره على القلب البشرى فيستيقظ لحقيقة الألوهية .
يعرف أن الله موجود ، وأنه واحد لا شريك له ، وأنه سبحانه متفرد بالكمال والقدرة ،
وبالجلال والعظمة ، وبالسلطان الذى لا تحده حدود . فيكون على الفطرة السوية ،
ويكون كما خلقه الله فى أحسن تقويم : ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ٤﴾
(سورة التين : الآية ٤) . ويكون مهتدياً مؤمناً ، مرضياً عنه فى السماوات
والأرض ، عمره فى الأرض مبارك بالأعمال الصالحة ، وله فى الدار الآخرة جنة
عرضها السماوات والأرض ، ورضوان من الله أكبر .

• • •

ولكن الفطرة تمرض أحياناً وتنتكس فيصبح الإنسان أسفل سافلين :
﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ٥ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ٦﴾ (سورة التين : الآيات ٤ - ٦) .

يتبلد الحس أحياناً فينسى آيات الإعجاز فى الكون والحياة . ينسى القدرة المعجزة
التي تجري الرزق وتجرى الأحداث وتشمل بعلمها الغيب ...

إن الإنسان حين يمر بتجربة جديدة يكون متفتحاً لها بكل حواسه . فإذا رأى
مشهداً لأول مرة ، أو سمع شيئاً جديداً لأول مرة ، أو ذهب إلى مدينة جديدة أو

(١) أى حين يكفر بالله ويحيد عن الطريق المستقيم

شارع أو مسكن جديد فإنه يكون متنبهاً بكل حواسه يريد أن يتعرّف على تفاصيل
الشيء الجديد ويكون له في نفسه وقع بالغ لأنه جديد عليه . ولكنه حين يألف المشهد
أو المكان ، وتتكرر رؤيته له فإن حواسه تمر عليه بغير انتباه كبير ، بل قد تمر عليه
بغير انتباه على الإطلاق !

وكذلك يفعل الإنسان أحياناً مع الله ! ينسى أنه الخالق وأنه المدبر وأنه الرازق
وأنه المحبب والمميت !

ويمر بهذا الكون فلا يلتفت إلى شيء من الآيات فيه !

لا يلتفت إلى الشمس البازغة ولا إلى النور حين يدبر ويتلعه الظلام !

لا يلتفت إلى الزهرة الجميلة المعطرة البهيجة الألوان !

لا يلتفت إلى صوت الطائر الرقيق الذي يغنى مرفراً بجناحيه فوق الغصن !

لا يلتفت إلى الماء الهاطل من السحاب ولا إلى الرعد والبرق في السماء !

لا يلتفت إلى الطفل الذي ولد ولا الإنسان الذي مات !

لا يلتفت إلى عجزه المطلق إزاء قدرة الله !

أو يتبلّد حسّه أحياناً لسبب آخر . لأنه مشغول بطعامه وشرابه وشهواته . مشغول

بمتاع الدنيا القريب ، فلهيه ذلك المتاع عن التدبر في آيات الكون والتقرب إلى خالق

الكون والحياة ، ولهيه عن ذكر الآخرة وما فيها من حساب وعقاب .

أو يتبلّد حسّه لأنه لا يريد أن يلتزم بأوامر الله . يريد أن يطغى في الأرض ويتبع

هواه . يريد أن يتجاوز الحلال الذي أحلّه الله لأن في نفسه شراهة لا تقنع بما أحلّه

الله . أو يريد أن يسيطر على الآخرين ويستعبدهم لأهوائه فيعتدى على أموالهم ، أو

أعراضهم أو دمائهم بغير حق ، ويريد أن يكون إلهاً في الأرض يُطاع من دون الله .

أو يتبلّد حسّه لأن في نفسه كبراً يستكبر به على عبادة الله .

أو يتبلّد حسّه لأنه مفتون بما بين يديه . مفتون بعقله أو بجسمه أو بماله أو بأى شىء مما حباه به الله ، فيعتقد أنه من عند نفسه ، وينسى أنه من عند الله !

يتبلّد الحسّ وتمرض النفس لسبب من هذه الأسباب ، أو لغيرها مما يلزم بالنفس من انتكاسات وانحرافات ، فتنسى الله النسيان كله ، أو تشرك به سواه ، وتتوهم أن أحداً أو شيئاً ما فى هذا الكون كله له شأن مع الله !

عندئذ لا يعود الإنسان كما خلقه الله على الفطرة السوية فى أحسن تقويم ، وإنما يصبح أسفل سافلين ، فيتملكه الشيطان بصرف شئونه بعيداً عن الهداية الربانية : وبعيداً عن رضوان الله^(١) .

ولكن الله - من رحمته بعباده - لا يتركهم هكذا بغير هداية . بل يرسل إليهم الرُّسل يدعونهم إلى الهدى ويعيدونهم إلى الحق .

ولقد أرسل الله محمداً ﷺ ليكون خاتم النبيين ، ويكون بشيراً ونذيراً للناس كافة إلى يوم القيامة . وأنزل عليه القرآن الكريم يهدى للتي هى أقوم . وتكفل سبحانه بحفظه فقال : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩ ﴾ (سورة الحجر : الآية ٩) ، وجعله شاملاً لكل ما يرد الفطرة إلى سلامتها ، وينفى عنها خبثها وأمراضها ، ويدلها على حقيقة الألوهية ، ويعرفها بالله الحق ، خالق الكون ومدبره ، ومالك الأمر كله بغير شريك .

والآن ، فلنستعرض طريقة القرآن فى هداية النفس البشرية ، وردّها عمّا تنحرف إليه من شتى الضلالات .

(١) روى مسلم : « حدثنى أبو غسان المسمعى ومحمد بن المثنى ومحمد بن بشار بن عثمان (واللفظ لأنى غسان وابن المثنى) قالا : حدثنا معاذ بن هشام : حدثنى أبى عن قتادة عن مطرف بن عبد الله بن الشخير عن عياض ابن حمّار المحاشعى ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ذات يوم فى خطبته : ألا إن ربى أمرسى أن أعلمكم ما جهلتم مما علّمى يومى هذا : كل مال نحلته عدداً ، حلال . وإنى خلقت عادى خُفَاء كلهم . وإنهم أنتم الشياطين فأصلحتهم عن دينهم . وحرّمت عليهم ما أحللت لهم . وأمرتهم أن يشركوا بى ما لم أنزل به سلطاناً . »

طريقة القرآن

إذا تدبرنا القرآن الكريم . والسور بتعمق - وبصفة خاصة ما يتناول موضوع العقيدة - نجد أن القرآن يستخدم وسائل شتى وأساليب متنوعة لتوضيح العقيدة السليمة وتصحيح الانحرافات التي يقع فيها الناس حين تستولى عليهم الجاهلية وتبعدهم عن الهدى الرباني . ثم لتثبيت هذه العقيدة وتعميق أثرها في النفس .

ومن هذه الوسائل التي يستخدمها القرآن :

(١) إثارة الوجدان لتدبر آيات الله في الكون ، وإزالة التبلد الذي يقع في حس الإنسان من المشاهد المكرورة . وذلك يشمل الحديث عن الكون بضخامته الهائلة ودقته المعجزة ، وظاهرة الموت والحياة ، وإجراء الرزق ، وإجراء الأحداث ، وقدرة الله التي لا تحد ، وعلم الله الشامل للغيب ، كل ذلك بطريقة فذة تجعل الإنسان يستقبل هذه الأمور كلها كأنه يراها ويلاحظها لأول مرة ، فيفعل بها وجدانه ، ويستيقظ لحقيقة الألوهية .

(٢) إثارة العقل ليتفكر في خلق الله . ليدرك أن لهذا الكون خالقاً ، وأنه لا يمكن أن يكون له شريك في الخلق ولا في الرزق ولا في تدبير الأمر . وهذا يشمل كل الإشارات السابقة ولكن بطريقة أخرى غير إثارة الوجدان والانفعال . هو **طريق التفكير والتدبر المنطقي** . وإن كان يُلاحظ أن الطريقتين كثيراً ما تقترنان معاً في آيات كثيرة من آيات القرآن ، فيخاطب الوجدان ويخاطب العقل في آن واحد .

(٣) مواجهة الإنسان بحقيقة ما يدور في داخل نفسه وقت الشدة من اللجوء إلى الله ونسيان الشركاء . ومن الغفلة والنسيان والبغى في الأرض بغير الحق بمجرد زوال الأزمة ونجاته من الخطر . وهي حقيقة كثيراً ما ينساها الإنسان فيذكره القرآن

بها ليصنح سلوكه تجاه الله . ويستقيم على العقيدة السليمة .

(٤) مناقشة الانحرافات كلها التي يقع فيها الجاهليون تارة بالدليل العقلي وتارة بالدليل

الوجداني ، ودحضها وبيان تفاهتها وعدم قيامها على أى أساس صحيح . ونلاحظ

هنا كذلك أنه كثيراً ما يقترن الدليل العقلي بالدليل الوجداني فى مناقشة الانحرافات .

(٥) التذكير الدائم بقدرة الله التى لا تُحدّ . وعظمته وجلاله حتى يخشع القلب ويسلم لله .

(٦) التذكير الدائم بأن الله مع الإنسان يراه ويراقبه ثم يحاسبه يوم القيامة على ما عمل

من خير أو شر . وإشعار الإنسان بعلم الله الشامل الذى لا يغيب عنه مثقال ذرة

فى السماوات ولا فى الأرض . ولا يخفى عليه من عمل الإنسان شيء حتى السرّ

وما هو أخفى من السرّ .

(٧) التذكير الدائم بالله سبحانه وتعالى فى حالتى السراء والضراء . ففى السراء ينبغى

على الإنسان أن يذكر الوهاب المنعم فيشكره . وفى الضراء يصبر الإنسان لقضاء

الله ويتوجه إليه ليكشف عنه الضر .

(٨) إبراد القصص التى تثبت الإيمان ، بذكر الأنبياء وصبرهم على الأذى ونصر الله

لهم فى النهاية ، والكفار وعنادهم وتدمير الله عليهم فى النهاية .

(٩) رسم الصور المحببة للمؤمنين وصفاتهم وما ينالهم من جزاء ، والصور الكريهة

المنفرة للكافرين وما ينالهم من جزاء .

وفى الفصول القادمة نتحدّث عن هذه الوسائل بشيء من الشرح والبيان .

القرآن والوجدان

قلنا إن الإنسان يتبلّد حسّه على المشهد المکرور فينسى دلالاته الحقيقية . ينسى إعجاز القدرة الربانية لأنه ألف مشهد الليل والنهار . ومشهد الشمس والقمر ، والسحاب والمطر . والنبات المخضر ... ولم تعد هذه المشاهد تهز وجدانه أو تلفت حسّه إلى وجود الخالق سبحانه وتعالى . وإلى أنه خالق عظيم مدبر حكيم متصف بالكمال متفرد بالخلق والإبداع .

والقرآن - بطريقته الجميلة المعجزة - يزيل تلك الغشاوة التي ترين على القلب وتجعل الحسّ يتبلّد . ويعرض آيات الله في الكون في صورة حية ينفع بها الوجدان كأنها جديدة يشهدها الإنسان لأول مرة ! وحين ينفع بها الوجدان ويتأثر ، ويتحرك الخيال لتتبع المشهد المعروض ، وتتحرك المشاعر بشتى الانفعالات . عندئذ يوجهه إلى أن وراء هذه المشاهد كلها قدرة الله المعجزة ، وأن صانعها وبارئها هو الله ... فينبغى إذن عبادة ذلك الإله القادر ، والتوجه إليه وحده بالعبادة دون سواه .

بهذه الطريقة الحية الجميلة يتحدث القرآن عن :

- (١) مشاهد الكون التي تصور ضخامة الكون ودقته المعجزة في ذات الوقت .
 - (٢) ظاهرة الموت والحياة مع عرض تفصيلي أحيانا لمراحل الحياة النباتية والإنسانية .
 - (٣) ظاهرة جريان الرزق على الناس والدواب كذلك .
 - (٤) ظاهرة جريان الأحداث ، سواء الأحداث الكونية أو الأحداث الواقعة في محيط الإنسان القريب .
 - (٥) علم الله الشامل للغيب .
- وفي كل مرة يعقب بأن الله هو الصانع لهذا كله ، فهو الجدير وحده بالعبادة والتوجه والدعاء وبالخشية وبالرجاء .

والآن فلنعرض أمثلة لكل واحد من الموضوعات السابقة ، وإن كان كثير منها يأتي مقترناً بعضه ببعض في آيات القرآن .

(١) آيات الله في الكون

﴿مَوَالِدٍ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ نُخْرِجُ حَبًّا يُسْمُونَ^(١٠) . يُبْيِتُكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرِ أَنْ فِى ذَلِكَ لَآيَةٌ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ^(١١) وَنَحْرُكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالْجُودُ مُخَرَّجَاتٌ بِأَمْرِؤَانِ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ^(١٢) وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ أَنْ فِى ذَلِكَ لَآيَةٌ لِقَوْمٍ يَذَكِّرُونَ^(١٣) وَمَوَالِدٍ نَحْمِلُكُمْ أَكُلًا مَلْطًا وَنُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاوِعًا وَنَبِّئُكُمْ نَبَأَ الْفُلْكِ مَوَاجِرِهِ وَلِتُبَيِّنَوا مِنْ ضَلَالِهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ^(١٤) وَالْقَوَى فِى الْأَرْضِ رَوَايَا أَنْ يَحْضُرَكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَكُمْ تَسْعَدُونَ^(١٥) وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ مُرَبِّحُونَ^(١٦) أَمْ يَحْسُبُونَ أَنْ لَنْ يَنْفِئَهُمْ أَنْفَعُكُمْ^(١٧) وَأَنْ تَعْدُوا نِعْمَةً أَلِهٍ لَا تُحْصَوْنَ إِنْ أَنْهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ^(١٨)﴾
(سورة النحل : الآيات ١٠ - ١٨) .

ففى هذه الآيات عرض لبعض آيات الله فى الكون بطريقة تزيل عن الحسّ تبدّله إزاء المشهد المكروّر ، بأن تلفت هذا الإنسان صاحب الحسّ المتبدّل إلى جوانب إما أنه نسيها ، وإما أنه لم يلتفت إليها أصلاً . فحين يدركها أو يتذكرها تصبح المشاهد جديدة فى حسّه . وينظر إليها برؤية جديدة غير التى كان يراها بها من قبل ، فينفعل بها وجدانه وتحرك عواطفه .

فالإنسان ذو الحسّ المتبدّل قد يرى الماء النازل من السماء فلا يتذكر أن هذا المطر هو الذى يتحوّل إلى عيون ونباييع وآبار وأنهار يشرب منها . أو هو من الجانب الآخر قد يشرب الماء الذى يجده أمامه ميسراً ، وينسى أن هذا الماء لم يوجد فى الأرض من تلقاء نفسه ، بل أنزله الله له فى صورة مطر . لا ينزل إلا بقدره الله ، وحسب القوانين والسنن التى أودعها الله فى الكون . فأجرى بها السحاب وأنزل منه الماء . فالنص القرآنى يوقظه إلى هاتين الحقيقتين فى آن واحد : ﴿هو الذى أنزل من السماء

(١) إشارة إلى المرامى التى تأكل منها السائمة أى الدواب

ماء لكم منه شراب ﴿١﴾ . كما يلفته أيضاً إلى الشجر النابت من هذا الماء ، فلا يعود المطر النازل من السماء ظاهرة مكرورة مألوفة منقطعة في حسّه عن الله الذى أنزله من السماء . إنما تصبح موصولة بقدرة الله . فتحبيا في النفس وتؤثر فيها ، بربطها بالله المنعم الوهاب .

ويستمر السياق يعرض أنواعاً من النبات الذى أشارت إليه الآية السابقة . فيذكر الزرع بعمومه . والزيتون والنخيل والأعناب ، ﴿٢﴾ ومن كل الثمرات ﴿٣﴾ .

وهذه الطريقة في ذكر بعض الأنواع بالتفصيل والإشارة العامة إلى بقيتها تجعل الخيال يتحرك لتقصى ما لم يذكر بتفصيله بعد أن تتبع المذكور منه بالفعل ! وهكذا يشترك الخيال مع الوجدان في تصور المشهد ، ويعطى له حيوية جديدة فلا يعود هو المشهد المكرور المألوف الذى تبدل عليه الحس !

ثم يُشير السياق إلى الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم . وكلها مشاهد مألوفة مما يتبدل عليه الحس بالتكرار . ولكن السياق يذكر أمراً جديداً يغير وضعها في النفس . ويجعلها كأنها تعرض لأول مرة . ذلك هو قوله تعالى :

﴿٤﴾ وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ﴿٥﴾ .

والليل والنهار والشمس والقمر والنجوم لم تعد تلك الظواهر الكونية المعتادة التي ألفها الحس ففقدت دلالتها في النفس . إنما هي كائنات مسخرة بأمر الله . ولا شك أن هذا المعنى قد غيّر صورتها تماماً عن الصورة المعهودة التي تبدو فيها هذه الظواهر وهذه الأجرام السماوية كأنها قائمة بذاتها . مستقلة عن أى شيء بحركتها ! كلا ! إنها تقوم بعمل معين . تقوم بتكليف ربانى كلفها الله به . وإذن فحركاتها الدائبة ليست حركة آلية بتصورها الحس المتبدل . إنما هي حركة حية ذات غاية وهدف . وكل جزء من هذه الحركة في ليل أو نهار هو قيام بجزء من التكليف الذى يبلغ غايته يوم يغير

الله نظام هذا الكون كله في اليوم الموعود . وذلك فضلاً عن التذكير بنعمة الله في قوله تعالى : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ... ﴾ . والملاحظ أن جوَّ السورة كلها هو جو تذكير الإنسان بنعمة الله عليه . لكي يتحرك وجدانه لشكر أنعم الله . بالتوجه إليه وحده دون سواه . ثم يخطئ السياق خطوة أخرى يلفت الحس إلى اختلاف الألوان فيما خلقه الله على طهر الأرض من كائنات : ﴿ وَمَا ذَرَأُ^(١) لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُحْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ﴾ . ونلاحظ هنا كذلك نوعاً آخر من إثارة الخيال لتتبع المشهد . فالآية تقول ﴿ وَمَا ذَرَأُ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ . « ما » بدون تخصيص شيء بعينه . نباتاً كان أو حيواناً أو غيره . . . فهنا ينطلق الخيال يتتبع كل ما ذرأ الله في الأرض من الأشياء المختلفة الألوان . فتصبح هذه الأشياء حية الوجدان ، وتتخذ صورة أخرى غير ما كانت عليه في عهد التلبّد والنسيان . ثم يقول السياق : ﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لَكُمْ لَآكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ، وَتَرَى الْفَلَكَ مَوَازِيرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ . هل يمكن أن يمر الإنسان بالبحر بعد قراءة هذه الآية دون أن يتحرك وجدانه ؟ إن البحر هنا كله حركة وحياة . مرتبط بحس الإنسان بصلات قوية . فمنه يستخرج اللحم الطري لياكل . والحلية ليتزين . وفيه تمخر الفلك لتثقل البضائع والأرزاق إنه ليس ماء وأمواجاً فحسب . إنه عالم كامل مليء بالحركة والنشاط . وكله من فضل الله . أفلا نشكر الله على فضله ؟

ثم يذكر السياق من المشاهد الكونية الجبال والأنهار والطرق والعلامات والنجوم بذات الأسلوب الذي يلفت إليها الحس ويحرك الخيال ويذكر في كل مرة بأنها نعمة من نعم الله على الإنسان . . .

وبعد هذا العرض الحي لتلك المشاهد . الذي يخرج الحس من تبلده . فيعود

(١) ذرأ أي خلق

يستعرض الأشياء كأنها جديدة عليه ، وينفعل بها ويتحرك معها .. بعد هذا العرض كله يعقب بالحقيقة الكبرى التي يريد أن ينبّه الإنسان إليها :

﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَا يَخْلُقُ ؟ ﴾

ويجىء السؤال بعد إثارة الوجدان بآيات الله في الكون على هذا النحو ، فيتلقي إجابته من داخل النفس مؤكدة لا لبس فيها :

لا يا رب ! ليس الذى يخلق كالذى لا يخلق ! سبحانك أنت الخلاق العظيم .
ويختتم السياق بما يزيد الوجدان إثارة ويزيد النفس ارتباطاً بالله :

﴿ وَإِن تَعْدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا . إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

والآن ، وقد استعرضنا هذا النموذج مفصلاً تستطيع على ضوئه أن تقرأ النماذج الأخرى المشابهة فى القرآن الكريم ، نكتفى بإثبات نموذجين اثنين منها :

﴿ الْمَرْثَلِكُ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ① ﴾ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدِيرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بَلِقَاءَ رَبِّكُمْ تُفَوِّنُونَ ② ﴾ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلْ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنهَارًا وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجِينَ شَجَرٍ لِّبَشَرٍ الْبَلَدِ النَّهَارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ③ ﴾ وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مِّمَّا وَرَثَاتٌ وَجَنَاتٌ مِنْ أُغْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضَ لِبَعْضِهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ④ ﴾ (سورة الرعد : الآيات ١ - ٤) .

﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ⑤ ﴾ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًا وَحِينَ يُظَاهِرُونَ ⑥ ﴾ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُخْلِقُ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ⑦ ﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسِكُمْ أَرْوَاحًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ⑧ ﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخِلَافُ السِّنِّ وَالْوَاكِعُ أَنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ ⑨ ﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ⑩ ﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْرِجُ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ⑪ ﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَدْعُوهُ مِنَ الْأَرْضِ بِأَمْرٍ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ مِنْهَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ ⑫ ﴾ (سورة الروم : الآيات ١٧ - ٢٥) .

(٢) ظاهرة الموت والحياة

يتحدث القرآن كثيراً عن ظاهرة الموت والحياة ليهز الوجدان بهذه الظاهرة المعجزة التي كثيراً ما يمر الإنسان بها دون أن يلتفت إليها ، أو دون أن يعطيها حقها من الاهتمام ، مع أنها جديرة - حين يلتفت إليها - أن تبعث في نفسه هذا التساؤل : من الذى خلق الحياة فى الخلية الحية سواء أكانت نباتية أم حيوانية أم إنسانية ؟ أى قدرة معجزة هى التى جعلت تلك الخلية تتحرك وتنمو وتكبر وتشكل فى أشكال شتى من ذات نفسها ؟ فلماذا إذن لا تتصرف الخلية الميتة على نفس الصورة ؟! أليس هناك سرٌ معجز فى هذه الخلية الحية ؟ أليس الخالق سبحانه هو الذى أودع فيها ذلك السر المعجز : سر الحياة ؟!

ثم حين تموت تلك الخلية الحية ، ويموت الكائن الحى : أين تذهب الحياة التى كانت سارية فيه ؟ إننا نقول فى بساطة إن ذلك الكائن قد مات ، سواء أكان نباتاً أم حيواناً أم إنساناً . ولكن هل الأمر بهذه البساطة فى الحقيقة ؟ أليست ذات القدرة المعجزة التى وهبت الحياة للكائن الحى هى التى استردتها منه وتركته ميتاً بلا حياة ؟! إن العلم يحدثنا عن بعض مظاهر الحياة والموت .

يقول لنا إن مظاهر الحياة فى الكائن الحى أنه يتغذى ، وأنه ينمو ، وأنه يتحرك ، وأنه يتكاثر .. ويقول لنا إن موت الكائن الحى هو وقف تلك الأعمال كلها ، فلا يعود يتغذى أو ينمو أو يتحرك أو يتكاثر ...

نعم ! ولكن العلم لم يقل لنا ، ولا يستطيع حتى اللحظة أن يقول لنا ما سر الحياة ذاتها ، وما الذى يجعل الخلية الحية تتصرف على هذا النحو ، وعلى هذا النحو بالذات ؟ ثم إذا سألنا العلم . لماذا تموت الخلية ولا تظل حية أبداً ؟! لم يستطع أن يجيبنا إلا بأن الخلية تهرم وتضعف ثم تموت ! نعم ! ولكن لماذا يحدث ذلك ؟! لماذا لا تستمر

فى الحياة ؟ إن كل كائن حى يتشبث بالحياة ولا يحب أن يموت أبدأ حتى الدابة إذا أردت أن تقتلها تفر منك لتبعد عن الموت . . . ولكن لماذا تموت كل الكائنات ؟ نسرى لو كان أمر حياتها بيدها هل كانت تتخلى عن الحياة أبدأ ؟ كلا ! ولكنها تموت لأن الله قضى عليها بالموت ! وهذا هو السر الحقيقى وراء كل الأسباب الظاهرة للعين !

الموت والحياة إذن كلاهما من عند الله . كلاهما مشيئة ربانية وقدر ربانى وهذا هو الذى يغيب عن الوجدان حيث يتبدل حس الإنسان على المشاهد المكرورة . ويغيب عن العقل حين تنطمس بصيرة الإنسان لسبب من الأسباب الكثيرة التى ذكرناها من قبل . فيقول كما يحكى القرآن عن الدهريين^(١) :

﴿ قَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ﴾ (سورة الجاثية : الآية ٢٤) .
أو يقول إن « الطبيعة » هى التى تخلق الحياة ونسلبها من الكائن الحى كما يقول دارون ! ويحىء القرآن فيزيل تلك الغشاوة عن النفوس ، ويتحدث عن ظاهرة الموت والحياة حديثاً يبرز الوجدان فيصحو من نلده . ويتيقظ لحقيقة الألوهية التى يرجع إليها الموت والحياة :

(١) ﴿ تَبَارَكَ الَّذِى بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَسْأَلَكُمْ أَيْكُمْ أَخْرَجَكُمْ (٢) وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٣) الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَىٰ فِيهِنَّ مِنْ عَظَمٍ إِلَّا هُوَ حَتَّىٰ تُبْعَثَ (٤) أُولَٰئِكَ يَرْجِعُهُمْ فِيهَا (٥) وَالَّذِى خَلَقَ النَّفْسَ الْيَاسَةَ (٦) وَالَّذِى يَنْفَخُ فِيهَا رُوحَهُ (٧) وَالَّذِى يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ (٨) وَالَّذِى يَخْتَارُ (٩) ﴾ (سورة الملك : ١ - ٤)

فإن الله الذى بيده الملك . والذى هو على كل شىء قدير . هو الذى خلق الموت والحياة وما يستطيع غيره سبحانه أن يخلق الموت والحياة . فهما - بأمرهما المعجزة - لا يقدر عليهما إلا من كان بيده ملك كل شىء ، وكانت له القدرة التى لا يحدها شىء . ولا يعجزها شىء !

(١) أطلق عليهم اسم الدهريين لأنهم قالوا : « وما نهلكنا إلا الدهر » فسوا الموت للدهر بدلاً من الله كما أن الله أنكروا أن الله بعث الموتى

وهذا الإله القادر - سبحانه - الذى خلق الموت والحياة بقدرته . قد خلقهما لحكمة ﴿ لِيُلوكم أياكم أحسن عملاً ﴾ فاقترضت مشيئته أن يعيش الإنسان فترة معينة من الزمن على هذه الأرض . يعمل فيها وينشط ويتحرك ثم يموت . ليعث مرة أخرى ويحاسب على أعماله . وكذلك قضى - لحكمة يريد بها - أن تموت الكائنات الحية كلها بعد فترة معينة من الحياة . هو الذى يقدرها سبحانه لكل واحد من الأحياء . التى تبلغ ملايين الملايين من المخلوقات منذ أنشأ الله الحياة على الأرض . إلى أن تقوم الساعة فى اليوم الموعود ..

والسياق القرآنى يلفت النظر إلى ظاهرة الحياة والموت فى وسط الحديث عن آيات القدرة فى الكون . ليوّظ الحسّ المتلذذ إلى أن هذه الظاهرة من الضخامة والإعجاز بحيث تقترن بآيات الخلق المعجزة التى لا يقدر عليها إلا الله ، فمن قبلها أشار إلى أن الله بيده الملك وأنه على كل شيء قدير . ومن بعدها يعود إلى ذكر الخلق : ﴿ الذى خلق سبع سموات طاقاً ﴾ ثم حين يقول : ﴿ ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت ﴾ فهو يدعو الإنسان إلى النظر فى الكون الواسع . يتملاه بخياله . ويأمل فيه بفكره . ليرى : هل هناك اضطراب أو خلل أو نقص فى هذا الخلق الذى خلقه الله ؟ . فاجع البصر هل ترى من عظمه ؟

وحين يتملى الإنسان بعصره وحياته وفكره هذا الكون الواسع وآيات القدرة فيه . ينفعل وجدانه بعظمة الله . وقدرته المعجزة . فإذا السياق القرآنى يطالبه بأن يرجع البصر كراً أخرى ، ليعتد عن النقص أو الخلل فى خلق الله ! فهل يستطيع شيئاً من ذلك ؟ أم يعود البصر عاجزاً حسيراً لا يقدر على هذه المهمة : ﴿ ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير ﴾ ! . وعندئذ يكون لوجدان قد بلغ أقصى انفعاله . ووصل إلى غاية تأثره . فيقر إقراراً لا مهرب له منه بعظمة الله وجلاله . وقدرته التى لا تحدها حدود .

(٢) ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ۝١٧ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نَظْفًا ۝١٨ وَفَرَّادٍ مَكِينٍ ۝١٩ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَوْنَتَا عِظَامًا لَحْمًا ۝٢٠ ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَبَارَكَا اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ۝٢١ ثُمَّ أَنْبَأَكُمْ بِذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَرْجِعُونَ ۝٢٢ ثُمَّ أَنْبَأَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ تَبْعُونَ ۝٢٣ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِفٍ وَمَا كُنَّا عَنْ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ۝٢٤ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَأْنَا فِي الْأَرْضِ نَبَاتًا ۝٢٥ وَآلِ الْأَرْضِ وَأَنَا عَلَى ذَهَابٍ بِرَأْسِهِ ۝٢٦ فَانْشَأْنَا لَكُمْ بُجُنَاتٍ مِنْ غَيْبِلٍ وَأَعْنَابٍ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٢٧﴾ (سورة المؤمنون : الآيات ١٧ - ٢٧) .

(٣) ﴿الْزَّيْنَانِ اللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَ سَبِيلًا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَجمَعُ فِيهِ مَصْفًى ۝٢٨ ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ ۝٢٩﴾ (سورة الزمر : الآية ٢١) .

(٣) الرزق

من أشد الأمور التي تربط القلب المؤمن بالله ، بينما يغفل عنها الحس المتبلد ، أمر الرزق الذي يجريه الله على الإنسان من السماء والأرض .

فالمؤمن يشعر شعوراً دائماً بفضل الله عليه ورحمته ، لأن الرزق الذي يفيضه الله على الإنسان دائم لا ينقطع ، ولو انقطع لحظة واحدة لما أمكن للإنسان أن يعيش . وقد نتصور أحياناً أن الرزق محصور في الطعام والشراب ، أو الملبس والمسكن ، أو المال الذي نشترى به الأشياء . ولكن الرزق في الحقيقة أوسع من هذا بكثير ، لا يمكن للإنسان أن يحصيه : ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾ (سورة النحل : الآية ١٨) .

فهل خطر ببالك أن الهواء الذي تتنفسه مكوّن من عناصر رتب تريباً ربانياً بنسب معينة لتجعل الحياة صالحة على ظهر الأرض ، وأنه لو قلّت نسبة الأكسجين في الهواء لتعدت الحياة ، ولو زادت لاشتعل كل ما على الأرض ؟!

وهل خطر ببالك أن الجاذبية القائمة بين الأرض والشمس من جهة ، وبين الأرض والقمر من جهة أخرى قد قدرها الله سبحانه بحسبان دقيق : ﴿الْقَمَرُ مُجْسَبَانٍ ۝٥﴾ (سورة الرحمن : الآية ٥) بحيث إنه لو كان جذب القمر

للأرض أكبر من قدره الحالى لاقتربت من الشمس أكثر ، وصارت الحرارة عليها لا تُطاق ، فماتت كل الأحياء ، ولو كان جذبها للأرض أقل لابتعدت عن الشمس أكثر ، فصارت البرودة عليها لا تُطاق ، ولماتت كل الأحياء ؟! وأنه لو اقترب القمر إلى الأرض فزادت الجاذبية بينه وبينها لطنى الماء - وقت المد - فأغرق كل سطح الأرض وأهلك كل الأحياء ؟!

وهل عرفت أن دورة الليل والنهار لازمة لحياة الأحياء ، ولولاها ما استقامت الحياة ولا ترعرعت الأرض ، لأن الكائنات الحية كلها تحتاج إلى وقت تسكن فيه . ووقت من نوع آخر تنشط فيه ؟

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِنُورٍ أَمْ لَا تَسْمَعُونَ ﴾ (٧١) ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِاللَّيْلِ تَكُونُونَ فِيهِ أَمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴾ (٧٢) ﴿ وَمَنْ دَخَلَهُ جَلَّ لِلَّهِ إِلَهُهَا لَتَسْكُوفِيهِ وَلَيَنْتَفِعُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (٧٣) (سورة القصص :

الآيات ٧١ - ٧٣) .

ذلك - وغيره - من ألوان الرزق التى تنساها أحياناً ونحن نعدد الأرزاق التى أفاضها الله على الإنسان . وهى - إلى جانب أنواع الرزق الأخرى - نعم ربانية يذكرها القلب المؤمن بالحمد والشكر . ولكن الحسن المتبدل يمر عليها بغير التفات ، أو يمنح به الغرور أحياناً أن يقول كما يروى القرآن عن قارون : ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي ﴾ (سورة القصص : الآية ٧٨) أى حصلته بقدرتى وجهدى لا من عند الله !

لذلك يعرض القرآن موضوع الرزق بطريقة تهز الوجدان المتبدل ليتيقظ إلى الحقيقة ، وهى أن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ، وأن الأرزاق كلها من عند الله . وأن الإنسان مهما بذل من جهد فهو لا ينشئها فى الحقيقة ، إنما يعمل فيها بسنة الله ومشيته ، ولكن المنشئ هو الله :

(١) ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ﴾ (١٢) أَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (١١) لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (١٠) إِنَّا لَمَغْرُمُونَ (٩) لَئِنْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٨) أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (٧) أَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ (٦) لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ آجَا (٥) فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ (٤) أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ (٣) أَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ (٢) نَحْرُجُهَا لَكُمْ نَذِيرًا وَمَتَاعًا لِلْفُقُورِ (١) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٧٤) ﴿ (سورة الواقعة الآيات ٦٣ - ٧٤) .

إن الإنسان يحرق الأرض ويلقى البذور فيها فيخيل إليه أنه هو الذى زرع ! أى أنه هو الذى أنبت الزرع ! فهل حقيقة هو الذى يصنع ذلك ؟ وهل هناك قوة فى المجهود كله - إلا القدرة الربانية المعجزة - تستطيع أن تحرك البذرة للنمو . وتخرج منها ذلك الزرع المختلف الألوان والأشكال والطعوم ؟ ترى لو أن الله لم يودع هذه البذرة سر الحياة . هل كان أهل الأرض جميعاً يستطيعون أن يحركوها من مكمنها لتنمو وتثمر ؟! من أجل ذلك يقول القرآن : ﴿ أَنْتُمْ تَرَرُّعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴾ ؟ ثم يلفت المحسن إلى جانب آخر من المسألة يغفل عنه الإنسان حين يتبلد حسه على المشهد المكرور . فينسى ما فيه من إعجاز الله التقدير . إن الإنسان تعود أن يرى الزرع نامياً ينتقل من مرحلة إلى مرحلة حتى تطلع الثمرة . فيظن - فى غفلته - أن الأمور تسير هكذا من تلقاء ذاتها . وأنه لا بُدَّ حين يضع البذرة أن تنمو حتى تخرج له الثمرة ، وينسى أن الله هو الذى يحركها له . من أجل ذلك يقول له القرآن :

﴿ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا . فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ . إنا لَمَغْرُمُونَ . بل نحن محرومون ﴾ !
 فلو شاء الله لم ينبته أصلاً . ولو شاء كذلك أنبته ثم جعله حطاماً دون أن يثمر ! ولو حدث ذلك لظلمتم تقلبون القول بينكم . تقولون : غررنا جهدنا ومالنا ولم يثمر الزرع .
 أو تقولون : وقع علينا الحرمان !

(١) أى وصية

(٢) أى تغلبون من حيرتكم وحسرتكم

(٣) أى غارمون

(٤) أى غارمون

(٥) أى المأوى

(٦) أى المأوى

والإنسان يرى الماء نازلاً من السماء ولكنه يغفل - حين يتبلّد حسّه - عن أن الله هو الذى أنزله ، فيتوهم أنه يتزل هكذا من تلقاء نفسه : أو قد يصيبه الغرور كما وقع من الإنسان المعاصر الذى يعيش فى الجاهلية الحديثة المسيطرة على الناس فى أوربا رغم كل ما عندهم من التقدم المادى . فيظن أنه هو الذى يتزل المطر من السماء ، لأنه استطاع أحياناً أن يلقى مواد معينة بالطائرات فوق السحب فيسقط المطر ؟ يغفل هؤلاء وهؤلاء عن الحقيقة ، وهى أن الله سبحانه وتعالى هو الذى يتزل المطر فى الحقيقة ، بمشيئته وقدره ، وبالسنة التى أودعها فى الكون لتؤدى إلى تحقيق مشيئة الله وقدره . فإذا كان بخار الماء يتناقل حين يبرد السحاب فى طبقات الجو العليا ، أو حين يصطدم السحاب بجبل مرتفع ، فلا يعود الهواء قادراً على حمله ، فيتزل فى صورة مطر .. فمن الذى صنع ذلك كله ؟ من الذى جعل هذا من طبيعة بخار الماء ؟ ترى لو أن الله لم يودع بخار الماء هذه الخصائص كان المطر يتزل من تلقاء نفسه حين يتكاثف ؟! وإذا كان إلقاء بعض المواد على السحاب بالطائرات يؤدى ذات الهدف فيجعل بخار الماء يبرد فيتكاثف فيثقل فينزل فى الصورة التى يسمونها « المطر الصناعى » ! فهل كانت طائرات الأرض كلها ، والبشر جميعاً يقدرّون على شيء من ذلك لو لم يسخر الله الماء لينزل من السماء إلى الأرض بحسب سنن معينة أودعها فيه^(١) ؟!

ومرة أخرى بلفت القرآن الحسّ إلى جانب آخر من المسألة . فإن المطر يتزل فى صورة ماء عذب سائغ للشراب ، فيظن الحسّ الغافل أنه يتزل على هذه الصورة من تلقاء نفسه ! فيذكره القرآن بالحقيقة . إن الله هو الذى أنزله فى صورته العذبة تلك رحمة منه بخلقه ، وإنه لو شاء لجعله مالحاً شديداً الملوحة لا يصلح للشرب ولا لتنمية

(١) عن زيد بن خالد الجهني أنه قال - صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الصبح بالحديبية على أثر سماء كانت من الليل - فلما انصرف أقبل على الناس فقال - هل تدرون ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم - قال - « قال أصبح من عبادى مؤمن وكافر - فأما من قال - مطرب لنفسه أو معلن - فليس مني ولا رحمتي فذلك مؤمن سي وكاهن الكواكب - ، وأما من قال - مطرنا ننبؤك كذا وكذا فذلك كاهن بى مؤمن بالكوكب » . رواه البخاري .

النبات . أفلا يستحق الله الشكر على نعمته تلك ؟

والإنسان يوقد النار وينسى قدرة الخالق من ورائها ، حين يراها ميسرة بين يديه يشعلها حين يشاء . فمن أنشأ الشجرة التي تتوهج منها النار ؟ أليس هو الله سبحانه وتعالى الخالق المنعم الوهاب ؟ وما يصدق على الشجرة يصدق على غيرها من ألوان الوجود الموجود اليوم .. كله من عند الله .

ثم يُذكر القرآن الإنسان بجانب آخر من المسألة : إن الله قد جعل هذه النار التي يوقدها الإنسان في الأرض تذكرة تذكره بالنار الكبرى التي تنتظره في الآخرة لو عصى الله ، في ذات الوقت التي جعلها متاعاً للمسافرين المحتاجين للدفع ولما ينضجون عليه الطعام .

وينتهى السياق حين يهرج الوجدان بذلك العرض كله بدعوة الإنسان - وهو في حالة تأثره وانفعاله الوجداني - أن يسبح باسم ربه العظيم ، الذي أفاض عليه كل تلك الأرزاق !

(٢) ﴿ قُلْ الْعِبَادُ لِلَّهِ إِنَّهُ أَنشَأَ الْبَشَرَ مِن قَبْلُ وَآيَاتِهِ فِي سَمَوَاتِهِ وَبَنَعَ السَّمْعَاءَ الْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا يَوْمَ نَبْهَتُ الْسُجُودَ الْكُفَّاءُ ۚ فَمِنْ تَحْتِهَا نَاقُورُ الْبَاسِ ۚ وَسُجُودُ الْعِبَادِ ۚ فَاصْبِرْ لَهُمْ رِزْقَهُمْ ثَلَاثِينَ يَوْمًا ۚ إِنَّ عَذَابَ الْكُفَّاءِ لَشَدِيدٌ ۚ ﴾ (٢١) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَانْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَتَحَرَّكُ السُّجُودُ الْكُفَّاءُ فِي الْيَوْمِ الْمَوْزُونِ وَتَحَرَّكُ الْأَنْهَارُ ۚ وَتَحَرَّكُ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ دَائِبِينَ وَتَحَرَّكُ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ ۚ وَاتَّكُمُ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنْ الْإِنْسَانُ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ۚ ﴾

(سورة إبراهيم : الآيات ٣١ - ٣٤) .

(٣) ﴿ وَإِنْ لَكُمْ فِي الْأَنْهَارِ لَبِيزَةٌ نُسِفَتْكُمْ بِمَا فِي بُطُونِهِمْ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ ۚ وَفِي الثَّمَرَاتِ الْفَيْلُ وَالْأَعْنَابِ تَحْتُودُ مِنْهُ سَكْرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۚ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ۚ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلًّا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۚ ﴾ (سورة النحل : الآيات ٦٦ - ٦٩)

(١) أى صدقات تحميمهم من حساب الله و عذابه

٤) الأحداث الجارية

تجرى الأحداث حول الإنسان وفي خاصة نفسه من مولده إلى مماته . بعضها أحداث كونية كالليل والنهار وتعاقبهما المستمر ، وطلوع الشمس وغروبها ، وطلوع القمر وتدرج أوجهه من أول الشهر حتى يكون بدرًا ثم يتضاءل حتى يختفى ، والسحاب والمطر والبرق والرعد وتعاقب الفصول .. الخ . وبعضها أحداث في محيط البشر من ميلاد وموت ، وصحة وضعف ، وطفولة وشباب وكهولة وشيخوخة ، وغنى وفقر ، وعز وذل ... الخ .

تمر هذه الأحداث على المؤمن فيجد لنفسه فيها عبرة ، يعلم أن من ورائها تدبيراً حكيماً لإله حكيم ، هو الذى يجرى الأحداث بعلمه وحكمته وقدرته ، وهو الذى يدبر أمر الكون كله ، فلا يحدث فى هذا الكون الهائل العريض إلا ما يريد الله ، ولا يتم أمر من أمور الكون إلا على الصورة التى يريد الله .

أمّا الغافل المتبلّد الحسّ فيمر بهذه الأحداث ، سواء منها الأحداث الكونية أو الأحداث التى تقع فى محيط البشر ، دون أن يتنبه من غفلته ، ودون أن يتيقظ لما فيها من دلالة على وجود الله ، وتفردّه بالملك فى هذا الكون ، وتفردّه بتدبير الأمر كله ، ومن ثم تمر به الأحداث وهو سادر فى غفلته لا يفيق !

ويحىء القرآن فيهِزّه من غفلته هزّاً ليطلع على الحقيقة الكامنة وراء الأحداث ! وكما يُعالج القرآن آيات الله فى الكون ، وظاهرة الموت والحياة ، وجريان الرزق ، فيجلبها جديدة حبة كأنما يتلقاها الإنسان لأول مرة ، كذلك يُعالج أمر الأحداث الجارية بما يزيل عن النفس غشاوتها ، ويزيل عن المشاعر تبلّدها ، فينفع الوجدان ويتأثر ، ويتيقظ القلب ويستشعر .

﴿ ١) إِنْ وَحَدَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ

اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَخْبَاهُ الْأَرْضُ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَنَصْرَيبًا رِجَاجٍ وَالتَّحَابِ الْمُتَغَرِّبِ السَّمَاءِ
وَالْأَرْضِ لَا يَأْتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٦٤﴾ (سورة البقرة : الآية ١٦٤).

فى هذه الآية الواحدة يلفت القرآن الحسَّ البشرى إلى مجموعة كبيرة من الأحداث الكونية التى يمر بها الإنسان الغافل دون تنبه إلى دلالتها ، بحكم الإلف والعادة . ولكن القرآن يوقظ هذا الحسَّ المتبلد ليرى هذه الآيات الكونية ويدرك أنها لا يمكن أن تحدث من تلقاء نفسها ، ولكن وراءها تديراً وحكمة .

وإذا تدبرنا الآية نجد أن القرآن يصل إلى الغاية المقصودة - وهى إيقاظ الحسَّ المتبلد - بطريقتين فى آن واحد :

الأولى : هى حشد عدد كبير من الأحداث الجارية فى معرض واحد . فهناك السماوات والأرض . وهناك اختلاف الليل والنهار (بمعنى تعاقبهما المستمر وبمعنى اختلاف طولهما على مدار الفصول) ، وهناك جريان السفن فى البحر ، وهناك المطر النازل من السماء ، والحياة النباتية فى الأرض ، والدواب المنبثة فى أرجائها ، وهناك نصريف الرياح ، وهناك جريان السحاب المعلق بين السماء والأرض ... وهذا الحشد ذاته يوقظ الحسَّ . فقد يتبلد هذا الحسَّ فلا يلتفت لتلك الأحداث الجارية وهى فرادى ، كل منها يقع على حدة فى وقت منفصل عن الآخر ، ولكنها حين تحشد هكذا وتعرض بهذا التوالى وبذلك التجمع فإن الحسَّ لا بُدَّ أن يستيقظ ، وهو يتتبعها بخياله واحدة إثر الأخرى فلا يجد فرصة يغفل فيها أو يستنم ، وهى تلاحقه بهذه السرعة ، لا يكاد ينتهى من تتبع واحدة حتى تكون الأخرى قد لحقته !

والثانية : هى ربط الوجدان بهذه الأحداث عن طريق لفت الحسَّ إلى الحركة الدائبة فى هذا الكون . فالمشهد الثابت الذى لا يتحرك قد يسهل على الحسَّ أن يتعود عليه فيتبلد ولا يعود المشهد يشيره . أمّا الحركة المستمرة فلا يمكن للحسَّ أن يتبلد ازاءها ، ولا بُدَّ أن يلتفت ويستيقظ .

فآلية تبدأ بخلق السماوات والأرض ، وهو حدث قديم لم يشهده الإنسان ولكنه يرى آثاره ماثلة أمامه . ولكن السياق القرآنى لا يدع صورة الخلق ساكنة أمام الحس بل يحرك الصورة بتحريك مفرداتها . فالليل والنهار يدوران ويختلف طولهما فى أثناء تعاقبهما المستمر . والفلك تجرى فى البحر بما ينفع الناس ، والماء النازل من السماء يتسم بالحركة كذلك ، وهى حركة النزول نحو الأرض . ولكن الحركة لا تنتهى هنا فمن هذا المطر النازل يخرج النبات الحى من الأرض التى كانت مجدبة من قبل . والتعبير القرآنى يقول :

﴿ فأحيا به الأرض بعد موتها ﴾ فيصور الأرض كانت ميتة فتحركت بالحياة بعد نزول المطر (كما يقول فى سورة الحج : ﴿ وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ﴾) ولكن الحركة لا تنتهى هنا كذلك . بل تستمر لتصور الدواب جاءت تسعى تأكل النبات الذى أخرجته الأرض بالمطر ، والتعبير القرآنى يقول : ﴿ وبث فيها من كل دابة ﴾ والبث حركة فى جميع الاتجاهات فى وقت واحد . ثم يجرى ذكر الرياح وهى منحركة بطبيعة الحال ، فإنها لا تسمى رياحاً إلا إذا تحركت حركة شديدة ملموسة ، وأخيراً يذكر السحاب متحركاً كذلك (مسخراً) بين السماء والأرض . وهكذا تشمل الحركة كل الكائنات ، وبتملاها الحس فى حركتها الدائبة فينفعل بها ويتحرك معها .

ولا تنسَ كذلك أن التعبير القرآنى يلفت الحس البشرى فى أثناء عرض هذه الحركة المستمرة إلى الله سبحانه وتعالى ، الذى تحرك قدرته كل هذه الأحداث : ﴿ وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة ﴾ وهكذا يذكر لفظ الجلالة الصريح مرة ويعود الضمير عليه مرتين متواليتين بعد قوله « فأحيا » وقوله « وبث » ثم يلفت إليه الحس مرتين أخريين فى قوله تعالى :

﴿وتصريف الرياح﴾ وقوله : ﴿والسحاب المسخر﴾ إذ الإشارة واضحة إلى أن

الذى بصرف الرياح هو الله ، والذي يسخر السحاب هو الله .

وبهذه الوسائل كلها يوقظ القرآن وجدان البشر إلى الأحداث الجارية في بنية

الكون وفي حياة الناس .

(٢) ﴿قُلِ اللَّهُ مَالِكُ الْمَلِكِ قُوَّةُ الْمَلِكِ مِنْ نَشَاءٍ وَتَنْزِيعُ الْمَلِكِ مِنْ نَشَاءٍ وَقُرْآنُ مَنْ نَشَاءُ وَإِذْلُ مَنْ نَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْفُقُ مَنْ نَشَاءُ بِقَبْرِ جَابٍ ﴿٢٧﴾﴾ (سورة آل عمران : الآيتان ٢٦ - ٢٧) .

(٣) ﴿اللَّهُ الَّذِي يَرْسِلُ الرِّيحَ فَتُبْرِحَ بَاقِبُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كَيْفَ فَمَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مِنْ نَشَاءٍ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ أَنْ يَنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَئِيلِينَ ﴿٤٩﴾ فَأَنْظِرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُخْرِجُ الْأَرْضَ بِجَدِّ مَوْنَهَا إِنَّ ذَلِكَ لَخَى الْمَوْتِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا بِحَاوِيٍّ مُضْمِرًا لَطَلُوا مِنْ جِدِّهِ بِكُفْرٍ ﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتِ وَلَا تَسْمِعُ الدُّعَاءَ إِذَا كَانُوا مُذْهِبِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَا أَنْتَ بِمَكِيدٍ الْعُصِيِّ عَنْ صَلَاتِهِمْ أَنْ تُسْمِعَ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ جِدِّ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ جِدِّ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشِبَّةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾﴾ (سورة الروم : الآيات ٤٨ - ٥٤) .

أسئلة

- ١ - اذكر ثلاث وسائل يستخدمها القرآن الكريم في مجال العقيدة .
- ٢ - ماذا نستفيد من تسخير الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم ؟
- ٣ - قال تعالى : ﴿وما ذرأ لكم في الأرض﴾ . ماذا تفيد « ما » الواردة في أول الآية ؟
- ٤ - دلل على بعض آيات الله الكونية .
- ٥ - تحدث باختصار عن ظاهرة الموت والحياة .
- ٦ - يلقي الزارع الحب في الأرض فينبت وينمو . فمن الزارع الحقيقي ؟

(١) أى حائرين يائسين قانطين .

٥) علم الله الشامل للغيب

يتشوق الإنسان دائماً إلى معرفة الغيب .

يحب أن يعرف ماذا سَيَحْدُثُ له في الغد القريب والغد البعيد .

وسواء كان هذا الغيب أملاً منشوداً يسعى الإنسان لتحقيقه ، أو كان شيئاً مؤلماً

يحب الإنسان أن ينجو منه ، أو خيراً يحب أن يستريد منه ، أو شراً يحب أن يتخلص

منه .. فهو دائم التطلع إلى معرفة هذا الغيب بأى شكل من الأشكال ..

ومع ذلك فإنه لا يستطيع ..

يلجأ أحياناً إلى تفسير ما يرى من رؤى وأحلام ، لعلها تكشف له جانباً من الغيب

المجهول ...

ويلجأ أحياناً إلى أحاسيسه الباطنية يحاول أن يستشف المجهول ...

وقد يلجأ - إذا لم يعصمه دينه وإيمانه - إلى العرافين والعرافات يحاول أن يستخلص

من أفواههم شيئاً عن هذا الغيب ... ولكنه مهما فعل يعلم أنه عاجز عن معرفة الغيب ،

وأن كل محاولاته بهذا الأسلوب ظنون وحس لا تعتمد على علم بل هي خداع محرم

جاء الشارع الكريم بتواعد متعاطيه والمصدق به .

وعلى هذا يجب أن يؤمن الإنسان بقدرة الله الذى يعرف الغيب كله لأنه سبحانه هو

العليم بكل ما فى السماوات وما فى الأرض ، وكل ما حدث فى الماضى ، ويحدث فى

الحاضر والمستقبل ، ولأنه سبحانه هو منشئ الأحداث ومجريها فى الماضى والحاضر

والمستقبل ، فهى معلومة له بكل تفصيلاتها ، حاضرة عنده سبحانه لا تغيب ..

ولكن الإنسان قد يتبلد وينسى ...

عندئذ يحركه القرآن من تبلده ، ويذكره من غفلته ، بطريقة تهرّ الوجدان هزاً

وتجعله لا يستطيع أن يفلت من التأثير :

(١) ﴿اللَّهُ يَتَكَلَّمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَحْمِلُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزِدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَالَمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴿١١﴾﴾

(سورة الرعد : الآيات ٨ - ١١) .

تدبر هذه الآية الأولى في السياق :

هل تصورت أبعادها ؟!

راجع نفسك جيداً وتأكد من الأمر ..

كلا ! إنك لم تتصور كل أبعادها ، وأغلب الظن أنك لن تستطيع !

هل تصورت ﴿ ما تحمل كل أنثى ﴾ ؟

إن السياق لم يحدد أى الإناث بالذات . فالتعبير يشمل إناث الإنسان ، وإناث

الحيوان ، وإناث الطير ، وإناث الأسماك في البحر ، وإناث الحشرات والهوام ... ومع

ذلك فلنفترض أن السياق اقتصر على إناث الإنسان فحسب ... فهل تصورت الأمر ؟

هل تصورت « كم » أنثى من إناث الإنسان على ظهر الأرض ؟!

هل تستطيع أن تحصيهن غداً ؟!

وهب أنك استطعت باستخدام كل الوسائل المتاحة لك أن تحصي كم أنثى هناك

في كل قارات الأرض ، وسهولها وجبالها ووديانها وغاباتها وكهوفها ومغاراتها وقصورها

وبيوتها وأكواخها وخيامها وجزرها النائية ومدنها المعمورة ... فما الذي أحصيته ؟

إنه عدد الإناث الأحياء اليوم في جيلك هذا الذي تعيش فيه ! فكيف بكل الإناث

اللواتي عشن منذ بدء الخليقة حتى ذلك الجيل ؟ وكيف بكل الإناث اللواتي سيعشن

من بعد إلى زمن لا يعلمه إلا الله ؟!

هل يقدر على إحصائهن إلا الله ؟!

وهذه مرحلة واحدة من هذا الأمر الهائل الذى تصورت لأول وهلة أنك أحطت

بأبعاده !

فلنتقل - خيالنا - إلى مرحلة تالية .

﴿ الله يعلم ما تحمل كل أنثى ﴾ .

هذه « كل أنثى » تحمل فى بطنها جنيناً .. فهل تتبَّع الأمر بخيالك لتعلم أى

شئ هو الذى أحاط به علم الله ؟ !

هل تتبَّع بخيالك « أنواع المعلومات » التى يعلمها الله عن كل جنين من هذه

الأجنَّة ؟ !

ذكر أم أنثى ؟ :

ما لونه ؟ أبيض أم أسود أم أحمر أم أصفر ... ؟

ما شكله ؟ ما قسماته ؟ كيف أنفه ؟ كيف فمه ؟ كيف عيناه ؟ ما لون عينيه ؟ ما

لون شعره ؟ جميل الطلعة أم غير جميل ؟ ما طوله ؟ ما حجمه ؟

فى أى مرحلة هو من مراحل نموه : نطفة ؟ أم علقة ؟ أم مضغة ؟ أم .. ؟ أم .. ؟

هل انتهت « أنواع المعلومات » عند هذا الحد ؟

كلا ! لم تنته بعد ...

قد يقف خيالك هنا عاجزاً عن تتبُّع هذه المعلومات وإحصائها بالنسبة لكل جنين

تحمله كل أنثى . ومع ذلك فإن علم الله الشامل ، الذى يشملها جميعاً ، لا يتوقف

عند هذا الحد .. بل يشمل « معلومات » أخرى قد لا تلتفت أنت إليها لأول وهلة .

ما اسم هذا الجنين حين يولد ؟ أى ما اسم كل جنين تحمله كل أنثى منذ بدء الخليقة

إلى قيام الساعة ؟

ما عمره الذى سبقضيه فى الأرض ؟ هل سيولد حياً أم ميتاً ؟ وإن كان حياً فكم

يعيش ؟

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَشَرِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ رُّكْبٍ ثُمَّ مِّنْ نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّفَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّفَةٍ لِّبَسِّنَ لَكُمْ وَنُفِرَ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَوًّى ثُمَّ نَحْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِيَبْلُوَ أَشَدَّكُمْ وَمِنكُم مَّنْ يَبُوءُ وَمِنكُم مَّنْ يَرْدُ إِلَىٰ آذُنِ الْعُمِّ لِكَلَّا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ﴾ (سورة الحج : الآية ٥)

ما درجة ذكائه ؟

ما خصاله التي يحملها ؟ طيب أم شرير ؟ شجاع أم جبان ؟ كريم أم بخيل ؟

ما قدره المقدور له في الأرض ؟ ما الأحداث التي تجري في حياته ؟

ثم .. أخيراً .. أشقى هو أم سعيد .. أى من أصحاب النار أم من أصحاب

النعم^(١) ؟

إن هذه « بعض » المعلومات التي يشملها علم الله الشامل بالنسبة لكل جنين

تحمله كل أنثى من بدء الخليقة إلى قيام الساعة ، وغيرها وغيرها كثير لا يحصيه إلا

الله ...

فهل تصورت الآن الأمر على حقيقته ؟!

هل تصورت أبعاد هذه الحقيقة التي تذكرها الآية :

﴿ الله يعلم ما تحمل كل أنثى ﴾ .. ؟

﴿ وما نغيض^(٢) الأرحام وما تزداد ﴾ .

يعلم ازديادها بالحمل وغيضها بتفريغ ما تحمل .

وعُدْ بخيالك مرةً أخرى فتنبّع كل أنثى .. وحاول أن تتصوّر - مجرد تصوّر - ما

يحيط به علم الله الشامل من حملها وولادتها ، وكل مرحلة من مراحل الحمل شهراً

(١) عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : حدّثنا رسول الله صلى الله عليه وسلّم وهو الصادق المصدوق :

« إن أحدكم يجمع في بطن أمّه أربعين يوماً ثم يكون في ذلك علقه مثل ذلك ثم يكون في ذلك مضغة مثل ذلك

ثم يرسل الله الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات ، يكتب رزقه ، وأجله ، وعمله ، وشقى أو سعيد ... »

رواه مسلم .

(٢) أى تنقص وتنكمش .

بعد شهر حتى تضع حملها ، وتكرار ذلك مع كل أنثى على حدة ، وتكراره على نطاق الأرض كلها وما تحويه من إناث !

﴿ وكل شيء عنده بمقدار ﴾ .

مرة أخرى هل تصورت أبعاد الأمر ؟ !

« كل شيء » عنده بمقدار ..

لقد تعب خيالك وكذاً ليتبع شيئاً واحداً من كل شيء .. هو « ما تحمل كل أنثى » ..

فكيف إذا أراد خيالك أن يتبع « كل شيء » ؟ !

هل تظن أنك تستطيع ؟ أنت والبشر جميعاً في كل الأرض ؟

ومع ذلك فعلم الله الشامل يعلم « كل شيء » .. وليس هذا فحسب ، بل إنه

يخلق « كل شيء » كذلك بمقدار .

وسواء كان معنى « المقدار » هنا هو القدر الذي يخلق الله به كل شيء ، أو هو

« القدر » المحدد لكل شيء ، فإن الخيال البشرى يعجز عن مجرد التصور فضلاً عن

الإحاطة فضلاً عن الإحصاء !

﴿ عالم الغيب والشهادة ^(١) الكبير المتعال ﴾ .

وقد رأيت طرفاً واحداً من علم الله للغيب ، لم يستطع خيالك تتبعه ولا إحصاءه ،

فكيف بالغيب كله والشهادة ؟

والناس حين يسرون القول يتصورون في غفلتهم أحياناً أنهم يسرونه على الله !

وحين يستخفون عن أعين الناس بأعمالهم أو سرائرهم يظنون أنهم يستخفون كذلك

على الله !

ولكن الله الذي يشمل علمه كل الغيب ، يستوى عنده المبر بالقول والجاهر

(١) أى الشيء المشهود .

به . والمنخفضى والمستعلن على السواء .

أى أن هناك ملائكة تتعقب كل أعماله وتسجلها عليه .

﴿ من أمر الله ﴾ أى بأمر الله .

فأين يغيب شيء واحد من أعمال الإنسان عن علم الله ؟ !

(٢) ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يُعْلِمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ دَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ

فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٥٩﴾ ﴾ (سورة الأنعام : الآية ٥٩) .

(٣) ﴿ إِنْ أَفْهَمْنَا عَنْهُ عِلْمَ السَّاعَةِ وَيُنْزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مِمَّا تُكْتَبُ عَنْهَا وَمَا تَدْرِي

نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِذَا اللَّهُ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ (سورة لقمان : الآية ٣٤) .

الدليل العقلى

كما يخاطب القرآن الوجدان البشرى ليقظه إلى حقيقة الألوهية ، فإنه كذلك يخاطب العقل البشرى ليفكر ويتدبر ، وينظر فى آيات الله فى الكون ، ليعرف دلالتها .

هل يمكن أن يوجد هذا الكون الهائل بغير خالق ؟

هل يمكن أن يدبر شئون هذا الكون الضخم إلا إله قادر عليم حكيم ؟

هل يمكن أن يكون لهذا الإله شريك فى الملك أو شريك فى التدبير ؟

هل آيات القدرة المبثوثة فى تضاعيف الكون تشير بأن هذا الإله يمكن أن يعجز عن أمر من أمور الخلق أو التدبير أو الرزق أو الإحياء أو الإماتة أو البعث أو الجزاء ؟ ..

وتلك كلها أمور سبق للقرآن أن خاطب فيها الوجدان ، ولكن القرآن يخاطب الإنسان كله : وجدانه وعقله . فكما عرض هذه الأمور كلها على الوجدان عرضاً مؤثراً ينتهى باقتناع الوجدان وإدراكه لحقيقة الألوهية ، فكذلك يعرضها على العقل ، يناقشه ، ويوقظه للتفكير المنطقى السليم ، الذى يؤدى فى النهاية إلى الغاية ذاتها ، وهى إدراك حقيقة الألوهية ، ومن ثم وجوب الإيمان بالله الواحد دون شريك .

والآيات التى تخاطب العقل وتدعوه إلى التأمل والتدبر كثيرة فى القرآن نجتزئ بذكر نماذج منها .

(١)

﴿وَفِى الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢٠ وَفِى السَّمَاءِ آيَاتٌ لِّلْمُتَذَكِّرِينَ ۝٢١﴾ (سورة الذاريات : الآيتان ٢٠ - ٢١) .

ولو تأمل الإنسان بعقله الآيات المبثوثة فى الأرض ، والآيات المبثوثة فى النفس لأصابه العجب والذهول لكل آية من هذه الآيات المعجزة التى تتم كل منها على وجود الخالق سبحانه ، وعلى قدرته المعجزة التى لا تقف عند حد .

فالأرض جرمٌ صغيرٌ بالنسبة للأجرام السماوية الضخمة التى يزخر بها هذا الكون .
لا تعدو أن تكون كحبة الرمل بالنسبة للصحراء الواسعة التى لا يأتى البصر على آخرها .
ومع ذلك ففيها - على ضآلتها - من آيات الله المعجزة ما يعجز الخيال عن تتبعه فضلاً
عن إحصائه ، وفيها من الخصائص التى أودعها الله بها ما تذهل له العقول .

فقد هيأها الله - وحدها فيما نعلم حتى اليوم من الأجرام الأخرى - بخاصية
الحياة ، وجعل لها من الظروف ما يجعل الحياة عليها ممكنة الوجود والاستمرار .
فكثلتها محسوبة بحساب ربانى دقيق يجعل جاذبيتها تحتفظ حولها بغلاف جوى
لا يتبدد ، وفى هذا الغلاف يوجد الأكسجين المطلوب لتنفس الكائنات الحية ، وبالقدر
المطلوب لتنفس هذه الكائنات بلا زيادة فيه ولا نقصان ، لأن الزيادة والنقصان كلتاهما
ضارة بهذه الأحياء ! وحرارتها محسوبة بذلك الحساب الربانى الدقيق ، بالصورة
التي تحتملها الكائنات الحية ولا تموت من شدتها ولا من ضعفها ! والأقوات فيها
محسوبة بحيث تفى بحاجة تلك الكائنات من الغذاء مع توازن دقيق بين هذه الكائنات
وبين أقواتها :

﴿ وَالْأَرْضُ مَدَدًا نَافَاً وَقَيْنَا فِيهَا رَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ ﴾ (سورة الحجر
الآية ١٩) . ﴿ وَذَرَّ فِيهَا أَقْوَانًا ﴾ (سورة فصلت : الآية ١٠) .

وعلى ذكر التوازن فى الأرض بين الكائنات الحية والتوازن فى الأقوات ، فقد
ذكرت الأنبياء أن الشيوعيين فى الصين سَوَّلَ لهم أنفسهم الشريرة أن يقتلوا جميع
العصافير الموجودة فى الصين بحجة أنها تأكل عشرة فى المائة من مجموع الغلال التى
يزرعونها ! فجنَّدُوا فى كلِّ القرى والمدن فرقاً تتناوب الضرب على الدفوف وقِطَع
الصفيح ليل نهار لمدة ثلاثة أيام ، فكلما أرادت العصافير أن تأوى إلى عشوشها لتنام
أو تستريح أزعجها الصوت فعادت إلى الطيران ، حتى هلكت جميع العصافير من

الجوع والعطش والتعب وعدم النوم . وفرح الشريرون بأنهم قضوا على تلك المخلوقات الصغيرة اللطيفة ، واطمأنوا إلى أن المحصول سيصل إليهم كاملاً غير منقوص ! ولكن الله كان لهم بالمرصاد ! فإن الحشرات الضارة التي كانت تلك العصافير تأكلها فتمنع أذاها عن الزرع بحكمة الله وتديره ، انتشرت في الأرض بعد موت العصافير فأكلت خمسين في المائة من المحصول ! وهكذا حين أراد البشر الضاللون أن يعثوا بالتوازن الذي أوجده الله في الأرض بحكمته أصابهم الجزاء الرادع من عند الله ، وكانت هذه آية لهم لو كانوا يعتبرون !

وهكذا لو مَضَيْنَا نَتَّبِعَ آيَاتِ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ : في الكبيرة والصغيرة ، لوجدنا عجائب لا تنتهي .

خُذْ مَثَلًا هَذِهِ الْعَجِيْبَةُ : ﴿ فِي الْأَرْضِ قَطْعُ مُتَجَاوِرَاتٍ وَجَنَاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَيْتُونٍ وَنَخِيلٍ مُنَوَّارٍ وَغَيْرِ مُنَوَّارٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِئِلَ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ وَالْأَكْلُ مِنْ ذَلِكَ لَا يَبْغِي لِلَّذِينَ يُقِيمُونَ ﴾ (٤)

(سورة الرعد : الآية ٤) .

فالأرض فيها قطع متجاورات تختلف بنية كل منها عن الأخرى رغم تجاورها . بعضها ينبت الزرع وبعضها لا ينبت وبعضها يصلح لأنواع معينة من الزرع دون غيرها .. وتلك وحدها عجيبة .

ثم إن الأرض الواحدة تنبت أنواعاً شتى من الزروع والنخيل والأعنان .. كلها يسقى بماء واحد ولكن بعضها يختلف عن بعض . حتى النوع الواحد كالنخيل تخرج منه النخلة المفردة والنخلة المزدوجة ... وتلك عجيبة أخرى .

ثم إن هذه الزروع مختلفة الطعوم والمذاقات . يُفَضِّلُ النَّاسُ فِي طَعَامِهِمْ بَعْضاً مِنْهَا عَلَى بَعْضٍ .. وتلك عجيبة ثالثة .

ثم إن الطعم الواحد قد يُفَضِّلُهُ إِنْسَانٌ وَلَا يُفَضِّلُهُ إِنْسَانٌ آخَرٌ حَسَبَ ذَوْقِهِ الْخَاصِّ

المركب في طبعه .. وتلك عجيبة رابعة .. وصدق الله العظيم :

﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ .

أما الآيات في الأنفس فإنها أعجب !

فالخلية الواحدة الملقحة التي يتكوّن منها الجنين تشتمل على كل خصائص الجنس

البشرى وهي لا تكاد تُرى ! فينمو منها إنسان كامل فيه كل خصائص الإنسان !

ثم إنها تنقسم وتتخصّص في أثناء نمو الجنين ، فيصبح جزء منها رأساً ، وجزء آخر

يداً ، وجزء ثالث قدماً .. وهكذا .

ثم إنها تحتوى كذلك على جزيئات تحمل الخصائص الوراثية التي يرثها الجنين

من الأب والأم أو الأجداد . فقد يحمل الجنين صفة من الأب كلون الشّعر مثلاً ،

وصفة من الأم كلون العينين ، وصفة من أحد الجدود كالطول أو القصر أو شكل

الأنف أو شكل الأذن .. بل الأعجب من ذلك وراثه الصفات النفسية والعقلية كالكرم

أو البخل ، والشجاعة أو الجبن . والذكاء أو الغباء . الميل إلى العلوه أو الميل إلى

الآداب !

وهذه الصفات العقلية ذاتها ... ما هي ؟ كيف توجد ، وأين توجد ؟

كيف يُفكر العقل ؟

كيف يتذكّر الإنسان ما يتذكّر ؟

إن كل أبحاث العلم حتى هذه اللحظة قد عجزت عن أن تقول لنا كيف يُفكر

العقل وكيف يتذكّر ! وأين تكون الأفكار وأين تخترن المعلومات وكيف يستدعيها

الإنسان حين يريد استدعاءها وكيف تحظر على باله أحياناً بغير استدعاء !

والصفات النفسية كذلك ... ما هي ؟ كيف توجد ، وأين توجد ؟

كيف تتكون في النفس صفة الكرم أو البخل أو الشجاعة أو الجبن ؟

وفى أى مكان تكمن هذه الصفة فى الإنسان ؟ فى جسمه ؟ أين ؟ فى مخه ؟ أين ؟
هل هى شىء معنوى أم مادى ؟ وفى كلا الحالين كيف تؤثر فى تصرفات الإنسان
وسلوكه ؟

وأعجب من ذلك : كيف تورث ؟!

ولو مضينا نتتبع خصائص الإنسان ، وآيات الله فى الأنفس ، لما انتهينا من العجب
لكل خصيصة وكل آية ، ولأدركنا أن هذا كله لا يمكن أن يحدث من تلقاء نفسه بهذه
الدقة المذهلة . لا بُدَّ له من موجد . ولا بُدَّ أن يكون هذا الموجد حكيماً غاية الحكمة
وقادراً إلى حد الإعجاز ، وإلا ما استطاع أن ينشئ هذا الخلق الدقيق المعجز ، الذى
تحتوى كل جزئية منه على عجائب لا يحصرها العقل .
ومن أجل ذلك يقول القرآن بحق : ﴿ وفى الأرض آيات للموقنين ، وفى أنفسكم .
أفلا تبصرون ﴾ ١٧ !

(٢)

﴿ أَمْ اتَّخَذُوا إِلَهًا مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ٢١ ﴾ لَوْ كُنَّا فِيهِمَا آلِهَةً إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتْنَا فَهَازَ اللَّهُ رَبَّ الْعَرْشِ عَنَّا
يَبْقُونَ ٢٢ لَا يَسْئَلُ عَمَلُكُمْ وَرَبُّكُم ٢٣ أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلُوبًا بِرُءُوسِهِمْ هَذَا ذِكْرٌ مِمَّا
مَنْ قَبْلُ بِالْأَكْثَرِ هُمْ لَا يَلْمِزُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ ٢٤ ﴾ (سورة الأنبياء : الآيات ٢١ - ٢٤) .

فى هذه الآيات يخاطب القرآن العقل لكى يتدبر الأمر ويستخلص نتيجة منطقية
لما يرى حوله من الآيات ، ويطلبه أن يأتى بالبرهان على ما يدعى مخالفاً للحق الظاهر .
فالحق الظاهر أن هذا الكون متناسق إلى أبعد ما يتصور العقل من التناسق :

﴿ مَا رَأَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَافُتٍ فَإِذْ يَنْزِجُ الْبَصَرَ هَلْ رَأَى مِنْ قُلُوبٍ ٢٥ تَرَاهُ إِذْ يَنْزِجُ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبُ إِلَيْكَ الْبَصَرُ
خَائِبًا وَهُوَ حَبِيرٌ ٢٦ ﴾ (سورة الملك : ٣ - ٤) .

(١) فيهما : أى فى السماوات والأرض .

فدورة الفلك المضبوطة التي لا تختل قيد شعرة في هذا الكون العريض كله .
ودورة الليل والنهار الناشئة من حركة الأفلاك ، والتي تأتى فى موعدها المضبوط
بالدقيقة والثانية وأجزاء الثانية على مدار الفصول وعلى مدار القرون والأجيال ...
وخواص المادة التي أودعها الله فيها لا تخطئ مرة واحدة على مر الزمن ولا
تختلف مرة عن مرة . فالحديد هو الحديد والنحاس هو النحاس والأكسجين هو
الأكسجين لا يتغير تركيبها ولا خواصها . ولا يتغير سلوكها إزاء الحرارة والبرودة أو
إزاء الضغط أو فى تفاعلاتها الكيماوية مع غيرها من العناصر . لا يحدث مرة واحدة أن
يتكوّن الماء إلا من ذرة من الأكسجين وذرتين من الأيدروجين . ولا يحدث مرة أن
يسخن الحديد فلا يتمدد . ولا يحدث مرة أن يُطرق النحاس فلا ينطرق .

والذرة التي هى أبسط التكوينات التي أمكن للعلم حتى اليوم أن يكشف عنها
فى نظامها الدقيق العجيب المكون من نواة (هى البروتون) وأجسام صغيرة غاية فى
الدقة (هى الالكترونات) تدور حولها فى نظام دقيق ، متجاذبة معها ومتعادلة فى
الشحنة الكهربائية فى وضع يشبه الشمس ومن حولها الكواكب ...

والخلية الحية وسلوكها العجيب فى غذائها وإفرازها ونموها وتكاثرها ...
والكائنات الحية وخصائصها التي تميز كل جنس منها عن الآخر ، وتميز كل نوع
من أنواع الجنس عن الآخر ... فللنبات عامة خصائصه ، ولكل نوع من النبات
خصائصه . وللحيوان خصائصه ثم لكل نوع من أنواعه خصائصه .
ثم الإنسان أعقد الكائنات الحية وأرفعها ... وكل جزء فى تكوينه عجيبة فى
تناسقه وأداء وظيفته ...

هل يمكن مع ذلك كله أن يكون فى السماوات والأرض إلا إله واحد مسيطر
مدبر حكيم هو الله سبحانه وتعالى ؟ ﴿لَوْ كَانَتْ فِيهِمَ آيَةٌ الْآفَاقُ لَفَسَدُوا﴾

أليس كل إله يخلق بمفرده كيف يشاء ؟ فكيف يتطابق الخلق الصادر عن واحد من الآلهة مع الخلق الصادر عن إله غيره ؟ كيف تكون الشجرة التي يخلقها واحد من الآلهة متطابقة تماماً في كل أحوالها مع الشجرة التي يخلقها إله آخر ؟ كيف يكون الماء الذي يخلقه أحد الآلهة هو نفس الماء الذي يخلقه الإله الآخر من ذرة من الأكسجين وذرتين من الأيدروجين ؟

ثم .. كيف تنتظم دورة الفلك التي ينشئها إلهان مختلفان ، ويشرف على شئونها أكثر من إله ؟

هل يمكن أن تنتظم إذا تعددت الإرادة التي يهيمن عليها والسلطان الذي يسيرها ؟ ألا يحدث أن واحداً من الآلهة يريد للشمس أن تشرق من المشرق وآخر يريد لها أن تشرق من المغرب ! فكيف يصير الأمر ؟

ألا يحدث أن واحداً من الآلهة يريد للإنسان أن يستوى على قدميه ويسعى في الأرض يتنقى الرزق ويعمر الأرض ، وآخر يريد له أن يمشى على أربع كالحيوان ، أو يبقى لاصقاً بالطين على ساق واحدة كالنبات ؟ فكيف يصير الأمر ؟

ألا يحدث أن واحداً من الآلهة يريد للحديد أن يكون صلباً تُصنع منه الأدوات الصلبة التي تعين الإنسان على عمارة الأرض وتعينه على صنع السلاح الذي يُقاتل به لإعلاء كلمة الله : ﴿ وَانزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ (سورة الحديد : الآية ٢٥) .

بينما إله آخر يريد أن يكون الحديد طرياً ليناً عديم الشكل ؟ فكيف يصير الأمر ؟ هل ينضبط شيء حينئذ في الكون كله وهل يستقيم الأمر ؟ أم يصبح الكون فوضى ، تتصادم فيه الأفلاك وتتعارض ، وتتصادم فيه الإرادات المشرقة عليه وتتعارض ويصبح كالعقد المنفرط لا يجمعه نظام ؟

من أجل ذلك يخاطب القرآن العقل فيقول له : ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ، فسبحان الله رب العرش عما يصفون ﴾ .

ثم يخاطبه مرة أخرى متحدياً بعد هذا البيان : ﴿ أم اتخذوا من دونه آلهة ؟ قل : هاتوا برهانكم ! ﴾ .

نعم ! فليبحث العقل عن برهان ! إن الأمر ليس فوضى ، يقول فيه القائل بهواه ! بل لا بُدَّ لكل قول من برهان . فهااتوا برهانكم ! هل تستطيعون أن تبرهنوا - والكون بهذا الاتساق المعجز - أن هناك إرادة أخرى تسيطر على الكون غير إرادة الله ؟ فإن عجز العقل - وهو لا محالة عاجز - عن البرهان ، فليتدبر أمره وليؤمن بالله الواحد الذى لا شريك له فى الملك ولا فى السلطان .

(٣)

﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا أَذَاهُ كُلُّ إِلَهٍ بِأَحْكَوْا وَلَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (١) ﴿ (سورة المؤمنون : الآية ٩١) .

فى مثل المناقشة العقلية التى ذكرناها فى الفقرة السابقة (رقم ٢) يُجرى السياق هنا مناقشة مع العقل البشرى يقدم لها مجموعة من الآيات يلفت فيها العقل إلى بعض الحقائق المسلمة التى لا يجادل فيها أحد ، أو ينبغى ألا يجادل فيها :

﴿ قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (٨٤) ﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (٨٥) ﴿ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ (٨٦) ﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَشْفَقُونَ ﴾ (٨٧) ﴿ قُلْ مَنْ يَدِيرُ أَمْرَهُ يَمْلِكُ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارَعُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (٨٨) ﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ (٨٩) ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا كُذِّبُوا ﴾ (٩٠) ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا أَذَاهُ كُلُّ إِلَهٍ بِأَحْكَوْا وَلَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (٩١) ﴿ (سورة المؤمنون : الآيات ٨٤ - ٩١) .

فإذا سلم الإنسان ابتداء بأن الأرض ومن فيها من صنع الله وإنشائه وهو مالكها . وإذا سلم بأن السماوات السبع هى لله . هو منشئها وهو ربها ورب العرش العظيم .

وإذا سلم بأن ملكوت كل شيء لله . هو المدبر فيه وحده ، وهو الذى يجبر بقوته ولا يجار عليه . لأنه صاحب العظمة والسلطان .. بدهيات لا يملك عقل أن ينكرها ، وإلاَّ جابَهَ هذا السؤال الوارد فى سورة الطور : ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾ (١٥) ﴿ (سورة الطور : الآية ٣٥) وهو سؤال مُسَكَّتٌ مُلْجَمٌ يتحدى كل مُنْكَرٍ (١) ...

إذا سلم الإنسان بكل هذا فقد لزمه - منطقياً - أن يسلم بالنتيجة التى تؤدى إليها هذه المقامات . وهى أنه إله واحد لا شريك له ولا يمكن أن يكون له شريك . لذلك يكرر السياق التذكير بعد كل مقدمة من المقدمات : « أفلا تذكرون » ؟ « أفلا تتقون » ؟ « فأتى تسحرون » ؟ !

ولكن السياق لا يكتفى بالتذكير المصحوب بالتقريع ، بل يعضى مع العقل البشرى خطوة أخرى فى المناقشة فيعرض أمامه هذه الحقيقة ليتدبرها : لنفرض جدلاً أنه كان مع الله آلهة أخرى فكيف يكون الموقف ؟ ﴿ إِذَا لَذَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ ؟ فى الفقرة السابقة (رقم ٢) فى آية سورة « الأنبياء » كان يعرض أمر الفساد الذى كان لا بُدَّ أن يحدث فى السماوات والأرض لو كان فيهما آلهة إلا الله : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ .

وما دام هذا الفساد غير حادث ، والكون منضبط فى حركته كما نرى ، فقد انتفى إذاً وجود آلهة غير الله .

وفى هذه الآية من سورة « المؤمنون » يعرض الأمر من الوجهة الأخرى . وجهة الآلهة ذاتهم - لو أنهم أكثر من إله واحد - وما كان لا بُدَّ أن يحدث بينهم من صراع ونزاع : ﴿ إِذَا لَذَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ .

(١) مستحدث عن الآية فى فقرة مستقلة بإذن الله .

فإذا كان كل إله خلق جزءاً من الخلق فهل يعقل أن يتنازل عن خلقه لإله آخر ؟
أم المعقول والبدهي أن يتشبث بخلقهم ويستحوذ عليهم ويحاول أن تكون له السيطرة
عليهم وحده ؟ وعندئذ ماذا يحدث ؟! يحدث نزاع بين الآلهة المزعومة على السيطرة !
هذا يريد أن يسيطر وهذا يريد أن يسيطر ! كل منهم يريد أن تكون له ، هذه الكلمة
النافذة في الكون ويكون أمره هو المطاع ! هذا يصدر أمراً ويطلب تنفيذه ، وذاك
يصدر أمراً مضاداً ويطلب تنفيذه . وكل يتشبث بكلمته زاعماً أنه هو الأعلى وهو
الأحق بأن تسمع كلمته ويُطاع !

فهل هذه الآلهة – المتوهمة – تستحق الاحترام وهي هكذا تتعامل مع بعضها
البعض ؟!

وهل يستقر حال الكون وهي – في صراعها على السلطة – تصدر الأوامر المتباينة
للكون ، فيحار الكون لأي أمر يدعن وأي أمر يطيع ؟!
كلا ! ما كان حال الكون ليستقر لو أنها آلهة متعددة تتصارع فيما بينها وتتنازع .
وما كان الكون ليبدو متناسق الحركة متناسق الصنعة متناسق التدبير .
والعقل البشري مكلف أن يفكر ويتدبر ...

فما دام الإنسان قد سلم أو ينبغي أن يسلم – بأن الأرض لله ، والسموات السبع لله ،
والملكوت لله ، والتدبير لله ... فماذا بقي إذن من عمل تقوم به تلك الآلهة الأخرى
المزعومة ؟

وما دام الكون في سيره لا يبدو عليه الخلل والاضطراب ، بل يظهر فيه الاتساق
الكامل والانضباط ، أفلا يدل ذلك على وحدة السيطرة التي تدبر شئونه وترعاه ؟!

(٤)

﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى ۚ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا يَشْرِكُونَ ﴾ (٢١) أَمْزَجَ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَنْزَلَ لَكُمْ

مِنْ السَّمَاءِ مَا هُوَ أَثَنُ ثُنْيَاهُ إِذْ أَنْزَلْنَاهُ ذَاكَ بَحْبُوحًا مَّا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِئُوا خَبْرَهُ ۚ وَاللَّهُ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٦﴾
 الْأَرْضُ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِي وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ وَاللَّهُ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٧﴾
 آمَنَ يَحْيَى الْمُسْتَضَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَكَيْفَ السُّوءِ وَجَعَلَ لَكُمُ خُلَافَاءَ الْأَرْضِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾
 يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمِنْ يُرْسِلِ الرِّيحَ بِشُرْكَيْنِ يُدِيرُ رَحْمَةً ۗ وَاللَّهُ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾
 يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمِنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ وَاللَّهُ قَلِيلًا مَّا تَكْفُرُونَ ﴿٢٠﴾

(سورة النمل : الآيات ٥٩ - ٦٤) .

هنا في الحقيقة خطاب للوجدان والعقل في آن واحد . وقد أسلفنا القول إن القرآن كثيراً ما يقرن خطاب الوجدان مع خطاب العقل في سياق واحد . ولكننا هنا سنركز تركيزاً أكبر على أدلة العقل وبراهينه ، وفيما مضى من الحديث عن الوجدان في الفصل السابق ما فيه الكفاية .

يبدأ السياق بسؤال في الآية الأولى بعد حمد الله والسلام على عباده الذين اصطفاهم بالنبوة والرسالة . وهذا السؤال يواجه الإنسان كله ، وعقله بصفة خاصة : ﴿ الله خير أم ما يشركون ﴾ ؟

والإجابة عن السؤال تقتضى المقارنة - إن كان هناك مجال للمقارنة - بين الله سبحانه وتعالى وبين الآلهة المزعومة التي يعبدونها بعض الناس مع الله أو من دون الله ، ليتبين أيهما خير : الله أم تلك الآلهة المدعاة ؟

والسياق القرآنى يبادر العقل بما يعينه على معرفة الإجابة الصحيحة ، إن كان
- لسبب من الأسباب - يجهلها ! فيقدم له أول المعينات فى صورة سؤال آخر لو
اهتدى لإجابته - وهى بدهية فى الحقيقة - لاهتدى فى ذات الوقت لإجابة السؤال الأول
الذى تَصَدَّرَ السياق ، وهو قوله تعالى : ﴿الله خير أم ما يشركون﴾ ؟

تسأل الآية الثانية فى السياق : من الذى خلق السماوات والأرض ؟ ومن الذى أنزل عليكم من السماء ماء فأنبث به حدائق بهيجة المنظر ما كان لكم أن تنبتوا شجرها

لولا ما أنزل الله لكم من السماء من ماء ، ولولا ما أودع فيها هي ذاتها من خاصية النمو حين ينزل عليها الماء ؟

وقبل أن يجيب الإنسان الذى يوجه له ذلك السؤال ، يبادره السياق بسؤال ثالث يحمل فى طياته فى الحقيقة إجابة السؤال السابق : يقول : ﴿أإله مع الله﴾ ؟ !
وهكذا يحاصره السياق حصاراً كاملاً بحيث لا يجد مفرّاً من الإجابة الوحيدة التى يستقيم بها الأمر كله !

﴿أإله مع الله﴾ كلا !

وإذن فالسؤال السابق ليست له إلا إجابة واحدة كذلك : ﴿أم من خلق السماوات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبئنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها﴾ ؟ هو الله !

وإذن فالسؤال الذى صدر به السياق قد تحددت إجابته على وجه التأكيد : ﴿الله خير أم ما يشركون﴾ ؟ بل الله !

ولقد كان يكفى العقل والوجدان معاً هذه الجولة لتقرر النفس بألوهية الله الواحد بلا شريك . ولكن الله العليم الخبير يعلم من أحوال النفس البشرية أنها تحتاج إلى التذكرة مرة ومرة ومرة . ومن ثم يبدأ السياق على نفس النسق جولة ثانية وثالثة ورابعة .. وخامسة .

﴿أم من جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً ، وجعل لها رواسى وجعل بين البحرين حاجزاً؟ إله مع الله؟ بل أكثرهم لا يعلمون﴾ .

فإذا كانت الجولة الأولى مع خلق السماوات والأرض ومع الماء النازل من السماء إلى الأرض ، ومع الحدائق النابتة من نزول الماء ، فهذه الجولة كلها فى الأرض ، تذكر جعل الأرض مستقراً للإنسان يجد فيها رزقه ومعاشه ومتاعه المقدر له إلى حين ،

وتذكر جعل الأنهار خلال هذه الأرض ، وجعل الرواسي لها لتكون سبباً في استقرارها ، وجعل الماء العذب الذى أعدّه الله لشرب الكائنات الحية محجوزاً عن الماء الملح الذى تعج به البحار والمحيطات ... وكلها من آيات رحمة الله بالإنسان كما أنها من آيات قدرته . فمن غير هذا الإله القادر يستطيع أن « يجعل » كل هذه الأشياء على صورتها التى هى عليها ؟ وعندئذ يجيء التعقيب فى مكانه : أإله مع الله ؟ وإجابته قد تقررت منذ الجولة السابقة ، ولكنه المزيد من التوكيد .

أمّا الجولة الثالثة ففى محيط البشر ، تذكرهم بما يقع لهم ولكنهم ينسونه فى غفلتهم : أَمَنْ يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف ما به من سوء ؟ ومن يجعلكم خلفاء الأرض جيلاً بعد جيل ، ترثون الأرض بعد آبائكم وتتمكنون فيها وتسخرونها لمعايشكم ؟ أَيْتَمَ ذلك من تلقاء نفسه ؟ وكيف يتم إذا لم يخلقكم الله أصلاً من أصلاب آبائكم ؟ وكيف يتم إذا لم يبق الله الأرض لثروتها منهم ؟ ! ثم يجيء التعقيب المكرر ، ليزيد الأمر توكيداً فى النفس : أإله مع الله ؟ والإجابة هى الإجابة بكل تأكيد .

والجولة الرابعة مع البشر كذلك . ولكنها تذكر نعماً أخرى من نعم الله على الإنسان : من يهديكم فى ظلمات البر والبحر ؟ فإذا كان ضوء الشمس يهديكم بالنهار ولكنكم تنسون النعمة وتغفلون عنها ، فإنكم أولى أن تتذكروا الهداية فى الليل والظلمة محيطة فى البر وفى البحر . فهنا تتلمسون الهداية فلا تجدونها إلا بعون الله لكم سواء بالنجوم تحدد لكم اتجاهكم ، أو بالقمر يرسل نوره فيكشف جانباً من الظلمة ، أو فيما هداكم الله إلى عمله من المشاعل والمصابيح التى تنير الظلام . ثم نعمة أخرى يذكر الله بها الإنسان : ومن يرسل الرياح تبشر برحمة الله المتمثلة فى السحاب والمطر ! « أإله مع الله ؟ كلا ! » تعالى الله عما يشركون !

وتجىء الجولة الأخيرة كالأولى تشمل السماوات والأرض وتربط ما بين السماوات

والأرض ، وتزید علیها ذکر البعث : من الذى يبدأ الخلق ثم يعيده ؟ أهناك غیر الله من تبلغ قدرته أن یخلق من لا شیء ؟ ومن یعید الخلق حین یشاء ؟ ومن یرسل لكم الرزق من السماء والأرض ؟ ﴿ أإله مع الله ؟ قل : هاتوا برهانکم إن كنتم صادقین ﴾ ! وحين یصل السیاق إلى غایته یكون الوجدان والعقل قد وصلا كذلك إلى غایتها من التمثل لهذه الحقیقة الكبرى : حقیقة وحدانية الله بلا شریك . فإذا جاء التحدى الأخير : ﴿ قل هاتوا برهانکم إن كنتم صادقین ﴾ فلیس له جواب إلا الاقتناع الكامل والتسليم .

(٥)

﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ مَنْ يَمْلِكُ النَّمْعَ وَالْإِبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ فَيَقُولُوا اللَّهُ فَعَلْ فَلَا تَشْفَعُونَ ۚ فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَإِذَا ابْدَأَ الْحَيُّ إِلَّا الضَّلَالُ فَإِنِ تُصْرَفُونَ ۚ كَذَلِكَ حَسَّتْ بِكُمُ رَبِّكُمُ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۚ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدُو الْفَلَاقَ ثُمَّ يَعْبُدُ اللَّهَ بِبَدْوِ الْخَلْقِ ثُمَّ يَعْبُدُ فَإِنِ تَوَفَّكُونَ ۚ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ فَلِإِنَّ اللَّهَ يَهْدِي لِمَنْ يَشَاءُ فَيُفْضِلْهُ فَمَا لِي إِذْ يَهْدِي فَأَلْكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ۚ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ۚ ﴾ (سورة يونس : الآيات ٣١ - ٣٦) .

السياق هنا قريب من السياق السابق فى آيات سورة « النمل » ولكنه يختلف عنه

فى أمرين :

الأمر الأول : أنه فى السياق السابق كان يذكر آيات الله فى السماوات والأرض

والناس ثم يسأل : أإله مع الله ؟ وتكون الإجابة الضمنية الطبيعية هى : لا ! ليس مع

الله إله . ليس لله شريك فى الخلق ولا فى الملك ولا فى التدبير .

أما هنا فالسياق يشير إلى الشركاء بالذات ، ويركز عليهم ، يركز عليهم لينفى

وجودهم . ولكنه لا ينفيه نفياً مباشراً ، إنما من خلال سؤال مكرر : هل من شركائكم

(١) أى لا يهتدى .

- المزعومين بطبيعة الحال - من يفعل كذا أو كذا مما يفعله الله ؟ فإذا كان الجواب بالنفى - ولا بُدَّ أن يكون بداهة كذلك - فماذا يفعل الشركاء إذن ؟ وإن لم يكن لهم عمل فما معنى وجودهم ؟ إنهم إذن لا وجود لهم ما داموا لا يعملون شيئاً على الإطلاق !
والأمر الثانى : أنه ينبه العقل الغافل إلى طريق التفكير الصحيح . إنه لا يجوز للعقل - الذى خلقه الله للتفكير والتدبر - أن يأخذ الأمور بالظن ، دون تمحيص وبرهنة وإثبات . والظن لا يغنى شيئاً عن الحق . فعلى الذين يأخذون القضية بالظن أن يتخلوا عن هذا الطريق الخاطئ ويتبعوا الطريق الصحيح ، طريق الدليل الصحيح والبرهان .

تبدأ الآية الأولى بسؤال حاشد : من يرزقكم من السماء والأرض ؟ من يملك السمع والأبصار ؟ من يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ؟ من يدبر الأمر ؟ وهى لمحات سريعة فى مجالات شتى فى آن واحد ، تحاصر العقل وتحصره فى إجابة واحدة : ﴿ فيقولون الله ﴾ ! وإذا كان الأمر كذلك أفلا تتقون ، وقد عرقت الإجابة الصحيحة على السؤال !

﴿ فذُلكم الله ربكم الحق ، فماذا بعد الحق إلا الضلال . فأنى تصرفون ﴾ ؟
الله الذى عرفتموه ، وعرقتم أنه هو الذى يرزقكم من السماء والأرض ويملك سمعكم وأبصاركم ويخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ويدبر الأمر .. هو ربكم الحق . لا ربوية لغيره ، فكيف تتجهون إلى غيره ؟ كيف تحيدون عن الحق الواضح فتضلون ؟ فإن من تجاوز الحق فليس أمامه سوى الضلال .

﴿ كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون ﴾ .

لأنهم بصرون على مجاوزة الحق فيقعون فى الضلال .

ثم نحمى المناقشة التى أشرنا إليها : ﴿ قل : هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم

بعيده ﴿؟﴾ فإذا كان الجواب بالنفى - كما لا بُدَّ أن يكون - ﴿قل : الله يبدأ الخلق ، ثم يعيده﴾ . فإذا اتضح هذا الأمر : أن الله يبدأ الخلق ثم يعيده بينما الشركاء المزعومون لا يبدئون خلقاً ولا يعيدون ﴿فأنى تؤفكون﴾ ؟ أنى تصرفون عن الحق وتتبعون الزور والإفك ؟

ثم مناقشة أخرى : ﴿قل : هل من شركائكم من يهدى إلى الحق﴾ ؟ والجواب - كالمرّة السابقة - بالنفى . فلم يؤثّر عن أحد من أولئك الشركاء المزعومين أنه أنزل هداية البشر كتاباً ولا أرسل رسولاً ! فإذا كان الأمر كذلك ﴿قل : الله يهدى للحق﴾ فيرسل الرسل وينزل الكتب ويدعو الناس إلى ما فيه صلاح الدنيا وصلاح الآخرة ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ (سورة يونس : الآية ٢٥) .

ثم يمد السياق المناقشة خطوة أخرى : إذا كان الله يهدى للحق ، والشركاء المزعومون لا يهدون إلى الحق . فمن أحق أن يتبع ويُطاع : ﴿أفمن يهدى إلى الحق أحق أن يتبع أمَّنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَى﴾ ؟ الله أحق أن يتبع أم أولئك الذين لا يهتدون من ذات أنفسهم ويحتاجون هم أنفسهم إلى من يهديهم . والإشارة هنا إلى الأصنام التي كان العرب يعبدونها في الجاهلية ، ولكنها في الحقيقة تنطبق على كل من يتوجه إليه الناس في كل جاهلية ، ممن لا يملكون لأنفسهم الهدى ، ويتصدون لهداية الناس ! فإلى أى شيء يهدونهم إلا إلى الضلال ؟ ﴿فما لكم كيف تحكمون﴾ ؟

أين عقولكم التي تفكرون بها وكيف أدت بكم هذه العقول إلى هذا الحكم الفاسد الذي تحكمون به في القضية ، فتقولون - بألستكم أو بأفعالكم - إن هؤلاء الشركاء أولى بالاتباع من الله وهم لا يملكون الهدى لأنفسهم فضلاً عن هداية الناس ؟ السبب هو أنهم لا يحكمون عقولهم في الحقيقة . ولو حكموها لحكمت بالصواب ، فالأدلة قائمة والبراهين موجودة ، ولكنهم يتبعون الظن فيضلون عن الصواب :

﴿ وما يتبع أكثرهم إلا ظناً . إن الظن لا يغنى من الحق شيئاً ﴾ .

والله أعلم بهم : ﴿ إن الله عليم بما يفعلون ﴾ .

(٦)

﴿ لَمَخْلُوقًا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ۝١٥ ﴾ ؟ (سورة الطور : الآية ٣٥) .

هذه الآية تحمل أكبر تحد لل عقل البشرى الضال خلال التاريخ ... وكأنها نزلت

للضالين اليوم الذين ينكرون وجود الله ويلجئون فى الغى والإلحاد .

إن الذين يلجئون فى الغواية إلى هذا الحد لا ينكرون وجود الله فى الحقيقة .

فلا يمكن للفطرة - مهما ضلّت - أن تنكر وجود الله الخالق . ولكنهم - لسبب من

الأسباب - يكابرون ، ويتظاهرون بالإنكار .

وحتى أولئك الذين يعيشون فى ظل الإلحاد ، فى الدول الشيوعية ، ويدرس لهم

الإلحاد فى المدارس ، ويتربون عليه ، ويلقنونه فى كل حصة من حصص الدراسة ..

حتى هؤلاء لا تقر نفوسهم بإنكار وجود الله إلا بحجارة للأوضاع . وخوفاً من سطوة

الدولة الكافرة هناك .

وإليك مثلاً يثبت لك هذه الحقيقة .

حين صعد « جاجارين » رائد الفضاء الأول إلى الجو^(١) . أخذته روعة الكون

وذهل لما رآه .

لقد رأى الكون على صورة أخرى غير التى نراها ونحن على سطح الأرض

مغلقيين بالغلاف الجوى .

لم ير السماء زرقاء كما نراها نحن . إنما رآها سوداء تماماً . ورأى الكواكب

والنجوم فى داخلها لامعة شديدة اللمعان . لقد كان المنظر - كما يصنعه رواد الفضاء -

(١) هو أول رائد فضاء انطلق الى طبقات الجو العليا فى داخل صاروخ « فيوريوسى »

يشبه قطعة من المخمل الأسود ، مرصعة بالجواهر اللامعة .

وفوجئ « جاجارين » بما رآه ...

فوجئ بالتجربة الجديدة والمشهد الجديد ...

والمشهد الجديد كما ذكرنا آنفاً يوقظ الحس من غفلته ، ويوقظ المشاعر من سباتها ، ويحلى الكون جديداً كأنما يواجهه الإنسان لأول مرة ، فيدرك من دلائل إعجازه ما كان غافلاً عنه من قبل ، ويحس بيد الله المبدعة وآثارها في تضاعيف هذا الكون .

وهذا هو الذى حدث لجاجارين ..

لقد نسى كل إلحاده الذى ربّته المدرسة عليه ... نسى كل الدروس التى لُقّن فيها أنه لا وجود لله .. وأخذ يحملق فى الكون مدهوشاً من صنعة الله ، مبهوراً بما رآه من إعجاز ...

وحين هبط إلى الأرض كان أول تصريح أدلى به للصحفيين الذين استقبلوه :

« حين صعدت إلى الجو أخذتني روعة الكون فمضيت أبحث عن الله » !

وهكذا تنطق الفطرة حين تواجه الحقيقة !

وهذا على الرغم من كل الإلحاد الذى لُقّن لجاجارين^(١) !

كلا ! إن الفطرة لا يمكن أن تنكل أبداً عن الشهادة !

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا ۚ ﴾

(سورة الأعراف : الآية ١٧٢) .

إنما الذى يحدث أن الإنسان الضال يكابر فى هذه الحقيقة لأنه لا يريد أن يخضع

لله . ولو أقر علانية بوجود الله للزمه أن يطيعه وأن يعبدّه ، وهو - لأمر من الأمور -

(١) من طريف ما يروى أن الدولة غضبت على جاجارين بسبب هذا التصريح ، وأمرت أن ينسحب إليه ما يبيع

فقال : « فبحثت عن الله فلم أحده » . وشرحت الصحف نصريحه الثانى بعد الأول ساعات ١١

لا يريد . وبدلاً من أن يبدو مقصراً وناكلاً - باعتزافه - فإنه « بتفلسف » فيدعى أنه لا يؤمن بوجود الله .

وكيف يمكن للفطرة أن تنكل عن الشهادة ، والكون حولها - بكل ما فيه - يحاصرها ويردها إلى الحقيقة ؟

كيف تواجه الفطرة أمر الخلق ؟

كيف تحل المشكلة إنه لم تقر بوجود الله ؟

كيف إذن تم هذا الخلق الذى تدركه الحواس ولا سبيل إلى إنكاره : السماوات والأرض والشمس والقمر والنجوم والكواكب ... وكل ما على الأرض من شىء بما فيه الإنسان نفسه ؟

كيف تم .. ؟ بغير خالق ؟ هكذا من العدم ؟ !

ثم كيف انتظم بعد أن تم ؟

ثم كيف حافظ على نظامه كل تلك الملايين من السنين ، لا يحصيها العقل البشرى .

دون أن يحدث فى نظامه خلل أو اضطراب ؟ !

هل يتم ذلك كله بغير خالق ؟ !

وهل يتقبل العقل هذا القول ، حتى إن ضل هذا العقل وسار فى الظلمات ؟

يقولون إن « الطبيعة » هى الخالق !

كذبوا ! .. وما الطبيعة ؟ !

يقولون إن الطبيعة تخلق كل شىء ولا حد لقدرتها^(١) !

سبحان الله ! أليس هذا هو الله ؟ هو الذى يخلق كل شىء ولا حد لقدرته ؟ !

فلماذا نسمى الله بالطبيعة ؟ أى منطق فى هذه التسمية العجيبة ؟

(١) هكذا يقول دارون ، فيقر بالقدررة الإلهية ، ولكنه لا يسبها إلى الله !

ألا إنه الهوى ، وليس العقل ، وليست « الفلسفة » !

الهوى الذى يمنع الإنسان من الاعتراف بالحق مع أنه - فى داخله - يعلم أنه

الحق ! ﴿ وَحَدُوا بِهَا وَاسْتَفْتَيْنَاهَا أَنْفُسَهُمْ ظَلَمًا وَعُلُوًّا ﴾ (سورة النمل : الآية ١٤) .

ولكن القرآن يتحداهم .. يتحداهم منذ أربعة عشر قرناً .. وسيظل يتحداهم

حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

﴿ أم خلقوا من غير شيء ؟ أم هم الخالقون ﴾ ؟

أما أنهم الخالقون فأمر لم يزعمه أحد من المضلين !

بقى السؤال الأول بغير جواب : ﴿ أم خلقوا من غير شيء ﴾ ؟

وهو السؤال الملجِم المُسَكَّت . الذى لا يملك أحد من المكابرين أن يرد عليه

بالإيجاب .

ولم يبق إلا أمر واحد ، هو أن يكون هناك خالق ، هو الذى خلق الخلق بقدرته .

وهو الذى يدبر الأمر وحده بلا شريك ... وذلك هو الأمر الذى لا تملك الفطرة أن

تنكره وإن ضلّت وإن أمعنت فى الضلال ... إنما ينكره المكابرون باللسان ، لكبر فى

نفوسهم عن عبادة الله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ فَهُمْ سُلَاطِنُ أَتَشْعُرُونَ أَلَا يَكْبُرُ مَا هُمْ بِبَالِغِهِ

فَاستَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ (سورة غافر : الآية ٥٦) .

ونستعِذ بالله كما أمرنا القرآن . ونؤمن فى الوقت ذاته بأن أولئك الجاحدين

لا يححدون الله فى الحقيقة إنما هم فقط يتظاهرون ... وحتى إن وصلت الغاشية بهم إلى

أن تغشى قلوبهم وأرواحهم . وسعهم وأبصارهم . فهم عرضة لأن يتنظروا لحقيقة

الألوهية كما تيقظ لها جاجارين !

أسئلة

- ١ - ما حكم من ادعى علم الغيب ؟
- ٢ - ماذا تفهم من قوله تعالى : ﴿ عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال ﴾ ؟
- ٣ - دلل على أن علم الساعة وتنزيل المطر وعلم ما فى الأرحام ومجارى الكسب والآجال عند الله وحده .
- ٤ - ما معنى قوله تعالى ﴿ وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾ ؟
- ٥ - لو تتبعنا خصائص الإنسان فماذا تدلنا عليه ؟
- ٦ - ما الذى تفهمه من قوله تعالى ﴿ ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله ﴾ الآية ؟
- ٧ - دلل على أن الله هو الرازق والمحىى والمميت .
- ٨ - لماذا حقت كلمة الله على الذين فسقوا ؟
- ٩ - ما رأيك فىمن يقول : إن الطبيعة تخلق كل شىء ؟

تَيْقِظُ الْإِيمَانَ الْمُرْكُوزَ فِي الْفِطْرَةِ وَقْتُ الشِّدَّةِ

يُعَانِدُ الْإِنْسَانُ وَيُكَابِرُ فِي وَقْتِ الرِّخَاءِ . بَلْ قَدْ يَزِيدُهُ الرِّخَاءُ وَالْأَمْنُ غَفْلَةً وَبُعْدًا
عَنِ اللَّهِ إِنْ كَانَ مِنْ ذَوِي الْقُلُوبِ الْمَرِيضَةِ . وَلَكِنَّهُ فِي وَقْتِ الشَّدَةِ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَسْتَمِرَّ
فِي عُنَادِهِ وَمُكَابَرَتِهِ !

إِنَّهُ مِنْ جِهَةٍ يَنْكَشِفُ أَمَامَ نَفْسِهِ ، عَاجِزًا قَلِيلَ الْحِيلَةِ مُحْتَاجًا إِلَى الْعَوْنِ ، وَتَزُولُ
عَنْهُ عُنْجَبِيَّتُهُ الْفَارِغَةُ الَّتِي يَسْتَكْبِرُ بِهَا عَلَى اللَّهِ وَالنَّاسِ !

وَمِنْ جِهَةٍ أُخْرَى يَتَّقِظُ الْإِيمَانَ الْمُرْكُوزَ فِي فِطْرَتِهِ ، وَالَّذِي تَشْهَدُ بِهِ الْفِطْرَةُ كَمَا
قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ وَإِذَا أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَنبَهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمَ الْكُفْرَ بَرِيكَتُكَ
قَالُوا أَتَىٰ شَيْهَذَا ﴾ (سورة الأعراف : الآية ١٧٢) .

عِنْدَئِذٍ يَنْسَى الشُّرَكَاءَ الْمَزْعُومِينَ إِنْ كَانَ يَعْْبُدُ شُرَكَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْ مَعَ اللَّهِ . أَوْ
يَنْسَى إِلْحَادَهُ إِنْ كَانَ مِنَ الْمُلْحِدِينَ الْمُنْكَرِينَ لَوْجُودِ اللَّهِ أَصْلًا ، وَيَتَوَجَّهُ مِنْ أَعْمَاقِ
قَلْبِهِ إِلَى اللَّهِ الْحَقِّ ، يَدْعُوهُ لِيَكْشِفَ مَا بِهِ مِنْ سُوءٍ !

وَالْقُرْآنُ يَوَاجِهُ النَّاسَ بِحَقِيقَتِهِمْ لِيَكْشِفَهَا لَهُمْ ، وَيَكْشِفُهُمْ هُمْ أَمَامَ أَنفُسِهِمْ !
بَلْ إِنَّهُ يَوَاجِهُهُمْ بِحَقِيقَةِ أُخْرَى ، أَشَدَّ دَلَالَةً عَلَى مَا فِي نَفْسِهِمْ مِنْ انْحِرَافٍ .
فَيَا لَيْتَهُمْ بَعْدَ أَنْ عَرَفُوا اللَّهَ فِي وَقْتِ الشَّدَةِ ، وَانْكَشَفَ لَهُمُ الْحَقُّ مِنَ الْبَاطِلِ ،
وَأَدْرَكُوا أَنَّ اللَّهَ وَحْدَهُ هُوَ الْمَوْجُودُ الْحَقِيقِيُّ ، وَهُوَ الَّذِي يَمْلِكُ كَشْفَ الضَّرِّ ، وَهُوَ الَّذِي
تَحِبُّ عِبَادَتَهُ وَحْدَهُ دُونَ شَرِيكَ ، وَالتَّوَجُّهَ إِلَيْهِ وَحْدَهُ دُونَ شَرِيكَ ...

لَبَنَهُمْ بَعْدَ أَنْ عَرَفُوا كُلَّ ذَلِكَ قَدْ اسْتَقَامُوا عَلَيْهِ !

وَلَكِنَّهُمْ - لِمَا فِي أَنفُسِهِمْ مِنْ اعْوِجَاجٍ وَمَرَضٍ - مَا يَكَادُ يَنْكَشِفُ عَنْهُمْ الضَّرُّ الَّذِي
دَعَا اللَّهَ مِنْ أَجْلِهِ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ، حَتَّى يَعُودُوا سِيرَتَهُمُ الْأُولَى كَأَنَّهُمْ لَمْ يَحْدُثْ

شيء ، وكانهم لم يمروا بالشدة ، ولم يؤمنوا بالله في أثنائها !

وهذا الذي يواجههم به القرآن لعلمهم يراجعون أنفسهم فيدخلون عن انحرافهم

ويستقيمون :

(١) ﴿وَإِذْ آمَسَ الْإِنْسَانُ الضُّرْدَ عَانًا لِّجَنبِهِ أَوْ قَاعًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّكَانَ لَوْلَا دُعَاؤُ الْإِنْسَانِ إِلَىٰ مُرْسَمِهِ

كَذَلِكَ زَيْنَ السِّرِّينَ مَا كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٢﴾﴾ (سورة يونس : الآية ١٢) .

(٢) ﴿هُوَ الَّذِي يُبَيِّنُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَبَرَزْنَا بِكُمْ لِيَبْجَ طَيْبَةً وَفَرَجُوا لَكُمْ نَهَايَتْكُمْ عَنِ الْفُلِ أَنْ تَقُولُوا لَوْلَا دُعَاؤُ الْإِنْسَانِ إِلَىٰ مُرْسَمِهِ

الْفُلُجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أَحْبَبُوا إِلَيْهِمْ دُعَاؤُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ لَهُ الْذِّبُ لَنَ أَنْجَيْنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٣﴾

فَلَمَّا أَنْجَيْنَاهُمْ إِذَا هُمْ يَنْفُتُونَ فِي الْأَرْضِ يُبَيِّنُ الْحَيَاةَ الْآثِرَ لَهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَيِّنُكُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا تَرَالِيَا مِنْكُمْ

فَنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ (سورة يونس : الآيتان ٢٢ - ٢٣) .

هذه الآيات كلها من سورة يونس ، تصور حالة عامة للإنسان يصيبه الضر

فيلتجئ الى الله ، ويدعوه أن يكشف ما حلَّ به من الشدة . والآية تصوره على جميع

أوضاعه . فإذا كان الضر الذي أصابه قد ألجأه إلى النوم على جنبه من مرض أو نحوه

فإنه يدعو الله على حاله تلك : « دعانا لجنبه » وإن كان قاعداً أو قائماً دعا الله كذلك

في قعوده أو قيامه . أى أنه حيثما كان وضعه في حالة وقوع الضر عليه فإنه يلتجئ

إلى الله ضارعاً أن يصرف عنه ما به من سوء . وقد يكون الهم الذي حلَّ به همّاً نفسياً

لا جسمى ، وهو في هذه الحالة يدعو الله كذلك . يدعو في كل وضع من أوضاعه

« لجنبه أو قاعداً أو قائماً » لأن الهم الذي ركبهُ يُلازمه في جميع أحواله ، فيلجئه إلى

الدعاء في كل حال .

فهل حين يكشف الله عنه الضر يتذكر ؟

هــل يتذكر ككثير كان في وقت الشدة يدعوا إلى الله . موقفاً في دجلة معه ألا

﴿ فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضره ﴾ !

والتعبير القرآني بكلمة « مر » يصور تصويراً دقيقاً حالة ذلك الإنسان وقد عوفى من البلاء الذى حلَّ به ، سواء كان جثمانياً أو نفسياً ، فإذا هو منتفش مزهو . « يمر » دون مبالاة ولا اعتبار كأن لم يكن بالأمس القريب يجار بالشكوى ويجأر بالدعاء ! لقد نسى ! ﴿ وَإِذْ أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَمَّتْهُ الشُّرُودُ دُعَاءً عَرِيضاً ﴾ ! (سورة فصلت : الآية ٥١) .

أمّا الآيتان الثانيتان من سورة يونس فتصفان حالة خاصة . حالة قوم ركبوا فى سفينة والجو رخاء والريح ساكنة ، وهى تجرى بهم جرياً مطمئناً على صفحة الماء . فالقوم فرحون بركوبهم ، مستبشرون برحلتهم مستمتعون بها . وفجأة تهب الريح عاصفة فيتغير كل شيء فى لمحة ! تتغير الملامح والمشاعر والأفكار ! فيحل القلق محل الطمأنينة والانزعاج محل الاستبشار . ويبدو الكرب على الملامح التى كانت وادعة ناعمة من قبل !

فلمن يلجئون عندئذ ؟

إنه لا ملجأ إلا إلى الله !

﴿ دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين ﴾ !

لقد تقطعت بهم الأسباب . وتعلقت نفوسهم بقدر الله . علموا أنه لا منقذ لهم مما هم فيه من الكرب إلا رحمة الله . فالكرب أكبر من قوتهم . وهم عاجزون إزاءه ... والإنسان بطغى ويستكبر وهو يحس بالقوة . فيعتقد أنه لن ينهزم أمام شيء ! فإذا رأى قوته تتضاءل وتتضاءل حتى يدركها العجز ، ورأى الكرب يشتد حتى لم تعد له به قوة .. عندئذ يرى نفسه على حقيقتها ، ويذول عنه الكبر المزيف والطغيان . ويلجأ إلى القوة الحقيقية : قوة الله . موقناً أنها هى وحدها التى تنقذه ، وأن كل ما عداها هباء ...

والتعبير القرآنى يظهر هذه الحقيقة بوضوح : « دعوا الله مخلصين له الدين » .
ففى تلك اللحظة الحرجة ، لحظة الانقطاع من كل أمل فى الخلاص أو العون ،
يكون إحساس الإنسان بالذات الإلهية واضحاً مستقراً عميقاً فى النفس ، كأنما كان
هناك ستار يغشى هذه الحقيقة فى النفس فأنجاب الستار وانكشفت الحقيقة . ويكون
التوجه إلى الله مخلصاً كذلك . فالخطر الداهم مفرع ، والملجأ الوحيد هو الله . عندئذ
يتشبث الإنسان بالملجأ . صادق الرغبة فى الالتجاء . وحين يدعون الله مخلصين له
الدين يكونون فى لحظتها صادقين فى قولتهم : ﴿ لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من
الشاكرين ﴾ ذلك أنهم فى فزعهم يشعرون أن الله قد يرضى عنهم ويخلصهم مما هم
فيه من الكرب إذا تابوا إليه من انحرافهم واستقاموا على أمره ، فبلجنهم الفزع إلى نية
التوبة وإلى الوعد بالشكران . ولا يكون الشكران إلا بطاعة الله .

ولكن .. كم تبقى تلك المشاعر على إخلاصها ؟!

فقط لحين تنتهى الشدة ويزول الكرب !

﴿ فلما أنجاهم إذا هم يبغون فى الأرض بغير الحق ﴾ !!

ما أسوأ هذا الإنسان وما أخسره !

لقد عاد الستار الذى كان يحجب حقيقة الألوهية فى نفسه فانسدل كما كان .
وران على قلبه ما كان يرى عليه من قبل . ولم تكن تلك الصحوة إلا صحوة عارضة
أنشأتها الشدة ، فلما زالت الشدة عاد إلى ما كان فيه من غفلة . واستنام إلى ما كان
فيه من بهتان !

﴿ يا أيها الناس إنما بغيتكم على أنفسكم ، متاع الحياة الدنيا ﴾ .

نعم ! إنه متاع الحياة الدنيا ، ذلك المتاع الزائل الزائف هو الذى يلهيهم فينسيهم
ربهم . وينسيهم آخرتهم ، فيفرقون فى هذا المتاع القريب غافلين عن كل ما عداه .

ولكن بغيرهم هذا هو في الحقيقة على أنفسهم . فماذا بعد ذلك المتاع القصير .

المحدود بسنوات العمر المعدودة ، ولو خلصت سنوات العمر كلها للمتاع ؟!

﴿ثم إلينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون﴾ .

وعندئذ يذهب ذلك المتاع ، بل تذهب حتى ذكراه ، ولا يتبقى له إلا مصيره .

البائس الذى يذكر به فيناه ^(١) !

• • •

تجدد هذا المعنى مكرراً في القرآن في أكثر من موضع ، وتستطيع أن تراجع بنفسك

هذه الآيات .

(١) ﴿قُلْ لَنْ يُخَيِّبَكُمْ مِنْ ظُلْمِ الْبَرِّ وَالْعَبِيدِ عَوْنُهُ نَصَرَ غَاوٍ خُفِيَ لَهُنَّ أَجْزَاؤُهُنَّ مِنْ هَذِهِ، لَكُنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (١٢)

قَالَ اللَّهُ يُجِيبُكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ مُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ (سورة الأنعام : الآيتان ٦٣ - ٦٤) .

(٢) ﴿وَإِذَا مَكَرُ الشُّرُكِ وَالْكَافِرِينَ مِنْ دُونِكَ إِلَّا يَكِيدُ إِلَى آيَاتِ اللَّهِ فَلَا تَجْعَلْ لَهُمُ الْبِرَّ أَعْيُنُهُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ (سورة

الإسراء : الآية (٦٧) .

(٣) ﴿لَا يَسْتَأْذِنُ الْإِنْسَانُ مِنْ دَعَا الْخَيْرِ وَإِنْ مِنْهُ الشَّرُّ فَيَوْسُقُ غَلَاً﴾ (١) وَلَئِنْ أَدْنَاكَ رَحْمَةً مِنْكَ لَبَدْرٌ مِنْهُ يَقُولُ

هَذَا إِلَى وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي أَلْبِسُهُ لَلْعَنُ فُلَانٍ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَئِنْ يَفْقَهُ مِنْ ظُنَّ

عَلِّمْنَا (٥) (سورة فصلت : الآيات ٤٩ - ٥٠).

(١) حَدَّثَنَا الْحَلِيلُ بْنُ عَمْرٍو حَدَّثَنَا بْنُ سَمْعَةَ الْحَرَّاسِيُّ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ عَنْ حَمِيدِ الطَّوِيلِ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ

قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يُنْفَى بِهِ الْقَبِيحَةُ تَأْتِي أَهْلَ الدِّينِ مِنَ الْكُفَّارِ يُقَالُ ائْتَمَّوهُ فِي النَّارِ»

[illegible]

10. 3. 1967. 10. 3. 1967. 10. 3. 1967.

القرآن يتولى الرد على دعاوى المبطلين

يُبين الله في كتابه الكريم حقيقة الألوهية للناس كافة . فقد نزل القرآن للبشرية كلها منذ بعثة خاتم النبيين محمد ﷺ إلى أن تقوم الساعة . فلا نبى بعد محمد ﷺ ، ولا كتاب ينزل من عند الله بعد القرآن .

ولما كانت نقطة البداية بالنسبة للبشر جميعاً هي أن يتعرفوا على إلههم الحق لتستقيم أحوالهم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، فلا يعبدوا غيره ، ولا يتلقوا منهج حياتهم من غيره ، وإنما يعبدونه وحده سبحانه ، وينفذون مشيئته وحده ، فيكون لهم في الحياة الدنيا نظام رباني ينظم حياتهم ، ويكون لهم في الآخرة جزاء الحسنی : جنات تجري من تحتها الأنهار

لذلك فإن أهم ما يتولى القرآن بيانه للناس هو حقيقة الألوهية والربوبية .

وقد رأينا في الفصول الثلاثة السابقة كيف يتولى القرآن تعريف الناس بإلههم ، مرة بإيقاظ وجدانهم لآيات الله في الكون والحياة ، ومرة بمناقشة عقولهم بالبراهين والأدلة التي تبين الحق ، ومرة بتذكيرهم بما يكون منهم في أحوال الشدة من اللجوء إلى الله وحده وببذ كل شريك مع الله أو من دون الله .

ولكن القرآن لا يكتفى بهذا البيان المتعدد الوسائل ، بل يتبع دعاوى المبطلين واحدة واحدة يرد عليها ويفندها ، حتى لا يبقى عذر لأحد من البشر جميعاً بتعلل به في الإنحراف عن الإيمان بالله الحق .

ولقد كانت الدعوة الإسلامية تواجه وقت نزول القرآن ألواناً عديدة من الانحرافات

تتعلق بحقيقة الألوهية والربوبية

كانت الوثنية في الجزيرة العربية تعبد الأصنام وتعتبرها آلهة تُشارك الله في بعض

صفاته . كما كان بعضهم يعبدون الجن .

وكان المنحرفون من أهل الكتاب يزعمون لله ولداً : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ لِّرَبِّهِمْ ﴾
﴿ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ﴾ (سورة التوبة : الآية ٣٠) كما كانت العرب في الجاهلية
تقول : الملائكة بنات الله !

وكانت الجاهلية العربية تنكر على الله قدرته على البعث وتعد الحديث عنه جنوناً
لا يتقبله العقل !

والدهريون ينفون البعث أصلاً ، أو ينفون أن يكون لله دخل بالأمر كله :
﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّمْرُ ﴾ (سورة الجاثية : الآية ٢٤) .
كما كان هؤلاء جميعاً يقعون في شرك واحد مشترك هو عدم اتباع ما أنزل الله ،
والحكم بغير ما أنزل الله .

وتولى القرآن الرد على ذلك كله منذ أربعة عشر قرناً ، ففند تلك الدعاوى الباطلة
كلها . وأبطلها من أساسها . وبيّن وجه الحق فيها .

واليوم ينظر الإنسان إلى البشرية الضالة في أرجاء كثيرة من الأرض . فيجد
ضلالات اليوم كضلالات الأمس : ﴿ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا
الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (سورة البقرة : الآية ١١٨) .

ويجد أن القرآن قد تولى الرد عليها سلفاً منذ أربعة عشر قرناً ، وما جاءوا في إفكهم
بجديد ! ويحس الإنسان وهو يتلو القرآن ويتدبره كأنما يتنزل اللحظة للرد على أولئك
الشاردين وردهم إلى دعوة الحق !

﴿ كِتَابُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَذَّكَّرُوا أَيَّامَ غُرُوبِ الْأَلْبَابِ ﴾ (سورة ص : الآية ٢٩) .
وفي هذا الفصل نستعرض ردود القرآن على دعاوى المنحرفين . وسنرى أن
بعضها قد ورد من قبل في أثناء شرح طريقة القرآن في بيان حقيقة الألوهية وبعضها

لم يرد له ذكر من قبل ، وسنجد في نهاية الكتاب أنه قد تجمع لدينا بإذن الله بيان شامل بطريقة القرآن في معالجة الموضوع بتمامه .

(١) الشُّرْك

كان المشركون يعبدون آلهة شتى في صور أصنام ، أو يعبدون الملائكة أو يعبدون الجن ، ويزعمون أنها تشفع عند الله فيستجيب الله لشفاعتها ! أى أنهم يتوسلون بها إلى الله كما حكى عنهم القرآن : ﴿ مَا يَدْعُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ (سورة الزمر : الآية ٣) فبين القرآن حقيقة الأمر في هذا الشأن بطريقتين :

الطريق الأول : بيان أن الله وحده هو الخالق المدبر لهذا الكون ، فلا هو في حاجة إلى معونة من أحد على الإطلاق في تدبير الأمر ، ولا هناك من يقوم أصلاً بالتدخل في أمر الله ! فما دام لا يوجد أحد يُشارك الله في الخلق - وهو أمر لا يجادل فيه أحد حتى من المشركين - فكيف يوجد من يُشاركه في التدبير ؟ ﴿ أَلَا أَلْهَى الْخَلْقُ بِنَا لَآخِرَ بَسَاطَةِ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (سورة الأعراف : الآية ٥٤) .

والطريق الثانى : بيان عجز أولئك الشركاء عن أن يملكوا لأنفسهم نفعاً ولا ضرراً . فكيف ينفعون غيرهم أو يضرّونهم ؟! وأحياناً يجتمع الطريقتان معاً في الآية الواحدة أو مجموعة الآيات ، وأحياناً يختص السياق بواحد من الطريقتين .

« أ » فمن أمثلة الطريق الأول (وإن كان يحوى إشارة إلى الطريق الآخر) :

(١) ﴿ وَأَنَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْيَاهُ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (١٥) وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّظِّفُكُمْ بِهَا فِي بُطُونِهِمْ مِنْ بَيْنَ فَرْثِهِ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا يَشْرَبُونَ ﴾ (١٦) وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأعنَابِ تُخَذُّونَ مِنْهُ سَكْرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (١٧) وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الظِّلِّ الْيُوبَا وَمِنْ الشَّجَرِ مَا يُبْرِشُونَ ﴾ (١٨) كُلُّ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلَالًا يَخْرُجُ مِنْ بَطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (١٩) وَأَنَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَرْفَعُكُمْ مِنْ بَرَّةٍ إِلَى آرَافِ الْعُصْبِ لِكَيْ لَا تَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمِ شَيْءٍ أَنَا أَنَا اللَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ (٢٠) وَأَنَّهُ فَضَّلَ بَنِيكُمْ عَلَى بَعْضِ الرِّبِّقِ فَمَا الَّذِينَ خُضِّلُوا بِرَأْسِهِمْ قَدْ ضَلُّوا عَلَى مَا كُنْتُمْ أَبْنَاءُكُمْ قَدْ ضَلُّوا قَدْ ضَلُّوا ﴾ (٢١) وَأَنَّهُ جَعَلَ لَكُمْ

مِنْ أَفْئِكُمْ أَنْزَلْنَا مَا جَعَلْ لَكُمْ مِنْ أَنْفَاجِكُمْ بَيْنَ يَدَيْكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الْمُنْبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِعِزَّتِهِ هُزِّنْ عَفْرُونَ ﴿٧٢﴾ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْهُ شَيْئًا وَلَا يَسْتَلِيمُونَ ﴿٧٣﴾ (سورة النحل)

(الآيات ٦٥ - ٧٣) .

فهنا عرض مستفيض لآيات من آيات الله فى الخلق وفى الرزق معاً فى سياق واحد . فآية فى الماء النازل من السماء بقدرة الله يحبى الأرض بعد موتها وينبت فيها الزرع . وآية فى الأنعام يخرج الله من بطونها لبناً خالصاً سائغاً للشاربين . ومن أين يخرج هذا اللبن ؟ من بين فرث ودم . والفرث هو بقايا الغذاء المهضوم فى الأمعاء . وتحول العصارات الهضمية إلى دم ، ومرور هذا الدم على أعضاء الجسم المختلفة يعطى كل واحد منها غذاءه ، ثم قيام كل عضو بوظيفته بعد أن يتلقى غذاءه من الدم ، وقيام الغدد اللبنية فى الضرع بإفراز اللبن ، أو بعبارة أخرى تحول الفرث إلى دم ثم تحوله إلى لبن : كل ذلك من آيات الله المعجزة فى الخلق^(١) ، وهو كذلك من آيات الله فى الرزق الذى مَنَّ به على الإنسان . وآية فى النحل التى تأكل من رحيق الزهور وتخرج منه هذا الغذاء العجيب الذى لا تنحصر فائدته فى خواصه الغذائية فحسب ، بل هو شفاء لكثير من الأمراض . وهى كذلك آية فى الخلق وفى الرزق فى ذات الوقت . وآية فى خلق البشر واختلاف أعمارهم . ثم إشارة إلى وضع كان قائماً يومئذ عند العرب وهو وجود أرقاء بين أيديهم ، يستخدمه القرآن لتقريب القضية إلى أذهان المخاطبين به يومئذ ، فيقول إن الله فضَّل بعضهم على بعض فى الرزق فجعل بعضهم سادة وبعضهم عبيداً ، فهل يقبل السادة المفضلون أن يشركوا معهم عبيدهم فى السيادة والسلطة فيصبحوا سواء هم وعبيدهم ؟ فإذا كانوا لا يقبلون ذلك لأنفسهم

(١) لم تكن الأسرار العلمية الخاصة بتحول الفرث إلى دم ثم تحوله فى الضرع إلى لبن معلومة للبشرية كلها وقت نزول القرآن ، وإنما اكتُشِفَ ذلك كله من عهد قريب . وفى ذلك دليل لمن أراد الدليل على أن هذا القرآن من وحى الله ، فما كان لبشر من علم يومئذ بهذه الأشياء .

فلماذا يقبلونه بالقياس إلى الله سبحانه وتعالى فيشركون معه عبادة من عباده فيجعلونهم
 آلهة مع الله ؟ ثم يعود إلى آية أخرى في الخلق والرزق فيشير إلى أن الله جعل لكم
 من أنفسكم - أي من جنسكم - أزواجاً وجعل لكم عن طريق الزواج بنين وحفدة ،
 ورزقكم من كل الطيبات ... أف تكون نتيجة ذلك كله الكفر بدلاً من الشكر ؟ والكفر
 الذي يمارسونه هو الموضح في الآية الأخيرة : ﴿ ويعبدون من دون الله ما لا يملك
 لهم رزقاً من السماوات والأرض شيئاً ولا يستطيعون ﴾ .

وتبدو هذه العبادة شيئاً مُنكراً بعد عرض هذه الآيات كلها على الوجدان والعقل .
 ويبدو الذين يمارسونها قوماً ناقصي الآدمية ، لأنهم يؤمنون بالباطل على غير أساس ،
 ويحددون الحق بغير برهان .

(٢) ﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا يَشْرِكُونَ ﴾ (٥٩) ، أَمْزَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ
 وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنبِتُوا شَجَرَهَا ؕ إِلَهُ مَعَ اللَّهِ بَلْ مِمَّنْ قَوْمٌ يَعِدُونَ ۖ
 أَمْزَجَلَّ الْأَرْضِ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَافَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِي وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ؕ إِلَهُ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ
 لَا يَعْلَمُونَ ۚ أَمْزَجِبُّ الْمَضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَبُكَشِفُ السُّوءِ وَبِجَعْلِكُمُ الْآرْضَ ؕ إِلَهُ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا
 تَذَكَّرُونَ ﴿٦١﴾ أَمْزَيَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلِ الرِّيحَ بِشَرَائِبِ رَحْمَتِهِ ؕ إِلَهُ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ
 عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٢﴾ أَمْزَيَبْدُو الْخَلْقَ ثُمَّ يَبِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ؕ إِلَهُ مَعَ اللَّهِ قُلْ مَا تَزْعُمُونَ أَنْ كُنْتُمْ
 صَادِقِينَ ﴿٦٣﴾ ﴾ (سورة النمل : الآيات ٥٩ - ٦٤) .

(وقد سبق شرحه في الفصل السابق) .

(٣) ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ شُرِبَ مِثْلُ مَا نَسِيعُوا إِلَهُ إِنْ الَّذِينَ نَدَعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا
 لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفْذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾ (٧٢) ﴿ (سورة الحج الآية ٧٣) .

« ب » ومن أمثلة الطريق الثاني .

(١) ﴿ أَيْشِرْكُونَ مَا لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ (١١١) ﴿ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ ﴾ (١١٢)
 وَإِنْ نَدَعُوهُمْ إِلَى لَهْدَى لَا يَنْبَغُكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ ﴿١١٣﴾ إِنْ الَّذِينَ نَدَعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادُ

أَنَّا لَكُمْ نَادِعُونَ فَلْيَسْجِبُوا لَكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٨﴾ لَمْ أَزَلْ يَمْسُونَ بِهَا أَمْ لَمْ يَأْنِ لَهُمْ آيَةٌ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَمْ أَتِ بِبَصُورَةٍ بِهَا أَمْ لَمْ أَزَلْ يَسْمَعُونَ بِهَا فَلَا تَعْوُشْ كَاءَكُمْ تُمْكِدُونَ فَلَا تَنْظُرُونَ ﴿١٩٩﴾ إِنَّ وَلِيَّ اللَّهِ الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴿٢٠٠﴾ وَالَّذِينَ نَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِنْ نَدْعُهُمْ إِلَى الْمَدَى لَا يَسْمَعُوا وَرَبُّهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾ (سورة الأعراف الآيات ١٩١ - ١٩٨).

بدأت الآية الأولى بسؤال يوضح مفرق الطريق . فالإله الذي ينبغي أن يؤمن به الإنسان ويعبده هو الإله الخالق . فما بال هؤلاء المشركين يشركون آلهة لا تخلق شيئاً وهي ذاتها مخلوقة ، يصنعها الناس بأيديهم ثم يجعلونها آلهة ؟ (والإشارات كلها هنا إلى الأصنام) . هل في ذلك منطق يقبله العقل أو تقبله فطرة سوية ؟

ثم يستطرد السياق فيشرح حال هذه الأصنام التي يعبدها المشركون ، فهي لا تستطيع نصر أنفسها إذا اعتدى عليها معتد فضلاً عن أن تنصر غيرها ! وهي لا تسمع لو دعاها أحد ، فسواء عليك حدثتها أم لم تحدثها فالنتيجة واحدة !

ثم يقرر السياق حقيقة تشمل كل معبود من دون الله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالَكُمْ ﴾ ومع أن الإشارة ما زالت خاصة بالأصنام السابق ذكرها إلا أن هذا الوصف يدخل فيه كل مَنْ يُعْبَدُ وكل ما يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، سواء كانوا أشخاصاً من البشر أحياء أو أمواتاً ، أو كانوا من الجن أو الملائكة ، أو كانوا شجراً أو حجراً أو شمساً أو نجماً أو كوكباً من الكواكب . كلهم مخلوقات من مخلوقات الله ، ومن ثم فهم عباد لله : ﴿ عِبَادٌ أَمْثَالَكُمْ ﴾ فلا ينبغي التوجه إليهم بالعبادة أو الدعاء .

ويستمر السياق في وصف تلك الأصنام المشار إليها في الآيات : هل لها أرجل أو أيد أو أعين أو آذان ، لتمشى أو تبطش أو تبصر أو تسمع ؟ فلا شيء يا ترى يعبدها أولئك العابدون ، وهم يرونها أمام أعينهم بهذا العجز المزرى ؟ !

ثم يتوجه الخطاب إلى الرسول ﷺ أن يتحدثهم أن بضروه بأصنامهم تلك

- وقد كانوا يهدّدون الرسول ﷺ بأن تلك الآلهة المزعومة ستصيبه بالضرر نتيجة مهاجمته إياها ! - فيقول الله تعالى له : قُلْ لَهُمْ : هَلُمُّوا كِيدَكُمْ الَّذِي تَهْدّدُونَ بِهِ ، وَلَا تَتَأَخَّرُوا (لَا تَنْظُرُونِي) وَأُرُونِي مَاذَا تَسْتَطِيعُ آلِهَتُكُمْ أَنْ تَصْنَعَ ! إِنْ اللَّهُ هُوَ الَّذِي يَتَوَلَّانِي وَهُوَ يَتَوَلَّى الْمُؤْمِنِينَ الصَّالِحِينَ وَيَحْمِيهِمْ وَيَرْعَاهُمْ ، أَمَّا آلِهَتُكُمْ فَلَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَنْصُرَكُمْ إِنْ أَرَادَ اللَّهُ بِكُمْ ضَرًّا وَلَا تَسْتَطِيعُ حَتَّى أَنْ تَنْصُرَ نَفْسَهَا . وَهِيَ لَا تَسْمَعُ وَلَا تَبْصُرُ . فَهِيَ لَا تَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ وَلَا الدُّعَاءَ .

(٢) ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ۚ الَّذِي لَهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَخْزَ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقْدَرَهُ قَدِيرًا ۚ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيًّا وَلَا نُشُورًا ۝ ﴾
(سورة الفرقان : الآيات ١ - ٣) .

(٣) ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مِمَّا لَا يَنْجِي لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ۝ ﴾
(سورة الأحقاف : الآية ٥) .

(٢) ادّعاء الولد لله

يشارك في هذه الضلالة اليهود والنصارى ومشركو العرب . وهي ضلالة واحدة وإن اختلفت صورها . فاليهود يقولون : عزير ابن الله . والنصارى تقول : المسيح ابن الله ، ومشركو العرب كانوا يقولون : الملائكة بنات الله . والقرآن يتناول هذه الضلالة فيفندّها على نحو يُماثل ما يفند به ضلالة الشرك . لأنها شرك في الحقيقة وإن اتخذت صورة محدّدة . هي نسبة الولد لله سبحانه وتعالى .

(١) ﴿ إِنْ لِلَّهِ فَالِقُ الْخَيْبِ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْخَبْءَ مِنَ الْمِيتِ وَيَخْرِجُ الْمِيتَ مِنَ الْحَيِّ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْمِنُونَ ۝ (٩٥) فَالِقُ الْأَصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَشَمْسٌ وَمِنْجَلٌ يُفْرَجُ الْفَجْرُ خَسَامًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۝ (٩٦) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النَّجْمَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ قَدْ فُضِّلْنَا الْأَبَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝ (٩٧) وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَوْسِدٌ مَقْضِيَّ الْأَبَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝ (٩٨) وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ ۝ ﴾

فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنْ النُّحْلِ مِزَاجًا طَائِفًا فِي دَائِيهِ وَجَنَاتٍ مُزْنًا وَالزَّيْتُونَ وَالرَّهْمَانَ
 مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَنَبِّئًا أَنْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَجَعَلُوا لَهُ شُرَكَاءَ الْيَمْرَ
 وَخَلَقْنَاهُ وَخَرَقْنَاهُ سَبْعَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ ﴿١٢﴾ يَدْعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ يَكُونَا لَهُ وَلَدٌ
 وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٣﴾ ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ
 عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٤﴾ لَا تَذْكِرُكَ الْأَنْفُسُ وَهُوَ بِذِكْرِ الْإِنْسَانِ وَاللَّيْلِ وَالنَّجْمِ ﴿١٥﴾ (سورة الأنعام :
 الآيات ٩٥ - ١٠٣) .

هذا النصّ الشامل يُناقش قضية البُنية عامّة ، ويدخل فيه كل من بدعى الله ولدًا^(١) :
 ﴿ وخرقوا له بنين وبنات بغير علم ﴾ وهو يبدأ بعرض رائع لآيات الله في الكون ،
 يشمل مجالات واسعة من السماوات والأرض والإنسان والنبات ، تملأ الوجدان
 بحقيقة الألوهية ، وتعرف الناس بربهم الحق ، بحيث تبدو ضلالة المضللين بعدها غير
 ذات معنى ، وغير ذات موضوع .

تبدأ الآيات بتقرير أن الله هو الذى يخلق الحبّ والنوى ليخرج منه أنواع الزرع
 المختلفة . وهو حقيقة يغفل عنها الناس أحياناً فيحسبون أن الزرع ينبت من تلقاء نفسه .
 وما عليك إلا أن تبذر البذرة في الأرض وتروىها بالماء ! نعم إنك تصنع ذلك . ولكن
 من الذى يخلق الحبّة أو النواة فى باطن الأرض ليخرج منها النبتة الصغيرة التى تظل تنمو
 حتى تُثمّر ؟ أليس هو الله الخالق سبحانه ؟ أليس هو الذى أودع فيها خصائص النمو ؟
 أليس هو الذى يأذن لكل حبّة بذاتها أن تنمو .. وإلا فلا نماء ولا إنبات ؟ !

والله هو الذى يخرج الحى من الميت (كما ينبت الزرع من الأرض المجذبة)
 ويخرج الميت من الحى (بعد أن تنتهى دورة الحياة فى الكائن الحى فيموت) وكلاهما
 يتم بقدر من الله .

ويجىء التعقيب بعد ذلك : ﴿ ذلكم الله فأنى تؤفكون ﴾ ؟

(١) الولد فى اللغة بمعنى المولود فيشمل البنين والبنات .

ذلك هو الله الحق . الذى ينبت الزرع ويحيى ويميت . وهذه مجالات من مجالات قدرته . فهل من الشركاء من يفعل شيئاً من ذلك ؟ فأنى تصزفون عن الحق وتتعاطون الإفك ؟

وإذا كانت الجولة الأولى فى الحبّ والنوى ، والحيّ والميت على الأرض ، فالجولة الثانية فى الأفلاك :

﴿ فالتق الإصباح وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً . ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ .

إنَّ اللهَ فالتق الحبَّ والنوى هو كذلك فالتق الإصباح ، أى مخرج الصبح من باطن الظلمة ، كما تخرج النبتة المشرقة من باطن الأرض المظلم^(١) . وهو الذى جعل الليل سكناً . فمن حكمته سبحانه أن جعل عامّة الكائنات الحية التى خلقها تنشط للنور فى النهار وتسكن للظلمة فى الليل^(٢) . وبمناسبة الحديث عن النهار والليل يأتى الحديث عن الشمس والقمر فيقول : ﴿ والشمس والقمر حسباناً ﴾ أى أن الله جعل الشمس والقمر حسباناً ، وتحسب بهما الأيام والشهور والسنين كما أنهما هما ذاتهما لكل منهما دورة محسوبة بالحساب الربّانى الدقيق الذى لا يختل قيد شعرة ﴿ ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ ، وبسبب هذا الانضباط الدقيق يحسب بهما الإنسان الوقت ، ويتعلّم الإنسان الدقة من دقة الكون من حوله !

﴿ وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر ﴾ فتعرفوا بها اتجاءكم فى ظلمة الليل حيث لا نور ولا دليل .

﴿ قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون ﴾ وأى إنسان يطلع على هذه الآيات ويعلم دلالتها لا بدّ أن يهتدى إلى الله الواحد الذى لا ينبغى له شريك .

(١) تأمل روعة الأسلوب القرآنى وبلاغته الأخاذة .

(٢) هناك من خلق الله كائنات تنشط فى الليل وتسكن فى النهار ولكن الإشارة هنا للإنسان خاصة ثم لمعظم الكائنات

ثم هذه جولة ثالثة فى محيط الإنسان :

﴿ وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة ﴾ من آدم الذى خلقه الله من تراب ، ثم جعل منه زوجة حواء .

﴿ فمستقر ومستودع ﴾ إذ جعل الله النسل بعد ذلك يأتى بالتزاوج ، الذى يتم فيه التقاء الخلية المذكورة المستقرة فى صُلب الرَّجُل بالخلية المؤنثة فى مستودعها بالرحم .
﴿ قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون ﴾ فالأمر فى حاجة إلى تدبرٍ واعٍ يدرك هذه المعجزة فيدرك عظمة الصانع الحكيم .

وهذه الجولة الأخيرة فى عالم الثَّبات :

﴿ وهو الذى أنزل من السماء ماءً فأخرجنا به نبات كل شىء ﴾ فالنبات كله يحتاج إلى الماء ، ولا يخرج من الأرض بغير رى .

ثم يأخذ السياق فى التفصيل بعد الإجمال :

﴿ فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حباً متراكباً ، ومن النخل من طلعها قنوان دانية . وجنات من أعناب ، والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه ﴾ .

فهذا هو النبات كله يخرج أخضر طرياً فى مبدأ الأمر ثم يأخذ طريقه فى النمو ، فيخرج منه الحب المتراكب (مثل سنابل القمح والشعير وغيرها) ويخرج منه النخل بأنواعه والأعناب والزيتون والرمان ، مختلف الأشكال والألوان والروائح والمذاقات . بل إن كل نوع من هذه الأنواع تجد فى ثماره المتشابه وغير المتشابه ...

وحين يتملى الإنسان بخياله هذه اللوحة الجميلة المستلثة بأشكال النبات المختلفة ، فإن وجدانه يفعل بها ، ويحب أن يتأمل فيها ويشبع نظره منها ...

والسياق القرآنى بالفعل بدعوه إلى ذلك !

إنه هنا لا بدعوه إلى الأكل منها ! ففى مكان آخر من السورة يذكر الأكل :

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَاتَّقُوهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ (سورة الأنعام : الآية ١٤١) .

ولكنه هنا في هذا السياق لا يأمر بالأكل ولا يوجه إليه ، إنما يوجه إلى شيء آخر :
﴿ انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه ﴾ .

انظروا إلى هذا الجمال البديع الذي أخرجته يد الصانع المبدع ...

املثوا وجدانكم ومشاعركم بهذا الجمال ، ثم تدبروا ... فماذا نجدون في هذا
المنظر الرائع الأخاذ ؟

﴿ إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون ﴾ فكل من ينظر ويتدبر يجد الآيات التي
تهديه إلى الإيمان .

وهنا ، والوجدان في قمة تأثره ، يعرض السياق ضلالة المشركين فتبدو - بعد هذه
الآيات كلها - سخفًا لا معنى له وأمرًا تسمثر منه النفس ولا تسيغه :

﴿ وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم ﴾ فهم من خلقه ، ومع ذلك فهؤلاء المشركون
يجعلونهم شركاء له !

﴿ وخرقوا له بنين وبنات بغير علم ﴾ اختلقوا بنين وبنات نسبوهم إلى الله بغير
علم .. وأى علم هذا الذي ينتج هذه الأضاليل ؟ !
﴿ سبحانه وتعالى عما يصفون ﴾ .

﴿ بديع السماوات والأرض ﴾ الذي أبدعها على غير مثال .

﴿ أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم ﴾ .

يناقشهم بمنطقهم : كيف يكون له ولد وليست له زوجة ؟ وقد نسوا - وهم
يلفقون هذه الأبناء والبنات لله - نسوا أن يلفقوا له زوجة كذلك لتلد هؤلاء البنين
والبنات !

ثم إنه سبحانه وتعالى هو خالق كل شيء - وهم يقرون بذلك - فأى شيء يدعو الخالق أن يتخذ بنين وبنات ؟ ما حاجته إليهم وهو الذى يقول للشئ كن فيكون ، وهو صانع هذه الآيات المعروضة فى السماوات والأرض ... ﴿ وهو بكل شيء عليم ﴾ ؟

ثم يحىء التعقيب الأخير بعد عرض آيات الخلق ، ومناقشة الضالين فى ضلالتهم ، بحسم الأمر كله :

﴿ ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه ، وهو على كل شيء وكيل ﴾ .

ذلكم .. الخالق الذى رأيتم آيات خلقه .. هو ربكم الذى لا إله إلا هو ... فاعبدوه وحده مخلصين له الدين ، لا تشركوا به شريكاً من ولد مزعوم أو آلهة مدعاة .. وهو المسيطر المتصرف فى كل شيء : ﴿ وهو على كل شيء وكيل ﴾ .
﴿ لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير ﴾ .

لا تراه الأبصار فى الدنيا ، بينما يرى هو سبحانه كل الأبصار من عليائه ، وهو اللطيف الخبير بخلقهم وما يدور فى نفوسهم من أفكار ومشاعر ، سواء منهم المهتدى والمعن فى الضلال .

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۚ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا ۝٨٨﴾ نَكَادُ التَّمَوَاتُ يَنْقَطِرُنَ مِنْهُ ۚ وَنَشْأُ الْأَرْضُ ۚ وَنَخْرُجُ لِبَالِهَا ۚ هَذَا ۝٩٠﴾ أَنْ دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ۝٩١﴾ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝٩٢﴾ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا ۝٩٣﴾ لَقَدْ أَخْصَحَهُ وَعَدَّ هَزَعًا ۝٩٤﴾ وَكَلِمَةُ آيَةِ يَوْمِ الْقِيَمَةِ قَرْنَا ۝٩٥﴾ ﴿

(سورة مريم : الآيات ٨٨ - ٩٥) .

(٣) إنكار البعث

كان من أشد ضلالات العرب فى الجاهلية إنكارهم على الله أنه يستطيع أن يبعث

الموتى بعد أن ماتوا وتحولوا إلى تراب ! وبلغ بهم الأمر فى التكذيب أنهم كانوا يعجبون من الرسول ﷺ حين يحدثهم بأمر البعث حتى روى القرآن عنهم :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يَتَّبِعُكُمْ إِذَا مَرِضْتُمْ كُلُّ مُمْرِقٍ إِنَّكُمْ لَبِخْلٌ غَبِيَّةٌ ۝ (٧) أَفَهْدَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ ۝ (سورة ساء : الآيتان ٧ - ٨) .

وكان القرآن يُعالج هذا الأمر بتعريفهم بقدرة الله الخالق ، التى لا تنتهى عند حد ، ولا يعجزها شئ فى السماوات والأرض ، وأن الذى خلق الخلق أول مرة من العدم قادر على أن يعيد خلقه مرة أخرى ، ثم يريهم من آيات الأحياء حولهم ما يلفت نظرهم إلى عملية إخراج الحى من الميت معروضة أمامهم فى كل لحظة . والذى يستطيع أن يخرج الحى من الميت يستطيع حين يشاء أن يبعث الموتى ويردهم إلى الحياة :

(١) ﴿ وَالْقُرْآنُ الْحَكِيمُ ۝ (١) بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرُنُهُمْ فَكَانَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ۝ (٢) إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ۝ (٣) قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كَنْزٌ حَفِيبٌ ۝ (٤) بَلْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كَذِبًا مُّكْتَبًا ۝ (٥) أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا مِنْ فُجُورٍ ۝ (٦) وَالْأَرْضَ مَدَدْنَا حَابًا وَالْقَنَاطِيرَ الثَّقَلَاتِ سَوَاءً فَأَنزَلْنَاهَا نَارًا مُّصْفًى ۝ (٧) تَبَصَّرُوا وَكُلَّ شَيْءٍ عِنْدَ رَبِّهِ ۝ (٨) وَزَلَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَادًا فَكُنَّا بِهَذَا رَوِاسٍ وَأَبْنَيْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ رَوْحٍ ۝ (٩) تَبَصَّرُوا وَكُلَّ شَيْءٍ عِنْدَ رَبِّهِ ۝ (١٠) وَكُلَّ شَيْءٍ عِنْدَ رَبِّهِ ۝ (١١) وَكُلَّ شَيْءٍ عِنْدَ رَبِّهِ ۝ (١٢) وَكُلَّ شَيْءٍ عِنْدَ رَبِّهِ ۝ (١٣) وَكُلَّ شَيْءٍ عِنْدَ رَبِّهِ ۝ (١٤) وَكُلَّ شَيْءٍ عِنْدَ رَبِّهِ ۝ (١٥) ۝ (سورة ق : الآيات ١ - ١٥) .

تعرض الآيات مجالات القدرة الإلهية المعجزة التى تخلق وتحىي الموت ، فيبدو إنكار البعث بعدها تفاهة فى الفكر وسخافة فى العقل ، لا تصدر عن إنسان سوى التفكير

تبدأ الآية الأولى بذكر القرآن المنزل من الله على رسوله ﷺ يدعو إلى الهدى . ولكن الكافرين الذين نزل القرآن لهدايتهم عجبوا حين جاءهم المنذر ﷺ يحدثهم

عن البعث فقالوا : ﴿ هذا شيء عجيب ﴾ . وموضع العجب عندهم أنهم لا يتصورون أن الله يقدر على بعثهم بعد أن يصيروا تراباً فيقولون : ﴿ هذا رجع بعيد ﴾ .

ثم تقرر الآيات أن الله العليم سبحانه يعلم كل من يموت منهم فلا يضيع منهم أحد خارج علم الله ، وأن عنده سبحانه كتاباً مسجلاً فيه كل شيء . وذلك ردّاً على توهمهم أنهم إذا ضاعوا في الأرض وأصبحوا تراباً فقد ضاع كل أثر لهم على الإطلاق ! فهم يحسبون أنه ما دام قد ضاع منهم هم فقد ضاع من الله أيضاً ولم يعد الله قادراً على الإتيان به فضلاً عن بعثه من جديد !

ثم يلفت السياق نظرهم إلى آيات الخلق من فوقهم ومن حولهم . فهذه السماء الضخمة وهذه الأرض الممتدة إلى آخر مدى النظر وما فيها من جبال وزروع ...

ثم يُعَدُّ الآيات الدالة على قدرة الله على الإنشاء والإحياء ، فمن الماء النازل تنبت في الأرض جنّات من الفاكهة وزروع تنتج الحبّ والنخيل الباسقات وكلها رزق للعباد . وبالمطر يحيى الله الأرض الموات المجذبة . وبالكيفية ذاتها يحيى الموتى . ويخرجهم من الأرض كما يخرج النبات والزرع . إن عملية الإحياء واحدة في الحالين ، والذي يقدر على الأولى يقدر على الثانية ، ولكن البشر المطموسى البصيرة لا يدركون هذه الحقيقة ، فيسلمون بالأولى ولا يسلمون بالثانية .

ويذكر السياق أنهم ليسوا وحدهم الذين يكذبون بالبعث . فقد كذبت قبلهم جاهليات كثيرة يُعَدُّ منهم السياق قوم نوح وأصحاب الرس وثمود وعاداً وفرعون وإخوان لوط وأصحاب الأيكة (قوم شعيب) وقوم تبع . ثم يقدم النذير للعرب المنكرين : إن هؤلاء الأقوام كلهم كذبوا فدمّر الله عليهم وحقق فيهم وعيده : وهؤلاء إن أصرّوا على تكذيبهم فليس لهم عند الله إلا ذات المصير .

ويختم السياق بهذا السؤال الذي يُقرّر الحقيقة : ﴿ أفعينا بالخلق الأول ﴾ ؟

لقد خلق الله الكون كله من قبل ، وها هم أولاء يرون الكون متمسكاً أمامهم مما يدل على عظمة الخالق وقدرته ، فعلى أى أساس يشكون فى قدرته على البعث ؟ !

(٢) ﴿ الْمَرْتِلِكْ آيَاتِ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ① ﴾ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بَلِّغَاءُ رَبِّكُمْ تَوْفَيقُونَ ② وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رِزْقًا وَأَنَارًا وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا رُوحَاجِينَ أَشْنِينَ يُمْشِي تِلْكَ الْأَشْجَارِ أَنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ③ وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مِّمَّا وَرَدَّتْ وَجَنَاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَيْتُونَ وَنَخِيلٌ صُفْوَانٌ وَغَيْرُ صُفْوَانٍ يُسْوِئَاءٌ وَاحِدٌ وَتُفَضَّلُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ④ وَإِنْ تَحِبَّ فَحِبِّ قَوْلَهُمْ إِذَا كُنَّا زُرَّاءَ آفَاقٍ إِلَى خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَاقُ فِي آغْنَاهُمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ⑤ ﴾ (سورة الرعد: الآيات ١ - ٥).

(٣) ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ⑥ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ⑦ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقَدُونَ ⑧ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ⑨ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ⑩ فَسُبْحَانَ الَّذِي يَبْدِئُ مَلَكُوتَ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ رُجُوعُ ⑪ ﴾ (سورة يس: الآيات ٧٨ - ٨٣).

أسئلة

١ - دلل على أن الله تعالى أخذ على عباده العهد والميثاق أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً .

٢ - ماذا تفهم من قوله تعالى ﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٌ ﴾ ؟

٣ - لخص الصفحتين الأوليين من موضوع تولى القرآن الرد على دعاوى المبطلين .

٤ - ما حكم الشرك ؟ وهل يملك الشركاء لأنفسهم نفعاً أو ضرراً ؟

٥ - الله سبحانه وتعالى مبرأ عن الصاحبة والولد . فمن يدعى زوراً وبهتاناً أن الله ولد ؟

٦ - ما عقبتك فى البعث . وما حكم إنكاره ؟ دلل على ما تقول .

تثبيت الإيمان

لا ينتهى دَوْر القرآن مع النفس البشرية عند بيان العقيدة السليمة ومناقشة الانحرافات التى تقع فيها الجاهلية بشأن حقيقة الألوهية والربوبية . إنما يخطو خطوة أخرى لبصل إلى تثبيت تلك العقيدة الصحيحة ، وتركيز الإيمان بالله الواحد المتزه عن الشريك والشبيه .

ووسيلته الكبرى إلى ذلك هى التذكير : ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَ تَنَفَّعَ الْمُؤْمِنِينَ ۝٥٥ ﴾
(سورة الذاريات : آية ٥٥) .

التذكير الدائم بعظمة الله التى لا تحد ، وآيات قدرته فى الآفاق ، والأنفس حتى يجمع القلب ويستسلم لله .

والتذكير الدائم بأن الله مع الإنسان يراه ويراقبه ويحصى عليه أعماله ، ثم يحاسبه عليها يوم القيامة . حتى تصبح تقوى الله جزءاً لا يتجزأ من مشاعر القلب . وركيزة ثابتة فى الضمير

وكذلك يوجه القرآن القلب البشرى إلى ذكر الله دائماً فى حالة السراء والضراء . ففى السراء يذكر الله شاكراً لأنعمه ، وفى الضراء يذكر الله صابراً ومتطلعاً إليه سبحانه ليكشف عنه سوء .

ثم يورد القرآن القصص التى تثبت الإيمان . قصص الانبياء وأتباعهم من المؤمنين الذين صبروا على الأذى حتى جاءهم نصر الله . وقصص الكفار الذين كذبوا وعاندوا حتى دمر الله عليهم بكفرهم .

وأخيراً يرسم القرآن صوراً محببة للمؤمنين وصفاتهم ، وما ينتظرهم من الجزاء فى الآخرة مخلدين فى الجنات ، وصوراً كريهة مُنفرة للكافرين وصفاتهم وما ينالهم من العذاب يوم القيامة .

ويظل القرآن يُكرَّر هذه التوجيهات حتى ترسخ في النفس . وحتى يصبح الله حاضراً في القلب لا يغفل الإنسان عن ذكره . فتستقيم مشاعره ، ويستقيم سلوكه .
ويصبح عبداً ربانياً مُقرباً إلى الله في الدنيا والآخرة ، فيرزقه الله الطمأنينة والسعادة في الدنيا ، ويمنحه في الآخرة جنته ورضوانه .
وفيما يلي نستعرض نماذج من آيات الكتاب الكريم كما فعلنا في الفصول السابقة من الكتاب : -

(١) التذكير بعظمة الله وآيات قدرته في الآفاق والأنفس

سبق لنا أن ذكرنا نماذج من الآيات في الفصول السابقة كلها تتحدث عن عظمة الله التي لا تحد ، وقدرته التي لا يعجزها شيء في السماوات ولا في الأرض . وبينما أن القرآن يستخدم آيات الله في الكون حين يخاطب الوجدان ، وحين يخاطب العقل ، وحين يرد على دعاوى المبطلين سواء في الشرك أو في ادعاء الولد أو في إنكار البعث أو إنكار وجود الله ، إن وُجدَ في الأرض مَنْ ينكر وجود الله !
وقد كانت النماذج السابقة كلها تكفينا لبيان اهتمام القرآن بإبراز هذه الآيات ، لتوضيح العقيدة السليمة وتركيزها في النفس كذلك .
ولكن كثرة النماذج في القرآن الكريم تجعلنا لا نكتفي بما سردناه منها من قبل ، على كثرتة ، بل نضيف إليه نماذج جديدة ، نستطيع أن تراجعها على ضوء الأمثلة المشروحة في الكتاب من قبل . ولكن ينبغي أن نعرف أن القرآن لا يعرض هذه الآيات لكي تكون مجرد معلومات تستقر في ذهن الإنسان وينتهي بها الأمر هناك ، وإنما يريد الله سبحانه وتعالى من التذكير المستمر في القرآن بآياته في الأنفس والآفاق أن تؤثر هذه الحقائق في القلب البشري تأثيراً دائماً لا ينتهي عند لحظة التأمل العابضة . بل يظل في القلب ويستقر فيه ، حتى يتحوَّل الإيمان بالله إلى حقيقة راسخة في نفس الإنسان .

تنعكس في سلوكه الواقعي .

فما قيمة أن أعرف أن الله خلق السماوات والأرض . وأن له آيات معجزة في كل شيء خلقه ، ثم ينصرف قلبي بعد ذلك عن ذكر الله ، وينصرف عن طاعته فيما أمر به وما نهى عنه ؟ !

وما قيمة أن أعرف أن الله سبحانه وتعالى واحد لا شريك له . وأنه خلق الكون بقدرته . وأبدع فيه ما أبدع . ثم لا أسأل نفسي حين أقوم بعمل من الأعمال : هل هذا العمل يرضى الله أم لا يرضيه ؟ !
كلا ! لا قيمة إذن لهذه المعرفة !

ولقد كان العرب في الجاهلية يعرفون أن الله هو الذي خلق السماوات والأرض . وهو الذي خلقهم هم أنفسهم . والقرآن يسجل عليهم ذلك :

﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ (سورة لقمان : الآية ٢٥) .

﴿ وَتَبَيَّنَ لَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ يَقُولُ اللَّهُ ﴾ (سورة الزخرف : الآية ٨٧) .

ولكنهم رغم علمهم بهذا لم يكونوا يعبدون الله حق عبادته . وكانوا يشركون به آلهة أخرى ، ويخالفون عن أمره فيما أمر به وما نهى عنه . ولذلك لم تنفعهم معرفتهم شيئاً . وسماهم الله جاهليين . وقال عنهم إنهم لا يعلمون .

إنما يريد الله سبحانه وتعالى من عباده أن يعرفوا عظمتهم وجلاله ليعبدوه حق عبادته ويطيعوه في سلوكهم الواقعي . ولذلك يظل يذكرهم بآياته في السماء والأرض وفي أنفسهم حتى تخشع قلوبهم ، ويستقر فيها الإيمان ، ويتحول إلى عمل في واقع الأرض .

« أ » آيات الخلق والإبداع في السماوات والأرض .

(١) ﴿ وَإِنَّ لَهُمُ الْأَرْضَ الْمِيثَةَ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَنَهُ بِأَكْلُونَهُ ﴾ (٢٢) وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَجِيلٍ

وَأَغْطَابَ وَخَرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ (٢٤) لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ (٢٥) سُحُبًا اللَّذِي يَخْلُقُ الْأَرْضَ
كُلَّهَا فَمَا تَتَذَكَّرُ الْأَرْضُ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمَا لَا يَعْلَمُونَ (٢٦) وَأَيُّ لَمْ يَلْبَسْ مِنْهُ الشَّمَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ (٢٧)
وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٢٨) وَالْقَمَرَ قَدَرْنَا مَسَارِجَ هَدًى كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٢٩)
لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿ (٣٠)

(سورة يس: الآيات ٢٣ - ٤٠).

﴿ (٢) وَالْأَرْضُ مَدَدًا نَاهَا وَالْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ (١٩) وَجَعَلْنَا لَكُمْ
فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ (٢٠) وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (٢١) وَأَرْسَلْنَا
الْريَّاحَ لَوَافِحَ فَمَا تُسَدِّدُكَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتَسْقِينَا كُوَّةً وَمَا أَنْشَدُهُ بِخَازِنِينَ ﴿ (٢٢)

(سورة الحجر: الآيات ١٩ - ٢٢).

﴿ (٣) أَلَمْ نَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا (١٥) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا (١٦) وَاللَّهُ
أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا (١٧) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ أَجْرًا (١٨) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا (١٩) لِتَسْلُكُوا فِيهَا
سُبُلًا فَيُجَاوِزَ ﴿ (سورة نوح: الآيات ١٥ - ٢٠).

﴿ (٤) أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا (١) وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا (٢) وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا (٣) وَجَعَلْنَا بَيْنَكُمْ
سُبُلًا (٤) وَجَعَلْنَا الْبَلَدَ لِبَاسًا (٥) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا (٦) وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا (٧) وَجَعَلْنَا سِرَاجًا
وَعَاجًا (٨) وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا (٩) لِيُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا (١٠) وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴿ (١١)

(سورة النبأ: الآيات ٦ - ١٦).

﴿ (٥) فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ (٢١) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنْبَتْنَا
فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعَبَا وَقَضًا (٢٨) وَزَيَّنَّاها وَخَلَلًا (٢٩) وَحَدَّاقًا غُلَبًا (٣٠) وَمَا كُنَّا وَكَا (٣١) مَسَاءَ لَكُمْ وَلِئَامِكُمْ (٣٢)
(سورة عبس: الآيات ٢٤ - ٣٢).

﴿ (٦) أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (١٩)
وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿ (سورة الفاشية: الآيات ١٧ - ٢٠).

«ب» آيات القدرة المعجزة في الأنفس :

(١) ﴿ وَاللَّهُ خَرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ

تَتَكُونُونَ ٧٨ ﴾ (سورة النحل : الآية ٧٨) .

(٢) ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ٥٤ ﴾

(سورة الفرقان : الآية ٥٤) .

(٣) ﴿ ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ١ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ

مِنْ طِينٍ ٧ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ٨ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ

فَلْيَا مَا تَشْكُرُونَ ٩ ﴾ (سورة السجدة : الآيات ٦-٩) .

(٤) ﴿ قُلْ هُوَ يَوَاعِظُكُمْ ١٧ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ١٨ مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِاللَّهِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ ١٩

إِذْ يُوحَىٰ إِلَى الْإِنْسَانِ أَن بَشِّرْهُ ٢٠ إِذَا مَا رَبُّكَ لِلنَّاسِ كَإِنِّي خَالِقُ بَشَرٍ مِنْ طِينٍ ٢١ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ

رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ٢٢ ﴾ (سورة ص : الآيات ٦٧-٧٢) .

(٥) ﴿ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلْ مِنْهَا زُجْجًا وَأُنْثَىٰ لَكُمْ مِنْ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي

بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ عَدَمٍ خَلَقَ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٌ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ مَا تَتَصَوَّرُونَ ١ ﴾

(سورة الزمر : الآية ٦) .

(٦) ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ٥ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ ذَافِقٍ ١ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ٧ ﴾

(سورة الطارق : الآيات ٥-٧) .

«د» في تدبير الكون بغير شريك :

(١) ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلُّ فِي كِتَابٍ

مُبِينٍ ﴿١﴾ ﴾ (سورة هود: الآية ٦) .

(٢) ﴿ أَلَمْ نَرَأِ اللَّهَ يُزِيلُ سَجَابَاتٍ بِأَمْرٍ يُؤْتِي بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ

مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيُغْفِرُ عَنِ مَنِيئِهِ ۚ يُكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ﴿٢﴾
يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ (سورة النور: الآيتان ٤٣ - ٤٤) .

(٣) ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعْمِرُ

مِنْ مُعْمَرٍ وَلَا يَنْقُصُ مِنْ عُمرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ
وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلِّ تَاكُلُونَ لَهَا طَرِيقًا وَتُسَخَّرُ جُودٌ حَلِيقَةٍ تَلْسُونَهَا وَتَرَى الْفُلُكَ فِيهِ مَوَازٍ تَلْبَنُغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَهُمْ
تَشْكُرُونَ ﴿٢﴾ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُسَخَّرُ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ
لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ فِطْمِيرٍ ﴿٣﴾ ﴾ (سورة فاطر: الآيات ١١ - ١٣) .

(٤) ﴿ قُلْ إِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿١﴾

وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَفَدَّرَ فِيهَا أَنْهَارًا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلنَّاسِ لَيْلٌ ﴿٢﴾ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ
دُحَانٌ فَغَالَهَا وَوَلَّى الْأَرْضَ انْبِثَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتْ أَبْنَا طَائِعِينَ ﴿٣﴾ فَفَضَّهِنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ
سَّمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ وَحِفْظٍ ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٤﴾ ﴾ .

(سورة فصلت: الآيات ٩ - ١٢) .

(٥) ﴿ يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ ﴾ الرحمن: الآية الرحمن: (٢٩) .

(٦) ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ هُوَ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ ﴾ المجادلة: الآية المجادلة: (٢١) .

(١) هذه الأيام الأربعة يدخل فيها اليومان السابقان اللذان خلق الله فيها الأرض ، فتكون بالإضافة إلى اليومين

المذكورين في الآية التالية: الخاصين بخلق السماوات ستة أيام في مجموعها .

« هـ في تأييد الرسل بالمعجزات :

(١) ﴿ وَمَا تِلْكَ يَمِينُكَ يَا مُوسَىٰ (١٧) قَالَ مِعْصَاهُ أَتَوَكَّنُ عَلَيْهَا وَاضْمُرُهَا عَلَىٰ غَبِيٍّ وَلِيْفِيهَا مَا رُبَّ أُخْرَىٰ (١٨) قَالَ أَلَيْهَا يَا مُوسَىٰ (١٩) قَالَتْهَا فَإِذَا هِيَ حِجَّةٌ نَسَىٰ (٢٠) قَالَ خُذْهَا وَلَا تَحْزَنْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ (٢١) وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ الْجَنَاحِ فَخَرَجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سَوَاءٍ أَيْ أُخْرَىٰ (٢٢) لِرَبِّكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَىٰ (٢٣) إِذْ هَبَّ الريحُ فَفَزِعْنَاهُ إِنَّا هَمْنَاهُ (٢٤) ﴾ (سورة طه : الآيات ١٧ - ٢٤) .

(٢) ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَبَدْنَاكَ بِالرُّوحِ الْقُدُسِ عَلَىٰ مَكَّةَ النَّاسِ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَادْعُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَادْخُلُوهَا مِنَ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنَعُمْ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَادْخُلُوهَا بِإِذْنِي ﴾ المائدة : الآية ١١٠ .

(٣) ﴿ يَا ذَكَرْنَا إِنَّا نَبُشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا (٧) قَالَ رَبِّ إِنِّي بَعَثْتُ نَذِيرًا وَكَانَتْ أُمْرَاتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا (٨) قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ مَوْعِدًا عَلَىٰ هَينٍ وَقَدْ خَلَقْنَاكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ نَكُنْ نَشِيًّا (٩) ﴾ مريم : الآيات ٧ - ٩ .

(٤) ﴿ قَالُوا خَرُّوا وَانصُرُوا الْهَيْكَلُ إِن كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (٦٨) هُنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ (٧٠) ﴾ الأنبياء : الآيات ٦٨ - ٧٠ .

(٥) ﴿ وَلَقَدْ أَنبَأْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا بِأَجَالٍ أَوْيَ مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَالنَّكَّالَةَ الْحَدِيدَ (١٠) أَنْ أَعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١) ﴾ سبأ : الآيات ١٠ - ١١ .

(٦) ﴿ وَلِسَلْمُنَ الرَّيْحُ عُدُوهُمَا شُهُدٌ وَرَوَاهُمَا شُهُرٌ وَسَكَنَالَهُ عَيْنُ الْقَطْرِ وَمِنْ الْجَنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَرِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نَذَرُهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ (١٢) يَعْلَمُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَابِبَ وَمَا يُبْلِغُ جَنَانًا كَالْجَوَابِ وَفُورًا رَاكِيبَاتٍ أَعْلَمُوا أَنَّ دَاوُدَ شَكَرًا وَقِيلَ مِنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ (١٣) ﴾ سبأ : الآيات ١٢ - ١٣ .

(٢) التذكير بمراقبة الله للإنسان

(١) ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَنْزِبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ شِفَاءٍ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَضْفَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (سورة يونس الآية ٦١).

(٢) ﴿وَأَنْجِمَهُ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَ وَأَخْفَى﴾ (سورة طه : الآية ٧).

(٣) ﴿يَا بَنِي آدَمَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ شِفَاءَ الْجَنَةِ مِنْ خَزَائِلٍ فَكُنْ فِي صَفْوَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَاتِ بِهَا اللَّهُ إِنْ أَلَّهُ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ (سورة لقمان : الآية ١٦).

(٤) ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَصْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾ (٢) ﴿وَمَا كَانَ الَّذِي كَفَرُوا إِلَّا نَذِيرًا لِلْعَالَمِينَ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَأَتِيَنَّكُمْ عَذَابٌ مِنْ غَيْبِ اللَّهِ يُعَذِّبُ عَنْهُ شِفَاءُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَضْفَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (٣) ﴿لِيُعَذِّبَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ (٤) ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا بِآيَاتِنَا مُعَاجِرِينَ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ (٥) (سورة سبأ : الآيات ٢-٥).

(٥) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَافِعُ أَمْرِهِمْ وَلَا يَخْفَى مِنْهُ شَيْءٌ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ إِنْ مَكَانُوا أَوْ لَمْ يَبْسُتْهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (سورة المجادلة : الآية ٧).

(٦) ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ الْجَهْمَ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهُ﴾ (سورة الأعلى : الآية ٧).

(٣) توجيه القلب البشري إلى ذكر الله

(١) ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَا فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِلَعَلَّهُمْ

(٢) ﴿أَدْعُوكَ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يَجِبُ الْمُعْتَدِينَ ۝٥٥﴾

(سورة الأعراف: الآية ٥٥).

(٣) ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ۝٢٨﴾

(سورة الرعد: الآية ٢٨).

(٤) ﴿فَبُيُوتِ إِذْ رَأَىٰ أَن زُرَعَ وَيُذْكَرُ فِيهَا اسْمُهُ يُسْمِعُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۝٣٦ رَجُلًا لَا تُلْهِمُهُمْ مَّجَارَةً وَلَا تَتَّبِعُ عَنْ ذِكْرِهِمْ ۝٣٧ وَاللَّهُ أَعْلَمُ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝٣٨﴾

(سورة النور: الآيات ٣٦-٣٨).

(٥) ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَابًا ۝ تَفْصِيلُ مِنْهُ جُلُودٌ لِّالَّذِينَ يُحْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ يَلْبِثُونَ فِي جُلُودِهِمْ ۝ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَىٰ اللَّهِ يَهْدِي بِمَنْ يَشَاءُ ۝﴾ (سورة الزمر: الآية ٢٣).

(٦) ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۝﴾ (سورة غافر: الآية ٦٠).

(٤) قصص الأنبياء

يرد هذا القصص في كثير من سور القرآن وخاصة في سورة الأعراف وسورة يونس وسورة هود وسورة مريم وسورة طه وسورة الأنبياء وسورة الشعراء وسورة النمل وسورة القصص. ويمكنك مراجعة هذه السور في المصحف، وستجد قراءتها سهلة ميسرة. وستجد خاصة في «الأعراف» و«هود» و«الشعراء» أن القرآن يلفت نظرنا إلى أمور معيئة في حياة هؤلاء الأنبياء؛

أولاً : أنهم كلهم جاءوا بكلمة واحدة هي «لا إله إلا الله» «اعبدوا الله ما لكم من إله غيره» وهذا يبين لنا أن أهم شيء يرسل الله الرسل من أجله هو

تعريف البشر برهم وخالقهم ، ليعرفوا أنه إله واحد وليعبده ، ولا يشركوا به شيئاً .

ثانيًا : أنهم كلهم قد لقوا التكذيب من قومهم ، وتعرضوا للاضطهاد والايذاء والتهديد بالقتل أو الطرد ، ولكنهم لم يتنازلوا عن رسالتهم ، ولم يتخلوا عن دعوتهم وهذا يُبين لنا أن العقيدة هي أغلى شيء في حياة الإنسان . وأنه مهما أودى في سبيل عقيدته فلا ينبغي له أن يفرط فيها أو يتساهل في أمرها .

ثالثًا : أنهم حين تعرضوا للتكذيب والاضطهاد لجأوا إلى ربهم ، يشكون إليه ما فعله قومهم بهم ، ويستغيثون به أن يفرج كربتهم وينجيهم ومن معهم من المؤمنين ، ولكنهم صبروا على الأذى ولم يغيروا موقفهم . وهذا يُعلمنا أن المؤمن في موقف الشدة يلجأ إلى الله ، ويتوجه إليه بالدعاء لكي يخلصه من شدته ، ولكنه يثبت ويصبر حتى يأتي نصر الله ، ولا يضعف ولا ينهار .

رابعًا : أن الله كان دائماً ينصر رُسُلَه والذين آمنوا في نهاية الأمر ، بعد أن يصبروا على الشدائد ومحافظوا على عقيدتهم ولا يتخلوا عنها أبداً . وهذا يُعلمنا ألا نقنط من رحمة الله أبداً مهما اشتد بنا الضيق ، ونتطلع إلى الله دائماً أن يرفع عنا الكرب مادمنا محافظين على صلتنا بالله ، مستقيمين على أمره ، مهتدين بهداه .

خامسًا : وفي القصص عبرة أخرى كذلك هي أن أهل الباطل مهما بدا في وقت من الأوقات أنهم متمكنون في الأرض ومسيطرون فإن الله يملئ لهم ولكنه لا يفلتهم من عقابه في الدنيا ولا في الآخرة . كما يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « إن الله يملئ للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » رواه البخاري عن أبي موسى رضي الله عنه .

وإليك بعض النماذج من القصص القرآني :

(۱) ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهِ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ﴾

عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرُكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦١﴾ أَلَمْ يَكُنْكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي فَأَنصَحْكُمْ وَأَعْلَمْ مِنْ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوْعَيْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فَاغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عِزًّا ﴿٦٤﴾ ﴿ (سورة الأعراف: الآيات ٥٩ - ٦٤) .

﴿ ٢ ﴾ **وَالِیٰ تَمُودَ اَخَاهُمْ صَاحِبًا قَالَ یَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللّٰهَ مَا لَکُمْ مِنْ اِلٰهِ غَیْرُهُ هُوَ اَنْشَاَکُمْ مِنْ اَرْضٍ**

وَأَسْتَعْمِرْكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ رَوَّا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ ﴿١١﴾ قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا
اسْتَهْنَأْ أَوْ عَبْدُ مَا عَبَدُ أَبَاؤُنَا وَنَسْنَا لَكَ شَيْئًا مِمَّا دَعَوْنَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ ﴿١٢﴾ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّي
وَأَتَيْتُ مِنْهُ رَحْمَةً فَزَيْتُ بِهَا مِنْ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْبِيرٍ ﴿١٣﴾ وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَافَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ
فَذَرُوهَا تَاكُلْ فِي أََرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿١٤﴾ تَعَفُّوهَا فَالْتَمِعُوا فِي ذِكْرِ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ
غَيْرُ مُكَذُّوبٍ ﴿١٥﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿١٦﴾ وَاتَّخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا
الْعِصْيَةَ فُتُوحًا فِي بَارِعَاتِهِمْ ﴿١٧﴾ كَانُوا يَنْتَوِيصُونَ بِهَا أَلَّا يَأْمُرُوا بِرَبِّهِمْ أَلَّا يَكْفُرُوا بِالْحَدِّ الْيَوْمِ ﴿١٨﴾ ﴿

(سورة هود: الآيات ٦١-٦٨).

(۳) ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ النَّبِيَّاتَ مِنْ قَوْمِكَ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَشُعُوبٍ ۖ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ﴾

جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَقْوَامِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا
إِلَيْهِ مُرِيبٍ ① قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى اللَّهِ شَكٌّ فَأَطِِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ إِلَى أَجَلٍ
مُسَمًّى قَالُوا إِنَّ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَضْرِبُوا عَمَّا كَانُوا يَعْبُدُ آبَاءَهُمْ قَالُوا بَلْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ ② قَالَتْ لِمَ رُسُلُهُمْ
إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ
فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ③ وَمَالِكُ الْأَتَوَكَّلِ عَلَى اللَّهِ وَمَهْدُنَا سُبُلَنَا وَلَنَصِيرَنَّ عَلَىٰ مَا أَدْعِيْتُمْ وَأَعْلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ
④ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّسُلُهُمْ لَا تَخْرُجُكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَنَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ⑤
وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ⑥

(سورة إبراهيم: الآيات ۹-۱۴).

(٤) ﴿ وَأَنذَرْنَاهُمْ يَوْمَ الرَّحِيمِ ٦٩ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ٧٠ قَالُوا نُعْبُدُ أَسْنَمًا قَالُوا قُلْنَا قُلْنَا عَاكِهَ ٧١ قَالُوا هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ٧٢ أَوْ يَنْفَعُكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ٧٣ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا تَاكِدًا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ٧٤ قَالُوا أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ٧٥ أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ٧٦ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّلْآلِ الْهَالِكِينَ ٧٧ الَّذِي خَلَقَ فَعَسَىٰ يُهْدِي ٧٨ وَالَّذِي هُوَ يُطِيعُنِي وَبَقِي ٧٩ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ٨٠ وَالَّذِي يُمِيتُ ثُمَّ يَحْيِي ٨١ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ٨٢ رَبِّ مَبِ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ٨٣ وَاجْعَلْ لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ٨٤ وَاجْعَلْنِي مِنْ ذُرِّيَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ٨٥ وَاعْزِلْ لِي آيَةً كَانُوا مِنَ الْمُنَافِقِينَ ٨٦ وَلَا تَجْعَلْنِي يَوْمَ يُنْعَمُونَ ٨٧ يَوْمَ لَا يُنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ٨٨ إِلَّا مَنْ آتَاهُ اللَّهُ قَلْبًا سَلِيمًا ٨٩ وَأَنفِصِلْ الْجَنَّةَ لِلنَّعِيمِ ٩٠ وَبَرَزْتُ لِلْجَحِيمِ لِلْعَاوِينَ ٩١ وَقِيلَ لَهُمْ إِنَّمَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ٩٢ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُوكُمْ أَحَدٌ أَوْ يَنْصِرُونَ ٩٣ فَكُفُّوا فِيمَا هُمْ وَالْعَاوِينَ ٩٤ وَجُنُودُ الْإِبْلِيسِ أَجْمَعُونَ ٩٥ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ٩٦ تَاللَّهِ إِن كَانُوا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ٩٧ إِذْ تُسَوِّرُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ٩٨ وَمَا أَصْلَنَا إِلَّا الْحَرَمُونَ ٩٩ قَالُوا مِنْ شَافِعِينَ ١٠٠ وَلَا صِدْقَ فِي جِيبِ ١٠١ فَلَمَّا زُلْزِلَ أَسْفَلَ فَكَوْنُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ١٠٢ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَاذُ أَكْذَرُ مُؤْمِنِينَ ١٠٣ وَإِنَّ رَبَّكَ لَمَوْعِزٌ رَّحِيمٌ ١٠٤ ﴾

(سورة الشعراء: الآيات ٦٩ - ١٠٤).

(٥) ﴿ وَعَادُوا وَنُعُودًا وَقَدَسَبِينَ كَلِمٍ مِنْ سَكِينِهِمْ وَزَيْنَ لِمُ الشَّيْطَانِ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ٣٨ وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ ٣٩ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ فَمِنْهُمْ مَنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنَّا أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنَّا خَفَّيْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنَّا غَرَقْنَا وَمَا كَانُوا لِيُظْلَمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ٤٠ ﴾ العنكبوت: الآيات ٣٨ - ٤٠.

(٦) ﴿ وَاذْكُرْ أَهْلَ عَادٍ إِذْ أَنْذَرْنَاهُمْ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ النَّذِيرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلْتَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ٢١ قَالُوا اجْنُبْنَا لِمَا فَكَارَ عَنْهُنَا فَإِنَّنَا بِمَاتِعِدَا ٢٢ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ٢٣ قَالُوا إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أَرْسَلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا يَجْهَلُونَ ٢٤ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا يَتَجَلَّيْكُمْ فِي رُوحٍ فِيمَا عَذَابُ إِلَهُ ٢٥ تَذَمَّرُ كُلُّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَلَمْ يَصْحُوا لَإِلَهِ إِلَّا سَكَنَهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْجَاهِلِينَ ٢٦ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَآبْصَارًا وَفِئْدَةً مَّا أَعْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفِئْدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يُجَاهِدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ٢٧ ﴾ (سورة الأحقاف: الآيات ٢١ - ٢٦).

٥) صور المؤمنين والكافرين

يرسم القرآن صوراً وضيئة وجميلة للمؤمنين يعرض فيها خصالهم وأحوالهم ، وأثر الإيمان في قلوبهم وسلوكهم ، تجعلنا نحبه ونحب أن نكون منهم ، لتنطبق علينا تلك الأوصاف الجميلة ، ولنحظى برضاء الله في الدنيا والآخرة .

كما يرسم القرآن في ذات الوقت صوراً منفرة للكافرين وخصالهم وأحوالهم ،
وأثر بُعدهم عن الإيمان في قلوبهم وسلوكهم تجعلنا ننفر منهم ونكره أن نكون مثلهم ،
حتى لا نتعرض لمقت الله وغضبه في الدنيا والآخرة .

وهذه الصور والأوصاف كثيرة في القرآن ، لأن فيها دروساً تربوية يرينا بها الله سبحانه وتعالى حتى نستقيم فطرتنا ويستقيم سلوكنا وتصلح أحوالنا .

وإليك بعض النماذج منها :

(١) ﴿أَفَرَأَيْتُمْ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْمَاءَ مِن رَّبِّكُم مَّا تَحْمِلُونَهُ أَمْ إِنَّمَا أَشَدُّ بِكُمْ ثِقَالًا ﴿١﴾ بَلْ يَدْعُونَ بِهِ سَاءَ الْحِسَابِ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَدْعُونَ بِالْحَسَنَةِ أُولَٰئِكَ هُمْ عِزِّي الدَّارِ ﴿٣﴾ جَنَّاتٌ عَذْرَىٰ فِيهَا مَآئِدُهَا وَمِنْ مَّحَلِّهَا مِنَّا رَحْمَةٌ وَظَنَّ أَنَّهُم فِي الْغِلَاظِ وَالْمَلَائِكَةِ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴿٤﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٥﴾﴾

(سورة الرعد : الآيات ١٩ - ٢٤) .

تبدأ الآيات بمقارنة بين المؤمنين والكافرين يتبين منها لأوّل وهلة أنهم مفترقون بعضهم عن بعض فى صفاتهم ومقومات حياتهم وفكرهم . والقرآن يصف المؤمنين بأنهم هم الذين يعلمون أن ما أنزل إلى الرسول ﷺ من ربه هو الحق ، بينما يصف الآخرين بأنهم عمى . ثم يسأل هذا السؤال الإنكارى (أى الذى جوابه دائماً : لا) : ﴿ أفمن يعلم أن ما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى ﴾ ؟ والجواب لا بُدَّ أن يكون لا ! فمن يقول إن الأعمى كالبصير ، وإن من يعلم كمن لا يعلم ؟ !

والتعبير القرآنى الجميل يوحى إلينا بأن من يعلم أن القرآن والوحى حق هو المبصر ، الذى يسير فى الطريق على نور ، ولا يتخبط فى سيره لأنه يرى ما حوله . بينما الذى يشك فى الوحى ولا يتبعه هو الأعمى الذى يتخبط فى الطريق لأنه لا يراه . وهذه حقيقة . فإن المؤمن يعرف - من وحى إيمانه - ما هى غايته فى الحياة ، وما الطريق الذى ينبغى أن يسلكه ليصل إلى غايته . فغايته هى إرضاء الله سبحانه وتعالى والتقرب إليه ، ووسيلته هى الأعمال الصالحة . هى الطاعة لأوامر الله . بينما الكافر لا يعرف لماذا يعيش ، إلا لإرضاء ملذاته القريبة . غافلاً عن النهاية التى تنتظره فى آخر الطريق .

ثم يحىء التعقيب فى نهاية الآية : ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرْ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ فالذين لهم عقول هم الذين يتذكرون ، وغيرهم لا يتذكرون ولا يعتبر . والتعبير القرآنى يوحى إلينا مرة أخرى أن الكافر ليس من أُولى الْأَلْبَاب ، أى ليس له عقل . ذلك لأنه لا يفكر بهذا العقل الذى وهبه له الله ليفكر ويتدبر . ويعرف عن طريق تدبره حقيقة الألوهية والربوبية . ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرْ أُولُو الْأَلْبَابِ الَّذِينَ يُوْفُونَ بَعْدَ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴾ .

وأُولو الْأَلْبَاب هم الذين وصفتهم الآية بأنهم هم الذين يعلمون أن ما أنزل على الرسول ﷺ هو الحق . ولكن الآية الثانية تبين لنا حقيقة عظيمة ينبغى لنا أن نتدبرها . هل المطلوب من الإنسان هو أن « يعلم » مجرد علم بأن القرآن حق ؟ فقط ؟ ! وهل يكفى هذا عند الله ؟

إن الآية الثانية وما بعدها تبين لنا أثر هذا العلم فى حياة الإنسان وسلوكه وتفكيره وشعوره . فهؤلاء الذين علموا أن القرآن حق يصفهم الله سبحانه وتعالى بأنهم ﴿ يُوْفُونَ بَعْدَ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴾ .

إذن فليس المطلوب هو مجرد « العلم » ! بل إن هذا العلم ينبغى أن يُحدث آثاره

فى حياة الإنسان ، وإلا أصبح بلا معنى ، وأصبح وجوده وعدمه سواء .

إن الصفة الكبرى التى يتصف بها أولئك العالمون بأن القرآن حق هى أنهم يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق . ولا تحدد الآية عهداً معيناً ولا ميثاقاً معيناً ، إنما تشمل كل عهد وكل ميثاق مع الله . والعهد الأكبر هو الذى أودعه الله فى الفطرة وأشهد الفطرة عليه ، وهو عبادة الله الواحد بلا شريك :

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنْ بُنَىٰ آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا ۚ﴾

(سورة الأعراف : الآية ١٧٢) .

وكذلك العهد الذى تذكره سورة يس :

﴿الْأَعْهَدَ الْيَكْرِيهَ ۚ أَذِمَّ آدَمَ أَنْ لَا تَقْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ۚ وَإِنْ أُعْهِدُوا هَذَا

صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ (سورة يس : الآيتان ٦٠ - ٦١) .

ولا تنتهى صفة المؤمنين بأنهم هم الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق ، بل

يستمر السياق فيصفهم بأوصاف جميلة أخرى :

﴿والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب﴾ .

﴿ يصلون ما أمر الله به أن يوصل ﴾ أى : يصلون كل ما أمر الله به أن يوصل ،

لأن « ما » تفيد العموم . والتعبير بإطلاقه هكذا دون تحديد يشمل كل شىء أمر الله

بوصله . وفى مقدمة كل شىء صلة الإنسان بربه بطبيعة الحال ، فهذه أول صلة أمر

الله بها أن توصل : صلة العبادة الحققة لله . ويأتى بعدها صلوات الإنسان بوالديه ،

وصلاته بذوى قرباه ، وصلاته بالمسلمين جميعاً يحب لهم الخير ، ويحب لهم كما

يحب لنفسه . وهكذا يشمل هذا التعبير الموجز كثير من تصرفات الإنسان .

ومع القيام بهذه الصلوات التى أمر الله بوصلها فهم يخشون ربهم ، وهذه الخشية

تجعلهم يتصرفون فى أمورهم بما يرضى الله ، فيتعاملون بالصدق والأمانة والإخلاص ،

خشية أن يغضب الله عليهم . وكذلك يخافون سوء الحساب ، فيتجنبون الأعمال

والأقوال التي تعرضهم للحساب الشديد .

﴿والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم﴾ .

فهم يصبرون على الشدائد لأنهم يبتغون وجه الله ، ويتطلعون إليه بالرجاء ، ولكنهم صابرون ، لأنهم يعلمون أن ما أصابهم هو قدر من الله ، فيرضون به تقرباً لله وتحبباً إليه ليرضى عنهم .

﴿وأقاموا الصلاة﴾ وإقامة الصلاة تقتضى توفية كل أركانها ، وأدائها بالوقار والخشوع اللازم لها .

﴿ وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية﴾ فهم لا يبخلون بأموالهم ، وكذلك لا ينفقونها رياء وإنما ينفقونها لوجه الله فى السر والعلانية .

﴿ ويدرون بالحسنة السيئة﴾ يتلقون السيئة ويردون عليها بالحسنة نبلاً منهم وترفعاً ، وتقرباً إلى الله ، لا ضعفاً ولا استخذاءً . وإنما كما يقول الله سبحانه وتعالى :
﴿ وَالكَافِرِينَ أَفْطَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (سورة آل عمران : الآية ١٣٤) .

وهكذا رأينا أن أولى الألباب ، الذين يعلمون أن القرآن حق ، يتصفون بكل هذه الصفات النبيلة الرائعة . تصرفاتهم نظيفة . مشاعرهم نظيفة . كل سلوكهم جميل . لماذا ؟ لأنهم عرفوا الحق . وهذه هى المعرفة التى يريدّها الله من عباده . فحين يعرفون حقيقة الألوهية ينعكس ذلك على سلوكهم فيصبح على هذه الصورة الرفيعة المحبوبة التى يحبها الله ويحبها الناس .

وما جزاؤهم على ذلك كله !

﴿ أولئك هم عقبى الدار﴾ لهم العاقبة الحسنة فى الدار الآخرة :

﴿ جنّات عدن يدخلونها﴾ وإياها من جائزة جميلة على السلوك الجميل !

ولكن الله يفضل عليهم بأكثر من ذلك !

﴿جَنّاتِ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ .

فهم لا يدخلون وحدهم ، ولكن يدخل معهم الأشخاص الذين يحبونهم من آباء وأزواج وذرية . فبالها من مُتعة : مُتعة الصّحبة في جَنّات النّعيم ، جزاء الاستقامة على أمر الله .

وهل ينتهى الأمر عند ذلك ؟ كلاً ! إن فضل الله يشملهم بأكثر من ذلك ! رأيت حين تكون ضيفاً عند أحد الناس ، فيدخل من باب الحجرة فيحيبك . أليس ذلك يسرُّ قلبك ويشعرك بالحفاوة والتّكريم ؟ وإذا دُرى الدّخول عليك بالتّحية ؟ ألا يسرُّك ذلك أكثر ؟ وإذا كان أهل البيت كلهم يجيئون إليك ويظهرون حفاوتهم بك فكيف يكون شعورك ؟ ألا تحسّ بالسعادة والرّضى والارتياح ؟

إن الله يحنّى بك في الجنّة ، فيرسل ملائكته يحيونك !

﴿والملائكة يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ﴾ .

يدخلون عليهم بالتّحية والحفاوة والتّكريم ، يقولون :

﴿سلام عليكم بما صبرتم ، فنعم عُقبى الدّار﴾ !

ألا يروّقك هذا النّعم ! ألا تحبّ أن تكون واحداً من هؤلاء الذين يكرمهم الله

هذا التّكريم ؟

بلى ولا شك !

والآن قارن حال الفريق الآخر ، الذى رفض الهدى وأصرّ على أن يكون أعمى

لا يبصر . إنه يمثّل الصورة المُقابلة تماماً فى كل شيء !

﴿والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ، ويقطعون ما أمر الله به أن يُوصل ،

ويفسدون فى الأرض أولئك لهم اللّعة ولهم سوء الدّيار﴾ !

فمن أى الفريقين تحب أن تكون ، بعد أن رأيت مصير هؤلاء ومصير هؤلاء !؟

(٢) ﴿وَعَادُ الرِّجِّمِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ۚ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ۚ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ۚ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ۚ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَعُوا أَلْفَ نَفْسٍ فَاوْا لَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ۚ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقُولُونَ لِنَفْسِنَا حُزْمٌ إِنَّهُ إِلَّا يُلَاقَىٰ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۚ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ۚ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يَبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۚ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ۚ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ۚ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعَيْنًا ۚ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْ لَنَا لِفِتْيَانِنَا آيَةً ۚ أُولَٰئِكَ يَجْزِيكَ اللَّهُ بِمَا صَبَرُوا وَيُلْقُونَ فِيهَا بَحْيَةً وَسَلَامًا ۚ خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ۚ﴾ (الفرقان : الآيات ٦٣ - ٧٦) .

(٣) ﴿إِنَّ الْمُنْعِينَ فِي جَنَّتِ وَعِيدَ ۚ أَخَذَ رَبُّهُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ۚ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ الْبَالِ يَجْعَلُونَ ۚ وَإِلَّا نَحْنَاهُمْ يَنْتَفِرُونَ ۚ﴾ (الفرقان : الآيات ١٥ - ١٩) .

* * *

بهذه الوسائل كلها يصل القرآن إلى تثبيت الإيمان في القلب البشرى .

فحين يحس الإنسان بوجود الله معه في كل لحظة ...

حين يحس بآيات القدرة في كل شيء في الكون من حوله ، وفي ذات نفسه ...

حين يحس أن ماضى البشرية كله كان يهيم عليه قدر الله وتديره ... وأن الحاضر

كذلك والمستقبل ..

حين يحس أن الدنيا كلها ملك لله ، والآخرة كذلك ..

حين يحس أن أعماله كلها محسوبة عليه ، وسيحاسب عليها ..

حين يرى صور الرسل الكرام وصبرهم وتضحياتهم ..

حين يرى صور المؤمنين كريمة نظيفة جذابة ، وصور الكافرين قبيحة منفرة ...
حينئذ يمتلئ قلبه بخشية الله وتقواه ، وبالتطلع في ذات الوقت إلى حبه ورضاه ..
وذلك هو الإيمان الصادق الذي يحبه الله ، ويقرب به عبده إليه ، فيصبح واحداً
من أولياء الله ، الذين يقول الله عنهم في كتابه الكريم :

﴿ الْآزَافُ لَا يَخَافُ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (سورة يونس : الآية ٦٢) .

تحكيم شريعة الله

مرّ بنا في الفصل السابق ونحن نتحدّث عن صور المؤمنين والكافرين أن معرفة الحق المنزل من عند الله لا بُدّ أن يكون لها مقتضى واقعي في حياة البشر . فهي ليست معرفة تختزن في الذهن ، إنما ينبغي أن تتحول إلى سلوك واقعي .

وأول مجال لتطبيق هذه الحقيقة ، وأبرز صورة لها ، هي تحكيم شريعة الله ، والتقيّد في أمور الحياة كلها بمنهج الله .

إن شهادة « لا إله إلا الله » هي أول ما نطق به المسلم ، وهي مع تكملتها « محمد رسول الله » إعلان الدخول في الإسلام .

فما معنى هذه الشهادة ، وما مقتضاها ؟

معناها أن الشخص الذي ينطق بالشهادة قد أقر بالعبودية لله وحده ، فقد أقر بأنه لا يوجد إله إلا الله ، أي لا يوجد معبود إلا الله . فمن شأن الإله أن يُعبّد ومآدام لا يوجد إلا إله واحد هو الله سبحانه وتعالى ، فليس هناك إذن من تنبئ له العبادة إلا الله ، ولا يجوز التوجه بالعبادة لسواه .

فما معنى العبودية لله ؟

تُرى إذا نحن نطقنا بالشهادة بألسنتنا وحدها ولم نقر بها في قلوبنا نكون قد عبدنا الله ؟!

وإذا نحن نطقنا بها بألسنتنا ثم أعلنّا - بأقوالنا وأفعالنا - أن أوامر الله ليست ملزمة لنا ، وأن من حقنا أن نخالفها كلها ، أو نتخير منها أشياء ننفذها وأشباه أخرى لا نلتزم بتنفيذها .. هل نكون قد عبدنا الله ؟ هل نكون قلوبنا قد أقرّت بالفعل بالعبودية لله وحده ؟

كلا ! فالإقرار معناه الالتزام ! وإلا فهي كلمة تُقال باللسان ، ولا رصيدها من

الواقع !

وقد أنزل الله شريعة معينة تحتوى أحكام الحلال والحرام ، وأمر بتنفيذ هذه الشريعة فى واقع الأرض . فإذا جاء إنسان يقول بلسانه « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله » ثم يرفض أن يتحاكم إلى شريعة الله ، ويضع لنفسه حلالاً غير ما أحل الله ، وحراماً غير ما حرم الله ، فما قيمة الكلمة التى يقولها بلسانه ؟ هل هى كلمة صادقة ؟ وهل تنفعه عند الله ؟

﴿ إِنَّا لَذِينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ (سورة آل عمران : الآية ١٩) .

والإسلام كما قلنا فى أول الكتاب هو إسلام الوجه لله ، أى التوجه الكامل إلى الله ، والخضوع الكامل لأوامر الله .

التوجه الكامل لله فى الاعتقاد ، فلا يعتقد أن هناك من يخلق أو يرزق أو يضر أو ينفع أو يحيى أو يميت إلا الله .

والتوجه الكامل لله فى شعائر التعبد ، فلا يُصلّى إلا لله ، ولا يصوم إلا لله ، ولا يُزكى إلا لله ، ولا يحج إلا لله .

والتوجه الكامل لله فى الدعاء ، فلا يدعو إلا لله .

والتوجه الكامل لله فى أصول الحكم ، فلا يحكم إلا بما أنزل الله .

والتوجه الكامل لله فى الأخلاق والسلوك ، فلا يتخذ قِيماً أخلاقية ولا قواعد سلوكية إلا ما أمر به الله .

هذا هو الإسلام الحقيقى ، وهذا هو المدلول الحقيقى لشهادة أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ

• • •

والمجتمع المسلم هو المجتمع الذى يلتزم بهذا الأمر . فتكون أحكامه ، وتكون

أفكاره ومعتقداته وأخلاقه وسلوكه جميعها مُستَمَدَّة من كتاب الله وسُنَّة رسوله .

وحين يتم ذلك يكون الله هو المعبود حقاً في ذلك المجتمع .

إنه لا يكفي أن نعبد الله داخل المسجد ، بإقامة الشعائر التعبدية هناك ، إذا كنا نخرج من المسجد فتكون لنا وجهة أخرى غير الله ، ومصدر آخر نتلقى منه أفكارنا ومعتقداتنا وسلوكنا وأحكام حلالنا وحرامنا غير الله .

ما قيمة تلك الشعائر التعبدية التي أقمتها إذن داخل المسجد .

إن القيام بالعبادة داخل المسجد يجب أن يكون معناه الحقيقي أننا أقررنا وشهدنا بالعبودية لله وحده ، فجتنا تؤدي فرائض العبادة التي أمرنا بها الله . فإذا كنّا بمجرد خروجنا من المسجد نتجه إلى مصدر آخر غير الله ، نستمد منه أحكامنا وشرائعنا ومنهج حياتنا ، فمعنى هذا أننا اتخذنا إلهين اثنين في الحقيقة لا إلهاً واحداً ! فالإله الأول هو الذى عبدناه داخل المسجد بشعائر التعبد من صلاة ودعاء ، والإله الثانى هو الذى عبدناه خارج المسجد ، وتلقينا منه أحكام الحلال والحرام ، وتنظيمات المجتمع وعلاقات الأفراد ! والله يقول لنا محذراً فى كتابه العزيز :

﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلِهَيْنِ أُشْرِكٌ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُكَ وَاحِدٌ فَإِذَا يَأْتِي الْفَارِغُونَ﴾ (سورة النحل : الآية ٥١)

فهل نكون قد عبدنا الله الواحد - الذى أقررنا بوحدانيته بألستنا - إذا خصصناه بجزء واحد من العبادة ثم أخرجنا بقية العبادة عن اختصاصه سبحانه وتعالى ، أم نكون فى الحقيقة قد أشركنا به إلهاً آخر ، وكذبنا فى شهادتنا التى شهدناها بألستنا ، لأننا نفضناها فى واقع حياتنا . .

وهل يتقبل الله مِنّا ذلك ؟

هل يتقبل مِنّا أن نذهب لعبادته داخل المسجد ، ولو تنسكنا هناك وذرفنا الدموع من شدة التأثر ، ثم نوليه ظهورنا أول ما نخرج من المسجد ، ونتجه إلى سواه ، نستمد

فلنتظر ماذا يقول الله لنا في هذا الأمر الخطير :

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُخَرِّجُوكَ فِيمَا تَحْجَرُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُ جَمْعًا مِمَّا قُضِيَتْ وَبُكِّلُوا نَبِيلًا ١٥ ﴾

(سورة النساء : الآية ١٥) .

فيقرر الله بكلام واضح حاسم أن الإيمان ليس زعماً باللسان ، وإنما محك الصدق في هذا الزعم هو التحاكم إلى شريعة الله .

ولنتدبر الآيات الخاصة بهذا الشأن من أولها :

﴿ أَلَمْ نَرْسِلْ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَخْلَعُوا إِلَى الطَّاغُوتِ ١ وَهَذَا أَمْرٌ أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ٢ ﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا اللَّهَ إِلَى مَا أُنْزِلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتُ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُوكًا ٣ فَكَفَىٰ إِذَا مَسَّابَتُهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ تَرَجَّawُوكَ يَخْلَعُونَ بِاللَّهِ أَنْ أَرَدْنَا إِلَّا أَحْسَنًا مَّا تَوَفَّقَا ٤ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ٥ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ٦ ﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُخَرِّجُوكَ فِيمَا تَحْجَرُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُ جَمْعًا مِمَّا قُضِيَتْ وَبُكِّلُوا نَبِيلًا ١٥ ﴾ (سورة النساء : الآية ٦٠ - ٦٥) .

بدأت الآيات بذكر قوم يزعمون أنهم آمنوا بالله وآمنوا بالقرآن ، ثم هم يريدون أن يتحاكموا لغير شريعة الله ، ثم انتهت بتقرير رباني حاسم أنهم لا يؤمنون حتى يتحاكموا إلى شريعة الله ، ويسلموا في داخل أنفسهم أنها هي الشريعة التي يجب التحاكم إليها ، وإلا فهم على وضعهم الحاضر غير مؤمنين .

والقرآن واضح جداً في تقرير هذه الحقيقة .

خُذْ مَثَلًا هَذِهِ الْآيَاتُ مِنْ سُورَةِ النُّور :

﴿ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَقُولُوا قَرَّبُوا بَيْنَهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ١٧ ﴾

(١) كل حكم غير حكم الله فهو طاغوت . ولفظ الطاغوت يُطلق في القرآن على كل شيء يتبعه الناس ويعبدونه غير الله . فالأصنام طواغيت . وحكم غير الله طاغوت .

وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٥٨﴾ وَإِنْ يَكُنْ لَكُمْ الْحُوقُ إِلَى اللَّهِ فَدَعِينُ ﴿٥٩﴾
 أَفَى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحْجِفَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ
 الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٦١﴾ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ
 وَرَسُولَهُ وَيَخْلِشَ عَنْ يَدِهِ وَفِيقَهُ فَاُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٦٢﴾ (سورة النور : الآيات ٤٧ - ٥٢) .

فهؤلاء قوم يقولون آمنا بالله وبالرسول . أى يقولون : نشهد أن لا إله إلا الله
 ونشهد أن محمداً رسول الله ! ويزيدون على ذلك فيقولون : أطعنا ! فيزعمون الطاعة
 كذلك !

﴿ ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك ، وما أولئك بالمؤمنين ﴾ .

فما هو التولى الذى حدث من هذا الفريق فنفى عنه صفة الإيمان وقال الله عنه :

﴿ وما أولئك بالمؤمنين ﴾ ؟

هذا هو الذى تبينه الآية التالية :

﴿ وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون ﴾ .

فهذا الفريق الذى بنفى الله عنه الإيمان هو الذى يُدعى لتحكيم شريعة الله فيعرض
 عنها . وسواء كان إعراضاً قلبياً ، أو إعراضاً ظاهراً ، فكلاهما بنفى الإيمان ويلغى
 حقيقة الشهادة التى ينطقون بها بأفواههم . لأن الله يقرر فى آية سورة النساء التى سبقت
 الإشارة إليها أن التسليم القلبى شرط للإيمان :

﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا فى أنفسهم
 حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً ﴾ .

ثم بمضى السياق يُبين حال أولئك المنافقين : أنهم إذا أعجبهم حكم الله فى أمر
 من الأمور ، أو رأوه بحقق مصلحة لهم يأتون إليه مدعين ، ويُندد القرآن بهم على
 هذا السلوك المعوج ، الذى يتحاكمون فيه إلى شريعة الله مرة ويعرضون عنها مرة
 حسب الأهواء والمصالح بعد أن ثبت عليهم وصف عدم الإيمان .

أما المؤمنون فحالمهم مختلف ، وآية إيمانهم أنهم يتحاكمون إلى شريعة الله .

﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ .

وتقرر الآية الأخيرة أن هؤلاء الذين يتحاكمون إلى شريعة الله ، ويطيعون الله ويخشونه هم الفائزون حقاً .

من ذلك يتبين لنا بوضوح أن المحك الحقيقي للإيمان هو التحاكم إلى شريعة الله . وأن الناس إن قالوا بألستهم : لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، وإن أدوا جزءاً من العبادة المفروضة ثم رفضوا الالتزام بقيتها فما هم بمؤمنين .

ويتبين لنا كذلك أن العبودية لله وحده - وهي مفهوم الإقرار بالشهادة - لا تتحقق في عالم الواقع حتى يُعبدَ الله عبادة شاملة ، تشمل أصول الاعتقاد ، وشعائر التعبد ، والتحاكم إلى شريعة الله ، وتطبيق منهج الله في كل مجال من مجالات الحياة . وأن التحليل والتحريم بغير ما أنزل الله لون من الشرك لا يختلف عن شرك العبادة بحال من الأحوال . يقول القرآن عن المشركين :

﴿ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾

(سورة النحل : الآية ٣٥) .

والسياق يُنَدِّدُ بهم لأنهم يدَّعون أن هذا الشرك الذي يُمارسونه هو بأمر الله ومشيتته مع أن الله أرسل إليهم الرُّسل ينهونهم عن الشرك . ولكن المهم في الآية أن المشركين يحددون شركهم في أمرين :

﴿ مَا عِبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ ﴿ وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾

فالتحليل والتحريم بغير إذن من الله كعبادة الأصنام والأوثان سواء بسواء .

• • •

والإسلام ليس مجرد عقيدة وجدانية منغزلة عن واقع الحياة .

وليس هناك دين منزل من عند الله هو عقيدة فقط بغير شريعة تحكم الحياة .

إنما البشر هم الذين يصنعون ذلك من عند أنفسهم فيشركون ! ولنرجع إلى القرآن لنرى حقيقة هذا الأمر :

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَهْدِيكَ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالزَّبَّانِيُّونَ وَالْأَخْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوْنَ الْتَأْسَرَ وَلا تَشْرَوْا بِمَا بَاقِيَ ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ٤٤ ﴾ وَكُنَّا عَلَيْهِمْ مِمَّا أَنْزَلْنَا النَّفْرَ بِالْغَفْرِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّرَّ بِالسِّرِّ وَأَخْرُجَ قِصَاصٌ مِمَّنْ نَقَدُوا بِهِ فُتُورًا لَهُ وَمَنْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ٤٥ ﴾ وَقَفْنَا عَلَى نَارِهِمْ بَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْنِ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلتَّقِيينَ ٤٦ ﴾ وَلَحْكُمَ أَهْلَ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ٤٧ ﴾ (سورة المائدة : الآيات ٤٤ - ٤٧) .

فالتوراة التي أنزلت إلى اليهود فيها عقيدة وشريعة . والإنجيل الذي أنزل على

النصارى فيه عقيدة وشريعة . وكذلك القرآن :

﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ هُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَيْتُكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ١٨ ﴾ وَإِنْ أَحْكَمْتُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ هُمْ وَاحِدٌ مِنْهُمْ أَنْ يَقِينُوا عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَمَا أَعْلَمُ أَنْتُمْ بِبَعْضِ مَا يُبَيِّنُ عَنْ بَعْضِ دُورِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ١٩ ﴾ لَكُمْ فِيهَا حِكْمَةٌ لِيُبَيِّنَ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَيُفَقِّهَ الْغُلَامَ فِي دِينِهِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادٍ لِلنَّاسِ أَكْثَرَ مِنْ أَنْ تَعْلَمَ ٢٠ ﴾ (سورة المائدة : الآيات ٤٨ - ٥٠) .

حقيقتان تقرهما هذه الآيات :

الأولى : أن كل دين منزل من عند الله هو عقيدة وشريعة في ذات الوقت . عقيدة

تحكم الوجدان ، وشريعة تحكم واقع الحياة .

والثانية : أن كل حكم غير حكم الله فهو جاهلية . وأنه لا يوجد إلا نوعان اثنان

من الحكم : حكم الله وحكم الجاهلية . فالمؤمنون هم الذين يتبعون حكم الله ، أما الذين يتحاكمون لغير ما أنزل الله ، أى يتبعون حكم الجاهلية فما أولئك بالمؤمنين .

• • •

وإذا كانت تلك هى حقيقة الدين الربانى فإن البشر من عند أنفسهم هم الذين فصلوا العقيدة عن الشريعة ، وجعلوا الدين عقيدة فقط ، وقالوا إن الدين صلة بين العبد والرب مكانها القلب ، ولا علاقة لها بواقع الحياة ! إنما واقع الحياة تحكمه شرائع يضعها البشر لأنفسهم . وبذلك خرجوا من دين الله وأصبحوا فى الجاهلية ! وهذا ما وقع للنصارى فى أوربا بصفة خاصة إذ فصلوا العقيدة عن الشريعة وفصلوا الدين عن الدولة ، ووقعوا فى هذا الفصام النكد الذى يقسم الحياة قسمين : قسماً من اختصاص الله سبحانه وتعالى يُمارَس فى داخل الكنيسة ، وقسماً لا علاقة له بالله يُمارَس فى واقع الحياة .

وامتد بهم الفصام النكد ففصلوا بين الدين والعلم ، وبين الدين والسياسة ، وبين الدين والاقتصاد ، وبين الدين وعلاقات المجتمع ... بل فصلوا بين الدين والأخلاق ! وماذا كانت النتيجة ؟

كانت النتيجة هى الحيرة والقلق والاضطراب الذى يحكم حياتهم ، وحالات الجنون والانتحار والأمراض النفسية والعصبية المتزايدة . لأن النفس البشرية الواحدة يحكمها إلهان مختلفان أو آلهة متعددة : إله فى داخل الكنيسة ، وإله أو آلهة متعددة فى السياسة والاقتصاد والاجتماع والعلم والفكر والأخلاق . والله يمثل لهذه الحالة فى القرآن فيقول :

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِي شُرَكَاءٍ مُّتَشَاكِرِينَ وَرَجُلًا مَسْكِينًا يَرْجُو هَلْ يَسْوِيَانِ مَثَلًا لِّتُحْذِقُوا الْيَوْمَ الَّذِي يَخْرُجُ فِيهِ الرُّجُلُ ﴾

أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ (سورة الزمر : الآية ٢٩) .

والمثل مضروب لتقريب حقيقة الألوهية للعرب المخاطبين بهذا القرآن أول مرة ،
وقد كان عندهم نظام الرق . فيقول لهم : هذا عبد يملكه شركاء متشاكسون كل منهم
يأمره بأمر يختلف عن صاحبه ويجذبه إلى ناحيته ، فهل تكون حاله في هدوء وسكينة
وسلام مثل العبد الذى يملكه رجل واحد فيوجه إليه أوامر واحدة فى اتجاه واحد ؟
طبعاً لا يستوون !

وهذا نفسه هو حال الجاهلية المعاصرة حين تعبد إلهاً فى المعبد ، وآلهة أخرى
متشاكسة خارج المعبد ، فلا تعرف السلام ولا الهدوء ولا الطمأنينة إنما يحكم حياتها
القلق والاضطراب .

ولقد كان المسلمون بمنجاة من هذا كله وهم يعبدون إلهاً واحداً لا شريك له .
يعبدونه فى المسجد وخارج المسجد . يتوجهون إليه باعتقاد صحيح فى وحدانيته ،
ويتوجهون إليه بشعائر التعبد ، ويتوجهون إليه فى شئون حياتهم المختلفة فيتحاكمون
إلى شريعته وينفذونها فى واقع الحياة .

وكانوا بذلك كما وصفهم الله فى كتابه : ﴿ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ (سورة آل
عمران : ١١٠) .

ولكن المسلمين ظلوا يبعدون عن حقيقة دينهم فهماً وسلوكاً حتى أصابهم الضعف
فتمكن منهم أعداؤهم .

وحين تمكنوا منهم فقد أرادوا أن يقضوا على عنصر القوة فى كيانهم لكى لا يعودوا
إلى النهوض مرة أخرى . وكان أول ما اتجهوا إليه فى البلاد الإسلامية التى حكموها
هو تنحية شريعة الله عن الحكم ووضع القوانين الوضعية بدلاً منها .

ثم ظلوا يعملون ، ومعهم أدواتهم من العُمَّاء الذين تأثروا بهم ، على حصر الإسلام رويداً رويداً فى دائرة الاعتقاد الوجدانى والشعائر التعبدية ، لا صلة له بالسياسة ولا الاقتصاد ولا علاقات الأفراد فى المجتمع ولا القيم الخلقية ولا السلوك الواقعى ...

ونرى أثر ذلك واضحاً فى البلاد التى لا تحكم بشريعة الله ، وتروح نستورد المبادئ والنظم من الشرق والغرب ، فتكون النتيجة هى التبعية للشرق والغرب ، وزوال العزة التى كانت لهم يوم أن كانوا مؤمنين : ﴿ وَفِيهِ الْعِزَّةُ لِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (سورة المنافقون : الآية ٨) ، وتكون النتيجة هى شيوع أمراض الجاهلية فى المجتمع الإسلامى ، من تحلل خلقى وفكرى ، وقلق وحيرة واضطراب ، وقبل ذلك كله غضب الله وسخطه على الذين خالفوا عن أمره وخرجوا عن طاعته : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ .

ودين الله واضح لا لبس فيه :

﴿ إِنْ أَحْكَمْتَ الْأَفْئَةَ أَمَرَ الْأَقْبَدُ وَالْآيَاتُ ذَلِكَ الَّذِينَ لَقِيتُ ﴾ (سورة يوسف : الآية ٤٠) .

﴿ أَمْ لَمْ تُشْرِكُوا شُرَكَاءَهُمْ مِنَ الَّذِينَ يَدْعُونَ بِأَنْزِيلِ اللَّهِ ﴾ (سورة الشورى : الآية ٢١) .

﴿ وَمَا كَانَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا الْمُؤْمِنَاتِ إِذَا ضَعَا اللَّهُ دِينَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِ وَمَنْ يَبْغِ اللَّهَ دِينَهُ فَقَدْ ضَلَّ سَبِيلًا كَثِيرًا ﴾ (سورة الأحزاب : الآية ٣٦) .

﴿ قُلْ أَرْسَلْتُ رَسُولِي وَمَعَهُمْ كِتَابٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (سورة الأنعام : الآية ١٦٢ - ١٦٣) .

﴿ قُلْ أَرْسَلْتُ رَسُولِي وَمَعَهُمْ كِتَابٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (سورة الأنعام : الآية ١٦٢ - ١٦٣) .

فلنعبد الله مخلصين له الدين ، ولتكن آية إخلاصنا تحكيم شريعة الله ، لكى نكون حقاً مسلمين .

الإيمان بأسماء الله وصفاته

﴿ وَفِي الْأَسْمَاءِ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الذِّكْرَ يَلْدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَاجِدُونَ مَكَانًا نُوعِلُونَ ﴾ (١٨٠)

(سورة الأعراف : الآية ١٨٠) .

﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ (٢٢) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّمُ الْعَزِيزُ الْمُبَارَكُ الْمُنْتَكِبُ ﴿ ٢٣ 〉 هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (٢٤)

(سورة الحشر : الآيات ٢٢ - ٢٤) .

قلنا في الفصول الأولى من الكتاب إن القرآن يُعرِّف البشر بالله سبحانه ، لكي يعبدوه حق عبادته ، ويتوجهوا إليه وحده في كل أمورهم بغير شريك . فإنك لا تستطيع أن تقوم بالعبادة الحقيقية ولا التوجه الحقيقي إذا كنت لا تعرف من الذي تعبد وتوجه إليه ، أى إذا لم تعرف صفاته التى يتصف بها ، حتى تكون عبادتك عن معرفة وعلم . والله يصف نفسه فى كتابه الكريم بالصفات التى يريد منا سبحانه وتعالى أن نعرفه ونصفه بها . فليس لنا أن نبتدع من عندنا صفات لله غير التى وصف بها نفسه أو وصفه بها رسوله الكريم ﷺ ، فإن هذا لا يليق بجلال الله وعظمته ، ولا بالأدب الواجب من العباد نحو ربهم وخالقهم .

وحين يقرأ الإنسان القرآن بحسٍّ مُتَفَتِّحٍ ، ويتدبر آياته ، فإن قلبه يمتلئ بالخشوع لله ، والخشية منه سبحانه . والتطلع إليه فى ذات الوقت بالحب والرجاء ... من الذى يقرأ قوله تعالى :

﴿ وَاتْرَكْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْهِ حَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٢١) (سورة الحشر : الآية ٢١) .

أو قوله تعالى :

﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَابًا ذِكْرُنَا مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخُنُون رَبَّهُمْ ثُمَّ يَلْبِثُنْ جُلُودُهُمْ

وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ (سورة الزمر . الآية ٢٣) .

أو قوله تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ ١٧ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ

الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ لَوَلَا الْآلَاءِ ١٨ ﴾ (سورة الزمر :

الآية ١٧ - ١٨) .

مَنْ الذى يَقْرَأ هذه الآيات وأمثالها دون أن يمتلئ وجدانه بحب الله والخشوع

له ، والرغبة فى التقرب إليه ، والعمل على رضاه ؟ وإذ يحس بهذه المشاعر فإن القرآن يُيسِّر له التقرب إلى مولاه بأن يعرفه بأسمائه وصفاته وأفعاله .

فحين يعلم أن الله رحيم ، وأنه يقول : ﴿ قُلْ أَعْبَادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ

اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ٥٣ ﴾ (سورة الزمر : الآية ٥٣) .

ويقول : ﴿ فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ١٦٠ ﴾ (سورة البقرة : الآية ١٦٠)

ألا يجعله ذلك يتطلع لرحمة الله ، ويطمع فى أن يغفر له الله ذنوبه حين يخلص إليه

ويتوب !

وحين يعلم أن الله هو الرزاق ذو القوة المتين : ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ

الْمَتِينُ ٥٨ ﴾ (سورة الذاريات : الآية ٥٨) . وأنه هو الذى يسط الرزق لمن

يشاء من عباده ويقدر : ﴿ وَاللَّهُ يَفْضُلُ وَيَبْضِطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ٣٦ ﴾ (سورة البقرة :

الآية ٢٤٥) .

ألا يجعله ذلك يتطلع إلى الله ليبسط له فى الرزق ، ويغدق عليه من نعمه ، وهو

المنعم الوهاب ؟

وحين يعلم أن الله هو الواحد القهار :

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَمُذِرُ وَمَا مَزِلُّ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ۝١٥ ﴾ (سورة ص : الآية ٦٥) .

﴿ وَلِلَّهِ يَتَّخِذُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَوَاتًا وَكَرْهَاتًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۝١٥ ﴾ (سورة الرعد :

الآية ١٥) .

ألا يمتلئ قلبه رهبة من الله ، الذى يقهر بسلطانه كل شىء ، والذى تستجيب السماوات والأرض لقهره ، فلا تملك أن تخرج على طاعته ، والذى لا يتم فى الكون كله إلا ما يشاء ؟

وحين يعلم أن الله هو علام الغيوب ، الذى لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السماوات

ولا فى الأرض :

﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ۝٢ ﴾

(سورة سبأ : الآية ٣) . ﴿ يَلْمِ مَلِئِكٌ فِي الْأَرْضِ وَمَا يُخْرِجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَصْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ

الْقَهَّارُ ۝٢ ﴾ (سورة سبأ : الآية ٢) . ﴿ يَلْمِ السَّيْرَ وَآخِي ۝٧ ﴾ (سورة طه : الآية ٧) .

ألا يتحرز وهو بأى عمل من الأعمال ، لأنه يعلم أن الله يراه ويراقبه ، بل إنه يعلم حتى خلجات شعوره التى لا يحدث بها أحداً من البشر ، وأنه لا يمكن أن يتخفى عن الله فى عمل أو فكر أو شعور ؟!

وحين يعلم أن الله هو المهيمن على السماوات والأرض ، لا يحدث فيها شىء إلا

بإذنه ، وهو وحده الذى يدبر الأمر ، ولا تأخذه سنة ولا نوم :

﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي

يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ

وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ۝٢٥٥ ﴾ (سورة البقرة : الآية ٢٥٥) .

﴿ وَكَانَ هُوَ أَضْحَكَ وَأَكْبَى ۝٤٧ ﴾ (سورة النجم : الآية ٤٣) .

ألا يجعله ذلك يتوجه إلى الله وحده ، فهو العلى العظيم الذى لا يساويه أحد ولا يعلو عليه أحد ، ولا يتوجه إلى أحد سواه فى السراء ولا فى الضراء ، فلا أحد غيره يكشف السوء ، ولا أحد غيره يزيد السرور ؟

وهكذا .. وهكذا .. كلما علم صفة من الصفات ازداد معرفة بالله ، وازداد طاعة وتقرباً إلى الله .

من أجل هذا يُكرّر القرآن أسماء الله الحسنى ، ويأمرنا أن ندعوه بها ، ويعرفنا بها رسوله ﷺ فيقول : « إن لله تعالى تسعة وتسعين اسماً ، مائة إلا واحداً ، من أحصاها دخل الجنة » رواه الشيخان . والمقصود بالإحصاء ليس مجرد ذكرها باللسان والقلب غافل عن معناها ، بل المقصود أن يمتلئ القلب بها ويتدبرها فينعكس أثر ذلك فى السلوك

• • •

نتبين من ذلك إذن أن أسماء الله وصفاته وأفعاله الواردة فى القرآن ، هى مثل آيات قدرة الله فى الخلق وفى الرزق ، وفى الإحياء والإماتة ، وفى إجراء الأحداث وفى علم الغيب ... المقصود بها التعريف بالله ، لتزداد معرفة العباد بربهم ، ويعبدوه على بصيرة ، ويبعدوا عن الشرك والضلال .

نعم ! إن ضلالة البشرية الكبرى هى الشرك^(١) .

والله سبحانه وتعالى ، وهو الواحد الأحد :

﴿ قل : هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ﴾ .

يحب لعباده أن يهتدوا إلى حقيقته ، ولا يشركوا به ، ويحب أن يعاونهم على معرفة هذه الحقيقة ، ويسرّها لهم ، لأنه بعباده رءوف رحيم . وكما يعرفهم بآيات قدرته فى

(١) إذا كانت هناك فى العصر الحاضر ضلالة أكبر هى الإلحاد وإنكار وجود الله أصلاً فهذه كما قلنا ضلالة مُفتعلة وغير حقيقية . والفطرة - حتى فى ضلالها - تأبأها ، كما مرّ بنا من حديث رائد الفضاء الروسى جاجارين .

السموات والأرض فإنه في ذات الوقت يعرفهم بأسمائه وصفاته وأفعاله ، لا انفصال بين هذه وتلك .

فهو حين يعرفهم بآياته في الخلق ، يعرفهم بأنه هو « الخالق » « الباري » « المبدع » « بديع السموات والأرض » .

وحين يعرفهم بآياته في الرزق ، يعرفهم بأنه هو « الرزاق » ذو القوة المتين .
وحين يعرفهم بهيئته على كل شيء في هذا الكون ، يعرفهم بأنه « المهيمن » وبأنه « يدبر الأمر » .

وحين يعرفهم بآياته في الإحياء والإماتة ، يعرفهم بأنه « هو يحيى ويميت » .
وحين يعرفهم بقدرته على البعث ، يعرفهم بأنه « يبعث من في القبور » .
وحين يعرفهم بأنه سبحانه وتعالى متفرد في كل شيء . متفرد في الكمال وحده .
ومتفرد في كل شيء وحده ، فإنه يقول لهم :

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ١١ ﴾ (سورة الشورى الآتة ١١) ويقول لهم
﴿ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ٢٧ ﴾ (سورة الروم : الآتة ٢٧) .

~ ~ ~

ولقد اختلفت الفرق في تأويل الأسماء والصفات والأفعال وما كان ينبغي لها أن تختلف !

إن هذه الأسماء والصفات والأفعال الواردة في القرآن وفي الحديث يعرفنا الله بها على نفسه لتعرف عليه . وما كان ينبغي أن تكون هي التي تضللنا عن معرفة الله !
لولا أن هذه الفرق الضالة قد فتننا عن حقيقة الإسلام البسيطة الواضحة بنظريات وأفكار دخيلة على الإسلام . والقرآن - دليلنا وهادينا - واضح في هذا الأمر كل الوضوح .. فهو يحدثنا عن أسماء لله . تدل على صفات ، وتنشأ عنها أفعال :

« فالوهاب » اسم من أسماء الله الحسنی ، وهو صفة لله تعالى ، وينشأ عنها أن الله يهب ما يشاء لمن يشاء ...

و « الرزاق » اسم من أسمائه . وهو كذلك صفة من صفاته . وينشأ عنها أن الله يرزق العباد بما يشاء من رزق ..

ونحن نؤمن بهذه الأسماء لأنها وردت في كلام الله وكلام رسوله ﷺ . ولأننا نراها ونلمسها ونشهدها في الكون من حولنا وفي ذات أنفسنا . كما قال تعالى :

﴿ سَكِرْتُمْ أَنْبَاءَ الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتِّبَ لَمْ يَأْتِ الْخَوْفُ ﴾ (سورة فصلت : الآية ٥٣) . وكل تدبر في آيات الله في الكون وفي النفس يصل بنا إلى اليقين الكامل بأن كل ما وصف الله به نفسه هو الحق كل الحق . فهو الواحد الأحد ، وهو المتفرد بالقدرة . المتفرد بالملك . المتفرد بالأمر والتدبير ..

فعلينا إذن أن نؤمن بتلك الأسماء والصفات والأفعال وأن نقف كذلك عند ما جاء منها في القرآن والحديث ولا نزيد على ذلك . وهذا هو مذهب السلف ...

يؤمنون بها كما وردت ، ولا يؤولونها . لأن التأويل ليس من شأن البشر . لا لهم طاقة به . ولا ينبغي لهم أن يخوضوا فيه . إنما يأخذون الأمر بالبساطة التي يوضحها القرآن والحديث .

فهذه الصفات حقيقة . ولكنها لا تشبه ما نراه من صفات البشر . فالبشر عاجزون والله قادر . والبشر ناقصون والله كامل . والبشر محجوبون عن الغيب والله علام الغيوب . والبشر محتاجون لمن يطعمهم ويسقيهم ويرزقهم والله هو الغني المستغنى عن كل أحد وكل شيء . والبشر فانون والله هو الدائم من الأزل إلى الأبد .. فكيف تتماثل

صفات الله مع صفات البشر ، وأفعاله مع أفعال البشر ؟

كلا ! ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ فصفاته هو متفرد بها سبحانه ، لأنها صفات الكمال ،

وهو المتفرد وحده بالكمال .

والوجود كله يشهد بذلك التفرد ، وفطرة الإنسان من أعماقها تشهد به كذلك .

ولا حاجة بنا ، ولا حاجة للفطرة السوية ، بتأويلات الفرق المنحرفة ، سواء منها

ما يعطل الصفات ، ومن يبحث في كيفيتها ولم يؤت القدرة على تكييفها ، ومن يشبهها

بأعمال البشر والله ليس له مثيل ...

إنما نقول : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ..

ونحمد الله على توفيقه .

أسئلة

- ١ - ما الذي تفيد هذه الآية ﴿وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين﴾ ؟
- ٢ - تحدث بإيجاز عن عظمة الله وآيات قدرته في الآفاق والأنفس .
- ٣ - اتفق الأنبياء جميعاً على كلمة واحدة وطالبوا أمهم بها . فما هي ؟ وماذا تدلنا عليه ؟
- ٤ - مثل لخصلة من خصال المؤمنين الحميدة ، وأخرى من خصال الكافرين الذميمة .
- ٥ - ما حكم تحكيم الكتاب والسنة فيما شجر بين الناس بجميع شئون الحياة ؟ دلل على ما تقول .
- ٦ - هل النطق بالشهادتين دون تطبيق لهما يعصم الدم والمال ؟ دلل على ما تقول .
- ٧ - ما حكم من يرى أن أوامر الشريعة ونواهيها غير ملزمة له ؟
- ٨ - ما هي عقيدتك في أسماء الله وصفاته ؟
دلل على ما تقول .

فهرس الكتاب

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٣
الإسلام	٥
أصول العقيدة الإسلامية	٧
الدين والفطرة	١٠
طريقة القرآن	١٨
القرآن والوجدان	٢٠
(١) آيات الله في الكون	٢١
(٢) ظاهرة الموت والحياة	٢٥
(٣) الرزق	٢٨
(٤) الأحداث الجارية	٣٣
(٥) علم الله الشامل للغيب	٣٦
الدليل العقلي	٤٣
تيقظ الإيمان المركوز في الفطرة وقت الشدة	٦٤
القرآن يتولى الرد على دعاوى المبطلين	٦٩
(١) الشرك	٧١
(٢) ادعاء الولد لله	٧٥
(٣) إنكار البعث	٨٠
تثبيت الإيمان	٨٤
(١) التذكير بعظمة الله وآيات قدرته في الآفاق والأنفس	٨٥
« أ » آيات الخلق والإبداع في السماوات والأرض	٨٦
« ب » بعض آيات تدل على قدرة الله وإعجازه في الأنفس	٨٨
« ج » في نعم الله على العباد	٨٩
« د » في تدبير الكون بغير شريك	٩٠
« هـ » في تأييد الرسل بالمعجزات	٩١
(٢) التذكير بمراقبة الله للإنسان	٩٢
(٣) توجبه القلب البشري إلى ذكر الله	٩٢
(٤) بعض قصص الأنبياء	٩٣
(٥) صور المؤمنين والكافرين	٩٤
تحكيم شريعة الله	١٠٤
الإيمان بأسماء الله وصفاته	١١٤

كتاب منهج علم النوحية لطلاب المعاهد الإسلامية

تأليف
محمد قطب

الجزء الثاني

الطبعة الرابعة

١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م



حقوق المؤلف وقف لله تعالى على
جمعية تحفيظ القرآن الكريم
مدرسة ومعهد دار القرآن
وادي الزناقي ولاية قالمة
الجزائر

طبع « دار البعث » قسنطينة - الجزائر

رقم الايداع القانوني : 90/45167 - و. قسنطينة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله الذى أسبغ على الإنسان نعمه ظاهرة وباطنة ، وسر له سبل الهداية فأودع فى فطرته المعرفة بالله :

فَإِذَا أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ
وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا

سورة الأعراف ، آية ١٧٢ .

ثم أرسل رسله صلوات الله وسلامه عليهم ليلغوا الناس ما أمرهم الله به من إخلاص العبادة له وحده دون شريك :

اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ

سورة الأعراف ، آية ٥٩ .

وأنزل الكتب تحمل الهدى للناس ، لتستقيم حياتهم على المنهج الحق :

لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا

بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ

سورة الحديد ، آية : ٢٥ .

نحمده ونستغفره ونستهديه ، ونصلى ونسلم على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء والمرسلين ، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

وبعد . . . فقد قدمنا من قبل كتاباً فى التوحيد يشمل مقرر الصف الأول الثانوى

تحدثنا فيه عن موضوع الإيمان بالله وما يقتضيه هذا الإيمان من طاعة وعبودية لله ، وتنفيذاً لشريعته فى أمور العبادة وواقع الحياة .

واليوم نقدم هذا الكتاب للصف الثاني الثانوى نتناول فيه الموضوعات المقررة عليهم ، وهى فى الواقع استمرار لما درسوه فى الصف الأول . ويشمل ثلاثة موضوعات رئيسية :

١ - الانحراف عن الإيمان والتوحيد ، ويتناول الشرك والإلحاد وآثارهما فى نفس الإنسان وفى واقع البشر فى العصر الحاضر بصفة خاصة .

٢ - الإيمان بالملائكة .

٣ - الإيمان بالكتب السماوية .

وقد حاولت فيه أن أسير على النهج المبسط الذى راعيناه فى مقرر الصف الأول حتى يكون ميسراً لطلاب العلم فى المرحلة الثانوية ، وحتى يستطيعوا أن يقوموا واقع البشرية المعاصر على ضوء من أصول دينهم كما هى مبينة فى كتاب ربهم وسنة نبيهم صلى الله عليه وسلم .

ندعو الله أن يلهمنا الصواب ويوفقنا إلى العمل بما يحبه ويرضاه .

والله ولى التوفيق

محمد قطب

الباب الأول

الانحراف عن الإيمان والتوحيد
الشرك والإلحاد

الشرك والإلحاد كلاهما منحرفان عن الإيمان والتوحيد . والفرق بينهما أن المشرك يعرف أن هناك إلهاً خالقاً لهذا الكون ولكنه يشرك به في العبادة ، فيعبد آلهة أخرى مع الله أو من دون الله ، يقدم لها شعائر التعبد ، أو يتوجه إليها بالدعاء ، أو بالطاعة والاتباع ، أو بالمحبة والولاء ، ويجعلها واسطة بينه وبين ربه . . أما الملحد - في اصطلاح المعاصرين اليوم - فهو الذي ينكر وجود الله أصلاً وينسب الخلق والموت والحياة لغير الله .

والشرك والإلحاد كلاهما انتكاس يصيب البشر حين ينحدرون إلى الجاهلية ، فينحرفون عن الفطرة السوية التي خلقهم الله عليها . وإن كان الانحراف الغالب على البشر في جاهلياتهم خلال عصور التاريخ المختلفة هو الشرك ، والنادر هو الإلحاد ، فيما عدا الجاهلية المعاصرة التي انحدر الناس إليها في العصر الحاضر والتي غلب عليها الإلحاد بصورة لا مثيل لها في التاريخ من قبل ، بسبب بعض العوامل التي ستعرض لها بشيء من التفصيل على صفحات الكتاب .

والقرآن يشير إلى هذا الانتكاس في قوله تعالى :

لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ۝
إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝

سورة التين ، الآيات ٤ ، ٥ ، ٦ .

كما يبين القرآن أن الأصل في الناس هو الإيمان والتوحيد ، فإن الله قد أشهد البشر جميعاً على أنه هو وحده ربهم بدون شريك ، وهم في عالم الذر قبل أن يولدوا :

فَإِذَا أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ
وَأَشْهَدُهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ
الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ۝ أَوْ قُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ
قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ۝ وَكَذَلِكَ
نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝

سورة الأعراف ، الآيات : ١٧٢ - ١٧٤ .

والآيات تدل على أن الله قد ألهم البشرية كلها بأنه هو ربها وإلهها ، وأنه ليس لها رب ولا إله غيره ، وأنه أخذ عليها ميثاقاً بذلك : « قالوا : بلى ، شهدنا ! » . فلم يعد يقبل منهم أن يقولوا يوم القيامة : نسينا وكنا غافلين عن هذا الميثاق ! أو يحتجوا بأن آباءهم أشركوا وأنهم اتبعوهم في شركهم لأنهم من ذريتهم ! فشارك الآباء لا يبرر للأبناء أن يحيدوا عن ميثاق الفطرة ، لأنه عهد بينهم وبين الله ولا دخل للآباء فيه ! وإن كان الله من رحمته لا يحاسب الناس بميثاق الفطرة وحده ، وإنما يحاسبهم بعد تذكيرهم على يد الرسل :

رُسُلًا بُشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لَّئَلَّاءَ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ

سورة النساء ، آية : ١٦٥ .

ولا يعذبهم حتى يبعث لهم رسولا يبلغهم :

وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا

سورة الإسراء ، آية : ١٥ .

كذلك يحدثنا القرآن في سورة الروم عن أمر الفطرة :

فَأَقْرَءْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ مُسِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ

الْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾

سورة الروم ، الآيتان ٣٠ ، ٣١ .

فهاتان الآيتان تدلان على أن الدين القيم - وهو توحيد الله وإخلاص العبادة له وحده دون شريك - هو الفطرة التي فطر الله الناس عليها .

كما أن الرسول صلى الله عليه وسلم يحدثنا بأن الإسلام - أي إسلام الوجه لله وعبادته وحده دون سواه - هو دين الفطرة ، إذ يقول عليه الصلاة والسلام : « ما من مولود إلا يولد على الفطرة (١) ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » متفق عليه .

بل إن القرآن يحدثنا أن الكون كله ، وليس الإنسان وحده ، مفسطور على عبادة الله ، بسماواته وأرضه ، وشمسه وقمره ، ونجومه وجباله ، ودوابه وشجره :

الَّذِينَ أَنَّى اللَّهُ يَسْجُدُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ
وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالْجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالذَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنْ

النَّاسِ

سورة الحج ، آية : ١٨ .

وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ
وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١١﴾

سورة النحل ، آية ٤٩ .

وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٥﴾

سورة الرعد ، آية ١٥ .

فالتوجه لله بالعبادة - الذي تشير إليه الآيات بالسجود لأن السجود أبرز علامات
العبادة - هو في فطرة الكون كله ، الذي فطره الله على عبادته وطاعته :

ثُمَّ اسْتَوَىٰ

إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا
فَاتَّيَبَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾

سورة فصلت ، آية ١١ .

والإنسان خلق من خلق الله ، مفطور مثل بقية الكون على التوجه لله بالعبادة .
ولكن الله كرّمه وفضّله على كثير ممن خلق ، ومنحه الوعي والإدراك وحرية
الاختيار :

وَلَقَدْ كَرَّمْنَا

بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ
وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٥﴾

سورة الإسراء ، آية ٧٠ .

إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٥﴾
إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٦﴾

سورة الإنسان ، الايتان ٢ ، ٣ .

وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ
وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . سورة النحل ، آية ٧٨ .

لَمْ يَجْعَلِ الْإِنْسَانَ ۝ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ۝

سورة البلد ، الآيات ٨ - ١٠ .

ولكن الإنسان - بسبب هذا التكريم ذاته - قد اختلف أمره . فبقى بعضه على
الفطرة السوية التي خلقه الله عليها ، أى بقى متجها بالعبادة لله وحده دون شريك
وضل بعضه فوقع فى الشرك والإلحاد .

الْأَرْضَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ
وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنْ
النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يَمُنْ بِاللَّهِ فَأَلَهُ مِنْ مَكْرَمٍ

سورة الحج ، آية ١٨ .

وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۝
وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ۝

سورة الشمس ، ٧ - ١٠ .

فأما الذين استقاموا على الدين القيم فعبدوا الله وحده دون شريك ، فهؤلاء ظلوا
كما فطرهم الله « فى أحسن تقويم » وأما الذين انحرفوا عن العبادة الصحيحة بشرك أو
إلحاد فقد انتكسوا فأصبحوا « أسفل سافلين » ولم يعودوا يستحقون التكريم الإلهى
الذى من الله به على الإنسان ، بل أصبحوا موضع الإهانة عند الله : « ومن يهن الله
فما له من مكرم » واستحقوا غضب الله ولعنته ، لأنهم قابلوا الإحسان الربانى
بالإساءة ، وقابلوا النعمة بالكفران ! .

والآن بعد أن عرفنا ذلك نعود فنتكلم عن الشرك والإلحاد كل على حدة .

الشرك : أسبابه ودوافعه

إذا عرفنا أن الشرك انتكاسة تصيب الفطرة ، ومرض يصيب القلب ، فلنحاول أن نتعرف على أسبابه كما يحاول الطبيب أن يتعرف على أسباب المرض الجسدى ليعالجه .

فالأصل فى الجسد هو السلامة والصحة ، ولكنه عرضة للإصابة بالمرض إذا لم يحافظ الإنسان على أسباب الصحة ، وعرضة لأن يتمكن منه المرض ويستفحل إذا لم يأخذ الإنسان بأسباب العلاج .

والنفس الإنسانية كذلك ، الأصل فيها هو السلامة والصحة . ولكنها عرضة للإصابة بالمرض إذا ترك الإنسان نفسه بغير مراقبة دائمة لأعماله ووزنها بالميزان الصحيح . أو بعبارة أخرى إذا غفل الإنسان عن ذكر الله فوسوس له الشيطان وأبعده عن الطريق . وهى عرضة كذلك لأن يتمكن منها المرض ويستفحل إذا لم يسارع الإنسان إلى التوبة لله والإنابة إليه والعودة إلى طريقه . فيصبح عندئذ ممن يقول عنهم القرآن :

فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا

سورة البقرة ، آية ١٠ .

وهذا المرض الذى يصيب القلب له جملة أسباب ودوافع ، بينها الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، نستعرض جانباً منها فيما يلى :

١- الإعجاب والتعظيم :

فطرت النفس البشرية على الإعجاب بالبطولة والعظمة والأشياء الضخمة والأشياء الخارقة . وهذا الإعجاب وما ينشأ عنه من التعظيم ليس عيباً فى ذاته ، ولا ينشأ منه ضرر فى النفس السوية . بل إنه مطلوب فى أحيان كثيرة .

فإعجاب الابن بوالديه وتعظيمهما أمر طبعي ، وأمر مطلوب كذلك .

يقول القرآن :

*وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا يَٰهُوَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۖ إِنَّمَا يُبَلِّغَنَّ
عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا آفٌ وَلَا تُنْهَرُهُمَا
وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ٥ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ
وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ٦

سورة الإسراء ، ٢٣ - ٢٤ .

وتعظيم النبي المرسل مطلوب كذلك :

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ

سورة النساء ، الآية ٦٤ .

لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا

سورة النور ، الآية ٦٣ .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا
لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ
﴿١﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَخُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ
اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢﴾

سورة الحجرات : ٢ - ٣ .

وتعظيم العلماء والصالحين من الأمة واجب :

« العلماء ورثة الأنبياء » رواه البخارى .

« ليس منا من لم يوقر كبيرنا ويعرف لعالمنا فضله » رواه أحمد .

ولكن الانحراف ينشأ من زيادة التعظيم حتى يصل إلى التقديس ، فهنا يدخل في
دائرة الشرك . لأن التقديس لا يكون إلا لله سبحانه وتعالى وحده بغير شريك . وكل
تعظيم وصل إلى حد التقديس ، سواء كان لشخص أو لشيء ما في هذا الوجود فهو
شرك ، لأنه توجّه لغير الله بما لا ينبغي إلا له .

ومن هذا اللون من الانحراف نشأ كثير من الشرك في تاريخ البشرية ، مما أشار
إليه القرآن والأحاديث النبوية .

قال

يقول القرآن في سورة نوح :

نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَّهُهُ الْآخِسَارَ ﴿١﴾
وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢﴾ وَقَالُوا لَا تَنْزِلُنَا إِلَهَكَ وَلا تَذَرُنَا وَدًّا
وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٣﴾

سورة نوح ، ٢١ - ٢٣ .

ويقول ابن كثير في التفسير : « وقال على بن أبي طلحة عن ابن عباس : هذه
أصنام كانت تعبد في زمن نوح . وقال ابن جرير : حدثنا ابن حميد ، حدثنا مهران

عن سفيان عن موسى عن محمد بن قيس : « ويغوث ويعوق ونسرا » قال كانوا قوماً صالحين بين آدم ونوح ، وكان لهم أتباع يقتدون بهم ، فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم : لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم . فصوروهم فلما ماتوا وجاء آخرون دب إليهم إبليس فقال : إنما كانوا يعبدونهم وبهم يُستقون المطر فعبدوهم . (تفسير ابن كثير في سورة نوح) .
كذلك وقع فريق من المنحرفين في الشرك بتقديس أنبيائهم :

وَقَالِ الْيَهُودُ عِزِّيْزُ ابْنِ اللَّهِ وَقَالِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ
ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن
قَبْلُ قَتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾

سورة التوبة ، الآية ٣٠ .

كذلك وقعوا في تقديس احوارهم ورهبانهم :

اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ
أَرْبَابًا مِن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا
لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾

سورة التوبة ، الآية : ٣١ .

ووقع بعضهم في الشرك بسبب تعظيم الملائكة والجن - وهم خلق من خلق الله -
فزعموا أنهم أبناء الله وناته وقدسهم على هذا الاعتبار ، فيقول القرآن عنهم :

وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ
يَغْتَرِ عَلَيْهِمْ سُبْحَانَهُ، وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ ﴿١٠٠﴾

سورة الأنعام ، الآية : ١٠٠ .

وَجَعَلُوا بَيْنَهُم وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾
سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿١٥٩﴾

سورة الصافات : ١٥٨ - ١٥٩ .

وَجَعَلُوا لِلطَّيْفَةِ الَّذِينَ هُمُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ أَنْتَ أَشْهَدُ وَأَخْلَقَهُمْ سُبْحَانَ

شَهِدَتْهُمْ وَيُؤْتُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَالَهُ
بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾

سورة الزخرف : ١٩ - ٢٠ .

ووقع فريق آخر من البشر في الشرك بسبب تعظيم بعض الأجرام السماوية إلى حد
التفديس ، فعبدوا الشمس والقمر والنجوم ، فيقول القرآن لبعضهم :

وَمِنْ آيَاتِهِ الْبَلُّ وَالنَّهَارُ
وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدْ لِلَّهِ الَّذِي
خَلَقَهُمْ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾

سورة فصلت ، الآية : ٣٧ .

وقال لبعضهم الذين عبدوا نجم الشعرى لشدة لمعانه في السماء :

وَأَنَّهُ هُوَ أَضَلُّ وَأَبْكَى ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتٌ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُ خَلَقَ
الرَّزَجِينَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ﴿٤٥﴾ مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى ﴿٤٦﴾ وَأَنَّهُ عَلِيمٌ
النَّشْأَةِ الْآخِرَى ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشَّعْرَى ﴿٤٩﴾

سورة النجم : ٤٣ - ٤٩ .

وهكذا دخلت هذه الفرق الضالة كلها في الشرك من باب تعظيم لأشخاص ، أو
أشياء هي من خلق الله ، فقدسوهم وعبدوهم مع الله أو من دون الله ، وضلوا
بذلك عن الفطرة السوية التي تتجه لله وحده تعبده بغير شريك .

٢- الميل إلى الإيمان بالمحسوس والغفلة عن غير المحسوس :

في الإنسان كما فطره الله نزعتان فطريتان متكاملتان . إحداهما تنزع إلى الإيمان
بالمحسوس ، أى ما يقع في دائرة الحس ويمكن للحواس أن تدرك وجوده بالنظر أو السمع
أو الشم أو الذوق أو اللمس ، والأخرى تنزع إلى الإيمان بالغيب ، أى بما لا يقع في دائرة
الحس ولا يمكن للحواس أن تدرك وجوده بطريق مباشر .

وإذا كان الإنسان يشترك في النزعة الأولى مع بعض المخلوقات الأخرى ،
فقد خصه الله بالنزعة الثانية - وهى الإيمان بالغيب - وكرمه بها ، وفضله بها عن
كثير ممن خلق . وكانت هذه الموهبة الربانية من عوامل رفعة الإنسان واتساع أفقه

وعظمة روحه ، وانفساح المجال أمامه وراء المحسوسات القريبة إلى آفاق التفكير والتدبير في الكون كله ليستفح به ويستدل به على عظمة خالقه ومبدعه .
ولكن فطرة الإنسان عرضة للمرض كما قلنا ، إذا لم يداوم على رعايتها وتقديم الغذاء الصالح لها ، من ذكر لله وتقرب إليه بالأعمال الصالحات ، وعندئذ يرين على القلوب ما يرين عليها من ظلمات :

بَلْ رَأَى عَلَى قُلُوبِهِمْ مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٤)

سورة المطففين ، الآية : ١٤ .

ومن الأمراض التي تصيب فطرة الإنسان أن تغفل عن غير المحسوس ، وتحصر اهتمامها رويداً رويداً في دائرة المحسوس وحده ، ثم تمتد بها الغفلة حتى تستغنى تماماً بعالم الحس عما وراءه ، بل تمتد بها الغفلة أحياناً أكثر من ذلك فتنكر ما وراء الحس إنكاراً كاملاً وتزعم أنه غير موجود ! (١) .

وفي المراحل الأولى من هذه الغفلة لا ينكر المشرك وجود الله ، ولكنه يتلمس صورة محسوسة قريبة يضفى عليها في خياله بعض خصائص الألوهية من نفع وضرر ، وعلم للغيب ، وتصريف للأمر بالمشاركة مع الله ! فع أنه يعلم أن الله هو الخالق ، وأنه لا يشاركه أحد في الخلق ، إلا أنه يزعم أن فلاناً من الناس (نبياً كان أو ولياً من أولياء الله الصالحين) أو الملائكة ، أو الجن ، أو صنماً من الأصنام يستطيع أن يضر أو ينفع ، أو يستجيب للدعاء ، أو ييسط الرزق لمن يشاء ، أو يعلم الغيب ويخبر به من يستطيع أن يتلقى عنه . وفي مثل هذه الصورة كان العرب في جاهليتهم . فقد سجل القرآن عليهم أنهم يعرفون أن الله موجود وأنه هو الخالق :

وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ

سورة لقمان ، الآية : ٢٥ .

وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾

سورة الزخرف ، الآية : ٨٧ .

ومع ذلك كانوا يشركون به الجن والملائكة والأصنام التي يعبدونها - في زعمهم - لتقربهم إلى الله زلفى ! .

(١) سرى فيما بعد أن هذا المرض الأخير هو أوسم أبواب الإلحاد الذي فعل جانباً كبيراً من البشرية في

ولكن الغفلة كما قلنا قد تمتد إلى أبعد من ذلك ، فيغفل المشرك عن الله الذى :

لَا تُذَرِكُ الْأَبْصَرُ وَهُوَ يُذَرِكُ الْأَبْصَرَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾

سورة الأنعام ، الآية ١٠٣ .

ويتصور أن الشيء المحسوس هو الله . فهنا لا يكتفى المشرك بأن يزعم لتلك المحسوسات بعض خصائص الألوهية ، بل يضيف كل خصائص الألوهية عليها . وفى مثل هذه الصورة كان المصريون فى زمن الفراعنة إذ كانوا يزعمون أن « رع » - وهو قرص الشمس - هو الخالق وهو الرازق وهو المحيى المميت ، وهو الذى يبعث الناس يوم القيامة ويحاسبهم ! كما كان المجوس ينسبون الخلق والضر والنفع والإحياء والإماتة للنار ! وفى مثل هذا المستوى كذلك كانت الجاهلية الرومانية والجاهلية الإغريقية والجاهلية الهندية والجاهلية الصينية .

وبعض هذه الجاهليات كان يضيف إلى ذلك الشرك لوناً آخر ، فيزعم أن فلاناً من البشر هو ابن الله ، ويضيف عليه بعض خصائص الألوهية أو كلها ، كما كانت الجاهلية الفرعونية تزعم أن الفرعون هو ابن الله (ابن الإله رع) وأنه يجلس عن يمينه يوم القيامة ، والجاهلية الهندية تزعم أن البراهما خلقوا من رأس الإله وأنهم من أجل ذلك مقدسون ولا يحاسبون على أعمالهم (بينما المنبوذون نجسون لأنهم مخلوقون من قدم الإله ولذلك فهم مهينون ومحتقرون !!) ولا تختلف النصرانية المحرفة كثيراً عن ذلك إذ زعمت أن المسيح ابن مريم هو ابن الله . وقالت مرة إنه هو الله ومرة قالت إنه واحد من ثلاثة يكونون فى مجموعهم إلهاً واحداً ، وإلى ذلك يشير القرآن :

لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ

(سورة المائدة : ٧٢)

لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثَةٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ

(سورة المائدة : ٧٣)

وقد وصل بنو إسرائيل إلى درجة أشبع من ذلك حين قالوا لموسى :

لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً

(سورة البقرة : ٥٥)

وحين مرّوا على قوم يعبدون الأصنام فقالوا لموسى اجعل لنا إلهاً (أى صنماً) نعبده مثل هؤلاء القوم :

وَجَوَرْنَا بِنِيَّ
إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَبْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَمُوسَى
اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾

(سورة الأعراف : ١٣٨)

وحين عبدوا العجل واتخذوه إلهاً :

فَكَذَّبَ النَّاسُ
السَّامِرِيَّ ﴿١٣٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ
وَالَهُ مُوسَى

(سورة طه : ٨٧ - ٨٨)

كل هذا ونبههم بين ظهرائهم يعلمهم أمر دينهم (١) .
أما الدرجة القصوى من هذه الغفلة فهي التى تؤدى إلى إنكار وجود الله البتة ،
وستحدث عنها حين نتحدث عن الإلحاد .

٣- الهوى والشهوات :

من الأمراض التى تصيب الفطرة كذلك وتوقعها فى الشرك غلبة الهوى والشهوات
ذلك أن دين الله المنزل يشمل دائماً أحكاماً إلهية يطلب الله من البشر أن يلتزموا بها
وينفذوها لتستقيم حياتهم وتتوازن :

لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا
بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ

(سورة الحديد : ٢٥)

(١) كان موسى قد تركهم أربعين ليلة ليتلقى من ربه الشريعة المنزلة ففعلوا هذا الفعل الشنيع ، مع أنه ترك
أخاه هرون ليخلفه فى قومه مدة غيابه عنهم .

وحين تكون الفطرة مستقيمة فإنها تتقبل ما فرضه الله عليها بالرضا ، وتجتهد في تنفيذه تعبداً لله وطمعاً في رضاه . ولكن حين يغلب عليها الهوى وحب الشهوات فإنها تضيق بما أنزل الله وتحب أن تتبع شهواتها . وفي ذلك يقول القرآن :

وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَشْتَعِبُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا

(سورة لقمان : ٢١)

مُفْتَلَفٍ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ

(سورة مريم : ٥٩)

فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ

فَاعْلَمْ أَنَّهُمْ اتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بَغْيَرُهُدًى
مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾

(سورة القصص : ٥٠)

أَرَأَيْتَ مَنْ أَخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ

(سورة الفرقان : ٤٣)

زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ

مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ
الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْأَمْوَالِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ
حُسْنُ الْمَقَابِ ﴿١٤﴾

(سورة آل عمران : ١٤)

ومن أجل هذه الشهوات يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة كما يصفهم القرآن :

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ

الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١٥﴾

أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَافِقُونَ ﴿١٥٨﴾

(سورة النحل : ١٠٧ - ١٠٨)

الَّذِينَ يَسْتَقْبُونَ

الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عُوجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿١٥٩﴾

(سورة إبراهيم : ٣)

وهؤلاء يرفضون الهدى/الربانى . ويرفضون أن يعترفوا بالوحى المنزل من عند الله ولو استيقنوا فى دخيلة أنفسهم أنه الحق ، لأنهم لو اعترفوا لكان عليهم أن يلتزموا ، وهم يكرهون الالتزام بما أنزل الله ، لأن شهواتهم تغلبهم وتثقل فى حشمتهم . لذلك ينكرون أن ما جاء من عند الله هو الحق ، ويجادلون فيه بالباطل ، ويضعون قواعد وموازن للحياة وللأعمال غير ما قرر الله ، ثم يزعمون أنهم هم الذين على الحق ، وأن ما يتبعونه من نظم وقواعد وموازن أحق أن يتبع مما أنزل الله ، فيقعون بذلك فى الشرك - شرك الاتباع (١) .

وعلى هذه الصورة ، كانت الجاهلية العربية التى وصفها القرآن وصفاً مفصلاً فى كثير من الآيات فى السور المكية خاصة . وعلى هذه الصورة كذلك نجد الجاهلية المعاصرة التى غرقت فى الشهوات إلى أذنيها ، ورفضت الاعتراف بالوحى الربانى لأنها تريد أن تتبع أهواءها ولا تريد أن تلتزم بما أنزل الله .

٤- الكبر عن عبادة الله :

الكبر كذلك من الأمراض التى تصيب الفطرة فتتحرف بها عن صورتها السوية وتوقعها فى الشرك .

والكبر درجات تبدأ بالاستكبار على الناس وتنتهى بالاستكبار على عبادة الله . وكلها خُلِقَ مقبلة مردفول لا يصدر عن نفس سوية مستقيمة . لذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر » (٢) .

وغالباً ما يكون الكبر فى نفوس من حصلوا على شىء من متاع الحياة الدنيا ،

(١) سنتكم فى الصفحات التالية عن أنواع الشرك . (٢) رواه مسلم .

من مال أو جاءه أو سلطان . ولكنه ليس وقفاً عليهم ، ويمكن أن يتسرب إلى أى نفس مريضة فيصاب صاحبها بما يسميه المعاصرون «جنون العظمة» ولو كان من أحقر الناس !

وبين لنا الله في كتابه الحكيم أن الكبر من أسباب الكفر والشرك ، كما جاء في قصة الثمود :

الرَّشَا إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّى
الَّذِى يُحْيِى وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أَنَحِىءُ وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِ بِالشَّمْسِ
مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِى كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ
الظَّالِمِينَ ﴿٥٥﴾

(سورة البقرة : ٢٥٨)

وكما جاء في قصة فرعون :

وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ
قَالَ يَقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا
تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾

(سورة الزخرف : ٥١)

أَذْهَبَ لَكَ فِرْعَوْنُ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ
فَأَعِذْ بِكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَخَشِيَ ﴿١١﴾ فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ فَكَذَّبَ
وَعَصَىٰ ﴿١٣﴾ ثُمَّ أَذْبَرَ سَيْعَىٰ ﴿١٤﴾ فَخَشَفْنَا لَهُ أَصْوَاحَهُ فَقَالَ إِنَّهُ رَبُّكُمْ
الْأَعْلَىٰ ﴿١٥﴾ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْأَخْزِ وَأَوَّلَىٰ ﴿١٦﴾

(سورة النازعات : ١٧ - ٢٥)

وكما كان من أمر الوليد بن المغيرة :

ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۖ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ۖ
وَبَيْنَ شُهُودًا ۖ وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ۖ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ۖ
كَلَّا ۖ إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ۖ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ۖ إِنَّهُ فُكِّرَ وَقَدَّرَ ۖ
فَقِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۖ ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۖ ثُمَّ نَظَرَ ۖ ثُمَّ عَبَسَ
وَبَسَرَ ۖ ثُمَّ آذَبَ وَاسْتَكْبَرَ ۖ فَتَالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا صَحْرٌ يُوْشَرُ ۖ
هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ۖ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ۖ

(سورة المدثر : ١١ - ٢٦)

ثم يبين لنا الله أنها قاعدة شاملة وليست ظاهرة فردية :

إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ
بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ فِي صُدُورِهِمْ الْكِبَرُ ۖ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ ۖ فَاسْتَعِذْ
بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ۖ

(سورة غافر : ٥٦)

وهذا الكبر عن عبادة الله أوضح ما يكون في الجاهلية المعاصرة ، فهو ليس وقفاً
على أصحاب المال أو الجاه أو السلطان ، إنما سرى المرض في جسم الغرب حتى صار
أنفه الناس شأنًا يستكبر عن عبادة الله !

• - وجود الطغاة الذين يريدون أن يستعبدوا الناس لأنفسهم فيرفضون أن يحكموا بما
أنزل الله :

من أهم أسباب الشرك في تاريخ الجاهليات كلها وجود طغاة من البشر يريدون
أن يستعبدوا الناس لأنفسهم ، ويسخروهم في قضاء شهواتهم ، فيرفضون الانصياع لما
أنزل الله ، ويضعون من عند أنفسهم تشريعات لم يشرعها الله ، فيحلون ويحرمون من
عند أنفسهم ، اتباعاً لأهوائهم ، ويفرضون تشريعاتهم المزيفة على الناس بما

يملكون في أديهم من سلطان .
هؤلاء الطغاة في الواقع ينصبون أنفسهم أرباباً من دون الله حين يعطونها حق التشريع من دون الله . لأن الله وحده هو صاحب هذا الحق حيث أنه هو الخالق سبحانه وأنه هو العليم الخبير :

آلَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ

(سورة الأعراف : ٥٤)

وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾

(سورة البقرة : ٢١٦)

فالله سبحانه وتعالى يحق ألوهيته وربوبيته لكل الخلق ، ويعلمه التام بكل شيء هو الذي يحق له أن يقول : هذا حرام وهذا حلال ، هذا حسن وهذا قبيح . هذا مباح وهذا غير مباح .
فإذا جاء أى إنسان فادعى لنفسه حق التحليل والتحريم ، والمنع والإباحة فقد جعلها شريكاً لله ، بل جعل نفسه إلهاً من دون الله . ومن تبعه في ذلك فقد أشركه في العبادة مع الله ، أو أشرك به من دون الله !
وهؤلاء الطغاة ، الذين يسميهم القرآن « الملأ » هم أول من يتصدى لتكذيب الرسل الذين يرسلهم الله لهداية البشرية :

لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَّقُوا رَبَّ

اللَّهُ مَا لَكُمْ مِنْ آلٍ غَيْرِيَّ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٦﴾

قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٥٧﴾

(سورة الأعراف : ٥٩ - ٦٠)

وَإِلَى عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَتَّقُوا رَبَّ وَاللَّهُ مَا لَكُمْ

مِنْ آلٍ غَيْرِيَّ أَفَلَا تَشْقُونَ ﴿٥٨﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا

لَنَرَاكَ فِي سَفَاهٍ وَإِنَّا لَنُظُنُّكَ مِنَ الْكَذِبِينَ ﴿٥٩﴾

(سورة الأعراف : ٦٥ - ٦٦)

قَالَ ثَمُودُ أَخَاهُ صَالِحًا قَالَ يَقُومِ عَبْدُ وَاللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ آلٍ غَيْرِي
 قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ
 فِ الْأَرْضِ لِلَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسَوْءِ مَا خُذَكُمْ عَذَابًا بِآيَةٍ ۝ وَادْكُرُوا
 إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ
 سُوءِ مَا قُصُّوا تَحْشُرُونَ تَحْجِلُونَ أَفَذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْتَوْنَ فِي
 الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۝ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ آسَنَّا كِبَرًا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ
 اسْتَضَعُوا إِلَيْنَا مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ ۝ قَالُوا إِنَّا بِمَا
 أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ۝ قَالَ الَّذِينَ آسَنَّا كِبَرًا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ
 كَاغِبُونَ ۝

(سورة الأعراف : ٧٣ - ٧٦)

وهكذا دائماً يتصدى الملا لتكذيب الرسول الاق من عند الله ، ثم لا يكتفون بالتكذيب بل يتبعونه بالتهديد .

وهذا الامر الذى يبدو لنا غريباً لأول وهلة ليس غريباً في الحقيقة ! فهؤلاء الملا يعرفون جيداً أن السلطة التى يستعبدون بها الناس ليست شرعية في الحقيقة ، لأنها مخالفة لما أنزل الله ، ولكنهم يتجاهلون ذلك ويمضون في غيهم طاغين مستكبرين . فإذا جاء الرسول من عند الله يقول : « يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره » وهو ما قاله كل رسول لقومه - فهو في الحقيقة ينادى برد السلطان المغتصب إلى الله ، صاحب الحق وحده في التشريع للناس ، وفي تقرير الحلال والحرام والمباح وغير المباح .

عندئذ يحس أولئك الملا كما يحس السارق حين يرى رجل الشرطة قادماً نحوه ! وإذا كان السارق في العادة يفر من رجل الشرطة إلا أن السارق المتبجح يقف يقطع الطريق ! وهؤلاء الطغاة يقفون في وجه الرسل كما يقف السارق قاطع الطريق : يكذبونهم ثم يهددونهم بالسجن أو القتل أو التعذيب .

ثم إنهم لا يكتفون بتهديد الرسل أنفسهم . لكنهم يقفون بالمرء اد للناس الذين

يستعبدونهم بسلطانهم ، خوفاً من أن يفروا من سلطانهم الجائر إلى الله . . فيهددونهم كما يهددون الرسل ، ويطلبون منهم أن يستمروا في ولائهم لهم ويمنعونهم من تقديم الولاء الخالص لله ! أي يأمرهم بالشرك ويهددونهم بالقضاء عليهم إن أسلموا لله ! ووجود الطغاة من جانب يقابله وجود المستضعفين الذين يخضعون لهم من الجانب الآخر . الأولون يأمرهم بالشرك والآخرين يطيعون ، خوفاً أو ذلاً وفناء في السادة المشركين .

والقرآن يقول عن الأولين :

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ
دَارَ الْبَوَارِ ۖ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَيَنْشَرُ الْقَرَارُ ۚ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا
لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ ۚ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ۚ
(سورة إبراهيم : ٢٨ - ٣٠)

يقول عن الآخرين :

وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ
مُوقِفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ
أَسْضَعُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا وَالْوَلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ۚ قَالَ
الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْضَعِفُوا أَنْتُمْ جَدَدُكُمْ عَنِ الْهَدَىٰ بَعْدَ
إِذْ جَاءَكُمْ بِكُمْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ ۚ وَقَالَ الَّذِينَ اسْضَعِفُوا لِلَّذِينَ
اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكَرُ الْبَلِ وَالنَّهَارِ إِذَا تَأَمَّرْتُمَا أَنْ تُكْفِرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ
أَنْدَادًا وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ كَمَا رَأَوْا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْيَانِ
الَّذِينَ كَفَرُوا وَاهْلُبُوا أَهْلُ تُجَرُونَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۚ

(سورة سبا : ٣١ - ٣٣)

أنواع الشرك

ليست الصورة الوحيدة للشرك هي السجود للأصنام كما يبدو لبعض الناس الذين يقرءون في التاريخ أن العرب في الجاهلية كانوا مشركين يعبدون الأصنام ، فينبادر إلى أذهانهم أن عبادة الأصنام هي السبب الوحيد في وصف العرب بأنهم كانوا مشركين ، ويظنون من جهة أخرى أن الصورة الوحيدة للشرك هي عبادة الأصنام . ولكننا إذا رجعنا إلى القرآن ، ثم أنعمنا النظر في حياة الجاهلية العربية ذاتها نجد أن عبادة الأصنام لم تكن إلا لوناً واحداً من ألوان الشرك في الجاهلية العربية ، فضلاً عن الجاهليات الأخرى التي مرت بها البشرية في تاريخها الطويل .

حقيقة أن عبادة الأصنام صورة واضحة ملموسة للشرك لا تحتاج إلى بيان . ولكن الشرك في الحقيقة أوسع دائرة من عبادة الأصنام والسجود لها وتقديم القرابين إليها . وقد اتخذ في الجاهليات المختلفة صوراً شتى ، وما يزال يتخذ إلى هذه اللحظة أشكالاً متعددة في حياة الناس في الشرق والغرب ، قد لا يلتفتون إليها ولا يدركون أنها ضروب من الشرك ، حين يمحضون صورة الشرك في أذهانهم في عبادة الأصنام فحسب .

وفي الجاهلية العربية ذاتها كانت هناك ألوان متعددة من الشرك إلى جانب عبادة الأصنام ، وعبادة الملائكة والجن ، والظن بأنها تشفع لهم عند الله أو تقرهم إلى الله زلفى .

لقد كانت « القبيلة » رباً يعبد مع الله أو من دون الله !

انظر إلى قول الشاعر :

وهل أنا إلا من غزية إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد !
فما معنى قوله ذلك ؟

معناه أنه لا يوجد عنده معيار للرشد أو الغي إلا ما تقوله قبيلته « غزية » . بل معناه أسوأ من ذلك في الحقيقة . معناه أن القبيلة هي التي تحمل له وتحرم . . فإن غوت فهو يغوى معها ، مع علمه بأنها غاوية . لأن الغي يصبح في نظره حلالاً ما دامت القبيلة قد فعلته . وإن رشدت فهو يرشد معها ، لا لأنه يرى أن الرشد هو الأصلح ، بل لأن القبيلة قد فعلته فهو الحلال في هذه اللحظة .

وفي كلتا الحالتين لا نجد أن الله موجود في حسّه ! فهو لا يأخذ حلاله ولا حرامه من الله . ولا يتلقى منه الأمر ولا يرجع إليه في التصرف . إنما يأخذ من القبيلة ،

ويتلقى عنها ، ويرجع إليها . وإذن فهي الرب الحقيقي بالنسبة إليه ، وإن كان يعرف - نظرياً - أن الله موجود ، وأنه هو الذى خلقه وخلق السموات والأرض ! وكذلك كان عرف الآباء والأجداد عند هؤلاء الجاهلين رباً يعبد من دون الله :

وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَشْتَعِبُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا

(سورة لقمان : ٢١)

وليس العرب وحدهم هم الذين قالوا ذلك فى جاهليتهم ، فالقرآن يحدثنا أن هذا أيضاً كان شأن قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم :

الَّذِينَ يَأْتِيَكُمُ نُبُوءُ الَّذِينَ

مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ

إِلَّا اللَّهُ جَاءَهُمْ رَسُولُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ

وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ ؕ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ

مُرِيبٍ ؕ قَالَتْ رَسُولُهُمْ أَفِى اللَّهِ شَكٌّ فَأَطِيعُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ

يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَتُخْرَجُوا إِلَى آجَلٍ مُسَمًّى قَالُوا

إِنَّا نَسْتَعِلاً بَشَرًا مِثْلَنَا نُرِيدُ أَنْ نَقْتُدَّ وَنَاعْتَمِدَ كَانِ يُعْبَدُ آبَاؤُنَا

(سورة إبراهيم : ٩ و ١٠)

وعلى ذلك نستطيع أن نعدد ألواناً مختلفة من الشرك - سواء فى الجاهلية العربية أو غيرها من الجاهليات - بجانب العبادة الخالصة للأصنام أو الأوثان بوصفها هى الله كاعتقاد الجاهلية الفرعونية أن رع « قرص الشمس » هو الاله ، واعتقاد المجوس أن النار هى الاله ، واعتقاد الأشوريين أن بعلا هو الاله ، واعتقاد قوم نوح أن ودا وسواعا ويغوث ويعوق ونسرا هى الآلهة .

لكن ضروب الشرك

١ شرك التقرب والزلفى :

وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ

(سورة الزمر : ٣)

وهذا النوع من الشرك - كما ذكرنا من قبل - يمارسه الشخص الذى يعرف أن الله موجود ، وأنه هو الخالق الرازق المحيى الميت ولكنه مع ذلك يتصور خطأ أن هناك كائنات أخرى لها بعض خصائص الألوهية ، وأنها من ثم قريبة من الله ، وإذا فالتقرب إليها يؤدي إلى القرب من الله !

فمن تقرب من الصنم وتمسح به ، ومن صلى له وسجد ، ومن تقدم إليه بالقران ، يعلم أنه ليس هو الله ، ولكنه يتصور أنه فى مرتبة قريبة من الله . وأنه - لقربه من الله حسناً ومعنى - يملك أن يقرب هذا العابد من الله ! فهو إذاً وسيط يتوسط بين العبد وبين الله الذى كانوا يصفونه بأنه « رب الأرباب » ! أى أن هناك أرباباً صغيرة ، ورئاً كبيراً هو الله . والأرباب الصغيرة تأخذ من العبد صلاته وتسبيحه وقربانه فتوصلها إلى الله ، حيث إنها قريبة منه ، فيقبلها الله منها بما لها من حظوة عنده ومكانة ! وعندئذ يرضى الله عن العبد ويشبهه على ما قدم للأرباب ! ومع ذلك فإن الرضى والثواب لا يصل إلى العبد مباشرة ، وإنما يصل عن طريق هذه الأرباب ! فهى - أى كهنتها - هى التى تخبره بأن القران قبل أو لم يقبل ، وبأن الله راض عنه أو غاضب عليه !!

ولقد نظن لأول وهلة أنه ما دام هذا المشرك يعترف - أو يعترف - بأن الله هو « رب الأرباب » فهو يلتزم بطاعته أكثر مما يطيع تلك الأرباب الصغيرة ، وأنه يعظمه ويوقره أكثر مما يعظم تلك الأرباب ويوقرها . ولكن الواقع - الذى يصفه لنا القرآن وصفاً دقيقاً - كان شيئاً آخر غير الذى نظن . . فالحقيقة أنهم يطيعون تلك الأرباب ويوقرونها ويحتفون بها أكثر مما يصنعون ذلك مع « رب الأرباب » .

وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِثْلَ دَارٍ

مِنْ أَمْحَرٍ وَالْأَنْفُسُ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا

فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى

شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾

(سورة الانعام : ١٣٦)

فهم زعموا بادئ ذى بدء أن الله نصيباً من الحرث والأنعام ، وللشركاء (الأصنام) نصيباً . . وحرّموا أكله لأنه نصيب الله أو نصيب الشركاء !
والى هنا فقد ارتكبوا إثمين عظيمين كلاهما شرك . الأول أنهم حرّموا بغير إذن الله ، والله وحده هو الذى يحل ويحرم لأنه المالك وصاحب الأمر : (١)

آلَةُ الْخَلْقِ وَالْأَمْرِ (سورة الأعراف : ٥٤)

والإثم الثانى أنهم جعلوا للشركاء نصيباً كما جعلوا لله نصيباً . فأشركوهم مع الله فى حقوق الألوهية كما يتصورونها !

ولكنهم مع ذلك لم يحافظوا على ما زعموه من تخصيص جزء من الحرث والأنعام لله ، إلى جانب ما خصصوا للشركاء . فإن ما خصصوه لله عادوا لنحوه لشركائهم . أما ما خصصوه للشركاء فلأنهم لا يعطونه الله !!

فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ
وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُمْ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ

وهذا التصرف العجيب الذى يقول عنه القرآن : «سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ» كانوا يبررونه بأن الله غنى غير محتاج ، أما الشركاء فاحتاجون !

وهو تبرير سخيف فى منطق العقل . فما دام الله غنياً فلماذا خصصوا له ذلك النصيب دون أن يطلب الله منهم ذلك ؟ وما دام الشركاء محتاجين إلى ما عند الله فبأى اعتبار صاروا آلهة ؟ وإذا كانوا لا يملكون لأنفسهم الاكتفاء فكيف يملكون أن يعطوا عبّادهم ؟

ولكن هذا التبرير - فوق سخفه - يمد عن حقيقة نفسية كامنة ، هى أن التوفير الحقيقى فى نفوسهم لم يكن لله الحق ، وإنما كان لتلك الأصنام التى يشركونها مع الله !

ولقد يبدو لنا اليوم أن هذا اللون من الشرك ساذج جداً وسخيف جداً بحيث يستنكف منه الإنسان المعاصر ، الذى تيسرت له وسائل التعليم والثقافة ، واتسعت حصيلته العلمية والفكرية .

ومع ذلك فانظر إلى ملايين الناس التى تطوف حول أضرحة المشايخ والأولياء والقديسين فى أرض الإسلام وخارج أرض الإسلام ، تطلب منهم أن يقربوهم إلى الله زلفى .

(١) يقول الله لهم فى سورة يونس (آية ٥٩) : قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلهم منه حراماً وحلالاً . قل الله اذن لكم ، أم على الله تفترون ؟

وانظر إلى الذين يخشون - في دخيلة أنفسهم - غصبة الذين يعظمونهم من ولاية وشيوخ وعظماء ، ولا يخشون غصبة الله ، والذين يعتقدون فيمن يعظمونهم أنهم أقرب ضراً لهم ونفعاً من الله سواء كانوا ملوكاً وعلماء ورؤساء ! .

أترامهم قد بعدوا في هذا الأمر عن عبادة الجاهلية الذين روى القرآن عنهم :

وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ

سورة الزمر ، الآية ٣ .

٢- شرك طلب الشفاعة من غير الله :

وقريب من شرك التقرب والزلفى شرك طلب الشفاعة من غير الله ، لأنه امتداد لـ في الحقيقة .

وقد كان العرب في الجاهلية يمارسون الشركين معاً . فقد كانوا يعبدون الأصنام لتقربهم إلى الله زلفى ، وكانوا في الوقت ذاته يطلبون الشفاعة منهم لتوهمهم أنهم أصحاب كلمة مسموعة عند الله لقربهم منه - سبحانه - وأن الله يجيب طلباتهم ولا يردّها لأنها آتية من أحبّابه المقربين ! فإذا تقدموا بالشفاعة لعبد من العباد قبل الله شفاعتهم له ورضى عنه .

وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ
وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُوا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ تَسُبُّوا اللَّهَ يَمْكُؤْ
فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ تُبْخِتُهُ وَتَعْلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ١٨

سورة يونس ، الآية ١٨ .

أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ

دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أُولَٰئِكَ كَانُوا لَآ يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ٤٣
قُلْ لِلَّهِ الشُّفَعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُجْسَرُونَ ٤٤

سورة الزمر ، الايتان ٤٣ ، ٤٤ .

وكما عبدوا الأصنام لتشفع لهم عند الله - وبخاصة اللات والعزى ومناة - فلإنهم عبدوا الملائكة كذلك باعتبارها بنات الله حسب ادعائهم الباطل ، وأنها لذلك مسموعة الكلمة عند الله :

وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ

وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٧﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ

بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ

لِالَّذِينَ آذَنُوا لَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٩﴾

سورة الأنبياء ، الآيات ٢٦ - ٢٨ .

ولقد يخيل إلينا كذلك أن هذه القضية قد انتهت مع انتهاء الجاهلية العربية ، ولم يعد لها وجود . ولكن التأمل في حياة الناس اليوم يجد نظائر لها في تشفيح الموق من الأولياء والصالحين عند الله في قضاء المصالح وفي الرضا عن العباد .

وقضية الشفاعة كقضية الزلفي ، كلتاهما تنشأ من توهم أن هناك من يملك من الأمر شيئاً مع الله ، أو يملك التأثير في مشيئة الله وإرادته . . وهو وهم يأتي من قياس باطل . فهم يقيسون شأن الله سبحانه على شأن المخلوقين من عباده ، إذ يرون في عالم البشر أن الشخص المقرب من أصحاب السلطان تكون له عندهم كلمة مسموعة ، وأنه يتشفع للناس بحكم هذه المودة فتقبل شفاعته وتستجاب ، فيتخيلون - في غفلتهم - أن هذا يحدث مع الله سبحانه وتعالى ! وأن طائفة من خلق الله - كالملائكة مثلاً - لا بد أن تكون لهم كلمة مسموعة عنده ، لأنهم مقربون منه ومكرمون ، وأن شفاعتهم للعباد تستجاب عنده بسبب ذلك وتقضى حوائجهم . وهم ينسون الفارق بين شأن الله سبحانه وتعالى وشأن المخلوقات ، فالله هو الغنى ، وهو المدبر المهيمن على كل ما في الوجود ، ومشيئته هي النافذة وحدها في هذا الكون ، لما الذي يحوجه سبحانه وتعالى أن يستجيب لشيء أو لشخص لا يريد أن يستجيب له ؟ أو بعبارة أخرى ما الذي يحوجه سبحانه وتعالى أن يشرك معه أحداً في تدبير أي أمر من أمور الكون ؟ فالخلق جميعاً عبيد له وأقربهم إليه أتقاهم له .

ولا ينفي هذا أن تكون هناك شفاعاة بين يدي الله يوم القيامة يتقبلها سبحانه وتعالى ويستجيب لها (١) . ولكنها أولاً بإذن منه سبحانه ، ثم هي لا تكون إلا في حق من رضى الله أن يشفع فيهم الشافعون :

(١) كشفاعة الرسول صلى الله عليه وسلم في أهل المواليق يوم القيامة وشفاعته بأن يدخل الجنة قوم من أمته وكل هذا بعد رضى الله وأذنه .

يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ

صِفَاءً لَا يُخَالِفُونَ إِلَّا مَنْ أِذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا (٣٨)

سورة النبا ، الآية ٣٨ .

وقال تعالى :

وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى

سورة الانبياء ، الآية ٢٨ .

وقال :

وَكَمْ

مِنْ مَلَكَ فِي السَّمَوَاتِ لَا تَعْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ
اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى (٢٦)

سورة النجم ، الآية ٢٦ .

٣ - شرك الطاعة والاتباع :

الأصل في العبادة هو الطاعة . ومعنى عبادة الله طاعته فيما أمر به وما نهى عنه . فإن الإحساس الحقيقي بعظمة الله وألوهيته ، وأنه هو الخالق لهذا الكون ، والمدير لكل شئونه ، والمهيمن على كل شئ فيه ، والإحساس في ذات الوقت بمقام الإنسان الحقيقي أمام الله ، وهو مقام العبودية الكاملة لخالق السماوات والأرض ، ومالك الأمر كله . . هذا الإحساس يؤدي إلى نتيجة لازمة هي الطاعة لهذا الإله المتفرد بالالوهية والعبودية والربوبية دون شريك .

ولقد يغفل الإنسان عن ذكر الله لحظة فيوسوس له الشيطان بمعصية الله كما وسوس لآدم عليه السلام :

وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ نَسِئَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴿١٥﴾

فَوَسَّوْا لَهُ الشَّيْطَانُ قَالَ يَأْكُلُ مِنْ هَذَا عَلَى شَجَرَةٍ الْمَخْلُودِ وَمَلَكَ

لَا يَبْلَى ﴿١٦﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا قَدْ تَلَمَّسُوا ثَمَرَهَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا

مِنْ وَرَوِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴿١٧﴾

سورة طه ، الآية ١١٥ ، ١٢٠ ، ١٢١

ولكن الله من رحمته يتوب على العبد من لحظة الغفلة العارضة ما دام لا يصر عليها ، ولا يعمد في الغواية ، كما تاب على آدم عليه السلام حين استغفر ربه وأتاب .

وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴿١٢١﴾ ثُمَّ أَجْبَاهُ رَبُّهُ فَقَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴿١٢٢﴾
سورة طه ، الآيتان ١٢١ ، ١٢٢ .

كما يتوب على كل عباده حين يرجعون إليه :

وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحْشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا
لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ اللَّهُ ذُنُوبَ الْإِنْسَانِ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ
﴿١٢٥﴾ أُولَئِكَ جَزَاءُ مَا كَفَرُوا مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّتْ شَجَرَتُهَا الْأُتْرُجُ
يُخَلَّدِينَ فِيهَا وَأَنْغَمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿١٢٦﴾

سورة آل عمران ، الآيتان ١٢٥ ، ١٢٦ .

أما الذى يصر على الغواية ، ويرفض الانصياع لأمر الله ، ويتوجه بالطاعة لغير الله يأخذ منه ما يحرم وما يحل ، وما يباح وما لا يباح ، فلا يمكن أن يكون فى دخيلة نفسه مقرا لله بالربوبية والألوهية بغير شريك - ولو ادعى ذلك ! إنما هو فى الحقيقة قد وضع غير الله فى مقام الربوبية والألوهية واتجه إليه بالعبادة ، أى بالطاعة التى كان ينبغي أن تكون لله وحده دون سواه .

يقول القرآن عن اليهود والنصارى : اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ

أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا
لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٠١﴾

سورة التوبة ، الآية ٣١ .

ويحدد الرسول صلى الله عليه وسلم معنى العبادة ، ومعنى اتخاذ الأحرار والرهبان أرباباً من دونه الله تحديداً واضحاً حاسماً فى قصة عدى بن حاتم حين جاء ليسلم على يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان نصرانياً من قتل : روى

الإمام أحمد والترمذى وابن جرير - من طرق - عن عدى بن حاتم رضى الله عنه أنه لما بلغت دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم فر إلى الشام ، وكان قد تنصر في الجاهلية فأسرت أخته وجماعة من قومه . ثم من رسول الله صلى الله عليه وسلم على أخته وأعطاهما ، فرجعت إلى أخيها فرغبته في الإسلام ، وفي القدوم على رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقدم عدى المدينة - وكان رئيساً في قومه طيئ ، وأبوه حاتم الطائي المشهور بالكرم - فتحدث الناس بقدومه . فدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي عنق عدى صليب من فضة ، وهو (أى الرسول صلى الله عليه وسلم) يقرأ هذه الآية : « اتخذوا أhabارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله » قال : فقلت : انهم لم يعبدوهم . قال : « بلى . انهم حرموا عليهم الحلال وأحلوا لهم الحرام فاتبعوهم . فذلك عبادتهم إياهم » .

فعدى بن حاتم كان يتوهم أن العبادة هي الركوع والسجود فحسب ، لذلك قال إنهم لم يعبدوهم ! ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم بين له حقيقة الأمر كما علمه الله . بين له أن طاعة الأhabار والرهبان في التحليل والتحرير بغير ما أنزل الله هي عبادة لهم ، ومن ثم فهي إشراك بالله . لأن الطاعة في هذه الأمور إنما تكون لله وحده حيث أنه هو الرب المعبود بحق . فالتوجه بها لغير الله عبادة لمن تَوَجَّهَ إليه ، وإن لم يكن معها ركوع ولا سجد ولا تقديم قرابين !! بل هي عبادة لغير الله وإشراك به حتى ولو ظل الركوع والسجود يقدم لله وحده ولا يقدم لغيره ! فالركوع والسجود لله ، والتلق من عند الله في التحريم والتحليل كلاهما سواء ، ومجموعهما معاً هو العبادة . ولم يقل الله لعباده إذا ركعتم لى وسجدتم فقد تمت عبادتكم لى ، ولم يعد عليكم بأس في أن تطيعوا غيرى في التحليل والتحرير . . . إنما أمر الله عباده أن يسجدوا له وبركعوا ، وأن يتبعوا ما أنزل إليهم من حلال وحرام ، وأخبرهم بأن إسلامهم لا يتم بغير الأمرين معاً في ذات الوقت ، وأنهم إن توجهوا بهذا الأمر أو ذاك لغير الله فقد أشركوا :

لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي

خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (٣٧) سورة فصلت ، الآية ٣٧ .

اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ إِلَهُكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ (٣)

سورة الأعراف ، الآية ٣ .

فالسجود لغير الله في الآية الأولى ينفي العبادة لله وعدم اتباع ما أنزل الله في الآية الثانية مرادف لاتباع الأولياء - أى الشركاء - من دون الله . وكذلك يحكى القرآن قول الكفار تبريراً لشركهم :

وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ
مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ مِّنْ شَيْءٍ وَلَا آباءُنَا وَلَا أَحْرَمُنَا مِن دُونِهِ
مِنْ شَيْءٍ

سورة النحل ، الآية ٣٥ .

فهم يحددون الشرك الذى هم واقعون فيه بأمرين في ذات الوقت : العبادة بمعناها الظاهر أى الركوع والسجود وكذلك التحريم والتحليل بغير ما أنزل الله ، وهم هنا في الآية يحاولون تبرير هذا الشرك بشقيه بأنه راجع إلى مشيئة الله ، والله يكذبهم في ذلك ويقم الحجة عليهم بأنه أرسل إليهم الرسل ليبلغوهم بحقيقة الإسلام :

وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ
مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ مِّنْ شَيْءٍ وَلَا آباءُنَا وَلَا أَحْرَمُنَا مِن دُونِهِ
مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ
الْبَيِّنُ ۖ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا
الطَّاغُوتَ

سورة النحل ، الايتان ٣٥ - ٣٦ .

وهذا اللون من الشرك هو الذى يعم وجه الأرض اليوم .
فأما الأرض غير الإسلامية فقد حوت كل صنوف الكفر والشرك ، ومن أبرزها شرك الطاعة في التحليل والتحريم بغير ما أنزل الله ، واتخاذ الأرباب

المختلفة من دون الله .

وأما الأرض الإسلامية فقد وقع من أهلها في هذا النوع من الشرك كل من رضى بشريعة غير شريعة الله ، مجلوبة من الشرق أو الغرب ، وكل من رفع راية للتجمع أو للجهاد غير راية الإسلام ، من قومية أو وطنية أو علمانية أو غيرها من الرايات التي لم يأذن بها الله .

وهؤلاء وهؤلاء يقيمون أرباباً - وإن كانت غير محسوسة - ويعبدونها من دون الله .

فالذى ينادى بالقومية أو الوطنية ويتخذ ذلك ذريعة لإقامة وطن لا تحكم فيه شريعة الله ، هو في الواقع يتخذ القومية أو الوطنية رتباً يعبد من دون الله ، سواء في ذلك من يقيم هذه الراية ومن يرضى بها ، لأن الأول يصدر باسمها تشريعات تحل وتحرم بغير ما أنزل الله ، والآخر يتلقى منها ويطيعها ولا يتوجه بالتلقى والطاعة إلى الله .

والذى ينادى بوجوب إفطار العمال في رمضان لأن الصيام يضر بالإنتاج المادى ، يتخذ الإنتاج المادى في الحقيقة رتباً يعبد من دون الله ، لأنه يطيعه مخالفاً أمر الله .

والذى ينادى بخروج المرأة سافرة متبرجة مخالطة للرجال باسم التقدم والرقى وباسم التحرر ، يتخذ التقدم والرقى والتحرر في الحقيقة أرباباً معبودة من دون الله ، لأنه يحل باسمها ما حرم الله ، ويطيعها من دون الله .

والذى يدعو إلى إبطال شريعة الله أو تبديل التقاليد الإسلامية التي تصون الأخلاق والأعراض لكى تبدو في نظر الغرب متحضرين غير متخلفين ، يتخذ الغرب وتقاليده أرباباً معبودة من دون الله ، ولو صلى وصام وزعم أنه مسلم ، لأن الغرب وتقاليده أثقل في حسه من أوامر الله ، وأولى بالاتباع والطاعة من أوامر الله ! .

وهكذا نجد صوراً متعددة من شرك الطاعة والاتباع تعم حياة الناس اليوم دون أن يتبينوا ما هم واقعون فيه من الشرك ، مع أن كتاب الله وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم واضحة حاسمة في هذا الأمر : أن العبادة هي التلقى من الله في كل شأن من شئون الحياة . وكما نتلقى من الله شعائر التعبد ، فنعبده سبحانه وتعالى بما تعبدنا به من صلاة وصيام وزكاة وحج ، كذلك نتلقى منه أمور حلالنا وحرامنا ، أى الشريعة التي تحكم أمور حياتنا في الصغيرة وفي الكبيرة سواء ،

لأن الله تعبدنا بتنفيذ شريعته كما تعبدنا بالصلاة والصوم والزكاة والحج ، وكلها سواء ، واعتبر التوجيه في هذه أو تلك لغير الله شركاً ، وقال عن الذين يفعلون ذلك :

أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنَ بِهِ اللَّهُ

سورة الشورى ، الآية ٢١ .

وقد أمرنا الله بمفاصلة الواقعين في الشرك :

**قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا
وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا
أَرْبَابًا مِن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٦٤)**

سورة آل عمران ، الآية ٦٤ .

لذلك ينبغي علينا أن نتبين طريقنا جيداً في وسط هذا الشرك الذى يعم اليوم وجه الأرض ، وأن نجتهد ونتحرى ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ، وألا نتخذ أرباباً - محسوسة أو غير محسوسة - نتوجه لها بالعبادة من دون الله .

٤ - شرك المحبة والولاء :

وقريب من شرك الطاعة والاتباع شرك المحبة والولاء للمشركين والكفار .
إن ولاء المسلم ينبغي أن يكون لله ولرسوله وللمؤمنين كما أمرنا القرآن :

**إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ
وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ
وَهُمْ رَاكِعُونَ ۝ وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ
اللَّهِ هُمُ الْفَائِزُونَ ۝ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ
هُزُوماً وَلَعِباً مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكَفَّارُ أَوْلِيَاءُ
وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ۝** سورة المائدة ، الآيات ٥٥ - ٥٧ .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ

أُولِيَاءَ بَعْضٌ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥١)
سورة المائدة ، الآية ٥١ .

وكذلك المحبة لا ينبغي أن تكون لغير الله ورسوله والمؤمنين . ولا ينبغي بحال من الأحوال أن تكون لشيء ولا لأحد يقع في دائرة الكفر والشرك :

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ (١٦٥)

سورة البقرة ، الآية ١٦٥ .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا
آبَاءَكُمْ وَلَا أَخَوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ
يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ
وَأَخَوَانُكُمْ عَلَى شِرْكٍ مَعَكُمْ أَفَرَأَيْتُمْ إِنْ تَقَرَّبْتُمْ هَؤُلَاءَ
فَقُلْتُمْ لَا يَنْبَغُ لَنَا أَنْ نَقْرَبَهُمْ هَؤُلَاءَ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا
وَوَلَّوْا أُمَمًا مِمَّنْ كَفَرُوا فَتَوَلَّاهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّكُمْ إِذْ
تُلَاقُونَهُمْ يَوْمَئِذٍ كُنْتُمْ عَنْهُمْ مُتْرَكِينَ ﴿٢٤﴾ قُلْ يٰٓأَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا إِنِ جَاءَكُمْ عِبَادٌ مِنَ الْفِتَنِ
فَتَرَبَّصُوا بِهِمْ فَانصُرُوا حَتَّى تَخْرُجُوا إِلَى اللَّهِ أَلَا يُبْهَدُونَ

سورة التوبة ، الآيتان ٢٣ - ٢٤ .

لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ
وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ

سورة المجادلة ، الآية : ٢٢ .

إن العبادة ليست هي الشعائر التعبدية وحدها من صلاة وصيام وزكاة وحج
كما يظن كثير من الناس في العصر الحاضر . ولا يكون الإنسان مسلماً موحداً بمجرد

أن ينطق بشهادة التوحيد : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ثم يؤدي الشعائر التعبدية . وإنما ينبغي مع ذلك أن يعمل بمقتضى شهادة التوحيد ليكون موحداً حقاً والتوجه بالولاء والمحبة للكفار والمشركين هو نقض لشهادة أن لا إله إلا الله ولو ظل الإنسان ينطقها بلسانه ويؤدي معها شعائر التعبد ! لذلك يصف القرآن ولاء اليهود والنصارى والكافرين بأنه ردة فيقول في سورة المائدة في سياق متصل :

• (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ)

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ

عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ٥١ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ٥٢ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُغْلِبُونَ ٥٣ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُرُوفًا وَلِعَبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكَفَّارَ أَوْلِيَاءَ

سورة المائدة : ٥١ ، ٥٤ - ٥٧ .

إن التوحيد أمر هائل جداً ، وليس مجرد كلمة تنطق ! إنه أمر شامل يشمل كل عمل الإنسان وكل فكره ، ويشمل حتى مشاعره الداخلية التي قد يخفيها داخل نفسه ولا يبينها للناس .

ولا يتم التوحيد في حقيقة الواقع حتى تكون كل أعمال الإنسان وكل أفكاره وكل مشاعره مستقيمة على نهج واحد ، متوجهة كلها إلى الله ، مستمدة كلها من منهج الله .

وقد قلنا من قبل إن الله من رحمته يغفر السقطة العابرة التي يقع فيها الإنسان ويستغفر عنها ربه ولا يصر عليها . أما إقامة منهج الحياة وسلوك الإنسان وفكره وشعوره على أسس مخالفة لأمر الله ، فهو شرك لا يغفره الله لأنه نقض واقعي لشهادة التوحيد ولو ظلت تنطق بالأفواه ! .

٥ - شرك الرياء :

والمقصود بشرك الرياء هو التوجه بالعمل لغير الله . فقد يكون العمل في ذاته سليماً في صورته ، كالصلاة مثلاً ، ركعاتها مضبوطة ، وقيامها وقعودها على الصورة التي بينها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن صاحبها لا يصلّيها لكي يؤدي الفريضة لله ، ويتقرب بها إليه ، إنما يصلّيها ليمدحه الناس ويقولوا عنه إنه من الصالحين . . فهنا لا يكون العيب في صورة العمل ، إنما في التوجه به لغير الله ، أي في المشاعر المصاحبة له . فهذا المصلّي لا يصلّي إلى صم مثلاً ، ولا يؤمن بأن هناك إلهاً غير الله يتعبد إليه الإنسان بالركوع والسجود بين يديه . ومع ذلك فإن القصد الحقيقي من عمله لم يكن إرضاء الله سبحانه وتعالى ، وإنما إرضاء الناس ونيل مديحهم . ومن هنا وقع في الشرك الأصغر .

وكذلك إذا أنفق ماله رثاء الناس ، أو قام بأي عمل من الأعمال بغية امتداح الناس له وثنائهم عليه .

جاء رجل إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فسأله : الرجل يقاتل حمية ، والرجل يقاتل للذكر ، والرجل يقاتل ليرى مكانه من قومه ، فأى ذلك في سبيل الله ؟ فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله » رواه مسلم .

ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم : قال الله تعالى « أنا أءنّى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه » رواه الشيخان .
ويقول صلى الله عليه وسلم : « إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر . قالوا وما الشرك الأصغر يا رسول الله : قال الرياء » رواه أحمد والطبراني والبيهقي . عن ابن أبي حاتم عن أبي عباس .

ومن هنا ينبغي أن نتنبه لأنفسنا لكي لا نقع في هذا اللون من الشرك . فإنه « أخفى من دبيب النمل » كما حدث الرسول صلى الله عليه وسلم وإن كان الله من رحمته يغفر الشرك الخفى ، وهو الرياء الذي يَخْفَى على صاحبه ولا يأتيه بقصد منه ، فإنه لا يغفر الرياء الذي يأتيه الإنسان بوعى منه وإرادة ، يريد به استجلاب مديح الناس ولا يبتغى به مرضاة الله .

• • •

تلك كلها ألوان من الشرك يقع فيها البشر حين ينحرفون عن طريق الفطرة السوية كما فطرها الله . وهي كلها مجافية لحقيقة التوحيد وناقضة لها من أساسها .

ذلك أن حقيقة التوحيد التي تقرّ بها السماوات والأرض ، ويقرّ بها الإنسان المؤمن ليست شيئاً مظهرياً ولا أمراً جزئياً . إنما هي الحقيقة الجوهرية في هذا الكون كله ، وهي الركيزة الكبرى للإنسان المؤمن ، منها تنطلق تصوراته وأفكاره ، ومشاعره وسلوكه ، وكل شيء في حياته .

ولا يتأتى أن يكون الإنسان موحداً في جانب من جوانب حياته ، ثم يتوجه في جوانب حياته الأخرى لغير الله ، فإنه بذلك يكون قد اتخذ إلهين ، والقرآن يقول :

*** وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهُ وَاحِدٌ**

فَإِيَّائِي فَارْجِعُونَ ﴿٥١﴾

(سورة النحل : ٥١)

وهذه الرهبة التي يتحدث عنها كتاب الله هي الحصيلة الحقيقية للإحساس بحقيقة التوحيد بأقسامه الثلاثة : توحيد الألوهية والربوبية والأسماء والصفات ، وتنزيه الرب الإله عن كل شريك وتنزيه صفاته عن التشبيه والتأويل ومؤداها هو التوجه لله وحده بالعمل كله ، سواء كان العمل صلاة ونسكاً ، أو سعيّاً في الأرض وراء الرزق ، أو كسباً أو إنفاقاً ، أو علماً أو سياسة أو اقتصاداً أو اجتماعاً أو سلماً أو حرباً أو اعتقاداً .. الخ :

فَلِإِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ

(سورة الأنعام : ١٦٢ - ١٦٣)

• • •

وأيّاً كانت أنواع الشرك ، وأيّاً كانت أسبابه ودوافعه فهو أمر باطل في حكم الله كما أنه قبيح مستنكر في حكم العقل . فأياً إنسان سليم العقل مستقيم التفكير لا يمكن أن يتقبل الشرك بالله في أية صورة من صوره . ولذلك يندد القرآن بالمشرّكين في كثير من المواضع بقوله تعالى : « أفلا تعقلون ؟ ! » لأن مقتضى العقل أن يتوصل الإنسان إلى حقيقة التوحيد ، ويصل فيها إلى درجة اليقين . فهذا هو الكون مفتوحاً أمام الحس البشري ، هل فيه شيء واحد بنىء بأن يداً غير يد الله قد تدخلت في خلقه أو في تدبيره ؟ وهل يمكن أن ينتظم سير الكون هذا الانتظام الدقيق لو كانت فيه إرادتان مختلفتان أو صنعتان مختلفتان ؟ !

تَبَرَّكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ❶
 الْمَوْتُ وَالْحَيَاةُ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ❷
 الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوٍ طَبَاقًا تَارَتِي فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفْصُوتٍ
 فَأَرْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ❸ ثُمَّ أَرْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ
 يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَائِسًا وَهُوَ حَسِيرٌ ❹ (سورة الملك : ١ - ٤)

إن النظر في أى شىء من خلق الله ، كبير أو صغير ، لينتهى بالعقل إلى نتيجة واحدة ، هى التوحيد .

والقرآن يشير إلى تلك الحقيقة في مواضع شتى ، ويضرب للناس الامثال :

يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاستَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنَخْلُقُوهُمْ
 ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ
 ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ❷

(سورة الحج : ٧٣)

فالذباب في نظر الناس من أهون الأشياء وأحقرها . . ومع ذلك ، فهل يستطيع
 أحد - غير الله - أن يخلق ذبابة واحدة ولو اجتمع كل أهل السماوات والأرض ؟!
 بل إن الأمر أبعد من ذلك في العجز « وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه
 منه » فهم لا يعجزون فقط عن خلق الذباب بل يعجزون عن استرداد شىء سلبه
 الذباب منهم . إن الذباب يقف على الطعام فيقضم منه قضمه لا تكاد ترى ، أو
 يعلق بأرجله وأجنحته مثل ذلك . . فهل يستطيع أحد أن يسترد منه ما سلب من
 الطعام ؟!

ألا ما أعجز الناس . . والشركاء المزعومين ! وما أحوجنا إلى توحيد رب العالمين .
 بل إن الكائنات الحية - وإن ضعفت كالذباب - ليست وحدها التى يمكن فيها
 التحدى ، ويمكن الإعجاز .

فخذ المادة الميتة التى تبدو لنا أهون فى خلقها من الكائنات الحية . .
 خذ قطعة صغيرة من حديد أو نحاس أو أى مادة تشاء . .

فهل يخطر على بالك كم من ملايين الملايين من الذرات تحويها تلك القطعة الصغيرة ؟

وهل يخطر على بالك كيف تتكون كل ذرة واحدة من هذه الذرات ؟ هل يخطر على بالك أن كل واحدة منها مفردة لا تستطيع العين رؤيتها ولا بالهجر ، تتكون من شمس تدور حولها كويكبات في نظام دقيق متسق لا يختل ؟!

وهل يخطر على بالك مقدار « الطاقة » التي تحويها تلك الذرة المفردة ؟ وبأى قوة هائلة تماسك الكويكبات حول شمسها التي هي نواة الذرة ؟

وهل يخطر على بالك أخيراً أن هذه الطاقة هي التي تحدث - حين تنفجر - تلك الآثار المروعة التي أحدثتها القنبلة الذرية ؟ والتي لا تقاس بشيء إلى القنبلة النووية ؟! إن العقل السليم لا يمكن أن ينتهى من تفكيره إلا إلى نتيجة واحدة ، هي التوحيد . والشرك - على ذلك - قبيح مستنكر في حكم العقل ، فضلاً عن بطلانه في حكم

الله .

مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ
الَّتِي اتَّخَذَتْ بُيْتًا وَإِنْ أَزْهَنَ الْبُيُوتِ لَبِيتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾
إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ
الْأَمْثَلُ نُصْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿٤٣﴾

(سورة العنكبوت : ٤١ - ٤٣)

وإذا كانت حقيقة الكون كله قائمة على توحيد الألوهية والربوبية ، بالاستجابة لأمر الله ، والعمل بمقتضى هذا الأمر كما قال الله عن السماوات والأرض :

ذَاسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ آتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا
قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾

(سورة فصلت ١١)

إذا كانت هذه هي حقيقة الكون فأى ظلم يوقع فيه الإنسان نفسه حين ينحرف عن هذه الحقيقة الهائلة التي تقوم عليها السماوات والأرض ؟

أى ظلم فى إنكار الحق الذى يستجيب له الكون كله ويقرّ به ، وأى ظلم أن يورد الإنسان نفسه موارد الهلاك بهذا الإنكار؟!
لذلك يصف القرآن الشرك بأنه ظلم ، ويصف المشركين بأنهم الظالمون :

وَإِذْ قَالَ لَقْمَنُ لِبَنِيهِ ۖ وَهُوَ يَعِظُهُ ۚ يَبْنِىْ لَا تُشْرِكْ بِاللّٰهِ ۚ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيْمٌ ﴿١٣﴾

(سورة لقمان : ١٣)

وقال تعالى :

وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللّٰهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ
وَلَا يَضُرُّكَ ۚ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنْ الظّٰلِمِيْنَ ﴿١٤﴾

(سورة يونس : ١٠٦)

ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « إن من أكبر الكبائر الشرك بالله » رواه البخارى .

آثار الشرك

إذا كان التوحيد كما رأينا هو ما فطر الله عليه الإنسان السوى ، وهو الذى يستقيم به الكون وحياة الإنسان .

فإن الشرك الذى يقع فيه الإنسان له آثاره الوبيلة فى حياته وآخرته سواء كان الواقع فيه فرداً أو جماعة .

واعلم أن الشرك عدة أنواع وأنه لا يخرج عن ثلاثة أقسام هى :

١ - الشرك الأكبر . ٢ - الشرك الأصغر . ٣ - الشرك الخفى .

فالشرك الأكبر ينفى الإسلام بالكلية والشرك الأصغر أكبر من كبائر الذنوب .

والشرك الخفى يبطل العمل الذى صاحبه فقط .

١ - وأول آثار الشرك إطفاء نور الفطرة :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما من مولود إلا ويولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » .

إن الله سبحانه وتعالى حين خلق آدم استخرج ذريته من صلبه أمثال الذر فأخذ عليهم العهد والميثاق أن لا يشركوا به شيئاً .

وعلى هذا فإن الشرك انحراف عن المهمة التي خلق الجن والإنس من أجلها . قال تعالى :

وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ⑤

(الذاريات : ٥٦)

إن الشرك يبعد بالإنسان عن حقيقة التوحيد التي يستمد منها الإنسان إشراقته ونوره وسداد أمره وتصبح أعمال المشرك كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء . وتصبح حاله وأعماله معتمدة مظلمة .

قال تعالى :

وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَغْمَلَهُمْ كَسْرَابٌ بِقِيَعَةٍ يَحْسَبُهُ
الْظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ
حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ⑥ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَفْشَاهُ مَوْجٌ
مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ
يَدَهُ لَمْ يَكْدِرْهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ⑦

(سورة النور : ٣٩ - ٤٠)

٢ - ومن آثاره القضاء على منازع النفس السامية :

فالنفس المتعلقة بالله المتطلعة إلى رضاه لا تستغرقها شهوات الحس ولا تنصرف بكليتها إلى متاع الأرض القريب ، إنما تتطلع دائماً إلى الأفق الأعلى . إلى المثل العليا والقيم الرفيعة . إلى المعاني الجميلة التي يتحقق بها وجود « الإنسان » وميله الفطري إلى النظافة الخلقية والروحية . إلى الترفع عن الدنس في كل صوره وأشكاله ، سواء كان فاحشة من الفواحش التي حرمها الله ، أو ظلماً يقع على الناس ، أو موقفاً خسيفاً يقفه الإنسان من أجل شهوة رخيصة أو مطلب من مطالب الحياة الدنيا .

ولكن حين تهتز حقيقة التوحيد في النفس ويغشيها الشرك ، فإن النفس تنحط عن أفقها الأعلى وتهبط إلى مستوياتها الدنيا ، فتشغلها الأرض . يشغلها المتاع الزائل فتتكالب عليه وتنسى القيم العليا والجهاد من أجل إقامتها وتحقيقها . ويكون جهادها صراعاً خسيفاً على هذا المتاع الزائل يتقاتل من أجله الأفراد والدول والشعوب ..

وتصبح الحياة البشرية محكومة بقانون الغاب ، القوى يأكل الضعيف ، والغلبة للقوة
لا لصاحب الحق . . وهو الأمر الذى نراه سائداً فى الجاهلية المعاصرة فى كل منحى
من مناحى الحياة :

وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الظَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ
سَحِينٍ ⑤

(سورة الحج : ٣١)

٣- ومن آثاره القضاء على عزة النفس ووقوع صاحبه فى العبودية الذليلة :
إن العزة الحقيقية هى التى تستمد من الإيمان بالله الواحد :

وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ

(سورة المنافقون : ٨)

فالمؤمن على يقين من تلك الكدلة التى يرددها فى كل صلاة : الله أكبر . . أكبر من
كل شيء فى هذا الوجود ومن كل أحد . ومن ثم يحس المؤمن الذى تعلق قلبه بالله
أنه عزيز بتلك القوة المستمدة من العبودية الحققة لله الحق . فهو الإله الخالق الرازق
الضار النافع المحيى المميت ، المالك للأمر كله بلا شريك . ومن ثم لا يعود يخشى
الأشياء ولا الأشخاص ولا الأحداث ، لأنه يعلم أن الله هو المدبر الحقيق لكل ما فى
الكون ، وأن أحداً فى الكون كله لا يملك شيئاً مع الله . فعلام إذاً يذل لغير الله ؟
علام يبذل من كرامته وعزته لبشر مثله ، عاجز ولو كانت فى يده مظاهر القوة ،
ضعيف وإن كان جباراً فى الأرض بغير الحق ، محتاج مثله لما عند الله لأن الله وحده
هو الحى القيوم وكل ما عداه صائر إلى زوال ؟!

كلا . . لا يبذل المؤمن من عزته وكرامته لأحد غير الله .

ولكن المشرك لا يعرف هذه العزة ولا يتذوقها . .

إنه عبد . . ولكنها عبودية ذليلة لأنها ليست العبودية لله ، الكريم الرحيم ، الذى

يعز عباده بعزته !

إنه عبد . . لبشر مثله يتحكم فيه فيذله عبد لشهواته : شهوة المال أو شهوة

الجنس أو شهوة السلطان . . كلها عبودية ذليلة وإن بدت لأول وهلة متاعاً وتمكناً
وتجبراً فى الأرض . .

ثم يذهب هذا المتاع الزائل الذى تذلل له أعناق الرجال ، ويأتى اليوم الذى يقفون فيه موقف الخزى الأكبر أمام العزيز الجبار :

أَفَرَأَيْتَ إِن مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ

﴿٢٦﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ ﴿٢٧﴾ (سورة الشعراء : ٢٥٥ - ٢٥٧)

٤ - ومن آثاره تمزيق وحدة النفس البشرية :

فالله سبحانه وتعالى فطر هذه النفس بحكمته ، وأنزل الكتاب الذى تعمل بمقتضاه هذه النفس فتكون على فطرتها السوية كما خلقها الله ، ذلك أن الله أمر جميع رسله صلوات الله وسلامه عليهم بالتوحيد ليلغوه للناس :

اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ (سورة هود : ٥٠)

وهى الكلمة التى قالها نوح وهود وصالح وشعيب وموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم والأنبياء جميعاً .

ويعلم الله سبحانه وتعالى أنه حين يعمل الإنسان بمقتضى كلمة التوحيد هذه فإن نفسه تكون « فى أحسن تقويم » وتكون على استوائها ، لأنها تتجه كلها وجهة واحدة فى جميع تصرفاتها . فالإنسان - المؤمن - يتجه بصلاته ونسكه إلى الله ، ويضرب فى الأرض يبتغى الرزق فيتوجه إلى الله يطلب منه التوفيق والعون ، ويتوجه إليه بالعمل ذاته فيبتغى فيه الحلال الذى أحله الله ويتجنب الحرام الذى حرمه الله ، فيكون فى كل لحظة ذاكراً لله لأنه يتحرى حلاله وحرامه فى كل تصرف وفى كل موقف . كلما هم بمحركة أو عمل أو هجس فى نفسه هاجس سأل نفسه أولاً : أحلال هو فيأتيه ، أم حرام فعليه أن يتجنبه ؟

وكذلك هو إن ذهب يتعلم ، أو ابتغى أن يتزوج ، أو باع أو اشترى ، أو تعامل مع الناس فى أمر من أمور حياته : يتوجه إلى الله أولاً ويستلهم كتابه المنزل الذى يحوى تفاصيل ما أحل الله وما حرم ، وما أباح وما منع « (١) فإذا هو فى كل نشاط حياته متجه إلى ذات الإله الذى يصلى له ويصوم ، ويؤدى له من شعائر التعبد ما يتقرب به إليه ، وإذا المتجه إليه واحد فى جميع الحالات :

قُلْ إِن صَّلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ ۚ

(سورة الأنعام : ١٦٢ - ١٦٣)

(١) وكذلك السنة النبوية المطهرة تحوى تفاصيل شرع الله وهى من عند الله لأن الرسول صلى الله عليه وسلم إنما يشرعها بوحى الله وأمره « وما ينطق عن الهوى » .

عند ذلك تطمئن النفس وتستقر :

الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾

(سورة الرعد : ٢٨)

وتكون قوة هائلة في ذات الوقت ، كحزمة الضوء التي تتجمع فتضيء أو تتجمع فتكون شعلة متقدة ..

قوة هائلة تنطلق في الأرض تبنى وتعمر في كل اتجاه ، راضية مطمئنة ، نشيطة وثابتة في ذات الوقت ، كما كان ذلك الجيل الفذ الذي بدأ به تاريخ الإسلام : ينشر الدعوة في أرجاء الأرض بسرعة لا مثيل لها في التاريخ . ويقم العدل الرباني في كل مكان . ويحارب الكفر والشرك والطواغيت فيسحقها ويتنصر عليها . وينشئ حضارة فذة تجمع بين الروح والمادة ، وتعمل للأخرة دون أن تنسى عمارة الأرض :

وَأَبْنِيعْ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا

(سورة القصص : ٧٧)

وتلك هي حصيلة التوحيد . حصيلة تجمع النفس البشرية في اتجاه واحد . إلى

الله .

أما الشرك فهو يشتت تلك الوحدة التي فطر الله النفس البشرية عليها ، ويمزقها . يصلي الإنسان - إذا صلى ! - لإله . ويبيع ويشترى ويتغنى الرزق باسم إله آخر يحل له الربا ويحل له الغش والخداع بغية الربح . ويمارس شهواته باسم إله ثالث يحل له العلاقات غير المشروعة ويزين له الخبائث . وقد يتوجه إلى بشر مثله أو إلى صنم من الأصنام فيطلب منه البركة أو يطلب منه أن يقربه إلى الله زلفى .. وهكذا تشتت نفسه في محاولة استرضاء هذه الأرباب المتعددة التي كثيراً ما يكون لكل منها مطالب تخالف مطالب الأخرى وتعارضها .

وفي النهاية يفقد نفسه بعد أن يفقد أمته وطمأنينته :

ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَكِّسُونَ وَرَجُلًا سَلَامًا لِإِحْسَانِهِ سَيُؤْتَانِ

(سورة الزمر : ٢٩)

مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾

وأوضح مثال على ذلك تلك الجاهلية المعاصرة التي يمارسها الناس في أكثر أرجاء الأرض ..

ولقد كانت هذه الجاهلية تبهر الناس وتخدعهم بالتقدم العلمى والمادى الهائل الذى حصلته . ولكنها تكشفت - حتى لأصحابها - عن تمزق نفسى لا مثيل له فى التاريخ ، يتمثل فى التزايد المستمر لحالات القلق والجنون والاضطراب العصبى والنفسى والانتحار والإغراق فى المسكرات والمخدرات !
وأخيراً تصايح الشباب هناك بأنه يحس بالضيق ، ولا يجد لحياته معنى ، ولا يجد نفسه فى اتجاه يكسبها الاستقرار والطمأنينة !

وتلك هى الحصيلة الأخيرة للشرك ، مهما بدا من مظاهر التقدم المادى والعلمى ، لأن النفس الممزقة بين الأرباب المختلفة لا يمكن أن تجد الطمأنينة أو تحس بالاستقرار .

• - ومن نتائجه إحباط العمل :

وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَكَ لَيَجْبُطَنَّ عَمَلُكَ
وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾

(سورة الزمر : ٦٥)

والحبوط مأخوذ من « حبطت الناقة » إذا انتفخ بطنها وماتت نتيجة تناولها لطعام سام ، ويراد به ضياع نتيجة العمل وانقلابه بالوبال على صاحبه .
والآية تقول للرسول صلى الله عليه وسلم إن الله قد أوحى إليك كما أوحى إلى النبيين من قبلك أن الشرك يحبط العمل ويفسده ، ويثول فى النهاية إلى الخسران .
وتشير الآية إلى الخسران فى الحياة الآخرة بدخول النار والعياذ بالله .
ولكن الخسران الذى تشير إليه الآية لا يقتصر فى الحقيقة على الدار الآخرة .
فتحن نرى آثار ذلك الخسران فى الحياة الدنيا بادية واضحة فى الجاهلية المعاصرة ، كما أشرنا فى الفقرة السابقة .

إن الناس فى الجاهلية المعاصرة قد انتفخوا من كثرة ما أعطاهم الله استدراجاً عن طريق التقدم العلمى من سيارات وثلاجات وطائرات وصواريخ وقنابل ذرية ونووية وأموال وخيرات من كل الأنواع .

انتفخوا بكل ذلك حتى وصلت بهم « النفخة » إلى الاستكبار على الله ، والقرآن يقول عن أمثالهم :

فَلَمَّا جَاءَ نُهُمُ رُسُلُهُمُ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ

(سورة غافر : ٨٣)

ولكنه انتفاخ كانتفاخ الناقة الحابطة بالغذاء المسموم ..
فاستثمار خيرات الأرض حالياً إلى حد لم يبلغه في التاريخ ، والفقر الجاثم على كثير من ربوع الأرض ليس له كذلك مثيل في التاريخ !
وتقدم الطب بلغ درجة لم يصلها من قبل قط ، ونسبة المرض كذلك في تزايد مستمر ، وتنشأ أمراض جديدة لا عهد للبشرية بها من قبل !
والتنادى بالحريات السياسية والحريات الإنسانية يشبه الدوى في برلمانات الأرض ، وصحفها ووسائل إعلامها ، والعبودية التي يعيش الناس فيها في أكثر بقاع الأرض أبشع عبودية في التاريخ .

ووسائل المتاع التي اخترعها البشر ليتناولوا بها أكبر قسط من متاع الأرض لا مثيل لها في كثرتها وتنوعها واستغراقها لحياة الناس ، ودرجة الشقاء التي يحسها الناس من أول الاضطرابات النفسية إلى الجنون لا مثيل لها كذلك في كل التاريخ !
وصدق الله العظيم : لَنْ أَشْرَكَ لِيَجْبُطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ

٦. ومن آثار الشرك الأكبر خلود صاحبه في النار : إِنْ أَلَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ،

وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا

بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا

مَرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَقَدْ أَلَّهَ وَقَالَ لَا تُخِذْنَ مِنْ عِبَادِكُمْ نَصِيبًا مَفْرُوضًا ﴿١١٨﴾

وَلَا ضِلَّيْنَهُمْ وَلَا مَنِيْنَهُمْ وَلَا مَرْئِيْنَهُمْ فَلْيُبَيِّنْ لَكُمْ إِنْ أَرَادَ أَنْ نَنْصَحَ

وَلَا مَرْئِيْنَهُمْ فَلْيَغْفِرْ لَكُمْ خَلَقَ اللَّهُ وَمَنْ يَخِذْ الشَّيْطَانُ وَلِيًّا مِنْ دُونِ

اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ

إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُولَئِكَ مَا لَهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُجِدُونَ عَنْهَا مَخِيصًا ﴿١٢١﴾

(سورة النساء : ١١٦ - ١٢١)

وأى شيء يمكن أن يكون أفظع من ذلك وأبشع ؟
 إن الحريق هو أفظع ما يتعرض له الإنسان في الحياة الدنيا لأنه شيء لا يطاق ..
 شيء لا تستطيع احتماله الأعصاب . ومع ذلك لما أهونه وأيسره بحجاب حريق الآخرة .
 إنه - مهما اشتد ومهما امتد - لن يتجاوز دقائق قد تمتد إلى أيام .. ثم بعد ذلك إما أن يشفى صاحبه وإما أن يموت . فكيف إذا كان لا يشفى قط ومع ذلك لا يموت ؟

**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كَلَّمًا تَنْفَجَّتْ جُلُودُهُمْ
 بَدَلَتْهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ**

(سورة النساء : ٥٦)

عذاب ساعة أو ساعات لا يحتمله الإنسان في الحياة الدنيا ، فهل يستطيع أن يحتمل العذاب الذي يصل إلى درجة الاحتراق الكامل ثم يعود الجلد - الذي يشتمل على أعصاب الحس - جديداً ، ليحس صاحبه العذاب من جديد .
 فهل من الحكمة أن يعرض الإنسان نفسه - بارتكاب الشرك - إلى هذه الدرجة الفظيعة من العذاب ؟

إن الناس في الحياة الدنيا يتقون الحريق بكل وسيلة ، ويحاولون جهدهم ألا يصيبهم ذلك الحريق ..

لما أغفل المشرك الذي يهرب جهده من لذعة عابرة في الدنيا ، ثم يركض بقدميه ركضاً ليلق بنفسه في الحريق الذي لا يزول أبداً ولا يستطيع أن يخرج منه بعد أن يدخل فيه ..

**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَخْذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنَاكُمُ يُحْبِبُونَهُمْ كُفِبِ
 اللَّهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ
 أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ۝١٥٠ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا
 مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا رَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ۝١٥١ وَقَالَ
 الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأُ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ
 يُرْسِلُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ۝١٥٢**

(سورة البقرة : ١٦٥ - ١٦٧)

الإلحاد : أسبابه ودوافعه

الإلحاد الذى ينتشر اليوم فى أوروبا ، شرقها وغربها ، ويتبجح بإنكار وجود الله وينفى أن الله سبحانه هو الخالق الرازق المحيى المميت وأنه خالق الكون ومدبره ، ظاهرة لا مثيل لها فى تاريخ البشرية من قبل ، من حيث سعة انتشارها ، وتأثيرها فى حياة الناس وأفكارهم وتصوراتهم ، وما أحدثته من تحلل وفساد خلقى .
حقاً ، لقد وجدت نماذج من الإلحاد فى التاريخ القديم . فقد وجد الدهريون ، الذين ينكرون البعث ، وينسبون الموت للدهر بدلا من الله ، أولئك الذين أشار القرآن إليهم :

وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ
وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾

(سورة الجاثية : ٢٤)

وهؤلاء هم البذرة الأولى للذين يقولون اليوم « بالطبيعة » بدلا من الله ، فيرتكبون ذات الجهالة التى وقعت فيها جاهليات قديمة من قبل .
ووجدت نماذج من التحلل الخلقى الذريع إلى جانب الإلحاد ، كما حدث فى المزدكية التى انتشرت فى بلاد فارس فترة من فترات التاريخ وأباحت شيوعية المال والنساء . وأنشأت لونا من الفوضى الخلقية لا مثيل له فيما سبق من القرون . وأولئك هم البذرة الأولى للشيوعية المعاصرة التى قدمها ماركس ولينين (١) .
ولكن هؤلاء وأمثالهم كانوا قلة فى حياة البشرية من قبل .

ذلك أن الانحراف الأكبر الذى يقع فى عقائد الناس فى جاهليتهم هو الشرك كما أسلفنا وليس الإلحاد . لأن الفطرة - وإن ضلت - تظل تؤمن بوجود الله ولكنها تشرك معه آلهة أخرى . أما الإلحاد - بمعنى إنكار وجود الله أصلا - فهو شذوذ نادر حتى فى الفطرة المنحرفة ، سببه انطباع غير عادى فى البصيرة ، يجعل الإنسان يعيش بكامله فى عالم الحس ، فيؤله المحسوس وحده ، وينفى وجود إله :

لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٢٢﴾

(سورة الأنعام : ١٠٣)

(١) تنسب المزدكية إلى «مزدك» الذى عاش فى فارس فى القرن السادس الميلادى ونشر مذهبه الذى يدعو إلى الإباحية الكاملة .

لذلك كان الإلحاد - كما قلنا - أمراً نادراً في تاريخ البشرية .
أما البشرية المعاصرة فقد انتشر فيها الإلحاد بصورة غير مسبقة من قبل . ولا بد
أن تكون هناك أسباب غير عادية هي التي أدت إلى انتشاره بهذه الصورة البالغة
القبح .

إن السبب الرئيسي في إلحاد اليوم هو ذات السبب في كل إلحاد حدث في
التاريخ : انطماس غير عادي في البصيرة ، يؤله المحسوس وحده وينفي وجود الله .
ولكن الذي نبحث هنا عن أسبابه ودوافعه هو انتشار هذه الظاهرة على نطاق
واسع غير معهود من قبل . بحيث يصبح هذا العدد الهائل من البشر مطموس البصيرة
بهذه الصورة غير العادية ، فيؤمن بالمحسوس وحده وينكر وجود الله .
وما دامت الفطرة - حتى في انحرافها - لا تصل إلى هذه الصورة إلا في حالات
شاذة نادرة ، فلا بد أن هناك أشياء غير عادية في حياة الناس في أوروبا - التي ينتشر
فيها الإلحاد - قد مسخت طبائع النفوس هناك ، فلم تقف في انحرافها عند درجة
الشرك ، إنما تجاوزتها إلى الإلحاد الذي يجمع في حقيقته بين الشرك والكفر : الشرك
بمنح خصائص الألوهية لغير الله ، والكفر بإنكار وجود الله .
ولا بد لنا من لمحة سريعة عن حياة أوروبا تبين لنا أسباب هذه الظاهرة الخطيرة
غير العادية في حياة البشرية .

أولاً - دور الكنيسة الأوروبية في إفساد النصرانية المنزلة من عند الله :
بعث الله سيدنا عيسى بالحق ، وأنزل عليه الإنجيل يبين للناس حقيقة التوحيد ،
ويدلهم على الشرائع التي ينبغي أن تحكم حياتهم بأمر من الله :

وَقَالَ الْمَسِيحُ يَبْنِي أَسْرَاطِيْلَ عَبْدُ وَاللّٰهُ رَبِّي وَرَبُّكُمْ
إِنَّهُمْ مَنْ يُشْرِكُ بِاللّٰهِ فَقَدْ حَزَمَ اللّٰهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا
لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٧٢﴾

سورة المائدة : ٧٢

وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَلِأَجْلِ الْكُفْرِ بَعْضَ الَّذِي حَزَمَ عَلَيْكُمْ
وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ۝

(سورة آل عمران : ٥٠)

ولكن المجامع التي أنشأتها الكنيسة الأوروبية لتقرير أمور العقيدة قد أفسدت هذا الدين الريانى المنزل من عند الله وشوهت صورته تشويها بالغاً من ناحيتين :
الاولى : ناحية الاعتقاد ، بأن جعلت الله ثلاثة بدلا من واحد ، وجعلت المسيح ابن مريم إلهاً بدلا من كونه بشراً رسولا كبقية الرسل والأنبياء . وفى ذلك يقول القرآن :

لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ

(سورة المائدة : ٧٢)

لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ

سورة المائدة ، الآية ٧٣

الثانية : ناحية الحكم بما أنزل الله فى الإنجيل . فقد أبطلوا الحكم بشريعة الله المنزلة إلا فيما يسمى « الأحوال الشخصية » ، أى الزواج والطلاق ، أما بقية أمور الحياة فقد بقى القانون الرومانى يحكمها بدلا من شريعة الله . وفى ذلك يقول القرآن :

وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَرِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَإِنَّهُ
الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى
وَمَوْعِظَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ
لَمْ يَجْعَلْ لِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ^(١)

سورة المائدة الآيتان ٤٦ ، ٤٧

وبذلك أفسدت الكنيسة الدين النصرانى المنزل من عند الله إفساداً كاملاً وأصبحت أوروبا واقعة فى الشرك منذ أوائل اعتناقها للمسيحية ! وكان هذا الشرك مقلمة لمزيد من الفساد فى الحياة الأوروبية .

ثانياً - موقف الكنيسة من العلم :

فى العصور الوسطى كانت أوروبا تعيش فى ظلام الجهل والخرافة ، ومن هنا

(١) أى على آثار أنبياء بنى إسرائيل السابقين لعيسى ابن مريم ، الذين كانوا يحكمون بمقتضى شريعة التوراة .
(٢) تكررت هذه الإشارة فى الآية مرتين « ومصدقا لما بين يديه من التوراة » الأولى لعيسى بن مريم ، أى أن عيسى جاء مصدقا للتوراة ، والثانية للإنجيل ، بمعنى أن الإنجيل جاء مصدقا لما بين يديه من التوراة أى مؤكدا صدق نزولها من عند الله .
(٣) الفاسقون هنا معناها الكافرون .

ينطبق عليهم وصف « العصور الوسطى المظلمة » كما يعبرون عن حياتهم في تلك الفترة من تاريخهم .

ثم وقعت بينهم وبين المسلمين سلسلة من الحروب هي المعروفة في التاريخ باسم الحروب الصليبية ، التي استغرقت قرابة قرنين من الزمان ، من القرن الحادى عشر الميلادى إلى القرن الثالث عشر .

وفى تلك الحروب احتك الصليبيون بالمسلمين وعرفوا عن كذب مزايا الحياة الإسلامية وفضائلها ، وما تحويه من حضارة وعلم ، فتأثروا بها تأثراً بالغاً ، وحاولوا إقامة حياتهم فى أوربا على ضوء بعض المبادئ والقيم التى وجدوها عند المسلمين . كما جاءهم التأثير من ناحية أخرى باحتكاكهم بالمسلمين فى الأندلس والشمال الإفريقى وصقلية الإسلامية وجنوب إيطاليا الإسلامى حيث كانت المدارس والجامعات الإسلامية مزدهرة يفد إليها طلاب العلم من كل مكان فى الأرض ، ويؤمها الأوربيون لنيل العلم على يد الأساتذة المسلمين ، ويتعلمون العربية لتلقى العلم وترجمة الكتب الإسلامية العلمية إلى لغاتهم الأوربية .

ومن هذين التأثيرين بدأت أوربا تنهض وتخرج من عصورها الوسطى المظلمة . ولكن الكنيسة وقفت ضد الحركة العلمية التى بدأت تنشأ وتنتشر فى أوربا . .

ويرجع ذلك إلى سببين فى آن واحد :

السبب الأول : خوفها على مكانتها فى نفوس الجماهير . فقد كانت تلك المكانة قائمة على مجموعة الخرافات التى تبثها الكنيسة فى عقول الناس ، وتقول لهم : إن هناك فى الدين أسراراً لا يعرفها إلا رجال الدين ، وإن على الناس أن يخضعوا لرجال الدين خضوعاً أعمى ، ولا يسألوا عن تلك الأسرار ، وإنما يطلبون البركة من رجال الدين بطاعتهم إياهم فى كل ما يأمرون به ، وهم - أى رجال الدين - كفيلون بتقريبهم إلى الله بهذه الطاعة ليغفر لهم ذنوبهم . . وكانت الكنيسة تحشى إذا انتشر العلم أن تتفتح أعين الناس على تلك الخرافة وأمثالها فتضيع مكانة رجال الدين فى نفوسهم ولا يعود للكنيسة ذلك السلطان المقدس عند الجماهير ! .

والسبب الثانى : أن ذلك العلم كان فى الحقيقة هو علم المسلمين . وكان الأوربيون الذين يبتعثون إلى المدارس والجامعات الإسلامية ينقلون معهم علوم المسلمين ، وينقلون معها فى الوقت ذاته تأثراً واضحاً بالإسلام والقيم والمبادئ الإسلامية . فخشيت الكنيسة أن يتشر الإسلام فى أوربا مع الحركة العلمية المنقولة أصلاً عن الجامعات الإسلامية والعلماء المسلمين . لذلك قامت تحارب العلماء

الأوربيين الذين تأثروا بعلوم المسلمين محاربة وحشية ، وتهدهم بالتقتيل والتعذيب والتحريق في النار حتى الموت إذا لم يتراجعوا عن الأفكار العلمية التي نقلوها عن علماء الإسلام ! وكان هذا بداية انحراف خطير بالغ الأثر في الحياة الأوربية هو فصل العلم عن الدين ، وإيجاد عداوة بين الدين والعلم ، وبين المتعلمين والدين ! واستمر هذا الانحراف يتزايد على مر العصور في أوربا حتى أصبح الدين في حس المتعلم الأوربي ممثلاً للخرافة ، وأصبحت « النظرة العلمية » في تصوره هي إبعاد مفاهيم الدين كلها من مجال البحث العلمي ، وعدم الإشارة إلى الله أصلاً في أية حقيقة من حقائق العلم تتصل بالكون أو الحياة أو الإنسان (١) .

ثالثاً - طغيان الكنيسة ورجال الدين :

لم تكتف الكنيسة بما أفسدته من دين الله المنزل ، ولا بموقفها المعادي للعلم وحقائقه النظرية والتجريبية ، بل أضافت إلى ذلك طغياناً بشعاً على أرواح الناس وعقولهم وأموالهم وأجسادهم :

١ - افترضت عليهم احتكار الوساطة بين الناس وبين الله ، فلا يملك الإنسان أن يتصل بربه إلا عن طريق الكاهن . . ولا تقبل منه التوبة والاستغفار عن ذنوبه إلا بالجلوس أمام الكاهن على « كرسي الاعتراف » وإعلان الكاهن له بقبول توبته .

٢ - وفرضت عليهم أفكاراً معينة عن شكل الأرض وعمر الإنسان على سطح الأرض ، تخالف ما وصلت إليه حقائق العلم الثابتة ، وقالت لهم : إن هذه أفكار مقدسة لأنها منزلة من عند الله ، ومن خالفها فهو كافر ملحد .

٣ - وفرضت عليهم العشور ، أي أن يقدموا عشر ما لهم هبة خالصة للكنيسة ، لا لله ولا للمساكين ، إنما ليعيش بها رجال الدين في بذخ لا يحلم به الأباطرة في عصر من العصور .

٤ - وفرضت عليهم السخرة ، أي أن يعملوا في فلاحة الأرض المملوكة للكنيسة يوماً واحداً من كل أسبوع سخرة بغير أجر .

(١) من هنا يقول دارون « إن الطبيعة تخلق كل شيء ، ولا حد لقدرتها » فينسب الخلق لما سماه « الطبيعة » ويرفض أن ينسب لله . ومن هنا كذلك يرد اسم الطبيعة في الكتب العلمية الأوربية حيث كان ينبغي أن يذكر اسم الله . ويرون هناك أن ذكر اسم الله في أي بحث علمي يفقده الطابع العلمي !!

٥ - وفرضت عليهم الخضوع المذل لرجال الدين ، فيتعين على الناس أن ينحنوا عند مرور الكاهن بهم حتى تلتصق جباههم بالأرض ، ولو كانت الأرض مملوءة بالوحل والطين .

وأضيف إلى ذلك كله أنه حين قامت الجماهير في أوروبا في العصور الحديثة تطالب بحقوقها المسلوبة ، وتطلب رفع الظلم الواقع عليها من رجال الإقطاع ، وقفت الكنيسة إلى جانب الظالمين من رجال الإقطاع وهددت الجماهير المستعبدة بغضب الله عليها إن ثارت على ظلم الأسياد ! .

وكان لذلك كله آثار بعيدة في تنفير الناس من الكنيسة ، وبالتالي من الدين ! .

رابعاً - الرهبانية :

وَرَهْبَانِيَّةٌ ابْتَدَعُوها مَا كَتَبَنا عَلَيْها

سورة الحديد ، الآية ٢٧ .

وقد تقبلها الله منهم - وإن كان لم يكتبها عليهم - لأنهم ابتغوا بها رضوان الله في مبدل أمرهم . ولكنهم لم يرعوها حق رعايتها ، بل تحولت الأديرة التي يسكن فيها الرهبان والراهبات إلى مباءات من الفساد الخلق أشع بكثير مما يجري في داخل المجتمع على أيدي الفساق المنحليين ! وفي ذلك يقول القرآن :

وَرَهْبَانِيَّةٌ ابْتَدَعُوها مَا كَتَبَنا عَلَيْها إِلَّا ابْغَاءَ رِضْوانِ اللَّهِ
فَمَارَعَوْها حِرِّ رِعايَنا فَإِنا الَّذِنا أَمَنُوا مِنْها أَجرُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْها
فاسِقُونَ ﴿٢٧﴾

سورة الحديد ، الآية ٢٧ .

وقد ظلت السيرة السيئة التي يتناقلها الناس عن الحياة الخاصة لرجال الدين تزداد سوءاً حتى صارت سخرية الساخرين ، وصارت كذلك منفرة للناس من الدين .

خامساً - مهزلة صكوك الغفران :

وذلك حين زعم البابا أنه يضمن المغفرة للناس عند الله ويملك أن يدخلهم الجنة مقابل دفع مبالغ معينة من المال ! وكتب صكوكاً - اشتهرت باسم صكوك الغفران ، يقول فيها : أنا البابا .. فلان .. أمنح المغفرة لفلان من الناس عن كل

ذنوبه ما تقدم منها وما تأخر ، وأنه أصبح بريئاً من الذنوب كيوم ولدته أمه ، وأنه يدخل الجنة يوم القيامة ويكون مباركاً عند الرب ! ثم راح يبيع هذه الصكوك للناس بالمال ! فصاروا يرتكبون من الذنوب والجرائم ما يرتكبون ، ثم يشترون صكوك الغفران من البابا متوهمين أنهم يدخلون بها الجنة وينالون بها مغفرة حقيقية من عند الله ! .

واتسعت الدائرة حين وكل البابا مَنْ دونه من رجال الدين في بيع الصكوك للناس حتى صارت المسألة مهزلة ضخمة لا تؤدي في النهاية إلى توقيف الدين ولا رجاله المزعومين .

لذلك كله ظل نفور الناس من الدين يتزايد على مر العصور في أوربا حتى انسلخوا منه جملة في العصر الحديث ! .

سادساً - قيام النهضة في أوربا على غير أساس من الدين :

قلنا من قبل : إن الكنيسة قامت تحارب الحركة العلمية في أوربا لأنها كانت تحمل معها تأثيراً إسلامياً واضحاً ، لأن المبتعثين الأوربيين إلى بلاد الإسلام كانوا يرجعون متأثرين بالروح الإسلامية ، وبما شاهدوه في بلاد المسلمين من تقدم علمي وحضاري . ونضيف هنا أن الكنيسة حين فزعت من هذا التأثير الإسلامي الذي يحمله المبتعثون معهم ، وخشيت من انتشار الإسلام في أوربا مع الحركة العلمية المستمدة من علوم المسلمين ، قامت بحملة واسعة لمحاربة هذا التأثير ، وجندت كتابها ليكتبوا ضد الإسلام ، وشوهوا صورته النقية ، وبنهجموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ويتقولوا عليه الأقاويل ، وبنهجموا المسلمين بكل كبيرة في الأرض ، ليحولوا بين أوربا وبين اعتناق الإسلام ! .

وكان لهذه الحملة المزدوجة ضد العلوم المستمدة من المسلمين وضد المسلمين والإسلام آثار بعيدة المدى في الحياة الأوربية .

فأما الحملة ضد الإسلام فقد أثرت بالفعل في نفوس الأوربيين فصدتهم عن اعتناق الإسلام ، وساعد على هذا الصد أن الهزيمة التي منى بها الصليبيون في حروبهم مع المسلمين كانت ما تزال تحز في نفوسهم . وأما الحركة العلمية والحضارية المستمدة من الأصول الإسلامية فقد مضت في سبيلها ، لأن الناس أحبوا ثمار العلم بعد أن أفاقوا من جهالتهم . وأحبوا ثمار الحضارة حين رأوها متاحة بين أيديهم . ولكن هذه الحركة العلمية والحضارية قامت مع الأسف على غير أساس من الدين ، بل معادية للدين في الحقيقة . ذلك أن مواقف الكنيسة السابقة كلها جعلت المثقف

الأوربي المتحضر ينفر من الدين الذى تقدمه له الكنيسة وهو المسيحية ، كما أن حملة الكنيسة العنيفة ضد الإسلام جعلت هذا المثقف لا يقبل الدخول في الإسلام حتى وإن كان يستمد أصول حضارته من المسلمين ! .

ومن هنا نشأ الموقف الشاذ الذى أدى إلى الأزمة المعاصرة التى تعيش فيها البشرية فى الوقت الحاضر ، وهو قيام حركة علمية ضخمة ، وتقدم مادى واسع بعيداً عن الدين ومعادياً له ، ويعيداً عن كل القيم الروحية والأخلاقية التى لا تستقيم بدونها حياة الإنسان على الأرض . وأصبح الأوربي كلما زادت علومه وتقدمه المادى يغيره ذلك بمزيد من البعد عن الدين !

سابعاً- دور اليهود في إفساد الحياة الأوربية :

فى هذا الموقف الشاذ الذى هيأته الكنيسة الأوربية بمواقفها المختلفة ظهر اليهود ليدفعوا عجلة الفساد دفعاً إلى الأمام .. فهم كما وصفهم الله فى القرآن :

وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾

سورة المائدة ، الآية ٦٤ .

لقد رأى اليهود الفرصة سانحة لينقضوا على المسيحية عدوهم القديم ، فأطبقوا عليها من كل جانب ، يثنون الأفكار الهدامة ، ويفسدون الأخلاق وينشرون كل رذيلة باسم التقدم والحضارة تارة وباسم الحرية الشخصية تارة أخرى حتى استطاعوا بالفعل أن يفسدوا الحياة الأوربية بكل أنواع الفساد التى لا تخطر على البال .

لئن ناحية قام ماركس - وهو يهودى - يدعو إلى الشيوعية والإلحاد ، وهو صاحب القولة المشهورة : الدين أفيون الشعوب ! .

ومن ناحية أخرى قام فرويد - وهو يهودى - بنشر نظرياته عن الجنس ، التى يدعو فيها إلى التحلل من الدين والأخلاق والتقاليد بحجة أنها تسبب الكبت والعقد النفسية والعصبية ! .

ومن ناحية ثالثة أشرف اليهود على الحركة الصناعية الرأسمالية في أوربا ليشغلوا فيها أموالهم بالربا ، وعن هذا الطريق سيطروا على كل نواحي الحياه الأوربية فأفسدوا فيها مفاصل جمة .

١ - فقد أغروا المرأة بالخروج إلى العمل فى المصانع ، فلما كثر عدد النساء العاملات أغروهن بالتبرج بالزينة والأزياء الفاضحة لتفسد أخلاقهن ويفسد الشبان

معهن . ومن وراء ذلك تكسب بيوت الأزياء وبيوت الزينة مكاسب مالية هائلة وترجع كلها في النهاية إلى اليهود (١) !

٢ - أطلقوا شعارات « الحرية والإخاء والمساواة » وتحت شعار الحرية نشرت الإلحاد والفساد الخلق باعتبارهما من أبواب الحرية الشخصية للإنسان ! فمن شاء أن يلحد فليلحد . . ومن شاء أن يتبذل وتحلل فليفعل ذلك ، وليس لأحد أن يتدخل في « حرته الشخصية » ! .

٣ - حطموا كيان الأسرة بإغراء المرأة بالخروج للعمل وجعلها تنظر إلى البيت والأمومة ورعاية النشء على أنها قيود سخيصة تحب من انطلاقها وحريتها . .

٤ - أنشؤا أجيالا من الأطفال بلا أسر لأن الأم مشغولة بالعمل في الخارج ولا تجد فرصة حقيقية لتربية الأطفال ، فنشأت فرق الهيبيين والخنافس وغيرها وانتشرت في مساحات واسعة من الأرض .

تلك بعض المفاصل التي أحدثها اليهود في الحياة الغربية ، وما تزال عجلة الفساد دائرة تأتي كل يوم بجديد (١) .

ثامنا - مسئولية المسلمين عن ذلك كله :

وأخيراً لا بد لنا أن نذكر أن الأمة المسلمة مسئولة مسئولية كبيرة عن هذا الفساد الحادث اليوم في الأرض . إن هذه الأمة لم يخرجها الله ويحملها خير أمة في التاريخ لتعيش في حدود نفسها فحسب ، بل لتكون قائدة ورائدة لكل البشرية :

كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ

تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ

سورة آل عمران ، الآية ١١٠

وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ

الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا

سورة البقرة ، الآية ١٤٣

(١) قال اليهود في كتابهم المسمى « بروتوكولات حكماء صهيون » : إنهم سينشرون الإلحاد والتحلل الخلق في كل الأرض ، كما قالوا : إنهم سينشرون الشيوعية . ويستطيع الطالب أن يرجع إلى هذا الكتاب إذا شاء ليعرف الدور الكامل الذي قام به اليهود لإفساد الحياة الأوروبية وتوطئة لإفساد كل الحياة البشرية .

وقد ظل الخير يعم البشرية كلها حين كانت هذه الأمة قائمة برسالتها تنشر النور والهدى في آفاق الأرض ، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله وتدعو إلى الإيمان .

فلما تخلت هذه الأمة عن رسالتها في القرون الأخيرة ، وأصابها الضعف والوهن تبعاً لذلك ، فقد تولت قيادة البشرية أمة جاهلية لا تؤمن بالله ورسوله ، ولا تحكم شريعته في الحياة ، ومن ثم أتاحت الفرصة لشياطين الجن والإنس أن يعيشوا فساداً في الأرض ، وينشروا الكفر بدلاً من الإيمان .

ولن تصلح الأرض مرة أخرى حتى يعود المسلمون عودة صادقة إلى دينهم الحق وعندئذ يتحقق وعد الله لهم بالاستخلاف والتمكين والتأمين كما تحقق مرة من قبل :

وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ
وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا سورة النور ، الآية : ٥٥ .

...

هذه اللوحة من تاريخ أوربا تعيننا على تفهم الجو الحالى السائد في الغرب والذي انتشر فيه الإلحاد والفساد الخلق .

لقد نشأ من العوامل الثلاثة السالفة الذكر ، وهى موقف الكنيسة المسيحية ودور اليهود في الإفساد وتخلي المسلمين عن رسالتهم ، وجود جو معاد للدين في أوربا ، صالح لكل جرائم الفساد أن تنتشر فيه .

ولعل أخطر هذه الجرائم جميعاً هو الإلحاد والفساد الخلق ، لأن الإنسان إذا بعد عن الله ، وعن تطبيق منهج الله في الأرض ، فلا حدود للهاوية التي يمكن أن ينحدر إليها . والواقع الأوربي الحاضر خير برهان على هذه الحقيقة المؤلمة ، فلإن الانفصال القائم بين الدين والعلم ، وبين الدين والحياة ، قد أدى إلى فساد الفطرة البشرية ذاتها ، فضلاً عما أصابها من أمراض القلق والجنون والانتحار والأمراض النفسية والعصبية وانتشار الجريمة والإدمان على الخمر والمخدرات حتى بين الشباب المراهقين .

وذلك كله راجع إلى البعد عن الله ، والبعد عن الدين .

قضية الإلحاد

لا تقوم على أساس من العقل ولا من العلم

إن قضية الإلحاد المنتشر في الأرض اليوم لا تقوم على أى أساس من العقل ولا من العلم ، في عصر يزعم لنفسه أنه يعيش في كل أمورهِ على أساس من العقل وأساس من العلم .

فهؤلاء الملحدون حين تواجههم قضية الخلق ، وهى القضية التى تتحدى كل منكر لوجود الله ، يقولون إن « الطبيعة » هى التى تخلق ! وهذا كلام غير علمى ، وإن كان يرد على السنة من يسمونهم « علماء » فى الجاهلية المعاصرة ! .

لما الطبيعة على وجه التحديد ؟ ! .

يقول دارون إن الطبيعة تخلق كل شيء ولا حدٌ لقدرتها ! .

ثم يعود فيقول : إن الطبيعة تخطط تخطط عشواء ! .

يا سبحان الله ! .

هذا الإله المزعوم الذى ينسبون إليه الخلق لا هو عاقل ولا هو حكيم . . فهو على حد قول دارون يخطط يخطط عشواء وليس عنده تدبير منظم لعملية الخلق ، فكيف بالله يستطيع هذا الإله المزعوم المتخبط أن يدير الكون بهذه الدقة المعجزة التى تشهد آياتها فى كل ما حولنا من شئون الكون والحياة ؟ .

وكيف استطاع هذا الإله المزعوم أن يخلق الإنسان على هذه الصورة ؟ إن الإنسان كائن عاقل ومدبر وله إرادة وغاية وهدف . فهل يستطيع شيء لا إرادة له ولا غاية أن يخلق كائناً له إرادة وغاية ؟ ! وهل يستطيع شيء لا عقل له أن يخلق كائناً مفكراً له عقل ؟ ! .

أما العلم فلنسمع فيه شهادة بعض العلماء الذين فتح الله بصيرتهم على جانب من الحقيقة وإن كانوا يعيشون فى ذات الجاهلية المعاصرة التى تلف بلاد الغرب .

يقول عالم الأحياء والنبات « رسل تشارلز إرنست » الأستاذ بجامعة فرانكفورت بألمانيا : « لقد وضعت نظريات عديدة لكى تفسر نشأة الحياة فى عالم الجمادات ، فذهب بعض الباحثين إلى أن الحياة قد نشأت من البروتوجين ، أو من الفيروس ،

أو من تجمع بعض الجزئيات البروتينية الكبيرة ، وقد ينجيل إلى بعض الناس أن هذه النظريات قد سدت الفجوة التي تفصل بين عالم الأحياء وعالم الجهادات . ولكن الواقع الذى ينبغى أن نسلم به هو أن جميع الجهود التى بذلت للحصول على المادة الحية من غير الحية قد باءت بفشل وخذلان ذريعين . ومع ذلك فإن من ينكر وجود الله لا يستطيع أن يقيم الدليل المباشر للعالم المتطلع على أن مجرد تجمع الذرات والجزئيات عن طريق المصادفة يمكن أن يؤدي إلى ظهور الحياة وصيانتها وتوجيهها بالصورة التى شاهدناها فى الخلايا الحية . وللشخص مطلق الحرية فى أن يقبل هذا التفسير لنشأة الحياة ، فهذا شأنه وحده . . ولكنه إذ يفعل ذلك فلإنما يسلم بأمر أشد إعجازاً وصعوبة على العقل من الاعتقاد بوجود الله الذى خلق الأشياء ودبرها . « إننى أعتقد أن كل خلية من الخلايا الحية قد بلغت من التعقد درجة يصعب علينا فهمها . وإن ملايين الملايين من الخلايا الحية الموجودة على سطح الأرض تشهد بقدرته شهادة تقوم على الفكر والمنطق . ولذلك فلإننى أؤمن بوجود الله إيماناً راسخاً » (١) .

ويقول « أ . كرسى موريسون » رئيس أكاديمية العلوم بنيويورك فى كتابه بعنوان « الإنسان لا يقوم وحده » : « وما يدعو إلى الدهشة أن يكون تنظيم الطبيعة على هذا الشكل ، بالغا هذه الدقة الفائقة . لأنه لو كانت قشرة الأرض أسمك مما هى بمقدار بضعة أقدام ، لامتص ثانى أكسيد الكربون الأوكسجين ، ولما أمكن وجود حياة النبات .

« ولو كان الهواء أرفع (٢) كثيراً مما هو فإن بعض الشهب التى تحترق الآن بالملايين فى الهواء الخارجى كانت تضرب جميع أجزاء الكرة الأرضية وهى تسير بسرعة تتراوح بين ستة أميال وأربعين ميلاً فى الثانية ، وكان فى إمكانها أن تشعل كل شئ قابل للاحتراق . ولو كانت تسير ببطء رصاصة البندقية لارتطمت كلها بالأرض ، ولكانت العاقبة مروعة . أما الإنسان فإن اصطدامه بشهاب ضئيل يسير بسرعة تفوق سرعة الرصاصة تسعين مرة ، كان يمزقه إرباً من مجرد حرارة مروره . »

« إن الهواء سميك بالقدر اللازم بالضبط لمرور الأشعة ذات التأثير الكيميائى التى يحتاج إليها الزرع ، والتى تقتل الجراثيم وتنتج الفيتامينات ، دون أن تضر بالإنسان إلا إذا عرض نفسه لها مدة أطول من اللازم . وعلى الرغم من الانبعاثات الغازية من الأرض طول الدهور - ومعظمها سام - فإن الهواء باق دون تلويث فى الواقع ، ودون تغير فى نسبته المتوازنة اللازمة لوجود الإنسان . وعجلة الموازنة

(١) من مقال « الخلايا الحية تؤدى رسالتها » من كتاب « الله يتجلى فى عصر العلم » .

(٢) يقصد الل كثافة .

العظيمة هي تلك الكتلة الفسيحة من الماء - أى المحيط - استمدت منه الحياة والغذاء والمطر والمناخ المعتدل والنبات وأخيراً الإنسان نفسه . . .
ويقول في مكان آخر من الكتاب :

« إننا نقرب فعلاً من عالم المجهول الشاسع ، إذ ندرك أن المادة كلها قد أصبحت من الوجهة العلمية مجرد مظهر لوحدة عالمية هي في جوهرها كهربائية . ولكن مما لا ريب فيه أن المصادفة لم يكن لها دخل في تكوين الكون ، لأن هذا العالم العظيم خضع للقانون .

« إن ارتقاء الإنسان إلى درجة كائن مفكر شاعر بوجوده هو خطوة أعظم من أن تم عن طريق التطور المادى ، ودون قصد إبداعى .
« وإذا سلمنا بوجود القصد ، فإن الإنسان قد يعتبر جهازاً ، ولكن ما الذى يدير هذا الجهاز ؟ لأنه بدون أن يدار لا فائدة منه . والعلم لا يعلى من يتولى إدارته وكذلك لا يزعم أنه مادى .
« لقد بلغنا من التقدم درجة تكفى لأن نوقن بأن الله قد منح الإنسان قبساً من نوره .^(١)

ويقول سير « آرثر طومسون » المؤلف الاسكتلندى الشهير تحت عنوان « العلم والدين » : . . . فنحن نقرر عن روية أن أعظم خدمة قام بها العلم أنه قاد الإنسان إلى فكرة عن الله أنبل وأسمى . ولا نجاوِز المعنى الحرفى حين نقول : إن العلم أنشأ للإنسان سماء جديدة وأرضاً جديدة ، وحفزه من ثم إلى غاية جهده العقلى ، فإذا به فى كثير من الأحيان لا يجد السلام إلا حين يتخطى مدى الفهم ، وذلك فى اليقين والاطمئنان إلى الله « (٢) .

ولسنا نذكر هذه الشواهد لنستدل بها على وجود الله ، فعندنا كتاب الله يكفيننا ، والفطرة التى فطر الله الناس عليها تشهد بذاتها . ولكننا نذكرها فقط لأن بعض الذين فتنهم التقدم العلمى فى هذا القرن يظنون أن العلم يقتضى عدم الإيمان بالله !!

آثار الإلحاد فى واقع البشرية المعاصر

إن هذه الموجة العاتية من الإلحاد ، التى تسود أوروبا شرقها وغربها ، وتنقل بالعدوى إلى بقية أرجاء الأرض ، قد خلفت من الفساد فى الحياة البشرية ما لا مثيل

(١) ترجمة محمود صالح الفلكى بعنوان « العلم يدعو إلى الايمان » .

(٢) من كتاب « عقائد المفكرين » للعقاد .

له من قبل ، لأن العالم اليوم قد تداخلت قضاياها وتشابكت ، وصار ما يحدث في أى جزء منه يؤثر بالضرورة في بقية الأجزاء ، فكيف إذا كان الأمر بهذه الخطورة وعلى هذه الدرجة من التأثير !

يقول الله في كتابه الحكيم :

ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي

عَمِلُوا ۖ أَلَمْ يَرْجِعُوهُمْ ۚ

(سورة الروم : ٤١)

وأى عمل يمكن أن يعملها الناس أسوأ من الإلحاد ؟ وأى فساد أعظم من الفساد الناجم عنه ؟

واليك بعض النتائج التى ترتبت على هذا الإثم الخطير فى حق الله :

١ - القضاء على القيم الروحية والمثل العليا :

إن الإنسان الذى لا يؤمن بوجود الله لا بد أن تنحط معايير وقيمه ، ونظرتة إلى كل شئ فى هذه الحياة . ذلك أن الإيمان هو الذى يقوى الجانب الروحى من الإنسان ويربطه بالمثل العليا إذ يربط القلب البشرى بالله . المؤمن هو الذى يعرف الهدف الحقيقى لحياته فى الأرض ، لأن الله يقول له :

وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝

(سورة الذاريات : ٥٦)

فيعلم من ذلك أنه خلق ليعبد الله لا ليعبد شيئاً آخر غير الله . والإنسان لا بد أن يعبد .. هكذا خلقه الله عابداً .. والعبادة جزء أصيل من فطرته . فإما أن يعبد الله ، وإما أن يعبد شيئاً غير الله .

فإن عَبْدَ الله فقد التزم بطاعته ، ونفذ أوامره ، فتستقيم حياته فى الأرض ، وينعم فى الآخرة بجنة الله ورضوانه ، وترتق مشاعره ، لأن الله يوجهه فى كتابه الكريم وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم إلى كل جميل من الخصال . يوجهه إلى عمل الخير والإمتناع عن الشر . يوجهه أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه . يوجهه أن يكون أميناً صادقاً . يوجهه أن يكون عادلاً قواماً بالقسط . يوجهه أن يكون نظيفاً فى سره وعلايته ، نظيف الثياب نظيف البدن نظيف المشاعر نظيف السلوك .

وأما إن كان لا يعبد الله ، فسيعبد شيئاً آخر لا محالة .
يعبد بشراً مثله ، يضع له تشريعات من عند نفسه يحل فيها ويحرم على هواه ..
فيطيعه .

أو يعبد شهواته .. شهوة المال أو شهوة الجنس أو شهوة السلطان ..
أو - بتعبير القرآن - يعبد الشيطان لأنه في الحقيقة وجهة كل عابد لغير الله :

أَلَا أَعْلَمُ أَنَّكُمْ تَعْبُدُونَ مَا لَا تَعْبُدُونَ

الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ۝ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ۝
(سورة يس : ٦٠ - ٦١)

فلنتظر إلى الملاحدة في شرق الأرض وغربها ، ماذا يعبدون ، وإلى أى شيء
توجههم عبادتهم ..

الشيوعى عبد للدولة ، وللنظام الشيوعى ، وللحزب الحاكم ، وللزعيم ، لأنه لا
يملك أن يفتح له بكلمة واحدة ضد واحد من هؤلاء ، وإلا كان نصيبه الموت . فهو
-رضى أو كره- مستذل لهذه الأرباب كلها من أجل لقمة الخبز . من أجل أن
يعيش !

والغربي عبد للمال ، وللشهوات . المال هو الذى يحركه ، فلا يتحرك إلا من
أجل الكسب المادى . والمال هو القيمة التى يقوم بها الإنسان . فوجوده ومكانته في
المجتمع مرهون بمقدار ما يتكسب من مال . الله يقول :

إِنَّا كَرَّمَكُم مَّا عِندَ اللَّهِ أَنْتُمْ
(سورة الحجرات : ١٣)

وهم يقولون : إن أكرمكم عندنا أغناكم .. ولو كان الغنى قد جاء من السلب
والنهب والسطو على أقوات ملايين من البشر في المستعمرات التى يستعمرها الغرب
وينهب أقواتها ، وامتصاص دماء الملايين من العمال الذين يكدون ويكدحون ، ثم
يسرق عرقهم وجهدهم هذا الرأسمالى ليتجبر بها في الأرض .
ثم .. أين ينفقون أموالهم التى يجمعونها على هذه الصورة ويصبحون عبيداً لها في
النهاية ؟

إما أن ينفقوها في شهوات الجسد الجامحة التى تنحط بالإنسان إلى مرتبة الحيوان .
ولما أن ينفقوها في الخراب والتدمير في الصراع الوحشى الدائر في الأرض !
تلك عباداتهم وذلك هو السلوك المترتب على عبادتهم . فتنى يشعرون بالقيم العليا
أو يستجيون لدواعيها ؟

لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿١﴾ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٢﴾
إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾

(سورة التين : ٤ - ٦)

لا يستطيع الإنسان أن يحافظ على فطرته التي فطره الله عليها « في أحسن تقويم » ،
إذا بعد عن طريق الله . بل إنه عندئذ يفقد توازنه فيقع « أسفل سافلين » .
ذلك أن الإيمان هو الذى يحفظ التوازن بين العنصرين المكونين لفطرة الإنسان :

إِذَا قَالَ رَبِّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلِّقُ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ﴿١﴾
فَلَا تَسْوْنِيهِ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢﴾

(سورة ص : ٧١ - ٧٢)

فالإنسان مُكوّن كما نخبرنا العلم الخبير من قبضة من طين الأرض ونفخة من روح
الله . وهذه النفخة العلوية من روح الله هي التي أعطت الإنسان شفافية روحه ووعيه
وإدراكه وقدرته على الإيمان بالغيب ، ونفت عنه عتامة الطين وغلظته . وهذه النفخة
العلوية توازن تكوينه وصار في أحسن تقويم ، وصارت له مطالب وغايات روحية إلى
جانب مطالب الجسد وغاياته .

فإذا كفر الإنسان وألحد فقد أغلق النافذة المضيئة التي يستمد منها النور ، ولم يبق
له إلا عتامة الطين وغلظة الحس . أى لم يبق له إلا الماديات والمحسوسات . إليها
يتطلع ، وفيها ينفق الجهد ، وإليها يعود . وعندئذ تجذبه ثقله الأرض فلا يستطيع أن
يتوازن إزاءها ، لأن الذى يمنحه التوازن إزاءها هو انطلاقة الروح التي تصل قلبه
بالله ، وتجعله يؤمن باليوم الآخر ويعمل حسابه في جميع أفعاله وأقواله فلا يسفل ولا
يتدفى . فإذا فقدتها فَقَدَ توازنه وأصبح أسفل سافلين كما يخبر الله عنه في كتابه
الكريم .

والذى نراه اليوم في الجاهلية المعاصرة هو مصداق ذلك القول ، فلأى شيء
يسعى الناس ، وعلى أى شيء يتصارعون ؟ نطالب الجسد ومتاع الجسد وشهوات
الأرض . وفي النهاية يفقد الإنسان إنسانيته ويعود كالحيوان ، بل أسوأ من الحيوان :

أُولَئِكَ كَانُوا لِنَفْسِهِمْ أَهْلًا ۖ وَلَيْكُمْ مُرُ الْغَفِيلُونَ ﴿١٧٩﴾

(سورة الأعراف : ١٧٩)

٣ - القضاء على وازع الضمير :

الضمير هو « النفس اللوامة » التي يقسم بها الله جل شأنه في كتابه العزيز :

لَا أَقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَمَةِ ﴿١﴾ وَلَا أَقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾

(سورة القيامة : ١ - ٢)

وهذا القسم من الله العظيم الجليل جل شأنه له دلالة ، فإن الله العظيم لا يقسم إلا بشيء عظيم^(١) . فإذا أقسم الله سبحانه وتعالى بالنفس اللوامة ، التي تلوم الإنسان على فعل الشر وتدفعه إلى عمل الخير ، فلا شك أن هذه النفس ذات وزن كبير في ميزان الله . وإنما لكذلك . لأنها هي المحور الحقيقي لارتقاء الإنسان ومحافظة على قيمه العليا ، كما أنها المحور الحقيقي لاستقامة أمر البشرية في واقع حياتها .

فما الإنسان إذا فَقَدَ النفس اللوامة ؟ إن نفسه حينئذ تكون هي النفس الأمارة .. أى الأمارة بالسوء .. منها ينبع السوء ، ومنها ينتشر الشر في أرجاء الأرض . والنفس الأمارة بالسوء لا يهذبها ولا يرتقى بها ، ولا يرفعها إلى مرتبة النفس اللوامة إلا الإيمان بالله ، الذى يجعل الإنسان مستحقاً لرحمة الله المطهرة للنفس من دنسها .

إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي (سورة يوسف : ٥٣)

أما الإلحاد والكفر فهو يذهب بالنفس اللوامة ولا يبقى إلا النفس الأمارة بالسوء .

ولقد يخيل إلينا لأول وهلة أن أوروبا الملحدة ذات ضمير . فالتاجر هناك لا يغش ولا يخدع . والعامل لا يكذب ولا يخلف مواعيده . وأمور التعامل الفردى تقوم على الصدق والأمانة .

وهذا صحيح في مظهره . ولكنها في الحقيقة ليست أخلاقاً بالمعنى الحقيقي للأخلاق . إنما هي أخلاق التاجر الذكى الذى يحرص على كسب ثقة الزبون إلى آخر المدى ، فيتودد إليه بنحو الصدق والأمانة والإتقان .

أما المحك الحقيق للضمير فله مجال آخر ..

فأين الضمير في معاملة الزوج في أمريكا بالفظاظة والغلظة إلى حد القتل في

عرض الطريق ؟

(١) يأتى القسم فى القرآن منفيًا أحيانًا ومثبتًا أحيانًا أخرى وكلاهما قسم . فن أمثلة النفي « لا أقسم بيوم القيامة » « فلا أقسم بمواقع النجوم » وإنه لقسم لو تعلمون عظيم » ومن أمثلة الإثبات « والضحى » « والليل إذا سجي » « والفجر » « وليال عشر » .

وأين الضمير في استعمار الشعوب ونهب خيراتها وإبقائها في حالة من الفقر والجهل والمرض والضعف ، إلهوان ؟

وأين الضمير في موقف هيئة الأمم من قضية فلسطين ، وتحويل أهلها إلى لاجئين ؟
وأين الضمير في تقتيل المسلمين في الفلبين وغيرها من بقاع الأرض ؟
وأين الضمير في إلقاء فائض القمح في بعض البلاد في الأنهار والبحار لكي لا ينخفض سعره في الأسواق بينما الملايين في بقاع الأرض يتضورون جوعاً ولا يجدون حبة من القمح ؟

وأين الضمير في إغراء الناس بالفساد الخلقى على أوسع نطاق لكي يكسب بضعة ألوف من الناس ، ملايين الملايين من الأموال من أدوات الزينة والأزياء والأفلام السينمائية والصور الخليعة والخمر والمخدرات ؟
كلا ! إن الإلحاد لا يبقى على النفس اللوامة إنما يغذى النفس الأمارة بالسوء ! .

٤ - اختلال الأمن والسلام في المجتمع والعالم :

لعل صورة العالم اليوم هي أسوأ صورة له في التاريخ ..
فلم تمر على العالم فترة من فقدان السلام واضطراب الأمن أحلك مما مر به في هذا القرن الأخير .

الحرب العالمية الأولى قتل فيها عشرة ملايين من الشباب ، والحرب العالمية الثانية قتل فيها أربعون مليوناً من البشر .. ولم تستقر أحوال العالم ما بين الحربين ولا قبلهما ولا بعدهما إلى هذه اللحظة .

والصراع الدائر لا يكف في أطراف الأرض ، ولا تكاد تجد مكاناً ينعم بالاستقرار .

ومن أجل أى شيء يقوم هذا الصراع ؟
هل هو صراع لإحقاق الحق في الأرض ونشر العدل بين الناس ؟
هل هو صراع لإعطاء الضعيف حقه ووقف القوى عن العدوان على الضعيف ؟
ليس هناك صراع واحد من الصراعات القائمة بين الدول اليوم يدور حول إحقاق الحق ونصفة المظلوم .. إنما كلها صراع دائر على مزيد من التسلط ومزيد من العدوان !
الدول التي تسمى نفسها « الدول الكبرى » تتصارع فيما بينها .. ولكن على

أى شيء ؟ على حيازة أكبر عدد من « المستضعفين » والتسلط عليهم ! كما تتصارع الذئاب
 حول الفريسة ، ينهش بعضها بعضاً لا دفاعاً عن الفريسة لتنجو ، ولكن ليستأثر بها كل
 ذئب لنفسه دون بقية الذئاب . . والفريسة مأكولة أيأ كانت نتيجة الصراع !
 قانون الغاب هو الذى يحكم الناس فى الأرض فى غيبة من قانون الله .
 قانون الغاب يقول : الغلبة للقوة لا لصاحب الحق . القوى يأكل الضعيف .
 وقانون الله يقول :

*** إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ**

(سورة النحل : ٩٠)

ويقول :

**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ نُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَجْرِمَنكُمْ
 سِتْرَانُ فَرْمَ عَلَى الْأَعْدَى لَوْ أَعْدَلُوا هُمْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ
 خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ④**

(سورة المائدة : ٨)

ولكن أئن للكفار والملحدين أن يطبقوا قانون الله ؟ بل الأحرى بهم أن يطبقوا
 القانون الذى تتعامل به الوحوش فى الغاب ، لأنهم حين يفقدون صلتهم بالله يفقدون
 إنسانيتهم ويصبحون مثل تلك الوحوش .
 وليس الأمن الدولى وحده هو الذى فقده الناس حين قطعوا صلتهم بالله رب
 الكون والناس . .

إن مجتمعاتهم كذلك قد فقدت الأمن .

فإحصاءات العالم كلها تقول إن نسبة الجريمة فى تزايد مستمر . سواء جرائم
 القتل أو جرائم اغتصاب الأموال واغتصاب الأعراض .
 وفى كل عام تجتمع المؤتمرات فى شتى بقاع الأرض لتتدارس هذه الظاهرة
 الخطيرة ، يحضرها رجال القانون ورجال الاجتماع وعلماء النفس وعلماء الجريمة وغيرهم
 من « العلماء » .

ثم تطلع الإحصاءات الجديدة تقول : إن نسبة الجريمة تزداد باستمرار . .
 بل ليس الأمن الدولى ولا أمن المجتمع وحدهما هما اللذان أصابهما الخلل
 والاضطراب .

إنه الأمن النفسى كذلك . أمن كل نفس بذاتها ، وفى حدود نفسها !
ونظرة إلى الإحصاءات تطلعننا على هذا الأمر . فالإحصاءات لا تقول إن نسبة
الجريمة وحدها هى التى تزايدت ، إنما تقول كذلك : إن نسبة أمراض القلب والجنون
والانتحار والاضطرابات النفسية والعصبية هى كذلك فى تزايد مستمر !
وصدق الله العظيم ، فقد أخبرنا أن المصدر الحقيقى لطمأنينة النفس هو ذكر الله
والاتصال بالله :

الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾

(سورة الرعد : ٢٨)

فمن أين للناس طمأنينة القلب حين يبعدون عن الله ، بل حين يشمئزون من
ذكر الله :

وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ
وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾

(سورة الزمر : ٤٥)

٥ - فساد الفطرة الإنسانية والهبوط إلى مستوى الحيوان :
أين « الإنسان » فى هذه الدوامة التى تلف البشرية اليوم فى بعدها عن الله ؟ .
هذا الشاب الذى تكث شعره وأسدله ولبس الكعب العالى والملابس الملتصقة
بوسطه ومشى يتكسر ويتخلع كالبنيت الخليفة .. هل هو « إنسان » ؟
هذه الفتاة المسترجلة التى تدخن وتشرب الخمر وتلبس ملابس الفتى وتتشرد معه
فى مجاميع الهيبيز .. هل هى « إنسانة » ؟
وهذه القطعان الهائمة من البنات والأولاد تمارس الجنس فى الطريق والغابة
والملهى والمرقص والنادى وفى أى مكان .. هل هم آدميون ؟
هذه النساء الكاسيات العاريات المتبرجات فى الطريق بكل زينة يستعرضن أجسادهن
لكل نظرة جائعة وسعار مجنون .. هل هن آدميات على مستوى « الإنسان » ؟
هؤلاء الرجال الذين لا يغارون على أعراضهم ، لا على نسائهم ولا بناتهم ولا
أخوانهم ، ولا على أعراض الآخرين ، لأن قضية العرض كلها لا تخطر لهم على بال
هل بقى لهم شئ من فطرة « الإنسان » ؟

وصنوف غيرها وصنوف من الانتكاس إلى مستوى الحيوان ، بل أسوأ من الحيوان .. هل تعتبر في عداد « الإنسان » ؟
لقد تجاوز الفساد حدود الأخلاق ..
إن الفطرة ذاتها قد مسخت فلم تعد هي فطرة الإنسان ..

أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ
أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾

(سورة الملك : ٢٢)

موقف المسلم من قضية الإلحاد

إن هناك ظروفًا معينة كما رأينا قد أثرت في الحياة الأوروبية وأدت إلى انشراح الإلحاد هناك .

ولسنا نقول : إن هذه الظروف تبرر ما حدث هناك من الكفر والتبجح به ، فلا شيء على الإطلاق يبرر الكفر بالله ، والله سبحانه وتعالى يقول :

بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴿١١﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرُهُ ﴿١٢﴾

(سورة القيامة : ١٤ - ١٥)

وقد أعطى الله الأوروبيين عقولا يفكرون بها كما أعطى كل البشر ، وأرسل رسله لبيان الحق :

رُسُلًا بَشِيرِينَ وَمُنْذِرِينَ لَّئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ

وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾

(سورة النساء : ١٦٥)

فإذا أبطل الناس عمل عقولهم التي أعطاهم الله إياها ، ولم يستمعوا لرسولهم أو خرفوا كلامهم ، فهم مسئولون عن ذلك كله أمام الله يوم القيامة ، ولا يغنيهم يومئذ أن يقولوا : إنا كنا عن هذا غافلين :

فَإِذَا أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ

قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾

(سورة الأعراف : ١٧٢)

ولكننا نقول فقط : إن هذه هي الظروف الواقعية التي أحاطت بالناس في أوروبا
وكان من نتائجها انتشار الإلحاد بينهم هناك .

لما موقف المسلم من قضية الإلحاد ؟

إن موقفه واضح تماماً . فهو يرد هذه القضية من أساسها ، ويبطلها إبطالا
كاملا . فليس في أصول دينه ولا في تاريخه ما يؤدي إلى شيء مما حدث للناس في
أوروبا من اختلالات .

فأصول الدين قد تكفل الله بحفظها من الضياع وحفظها من التحريف .
يقول الله عن القرآن :

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾
(الحجر : ٩)

كذلك قيض الله لسنة نبيه صلى الله عليه وسلم رواة حافظين وعلماء مدققين
حفظوا السنة ومحصوا روايتها ونفوا الدخيل منها وأبقوا الصحيح ودونوه .
ومن هنا لم يحدث في العقيدة تحريف كما حدث في عقائد أهل الكتاب .
ثم إن الدين المنزل من عند الله بقى على صورته المنزلة عقيدة وشرعية ، فلم يقسم
كما فعل النصارى في دينهم ، فجعلوه عقيدة منفصلة عن الشريعة . وبقى الإسلام
قروناً عديدة يمارس في واقع الأرض بصورته المتكاملة فيحكم علاقة العبد بالرب ،
وعلاقات الحاكم بالمحكوم وعلاقات الناس بعضهم ببعض بغير تفريق بين جزء من
هذا الدين وجزء .

وحتى حين انحرف أغلب المسلمين في القرون الأخيرة عن حقيقة الإسلام ففصلوا
الدين عن الدولة ، ووقعوا بذلك في شرك الطاعة والاتباع ، فلما انحرف قرن أو
قرنين لا يتنى واقع اثني عشر قرناً كان المسلمون فيها يعتبرون الإسلام عقيدة وشرعية
بغير تفريق ، بعكس ما حدث عند النصارى في أوروبا حيث لم يطبق دين الله في
صورته المتكاملة قط .

ثم إن الإسلام ليست له « كنيسة » كالتى قامت في أوروبا تحرف الدين المنزل
وتفسده . وليس له « رجال دين » ولا « كهنوت » يحتفظون بالأسرار ويستحوذون بهذه
الدعوى على أرواح الناس وعقولهم . إنما فيه علماء وفقهاء في أمور الدين ويستنبطون
الأحكام المستمدة من الشريعة الثابتة المحفوظة ، تنفيذاً لأمر ربهم :

فَلَوْلَا نَفَسٌ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لَتُبِفَتَّهٗوَ فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا
قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾

(سورة التوبة : ١٢٢)

وهؤلاء العلماء والفقهاء مجتهدون ، يخطئون ويصيبون ، وليس لأحد منهم قداسة
كرجال الكهنوت ، ولا يحلون ولا يحرمون من دون الله كما وقع في تاريخ النصرانية .
والناس يحترمونه ويوقرونها لعلمهم وفضلهم ولكنهم لا يتخذونهم أرباباً من دون الله
كما صنع أهل الكتاب بأخبارهم ورجالهم :

اتَّخَذُوا أَنْبَارَهُمْ رُءُوسَهُمْ أَرْأَبَاكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ

(سورة التوبة : ٣١)

ثم إن الإسلام لا يعرف الفصل بين الدين والعلم ، ولا بين الدين والحياة كما
وقع في حياة النصارى في أوروبا .
إن الإسلام دين الفطرة . وليس في الفطرة انفصال بين الدين والعلم ، ولا بين
الدين والحياة !

ففي النفس البشرية نزعة فطرية إلى التدين ، بما أودع الله في الفطرة من التوجه
إلى الخالق وعبادته ، ونزعة فطرية إلى تعلم العلم واستخدام ثماره في عمارة الأرض :

وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا

(سورة البقرة : ٣١)

هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا

(سورة هود : ٦١)

وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ

(سورة الجاثية : ١٣)

ولا تعارض في الفطرة السوية بين هاتين النزعتين الفطريتين ، بل تسير النزعة إلى
الإيمان والنزعة إلى المعرفة جنباً إلى جنب ، وتتجهان وجهة واحدة .

وإذا كانت الجاهلية الأوروبية المعاصرة قد فصلت بين هاتين النزعتين الفطريتين وأقامت بينهما العداة والصراع ، وأنشأت غروراً عقلياً وفتنة بالعلم تزيد الإنسان بعداً عن الله كلما زادت حصيلته من العلوم والمعارف ، كما قال القرآن في وصف الجاهليات السابقة في التاريخ :

فَلَمَّا جَاءَ نُهُرُ سُلُكِهِم بِالْبَيِّنَاتِ فِرْحَانِمَا عِنْدَهُم مِّنَ الْعِلْمِ

(سورة غافر : ٨٣)

إذا كانت الجاهلية المعاصرة قد صنعت ذلك فإن الإسلام لا يعرف هذه التفرقة على الإطلاق ، وكتاب الله مليء بالتوجيهات للناس أن يتعلموا ويتدبروا في خلق الله ويستنبطوا السنن التي يجرى بها نظام الكون ويستفيدوا منها ، ويكفى أن يكون الأمر الأول الموجه لرسول الله صلى الله عليه وسلم هو هذه الكلمة العظيمة : « اقرأ » التي تحمل التوجيه الشامل لطلب المعرفة . ثم يوجه الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يستزيد من المعرفة « رب زدني علماً » . ويقول للمسلمين جميعاً :

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ

وَالنَّهَارِ وَالْأَنْفَالِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْوَحْيِ مَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ

السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَخْبَاهُ الْأَرْضُ بِعَدَمِ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ

وَتَصْرِيفِ الرِّيحِ وَالسَّحَابِ الْمُسْتَظْهِرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ

يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾

(سورة البقرة : ١٦٤)

وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتَيْنِ لِّقَوْمٍ يَفْقَهُونَ

ويقول لهم :

آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّبَنَاتٍ لِّبَنَاتٍ لِّبَنَاتٍ لِّبَنَاتٍ لِّبَنَاتٍ

وَلَنَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلُّ شَيْءٍ فَضْلَنَاهُ نَفْصِيلًا ﴿١٧﴾

(سورة الإسراء : ١٢)

ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « طلب العلم فريضة » (١) . ولم يعرف تاريخ الإسلام الواقعي تلك الفارقة المصطنعة بين الدين والعلم ، ولم يجر بينهما عداة ولا صراع ، إنما ازدهرت الحركة العلمية الإسلامية تحت ظل العقيدة بل انبثقت منها انبثاقاً أول مرة وظلت تنمو في ظلها على الدوام .

كذلك لم يوجد في التاريخ الإسلامي ذلك الغرور العقلي ولا تلك الفتنة بالعلم التي تبعد الإنسان عن الله بمقدار ما يحصل من العلم !! إنما العكس في حس المسلم هو الصحيح . فالعلم منحة من الله . هو الذي علم آدم من قبل :

وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا

(سورة البقرة : ٣١)

وعلم بنيه من بعده : « الرحمن ، علم القرآن ، خلق الإنسان علمه البيان » . فكلما ازداد المسلم علماً زاد قرباً من الله وشكراً له على ما أولاه من نعمة :

لِيُنْمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ

(سورة فاطر : ٢٨)

كذلك لا انفصال في الإسلام بين الدين والحياة ..
لا رهبانية في الإسلام ..

« ألا إني لاتفاكم الله ، ولكني أصوم وأفطر ، وأقوم وأنام ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني » (١) .
وإذا كانت الجاهلية الأوروبية قد فصلت بين الدين ونشاطات الإنسان المختلفة في الحياة ، وأوجدت حالة نفسية وعقلية تزداد بعداً عن الله كلما فتحت عليها أبواب الرزق والتمكين في الأرض ، فأصبحوا كما وصف الله قوم هود :

أَتَّبِنُونَ كُلَّ رِيعٍ ۖ أَيَّةَ تَعْبُتُونَ ﴿١٦٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٦٩﴾

وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٧٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٧١﴾ وَاتَّقُوا

الَّذِي آمَدَّكُمْ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٧٢﴾ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَمٍ وَبَنِينَ ﴿١٧٣﴾ وَجَنَّاتٍ

وَعُيُونٍ ﴿١٧٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٥﴾ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا

أَوْعِظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٧٧﴾

وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴿١٧٨﴾ (سورة الشعراء : ١٢٨ - ١٣٨)

إذا كانت الجاهلية الأوروبية قد صنعت ذلك فإن الإسلام - دين الفطرة - لا يعرف هذه التفرقة ولا يقرها . . . فالله يقول للناس :

وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا
(الأعراف : ٣١)

ويقول : قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ، وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ

قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ

(سورة الأعراف : ٣٢)

ويقول :

هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَ فِيهَا

(سورة هود : ٦١)

ويقول :

وَأَبْنَعُ فِيْمَاءِ آتَلَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا

(سورة القصص : ٧٧)

ويقول :

هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ

(سورة الملك : ١٥)

لذلك قامت الحركة الحضارية الإسلامية في ظل العقيدة بلا صراع بينها ولا عدا ، وكانت بذلك فريدة في التاريخ . حركة تعمّر الأرض ، وتجوب الأفاق وتكشف مجاهيل الأرض ، وتستثمر خيراتها بالفلاحة والصناعة والتجارة ، وهي في كل هذا عابدة لله ، تنشر النور الرياني في الأرض بنشر العقيدة الإسلامية ، وتقيم العدل الرياني بين الناس بتطبيق شريعة الله .

• • •

ليس في أصول هذا الدين ولا في تاريخه شيء واحد مما حدث في أوربا وانتهى هناك بالإلحاد والبعد عن طريق الله . إنما يقوم الإسلام ابتداء على ربط القلب البشري بالله ، وتوثيق هذه الرابطة في كل عمل أو فكر أو شعور :

قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٥٧﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ

سورة الأنعام ، الآيتان ١٦٢ ، ١٦٣ .

ومن هذه الرابطة الحية التي تربط القلب البشرى بالله ، ينطلق المسلم يتعلم ويعمل ، يتغنى من فضل الله ويعمر الأرض ، ويأخذ نصيبه من المتاع المعقول المثلل له من عند الله شاعراً بذلك كله أنه يقوم بدور الخلافة فى الأرض :

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ

سورة البقرة ، الآية ٣٠ .

وقائم بقاية وجوده فى الأرض من عبادة خالصة لله :

وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝

سورة الذاريات ، الآية ٥٦ .

لذلك لا يتصور أن يتجه مسلم واحد فى الأرض إلى الإلحاد ! .
بل إنها الطامة الكبرى أن يجيء « مسلمون » من الذين كان المفروض فيهم أن يكونوا رواد البشرية إلى الإيمان وإلى الحق وإلى المنهج الربانى الأصيل . . . يجيء هؤلاء « المسلمون ! » فيتخلون عن دينهم الذى أنعم الله به عليهم حيث قال لهم :

الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ
نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا

سورة المائدة ، الآية ٣ .

ويروحون يفلدون أوربا فيما وصلت إليه فى جاهليتها من سوء ، فيعتنقون الأفكار الهدامة المنتشرة هناك ، ويتخذون الإلحاد مثلهم ، ويغرقون مثلهم فى التحلل الخلق ويدعون إليه .

ألا إنها الهزيمة الداخلية الكامنة فى نفوسهم إزاء الغرب ، هى التى تؤدى بهم إلى هذا التقليد الأعمى : تقليد القروود أو تقليد العبيد ! .

وما يمكن لإنسان عاقل ، فضلا عن الإنسان المسلم ، أن يضع قلمه مختاراً فى الهاوية ، إلا أن يكون قد أصابه خبل فى فكره ، أو أصابه المسخ الذى يشوه الفطرة ويفسد طبائع النفوس .

الباب الثاني

الإيمان بالملائكة

الإيمان بالملائكة جزء من الإيمان . فلا يتم إيمان المسلم إلا إذا آمن بوجودهم جملة ، وبمن ورد ذكرهم في القرآن والحديث على وجه التفصيل ، وبأعمالهم التي كلفهم الله بأدائها .

ووجوب الإيمان بالملائكة وكونه جزءاً من الإيمان وارد في نصوص كثيرة من القرآن والحديث .

لها جاء في القرآن قوله تعالى :

لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ
وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ
وَأَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ
وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ
إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ
صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾

سورة البقرة ، الآية ١٧٧ .

وقوله تعالى :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي
نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلْنَا مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ
وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾

سورة النساء ، الآية ١٣٦ .

وقوله تعالى :

قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلْجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ
بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾
مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ
عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴿٩٨﴾

سورة البقرة ، الايتان ٩٧ ، ٩٨ .

وجاء في حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : فأخبرني عن الإيمان . قال : الإيمان أن تؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسوله ، واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره . قال : صدقت ، إلى أن قال : هذا جبريل أتاكم يعلمكم أمر دينكم ، رواه مسلم .

ومن أقرب الأسباب لوجوب الإيمان بالملائكة وما يؤدون من أعمال كلفهم الله بها (١) أن الوحي الذي نزل على محمد صلى الله عليه وسلم ، والذي تلقينا ديننا عن طريقه وصرنا به مسلمين قد نزل به جبريل عليه السلام - وهو واحد من الملائكة المكرمين - على قلب الرسول صلى الله عليه وسلم . فلا بد للمسلم إذن أن يؤمن بوجود الملائكة وقدرتهم على أداء أعمال معينة كالنزل بالوحي على الأنبياء والرسول ليتم إيمانه بالكتاب الذي يتلقى دينه عنه وهو القرآن .

والله يبين لنا أن خلق الملائكة وتعدد أشكالهم هو من آيات القدرة الربانية :

الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي
أَجْنَحَاتٍ مَشَتْ وَتِلْكَ وَرُبَّعٌ يُزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
قَدِيرٌ ﴿١﴾

سورة فاطر ، الآية : ١ .

ومعرفتنا بآيات القدرة الربانية في شتى مجالاتها يزيدنا معرفة بالله ، فنعظمه ونوقره سبحانه بما ينبغى لجلال وجهه وعظيم سلطانه ، ونعبده حق عبادته ، فنفوز برضاه وجنته .

ولا شك أن في عالمنا المحسوس آيات كثيرة تدل على قدرة الله المعجزة ، كل منها كفيلا بأن يهدي البصيرة المتفتحة إلى عظمة الله . لذلك يوجهنا الله إليها في كتابه الكريم :

وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾

سورة الذاريات : ٢٠ ، ٢١ .

ولكن إيماننا بعظمة الله وقدرته المعجزة يزداد ولا شك حين نعلم أنه ليس العالم المحسوس وحده هو كل ما خلق الله من كائنات . وأن هناك عوالم أخرى غير مرئية لنا هي من خلق الله كذلك ، وأن فيها من العجائب بالنسبة لتقديرنا البشري ما يعجز الخيال عن تصويره فضلا عن استيعابه .

(١) بعد النصوص الصريحة الدالة على وجوب الإيمان بهم .

فإذا علمنا فوق ذلك أن هذه الكائنات ذوات أجنحة ، فإن حسنا ليؤخذ -خاصة بعد أن نعرف مهامها وأعمالها- لأن الكائنات ذوات الأجنحة المعلومة لنا في عالمنا المحسوس من طيور أو حشرات طائرة ، مختلفة تماماً عن هذه الكائنات التي تقوم بأعمال هائلة في السموات والأرض .

والطيران في الجو حلم قديم من أحلام الإنسان حاوله منذ أقدم العصور ولكنه عجز عنه إلا باستخدام وسائل صناعية كالطائرة والصاروخ . لمعرفة الإنسان بأن هذه الكائنات الهائلة تطير مباشرة بأجنحتها يهز وجدانه بلا ريب ، ويجعله يحس -من خلال عجزه- بالقدرة المعجزة التي خلق الله بها هذه الكائنات .

فإذا زاد علمه أكثر من ذلك فعرف أن الملائكة ليسوا على مرتبة واحدة من حيث عدد أجنحتهم ، فمنهم ذوو أجنحة مثنى وثلاث ورباع ، فإنه يزيد تعظيماً لله الخالق الذي يزيد في الخلق ما يشاء وهو على كل شيء قدير .

وإذا عرف بعد ذلك كله أن هذه الكائنات مخلوقة من النور كما روى مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خلقت الملائكة من نور ، وخلق الجان من مارج من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم » (أى من الطين) فإن عجبه لا يقف عند حد . فالنور كما يراه الإنسان في عالمه المحسوس أشعة تنطلق مستقيمة في الفضاء ، لا مريدة ولا عاقلة ، ولا تعمل شيئاً غير أن تضيء الجسم الذي تسقط عليه بغير إرادة منها ولا قصد ! أما أن تكون من هذا النور كائنات تتحرك وتتكم ، وتشكل بأشكال شتى (١) ، وتقوم بأعمال معينة تكلف بها ، فأمر وراء إدراك الحس ، وإن كان الإنسان يحاول أن يدركه فيما وراء الحس .

وحقيقة أن خلق الله آدم من قبضة من طين الأرض معجزة هائلة يقف الحس أمامها عاجزاً متحيراً ، لأن النقلة بعيدة بين قبضة الطين وبين هذا البشر ذى الحواس والإدراك والقصد والإرادة والقدرة على تعمير الأرض واستخدام طاقات الكون المسخرة له من عند الله .

(١) جاء في حديث جبريل : « عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، قال : « بينا نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم ، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر ، لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد . حتى جلس إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ، ووضع كفيه على فخذيه وقال : يا محمد : أخبرني عن الإسلام . » قال : ثم انطلق فلبث ملياً ثم قال لي « يا عمر : أتدري من السائل ؟ » قلت : الله ورسوله أعلم . قال : « فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم » رواه مسلم .

ولكن هذه النقلة على ضخامتها أيسر في حس الإنسان من خلق الكائنات من النور . فالطين على أى حال مادة مجسمة ، وجسم الإنسان مادة ماثلة للعيان . أما النور فإنه ليس مادة . . فكيف يكون مادة للخلق إلا أن تكون قدرة الخالق المبدع متجاوزة كل حد يستطيع العقل أن يصل إليه . فتبارك الله أحسن الخالقين .
وحين يأخذ الإنسان حظه من استشعار عظمة الله الخالق المبدع ، فإن قلبه يأنس لهذه المخلوقات ترف حوله وتملاً جنبات الكون .

وفرق كبير في حس الإنسان بين أن يكون هذا الكون من حوله خاوياً موحشاً وبين أن يكون عامراً بكائنات حية ، بينه وبينها اختلاف .
فإذا كانت الكائنات الحية في الأرض من نبات وحيوان - والحيوان على الأخص بما فيه من الإنسان من أوجه شبه وأوجه اختلاف - تؤنس الإنسان وتبهج قلبه ، وتنقى عنه الشعور بالوحشة في سكناه لهذه الأرض ، فيروح يتأملها ويتملاها ، ويفرح كلما لقي واحداً منها على مقربة منه .

إذا كان هذا يحدث بالنسبة لعالم الأرض المحدود المحسوس ، فإنه حرى أن يحدث بالنسبة للكون الكبير ، ما يقع منه في دائرة الحس وما يقع وراء الحس من آفاق .

وقد رأينا أن الحيوان بصفة خاصة يلفت حس الإنسان ، فيروح يعقد المقارنات بين نفسه وبينه ، فيجد بعض المشابه من ناحية الجسد وبعض تصرفاته ، ويجد اختلافات كبيرة من جانب العقل والروح .
فإذا كانت المخلوقات الطينية تؤنس وحشته في الأرض ، فإن تلك المخلوقات النورانية تؤنس وحشته في الكون الواسع الذي هو جزء منه ، فيصبح أروح نفساً وأكثر طلاقة مما لو حبس نفسه في دائرة المادة والحس .

• • •

ثم إن الملائكة مشغولة ليل نهار بالتسبيح للملك القدوس الواحد القهار :

يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٥٠﴾

سورة الأنبياء ، الآية : ٢٠ .

ومن هنا نعرف أن أهم ما يقومون به تسبيح الله وتعظيمه وتنزيهه حيث هيأهم لهذا .

ألا ما أروعها صورة ! .

إن الإنسان يحاول أن يُسَبِّحَ لله فترة من النهار أو جانباً من الليل فيفتر ولا يقوى على المضي في التسبيح ، لأن له جسداً يريد أن يأكل وأن يشرب وأن يرتاح وينام . ولأن له فكراً لا يكف عن الانشغال بمطالب الحياة الدنيا .

ومن رحمة الله بالإنسان أن لم يكلفه ما كلف الملائكة من التسبيح الدائب ليل نهاراً فإنه - سبحانه - وقد خلق للإنسان جسداً يشتهي وعقلاً ينشغل بالتفكير ، جعل عبادته المفروضة عليه من نوع آخر غير عبادة الملائكة ، فيها التسبيح لله ، نعم ، ولكن بقدر محدود في الصلاة وشعائر التعبد . ولكنه من رحمته بعباده من بنى الإنسان جعل حركة أجسامهم وعقولهم عبادة إذا توجهوا بها إلى الله ، والتزموا في شأنها بما أنزل الله . وهكذا أصبح سعى الإنسان وراء الرزق عبادة ، وعمارته للأرض عبادة ، وطعامه وشرابه عبادة ، وزواجه ونسله عبادة ، ونومه وقيامه عبادة ، إذا ابتغى في ذلك كله مرضاة الله ، وعمل فيها وفق أوامر الله . وكذلك يعم التناسق في خلق الله بين طاقة المخلوق وما كلف به من ألوان العبادة . . وكلهم عباداً لله عابدون ! .

نعم ! ذلك من رحمة الله بالإنسان .

ولكن الإنسان مع ذلك - من جانبه الروحي الذي يربطه بالملائكة - ما يفتأ يعقد المقارنة بينه وبين الملائكة في قدرتهم على التسبيح لله بالليل والنهار لا يفترون . ويعلم الإنسان أنه لم يكلف بذلك ولا يقدر عليه ، ولكن وجود هذا النموذج الرائع أمامه يستحثه على مزيد من العبادة ومزيد من التقرب إلى الله بالأعمال الصالحة وكلما حاول ذلك زادت شفافية روحه وصار أقرب إلى الملائكة الأطهار .

• • •

ويزيد أنس الإنسان بالملائكة حين يعلم أنهم قريبون منه وأن بعضهم يسير معه حيث سار وبعضهم يتنزلون عليه بالسكينة والطمأنينة كلما أقبل على الله وتوجه إليه في حرارة وإخلاص .

إِنَّا الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا نَتَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا

وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾

سورة فصلت ، الآية : ٣٠

ولقد رأى المسلمون الملائكة في بدر رأى العين . رأوهم يقاتلون معهم الكفار

وينزلون الهزيمة بهم :

﴿١٢٣﴾ إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَلِكَةِ أَنِي
مَعَكُمْ فَتَتَّبِعُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأَلَتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّغْبَ
فَأَضِرُّوهُمُ فَوْقَ الْأَغْنَافِ وَأَضِرُّوهُمْ مِنْهُ كُلِّ بَنَانٍ ﴿١٢٤﴾

سورة الأنفال ، الآية : ١٢٢ .

وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ
تَشْكُرُونَ ﴿١٢٥﴾ إِذْ يَقُولُ الْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنِ يُغْفِرَ لَكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ
آلَافٍ مِنَ الْمَلَلِكَةِ مُنْزَلِينَ ﴿١٢٦﴾ بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّنْ
فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِّدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَلِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٧﴾ وَمَا
جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلَظْمَةً لِّقُلُوبِكُمْ بِهِ ؕ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ
عِنْدِ اللَّهِ الْغَنِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٨﴾

سورة آل عمران ، الآيات : ١٢٣ - ١٢٦ .

وإذا كانت هذه خصوصية لأهل بدر في موقفهم التاريخي الذي مكن للإسلام في
الأرض بتأييد من الله ، وكتب صفحة من أروع صفحات التاريخ ، فإن الله يخبرنا أن
الملائكة تنزل على الذين قالوا : ربنا الله ثم استقاموا ، ولولم يروهم بأعينهم ، وإنما
علامة حضورهم هي السكينة والطمأنينة التي يحسها هؤلاء ، لأن الملائكة تنزل
عليهم : « ألا تخافوا ولا تحزنوا » كما تنزل عليهم بالبشرى التي تزيد القلب سكينة
وطمأنينة : « وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون » .

كما يحدثنا القرآن كذلك أن الملائكة تنزل بالسكينة على المؤمنين في بيعة الرضوان :

هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ
إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٢٩﴾

سورة الفتح ، الآية : ٤ .

فتنزل الملائكة بالتأييد والتثبيت والطمأنينة والبشرى لم يكن مقصوداً على أهل
بدر الكرام ، إنما هؤلاء خصهم الله في لحظة شفافيتهم وتجردهم لله وإخلاصهم له
وحرارة توجهم إليه بأن يروا الملائكة رأى العين . ولكن المؤمن عرضة في كل

لحظة تصل فيها حرارة توجهه إلى الله درجة معينة أن تصافح الملائكة روحه وتسكب في قلبه السكينة والطمأنينة ، وأن يحس هذا إحساساً ولو لم ير الملك بعينه . فأي سعادة أكبر من هذه السعادة ، وأي رفعة أجمل من هذه الرفعة ؟ .

أولاً يجب الإنسان أن تكون هذه المخلوقات الشفيفة النيرة قريبة منه ، تدفع عنه السوء ، وتسكب في قلبه الراحة والطمأنينة ، خاصة إذا كان في موقف الخوف أو الضيق الذي لا يخرج منه إلا بمجدد من الله ؟ .

وقد تدفعه هذه الرغبة أن يكون في المرتبة التي يستأهل فيها هذا العون وهذه الرحمة من الله ، تحملها إليه الملائكة الأطهار ، وذلك باخلاص القلب لله والتوجه إليه في حرارة وصدق ، يساندها العمل الصالح الذي يتقبله الله .

• • •

وكيف يكون شعور المؤمن حين يعلم أنه حين يقرأ الفاتحة في الصلاة ترد الملائكة تقول : آمين ؟ ! أولاً يحفز ذلك إلى الإحسان في أداء الصلاة حتى تكون جديرة بهذه المشاركة النورانية من جانب الملائكة ؟ .

وحين يعلم أن كل عبادة يتقرب بها الإنسان إلى الله ، وكل عمل طيب يعمل به ، وكل لفظة خيرة يتلفظ بها تحملها الملائكة من توها إلى الله في عليائه ، تقول له : - وهو المطلع على كل شيء - إن عبدك فلاناً يتقرب إليك . إن عبدك فلاناً يذكرك ويشني عليك . إن عبدك فلاناً يحمداك ويشكرك . إن عبدك فلاناً قد أحسن إلى عبد من عبادك . إن عبدك فلاناً قد دعاه الشيطان إلى الشر فلم يجبه . . حين يعلم ذلك كله ألا يجب أن تكثر الملائكة من ذكره عند الله بالخير ، فيكثر من صالح الأعمال ؟ .

• • •

وظائف الملائكة

من تمام العلم بهذه الكائنات أن نعرف جملة من الوظائف التي تقوم بها بتكليف من الله .

إن أعمال الملائكة مرتبطة كلها بالحق ، ولا شيء غير الحق . فليس فيها زيغ عن الحق لحظة واحدة من ليل أو نهار ، كالذي يحدث من عالم الجن أو عالم الإنسان . فالجن والإنس تحدث منها المعصية ويحدث منها الزيغ عن الحق الذي يصل والعياذ بالله إلى حد الكفر والإلحاد . أما الملائكة الأطهار فهم يعيشون للحق وحده ولا يقومون بعمل من الأعمال إلا ما يرتبط بالحق .

١ - فأول وظائفهم عبادة الله بالتسبيح له في الليل والنهار دون ملل ولا فتور ولا غفلة ، والطاعة الدائمة ، والمبادرة لامتنال أمر الله عز وجل ، والعبادة الخالصة هي حق الله على خلقه ، إذ التوحيد - وهو مقتضى العبادة الخالصة لله - هو الحق الذي تقوم به السموات والأرض .
يقول القرآن عنهم :

وَلَهُمْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ
وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْترُونَ ﴿٢٠﴾

(سورة الأنبياء : ١٩ - ٢٠)

فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْخَرُونَ ﴿٢١﴾

(سورة فصلت : ٢٨)

وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۚ سُبْحَنَهُ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ
وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا
يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ أَرَادَ تَضَىٰ وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٤﴾

(سورة الأنبياء : ٢٦ - ٢٨)

ويقول عنهم كذلك :

لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٢٥﴾

(سورة التحريم : ٦)

٢ - ومن وظائفهم حمل الوحي إلى الأنبياء والرسل ، وقد كلف الله بذلك جبريل عليه السلام ، ووصفه في القرآن بالروح الأمين . والوحي كلام الله المنزل إلى البشر عن طريق رسله ليتبعوه :

(١) أى من الملائكة . (٢) أى لا يقترحون على الله سبحانه وتعالى ، وذلك ، أ على زعم المشركين أن الملائكة تشفع لهم عند الله من ذات نفسها .

وَإِنَّهُ لَنَزَلَ إِلَهُ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٦﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٧﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٨﴾ بِلسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿١٩٩﴾
(سورة الشعراء : ١٩٢ - ١٩٥)

وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٢٠٠﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٢٠١﴾ عَلَيْهِ يُشَدِّدُ الْقَوَىٰ ﴿٢٠٢﴾
ذُومِرَةً ۖ فَاسْتَوَىٰ ﴿٢٠٣﴾ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٠٤﴾ ثُمَّ دَنَّىٰ فَقَدَّىٰ ﴿٢٠٥﴾
فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٢٠٦﴾ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ ۖ مَا أَوْحَىٰ ﴿٢٠٧﴾
(سورة النجم : ٣ - ١٠)

إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٢٠٨﴾ ذِي قُوَّةٍ ۖ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠٩﴾ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١٠﴾
(سورة التکویر : ١٩ - ٢١)

٣- ومن وظائفهم - مع التسبیح والعبادة - الاستغفار للمؤمنين عند الله ، وهو استغفار بالحق - فهم لا يستغفرون إلا لمؤمن - وبإذن الله لا من عند أنفسهم :

الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ ﴿٢١١﴾ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ ﴿٢١٢﴾
كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ ﴿٢١٣﴾
عَذَابَ الْحَبِيمِ ﴿٢١٤﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ ﴿٢١٥﴾
صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْغَنِيُّ الْحَكِيمُ ﴿٢١٦﴾
وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ يُوَسْوِسْ لَهُ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْنَاهُ وَذَلِكَ هُوَ ﴿٢١٧﴾
الْقُورْ الْعَظِيمُ ﴿٢١٨﴾

(سورة غافر : ٧ - ٩)

(١) أى قوة عظيمة .

(٢) أى عهد الله إشارة إلى الرسول صل الله عليه وسلم .

(٣) أى بين الملائكة .

٤ - ومن وظائفهم تسجيل أعمال البشر . وحفظها . .

إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ^(١٦) عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ
مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَيْنُهُ^(١٧)

(سورة ق : ١٧ - ١٨)

وَأَنْ عَلَيْكُمْ^(١٨) حَافِظِينَ^(١٩) كِرَامًا كَتِيبِينَ^(٢٠) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ^(٢١)

(سورة الانفطار ١٠ - ١٢)

فكل إنسان على وجه الأرض ، منذ الإنسان الأول إلى يوم تقوم الساعة ، قد وكل به اثنان من الملائكة ، أحدهما عن يمينه يسجل له ما يقوم به من حسنات ، والآخر عن شماله يسجل عليه ما يقع منه من سيئات . وتظل هذه الحسنات والسيئات محفوظة في سجلاتها حتى يأتي يوم البعث ، فيحاسب بمقتضاها الإنسان وهو بين يدي مولاه ، فإن كان مؤمناً فإن شاء الله عذبه بسيئاته وإن شاء غفر له ، وأما إن كان كافراً لمصيره الخلود في النار .

٥ - والموت حق . ومن وظائف الملائكة قبض الأرواح حين ينقضي أجلها الذي حدده الله لها :

فَلْيَتَوَفَّكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي نُكِّلَ إِلَيْكُمْ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ^(٢٢)

(سورة السجدة : ١١)

وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا^(٢٣)

(سورة آل عمران : ١٤٥)

وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ^(٢٤) وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً^(٢٥) حَتَّىٰ إِذَا

جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفْرِطُونَ^(٢٦)

(سورة الأنعام : ٦١)

(١) أى الملكان اللذان يسجلان الأعمال .

٦ - وانتهاء الحياة في الكون حق . والبعث والقيامة حق . ومن وظائف الملائكة النفخ في الصور - بأمر الله - مرتين . المرة الأولى يصعق بها من بق حياً في السموات والأرض إلا من شاء الله . والمرة الثانية يبعث فيها الموتى ليقضى بينهم بالحق :

وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِئَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾
(سورة الزمر - ٦٨ : ٧٠)

وَرَى الْمَلَائِكَةُ حَافِينَ مِنْ خَوْلا الْمُرْتَضِينَ يُخَدِّرُهُمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾
(سورة الزمر : ٧١)

٧ - ومن وظائفهم الترحيب في الجنة بالمؤمنين الذين فازوا برضوان الله ، وتعذيب الكافرين في النار . وكلاهما حق . فقد أخبر الله عباده على السنة رسله أنه خلق السموات والأرض بالحق ، وأن مقتضى هذا الحق أن الحياة الدنيا ليست خاتمة المطاف ، لأنه لا يم فيها الجزاء على الحسنات ولا السيئات ، إنما يم ذلك عند البعث في اليوم الآخر ، فيحق الحق بدخول المحسنين الجنة ودخول المسيئين النار ، فقيام الملائكة بالترحيب بالمؤمنين وتعذيب الكافرين هو تمام هذا الحق الذي خلقت به السموات والأرض :

جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَأَمَّا صَلَاحٌ مِنْ أَبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾
(سورة الرعد : ٢٣ - ٢٤)

وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٢٥﴾
(سورة الزمر : ٢٥)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ
وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ
وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ①

(سورة التحريم : ٦)

وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَازِنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ
عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ ② قَالُوا أَوَلَمْ نَكُنْ نَأْتِكُمْ رُسُلًا بِالْبَيِّنَاتِ ③
قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَأَدْعُوا مَادَّعُوا الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ④

(سورة غافر : ٤٩ - ٥٠)

إِنَّا نَجْزِيهِمْ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ⑤ لَا يُفَرِّغُهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ⑥ وَمَا
ظَلَنَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَهْلُ الظَّالِمِينَ ⑦ وَنَادَوْا يَمْلِكُ لِيَقْضِرَ
عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالًا إِنَّكُمْ تَكِيدُونَ ⑧ لَقَدْ جِئْتَكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنْ أَكْثَرَكُمُ
لِلْحَرِّ كَاذِبُونَ ⑨

(سورة الزخرف ٧٤ - ٧٨)

٨ - ومن وظائفهم القيام بأعمال أخرى يأمرهم الله بها ، ورد ذكرها في القرآن
دون بيان تفصيلي عنها ، كقوله تعالى :

وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ① فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ② فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ③

(سورة الصافات : ١ - ٣)

وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ④ فَالْحَامِلَاتِ وُجُوهًا ⑤ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ⑥ فَالْمُتَمَتِّتَاتِ أَمْرًا ⑦
(سورة الذاريات : ١ - ٤)

وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ⑧ فَالْعَصْفَاتِ عَصْفًا ⑨ وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا ⑩
فَالْفَرِيقَاتِ فَرْقًا ⑪ فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا ⑫ عُذْرًا أَوْ نَذْرًا ⑬

(سورة المرسلات : ١ - ٦)

(١) على قول أنها ملائكة .

(١) وَالنَّازِعَاتِ غَرْاقًا ۝ وَالنَّشِيطَاتِ نَشْطًا ۝ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ۝ فَالسَّائِقَاتِ سَبْقًا ۝ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ۝

(سورة النازعات : ١ - ٥)

أثر الإيمان بالملائكة في حياة الإنسان

عرضنا من قبل بعض آثار الإيمان بالملائكة في حياة الإنسان ، وقلنا : إن هذا الإيمان :

- ١ - يزيد من استشعار القلب البشري لعظمة القدة الربانية المعجزة التي تخلق من النور ملائكة ذوى أجنحة مثنى وثلاث ورباع .
- ٢ - يزيد من إيمان الإنسان بالوحي المنزل من عند الله لأن الوحي تحمله الملائكة إلى الأنبياء والرسل .
- ٣ - يزيد من رغبة الإنسان في التقرب إلى الله بالعبادة والعمل الصالح تشبهاً بالملائكة الذين لا يفترون عن عبادة الله .
- ٤ - يملأ قلب الإنسان أنساً بهذا الكون الرحيب من حوله إذ يعلم أنه معمور بتلك الأرواح النورانية الشفيفة وأنها تنزل على المؤمنين بالسكينة والطمأنينة .
- وَمَا اسْتَعْرَضْنَاهُ مِنْ وَظَائِفِ الْمَلَائِكَةِ نَسْتَطِيعُ أَنْ نُضِيفَ آثَاراً أُخْرَى :
- ٥ - الإقبال على عمل الحسنات والبعد عن عمل السيئات حين يستشعر الإنسان وجود الملكين اللذين يسجلان عليه أعماله .
- ٦ - الانتباه إلى أن هذه الحياة الدنيا فانية لا تدوم ، حين يتذكر ملك الموت المأمور بقبض الأرواح حين يتوفاها الله ، ومن ثم فلا تستحق هذه الحياة الدنيا أن ينشغل بها الإنسان عن الآخرة ، ويكفيه منها المتاع الطيب الحلال الذى أباحه الله .
- ٧ - عمل الحساب للآخرة حين يتذكر الإنسان ترحيب الملائكة بالمؤمنين في الجنة وتعذيبهم للكفار في النار ، فيحب أن يكون ممن أنعم الله عليهم بجنته ورضوانه ووقاهم عذاب السعير .

(١) هي الملائكة كذلك على أحد الأقوال .

الكتاب الثالث

الإيمان بالكتب

الكتب السماوية التي ورد ذكرها في القرآن هي بترتيبها التاريخي : صحف إبراهيم ، والتوراة ، والزبور ، والإنجيل ، والقرآن الكريم .
جاء في ذكر صحف إبراهيم :

قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَزَقَنَا ❶ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ❷ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ❸ وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ❹ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى

❺ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ❻

(سورة الأعلى : ١٤ - ١٩)

أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى ❶ وَلِإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ❷ أَلَمْ يَرَوْا زَاوِيَةً
وَزُرَّاحُورًا ❸ وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ❹ وَأَنْ سَعْيُهُ
سَوْفَ يُرَى ❺ ثُمَّ يُخْرَجُهُ الْخَزَاءُ الْأَوْفَى ❻ وَأَنْ تِلْكَ رِجْلُ الْمُنْتَهَى ❼

(سورة النجم : ٣٦ - ٤٢)

ودكرت التوراة في مواضع عديدة من القرآن كقوله تعالى :

إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يُخَوِّمُهَا الَّذِينَ اسْلَمُوا الَّذِينَ هَادُوا
وَالرَّاسِخُونَ وَالْأَخْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءً

(سورة المائدة : ٤٤)

ويشار إليها أحياناً باسم « الفرقان » كقوله تعالى :

وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ❶

(سورة البقرة : ٥٣)

وأحياناً باسم « الذكر » كما في هذه الآية التي تشير إلى التوراة والزبور معاً :

وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرْثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ❶

(سورة الأنبياء : ١٠٥)

وجاء في ذكر الزبور خاصة :

إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ ۚ وَأَوْحَيْنَا إِلَى
إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ
وَيُونُسَ وَمَرْيَمَ ۚ وَسُلَيْمَانَ دَاوُدَ زَبُورًا ﴿١٣٧﴾

(سورة النساء : ١٦٣)

وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ
وَعَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾

(سورة الإسراء : ٥٥)

وذكر الإنجيل في أكثر من موضع في القرآن :

وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَرِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ ۚ وَإِنِّي
إِنجِيلٍ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى
وَمَوْعِظَةً لِلتَّقِينَ ﴿٤٦﴾

(سورة المائدة : ٤٦)

لَمْ نَقَفِّ عَلَىٰ آثَرِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۚ وَإِنِّي
إِنجِيلٍ ﴿٢٧﴾

(سورة الحديد : ٢٧)

كما جاء ذكر التوراة والإنجيل معاً في هذه الآيات من سورة آل عمران :

إِنَّمَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿١﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ
بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنجِيلَ ﴿٢﴾ مِنْ قَبْلُ
هُدًى لِلنَّاسِ

(سورة آل عمران : ١ - ٤)

أما القرآن الكريم فقد ورد ذكره في آيات كثيرة إما باسم القرآن وإما باسم الفرقان وإما باسم الذكر .

(سورة ق : ١)

ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴿١﴾

إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٥٠﴾

(سورة يوسف : ٢)

تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿٥١﴾

(سورة الفرقان : ١)

أَتُحَدِّثُكَ بِالْبَيِّنَاتِ وَإِنَّا أَنْزَلْنَا الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾

(سورة الكهف : ١)

وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا

الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴿٥٣﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾

(سورة القلم : ٥١ - ٥٢)

ثم جاء الأمر الرباني بالإيمان بالكتب المنزلة كلها - كما جاء الأمر بالإيمان بالملائكة من قبل - وأن هذا جزء من الإيمان ، لا يعم إيمان المرء إلا به .
كما جاء الإخبار بأن الكتب السابقة قد حرفها أهلها ولم تعد على صورتها التي أنزلها الله بها .

وجاء الإخبار كذلك بأن القرآن قد نسخ الكتب السابقة كلها ، وأن الله تكفل بحفظه من كل عبث أو تحريف .

وجوب الإيمان بالكتب السماوية

يجيء ذكر الإيمان بالكتب السماوية في القرآن في صيغة الأمر تارة ، وصفةً للمؤمنين تارة أخرى ، كما يجيء عدم الإيمان بالكتب المنزلة أو الإيمان ببعضها دون البعض الآخر علامة على الكفر تارة ثالثة .
فمن أمثلة الأمر :

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ صَمٌّ وَبَصْمٌ ۝ إِلَهٌُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ إِلَهٌُ كُنُوزُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۝ إِلَهٌُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝
وَلَا تُدْرِكُهُ الْبَصَرُ ۝ وَلَا يَحِيطُ بِشَيْءٍ مِنْ دِينِهِ ۝ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا ۝ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ۝
وَتَحْنُ لَهُ الْمُسْلِمُونَ ﴿٥٥﴾

(سورة البقرة : ١٣٦)

كما جاء في صيغة مشابهة له في سورة آل عمران :

قُلْ أَمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ
وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ
مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾

(سورة آل عمران : ٨٤)

وقد يجيء الأمر في صيغة جملة في مثل قوله تعالى في سورة النساء :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ ۚ
وَالْكِتَابِ الَّذِي أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ

(سورة النساء : ١٣٦)

أما وصف المؤمنين بأنهم هم الذين يؤمنون بالكتب المنزلة كلها فيجىء في مثل
هذه الصيغة :

الَّذِينَ هَدَىٰ لِلتَّقْوَىٰ ۚ الَّذِينَ يُوَفُّونَ
بِالْعَهْدِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا
رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ۚ وَالَّذِينَ
يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ
مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿١﴾

(سورة البقرة : ١ - ٤)

أو في قوله تعالى :

أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِهِ
وَكُتُبِهِ ۚ وَرُسُلِهِ ۚ

(سورة البقرة : ٢٨٥)

أما وصف الذين لا يؤمنون بالكتب كلها أو الذين يؤمنون ببعضها ويكفرون
ببعض بأنهم كفار فيجىء في مثل قوله تعالى :

وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ
فَقَدْ ضَلَّ مَلًّا لَا يَبْعَثُ ۝

(سورة النساء : ١٣٦)

يَسْمَا أَشْرَوَابَهُ أَنْفُسُهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَنَافِ أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ
مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۝ قَبَاءُ وَيَغْضِبُ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ
عَذَابٌ مُهِينٌ ۝ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا تَأْتُونَا
بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَنَكْفُرُ بِهِ مَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُ
قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ أَنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ۝

(سورة البقرة : ٩٠ - ٩١)

ومفهوم هذه الايات وامثالها ، سواء كانت أمراً مباشراً أو وصفاً للمؤمنين أو
وصفاً للكافرين ، هو أن الإيمان بالكتب السماوية كلها أمر واجب لا يتم إيمان المرء
إلا به .

وذلك أمر بدهى بالنسبة للمؤمن . فما دام يؤمن بالله وصدق ما نزل من
عنده من الوحي ، وما دام الله يخبره في كتابه الكريم أنه قد أنزل كتباً سابقة على
الأنبياء والرسل ، فالواجب أن يؤمن بهذه الكتب المنزلة ويعتقد يقيناً أنها منزلة من
عند الله .

ولو شك في هذه الحقيقة أو كذب بها فهل يكون مؤمناً على الإطلاق ؟
وكيف يكون مؤمناً بالله حقاً وهو يكذب خبراً أتيا إليه من عند الله ؟
كذلك لو قال إنه يؤمن ببعض الكتب أنها منزلة من عند الله حقاً وشك أو يكذب
أن غيرها من الكتب منزل من عند الله ، فهل يكون مؤمناً بالله ولو زعم ذلك ؟
إن من بين دعائم الإيمان التصديق . فكيف يوجد الإيمان إذا كذب الإنسان حرفاً
واحداً مما أخبره الله به ؟ وما قيمة دعواه أنه مؤمن بالله ، أو مؤمن ببعض الكتب التي
أنزلها الله ؟! إنها دعوى مردودة على صاحبها لأن الدليل العملي يكذبها ..

ثم إن الكتب السماوية كلها تحتوى على حقيقة واحدة ، هي الأمر بعبادة الله وحده .

لقد اختلفت الكتب المنزلة في اللغات التي نزلت بها ، لأن الله يقول :

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ

(سورة إبراهيم : ٤)

وهذه الكتب نزلت على أقوام مختلفين فاختلفت من ثم لغاتها .
كذلك اختلفت هذه الكتب فيما تحويه من شرائع ، فالله يخبرنا أنه أنزل شرائع
مختلفة للأقوام المختلفين :

لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَا جَاوِزًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ
لَيَبْلُوَكُمْ فِي مَاءِ آتَانَكُمْ

(سورة المائدة : ٤٨)

ولكن القضية الأصلية في هذه الكتب كلها واحدة لم تتغير :

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ٥٥

(سورة الأنبياء : ٢٥)

وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ

(سورة النحل : ٣٦)

شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ
وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ
(سورة الشورى : ١٣)

كذلك نزلت الكتب كلها لتنذر الناس بيوم الحساب :

رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي
الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَافُوتِ ٥٦ يَوْمَ هُمْ
بَبْرُزُونٍ لَا يَنْخِي عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ
٥٧ الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ

(سورة غافر : ١٥ - ١٧)

الحساب ٥٧

(١) أى اقيموا الدين لله وحده ولا تعبدوا آلهة متفرقة .

وما دام الأمر كذلك فالإيمان بالكتب كلها هو كالإيمان بالكتاب الواحد سواء .
والقضية عند المؤمن واضحة لا تحتاج إلى جدال . إنما الجدل قد جاء في الحقيقة من
أهل الكتاب لأنهم الذين رفضوا أن يؤمنوا بأن القرآن منزل من عند الله . وحساب
هؤلاء على الله .

تحريف الكتب السابقة

أخبرنا الله في كتابه المنزل أن أهل الكتاب حرفوا كتبهم ، فلم تعد في صورتها التي
أنزلها الله بها .
فقد جاء عن اليهود :

مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ

(سورة النساء : ٤٦)

فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ
مَوَاضِعِهِ ۖ

(سورة المائدة : ١٣)

يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا تَحْزَنْكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا
بِفَرَاغٍ هَذِهِ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا وَاسْتَمْعُنَ لِلْكَذِبِ
سَمِعُونَ لِغَوَمٍ عَلَّغِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ ۖ

(سورة المائدة : ٤١)

وجاء عن النصارى :

وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُنَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ
وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ
وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾

(سورة آل عمران : ٧٨)

وإذا تدبرنا هذا الأمر وجدنا أن هناك ثلاثة أنواع من التحريف على الأقل قد وقعت في كتب أهل الكتاب ، وكلها قد أشار إليها القرآن :

١ - تحريف المعنى مع بقاء اللفظ على ما هو عليه .

٢ - التحريف بالتغيير والإضافة .

٣ - التحريف بالكتمان .

فن أمثلة النوع الأول من التحريف أن الله قد حرم الربا في جميع كتبه المنزلة التوراة والإنجيل والقرآن . والتوراة التي بين أيدي اليهود اليوم - رغم كل ما حدث فيها من تحريفات شنيعة - ما تزال تحمل نصاً بتحريم الربا ونصاً بوجوب الأمانة في التعامل مع الناس .

ومع ذلك فاليهود - كما هو معلوم - يتعاملون بالربا على النطاق الدولي ، ويسلبون عن طريقه أموال الناس بغير حق ، وإلى ذلك يشير القرآن :

فَظَلِمَ مِمَّنْ لَدَيْنَ مَا دُوا حَرَمْنَا عَلَيْهِمْ طَيْبَاتِ مَا جَاءَكَ لَهُمْ وَبَصَدِهِمْ عَنْ سَبِيلِ
اللَّهِ كَثِيرًا ۖ وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا
لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝

(سورة النساء : ١١٠ - ١٦١)

فكيف تحايّلوا على النص الموجود في كتابهم ، أو بعبارة أخرى كيف حرفوه ، ليبيحوا لأنفسهم التعامل بالربا مع الناس وسلب أموالهم ؟! لقد قالوا : إن الربا غير جائز في التعامل بين اليهودي ، وكذلك الأمانة واجبة في تعامل اليهود بعضهم مع بعض . . أما إن كان الذي تتعامل معه من غير اليهود فلا بأس عليك أن تتعامل معه بالربا ولا بأس عليك أن تأكل ماله . . وإلى ذلك يشير القرآن :

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ
الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝

(سورة آل عمران : ٧٥)

أى أنهم قالوا : لا حرج علينا في سلب أموال « الأميين » الذين ليسوا يهوداً ويزعمون أن الله أباح لهم ذلك وهم يعلمون أن هذا كذب على الله فإنه حرم عليهم

الربا إطلاقاً وحرم عليهم سلب أموال الناس جميعاً ، أميين وغير أميين (١) .
أما التحريف بالتغيير والإضافة فله أمثلة كثيرة .

فأما اليهود فقد أضافوا إلى التوراة مجموعة من القصص والأساطير ما أنزل الله بها من سلطان ، بعضها يصل إلى حد الفحش في حق أنبيائهم . وما من نبي من أنبيائهم إلا ألصقوا به سلوكاً لا يليق بالشخص العادي فضلاً عن النبي المعصوم . بل إنهم تجرءوا على مقام الألوهية وقالوا في حق الله سبحانه وتعالى كلاماً لا يخرج من فم مؤمن قط ولا يخطر له على بال . وقد ظلوا يرددون هذه الأقوال وغيرها حتى زمن الرسول صلى الله عليه وسلم وسجل عليهم القرآن اثنتين منها على الأقل :

لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ

قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلُهُ
الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ
أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ (سورة آل عمران : ١٨١ - ١٨٢)

وَقَالَتِ الْيَهُودُ يُدْعِي اللَّهُ مَقُولَهُ عُلَّتْ أَيْدِيهِمْ
وَلَعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِخُ كَيْفَ يَشَاءُ

(سورة المائدة : ٦٤)

أما التوراة ففيها أبشع من ذلك في حق الله عما يقشعر بدن المؤمن من نسبته إلى الله عز وجل (٢) .

أما الإنجيل فيحوى من التغيير والإضافة ما لا يقل سخفاً وشاعة ولكن في اتجاه آخر ، ذلك هو تأليه عيسى عليه السلام والزعم بأنه ابن الله .

(١) كان اليهود يطلقون على العرب لفظ « الأميين » أي الذين ليس لهم كتاب منزل . وما زالوا يطلقون هذا اللفظ على البشرية كلها من غير اليهود ، لأنهم يزعمون أنهم هم وحدهم أصحاب الكتاب الحقيقي ومن عداهم ليس له كتاب ! وأحياناً يسمونهم « الأميين » أي كل الأم من غير اليهود !

(٢) من أبسط الأمثلة على ذلك قولهم : إن الله قد خاف على سلطانه بمد أن أكل الإنسان من الشجرة المحرمة وهي في زعمهم شجرة المعرفة ، وخشى - سبحانه - أن يأكل الإنسان أيضاً من شجرة الحياة فيحيا إلى الأبد ! ومن أجل ذلك طرده من الجنة ، وأقام حراسة شديدة على شجرة الحياة لكي لا يصل الإنسان إليها ! وقولهم أيضاً إن الله غضب على بني إسرائيل من كثرة جرائمهم فأقسم أن يهلكهم ، فراجعهم سيدنا موسى حتى رضى عن بني إسرائيل « وندم الرب إلهه على الشر الذي كان ينوي عمله بشعب إسرائيل » !

وَأَنَّ مِنْهُمْ كَفِرِيًّا يُلَوِّنُ اللَّسَانَ لِيَسْهَبَ بِالْكِتَابِ لِغُبُورِهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ
وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ
الْكُذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ مَا كَانَ لِيُتَشَرَّعَ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ
وَالْحِكْمَةَ وَالنَّبُوءَةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ
وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيِّحِينَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾
وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ
إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾

(سورة آل عمران : ٧٨ - ٨٠)

وأسطورة ألوهية عيسى وبنوته لله وكون الله ثلاثة : الأب والابن وروح القدس
كلها إضافة أضيفت إلى الإنجيل المنزل من عند الله ، كتبوها بأيديهم وزعموا أنها من
عند الله .

وقد رد القرآن عليهم رداً مفصلاً في أكثر من سورة ، ويؤن حقيقة التوحيد ، وأن
عيسى عليه السلام لم يقل إلا كلمة التوحيد :

فَإِذَا قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّيَّ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ
قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحِجٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ
عَلِمْتُ أَنِّي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾
مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَأْمَرًا نَفْسِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُمْ عَلَيْهِمْ
شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ
عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾

(سورة المائدة : ١١٦ - ١١٧)

ولكن المهم أن أناجيلهم الأربعة المعتمدة (إنجيل مرقس وإنجيل لوقا وإنجيل متى وإنجيل يوحنا (١)) متضاربة بعضها مع بعض في هذا الشأن ، مما ينفي أن تكون كلها من مصدر واحد ، فضلاً عن أن يكون مصدرها هو الله !

وفضلاً عن ذلك كله فإن هناك إنجيلاً خامساً هو « إنجيل برنابا » منعت الكنيسة تداوله ، وأحرقت ما وقع في يدها من نسخه ، وهددت من يوجد عنده بإصدار قرار حرمان ضده (أى الحرمان - في زعمهم - من رضوان الله ومغفرته) لأنه يقرر أن عيسى رسول بشر ، وليس رباً ولا إلهاً ، وأنه بشرٌ ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم من بعده ! .

وأما التحريف بالكتان فهو على نوعين : كتان أحكام الشريعة ، وكتان الإشارة إلى بعثة محمد صلى الله عليه وسلم .
والقرآن يسجل عليهم أنهم أمروا بعدم الكتان فعصوا الله .

وَإِذَا أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكُونُ لَهُ
قَبْذُوهٌ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ ۖ ثُمَّ قَالَ فَلْيَلَا فِلْسٌ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٤٧﴾

(سورة آل عمران ، الآية ١٨٧)

الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ
وَإِنَّ فَرِيفًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٨﴾

(سورة البقرة : ١٤٦)

ويسجل عليهم أن الله أخذ عليهم ميثاقاً بأن يؤمنوا بكل رسول يأتي من عند الله مصداقاً لما معهم ، كما يسجل عليهم أن خبر بعثة محمد صلى الله عليه وسلم موجود عندهم في التوراة والإنجيل .

(١) نسبة إلى الرجال الذين كتبوها . وقد كتبوها في أزمنة متفاوتة وبعد مدة من غياب المسيح عنهم ، وكلهم كتبها من ذاكرته لا من النص المنزل .

وَإِذَا أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ
وَحِكْمَةٍ تَرْجَاءُكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِءَ وَلَتَنْصُرُنَّهُ
قَالَ أَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ أَصْرِي قَالُوا فَسِرْنَا قَالَ
فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ
هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٨٢﴾

(سورة آل عمران ، الآيتان ٨١ ، ٨٢)

وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَبْنِي لِي سَرِيرًا
إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ
يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدٌ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ
مُبِينٌ ﴿٨١﴾

(سورة الصف ، الآية : ٦)

الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ
وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ
الْطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ
الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ آمَنُوا بِهِءَ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا
النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾

(سورة الاعراف ، الآية ١٥٧)

وعلى الرغم من هذه الوصايا كلها لأهل الكتاب فقد عصوا أمر ربهم وكنتموا
الحق الذي أمروا بإعلانه على الناس .

عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى
بیهودی ویهودیة قد زنيا ، فانطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى جاء یهود
فقال : « ما تجدون فی التوراة علی من زنی » ؟ قالوا : نُسُود وجوهها ونحملها
ونخالف بین وجوهها ويطاف بهما ، قال : « فأتوا بالتوراة إن كنتم صادقین »

فجاءوا بها فقرءوها حتى إذا مرّوا بآية الرجم وضع الفتى الذى يقرأ يده على آية الرجم وقرأ ما بين يديها وما وراءها . فقال له عبد الله بن سلام وهو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم : مره فليرفع يده . فرفعها فإذا تحتها آية الرجم ، فأمر بهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فرجما ، رواه البخارى ومسلم واللفظ لمسلم .

وإذا كانوا بهذا التبجح فى إنكار أحكام الشريعة أمام الرسول صلى الله عليه وسلم وهم يعلمون أنه رسول مؤيد بالوحي ، وأن الوحي يخبره بحيلهم وكيدهم ، فكيف يصنعون مع عامة الناس الذين لا ينزل الوحي عليهم ليكشف لهم ما خبثوه ١٩ .

أما إنكارهم لبعثة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقد اجتهدوا فى محو كل ذكر صريح له عليه الصلاة والسلام فى كتبهم وأخفوه عن الناس . ومع كل اجتهادهم هذا فقد بقيت إشارات فى التوراة والإنجيل لا يمكن تفسيرها إلا بأنها إشارة لحيىء الرسول صلى الله عليه وسلم .

جاء فى العهد القديم فى سفر أشعياء فى الإصحاح الحادى والعشرين :
« وحي من جهة بلاد العرب . فى الوعر فى بلاد العرب تبيتين يا قوافل الددانين . هاتوا ماءً لملاقاة العطشان . يا سكان أرض تيماء وافوا الهارب بنخبزه ، فإنهم من أمام السيوف قد هربوا . من أمام السيف المسلول ومن أمام القوس المشدودة . ومن أمام شدة الحرب . وإنه هكذا قال لى السيد : فى مدة سنة كسنة الأجير يفنى كل مجد وبقية عدد قسى أبطال بنى قيدار تقلّ ، لأن الرب إله إسرائيل قد تكلم ، (١) .

وجاء فى الإنجيل على لسان عيسى عليه السلام : « يأتى من بعدى الفارقليط » . وهذه كلمة يونانية معناها « الحمد » . أى أنها مشتقة من « أحمد » وقد أبوا أن يترجموها فى النسخة العربية وأبقوها هكذا لكى تظل غير مفهومة للقارىء ولكيلا يعلم من هذا الذى سيأتى بعد المسيح !

(١) الددانىون اسم قديم لبعض القبائل العربية ، وقيدار اسم قديم لقريش . وسكان أرض تيماء إشارة إلى أهل المدينة . والهاربون هم المهاجرون من مكة إلى المدينة . والنص كله يشير إلى نزول الوحي فى جزيرة العرب واضطهاد المؤمنين وهجرتهم إلى المدينة ووقوع معركة بدر بعد سنة من الهجرة وضياع مجد الكفار من قريش ومقتل عدد من أبطالهم فى المعركة .

وقد مر الزمن . . ولم يأت بعد المسيح إلا محمد صلى الله عليه وسلم ! .
وفي عام ١٣٦٥ هـ (١٩٤٥ م) نشرت صحيفة الأهرام المصرية هذا النبأ على
إحدى صفحاتها :

« عثر في دير سانت كاترين بسيناء على نسخة قديمة من التوراة جاء فيها ذكر
محمد عليه الصلاة والسلام » .
ثم اختفت هذه النسخة ولم تعد مرة أخرى إلى الظهور ! .
وصدق الله العظيم إذ يقول :

الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ
وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٥﴾

سورة البقرة ، الآية ١٤٦ .

حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ

سورة البقرة ، الآية ١٠٩ .

لقد كرم الله إبراهيم عليه السلام حين ابتلاه الابتلاء العظيم فنجح في الابتلاء إذ
أمره الله أن يذبح ابنه إسماعيل فاستسلم لأمر الله واستعد بالفعل للتنفيذ ، ففداه الله
بذبح عظيم ، وكافأ إبراهيم بأن جعله للناس إماماً .

وَإِذْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُؤْيَاهُ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ
فَاتَّمْتَنَ قَالِ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا

سورة البقرة ، الآية ١٢٤ .

وفي لحظة التكريم تطلع إبراهيم عليه السلام أن يظل هذا العهد لذريته من بعده
فسأل ربه : « ومن ذريتي ؟ » فأجابه الله سبحانه : « قال : لا ينال عهدي الظالمين » .
ومعنى ذلك أن العهد يظل في ذرية إبراهيم إلا إذا ظلموا فيؤخذ منهم العهد .
ولقد بقى العهد بالفعل في بني إسرائيل ، وهم من ذرية إبراهيم عليه السلام عن
طريق ابنه إسحق .

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ ۖ وَجَعَلْنَاهُ
 هُدًى لِبَنِي إِسْرَءِيلَ ۖ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ آيَةً يُهْدُونَ بِأَمْرِنَا لِمَا صَبَرُوا
 وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٤٦﴾

سورة السجدة ، الايتان ٢٣ ، ٢٤ .

يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكَرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾
 سورة البقرة ، الآية ٤٧ .

ولكنهم ظلموا فنزع الله العهد منهم وأعطاه لفريق آخر من ذرية إبراهيم عليه
 السلام هم أبناء إسماعيل جد النبي صلى الله عليه وسلم . وعندئذ ملأ الحقد قلوبهم
 وكفروا بالرسول صلى الله عليه وسلم بعد ما كانوا يترقبون مبعثه ويستفتحون به على
 كفار قريش ، يقولون لهم : سيظهر في جزيرة العرب نبي وستتبعه ونزداد به عزاً
 ونفهركم به ، ظناً منهم أنه سيكون من أبناء إسحق ، فلما جاء من أبناء إسماعيل
 كفروا به ! .

وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْهِقُونَ عَلَى
 الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ۖ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٤٨﴾
 يَسْمَأُشْتَرُوا بِهِ ۖ أَنْفُسُهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ
 مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ فَبَاءُ وَبِعِصْيَانٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ
 عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٤٩﴾

سورة البقرة ، الايتان ٨٩ ، ٩٠ .

• • •

القرآن نسخ الكتب السابقة كلها

شاءت إرادة الله جل وعلا أن ينسخ الكتب السابقة كلها وينزل كتابه الأخير
 لتبقى في الأرض إلى قيام الساعة .

كان كل رسول من السابقين يرسل إلى قومه خاصة ، بينما بعث الرسول صلى الله عليه وسلم إلى البشرية كافة :

قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي
رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ
إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَأَمَّا مَنْ أَبَى اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا الَّذِي يُوَفِّي
بِاللَّهِ وَكَلِيمِهِ ۖ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾

سورة الأعراف ، الآية ١٥٨ .

وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا

سورة سبأ ، الآية ٢٨ .

وكذلك كانت الكتب السابقة تنزل لأقوام معينين بينما أنزل القرآن للناس كافة :

وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٥٢﴾ سورة القلم ، الآية : ٥٢ .

لذلك اقتضت مشيئة الله أن ينسخ هذا الكتاب الشامل الكامل ما سبقه من

الكتب جميعاً ويهيمن عليها :

وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّئًا عَلَيْهِ قُلُوبَهُمْ
بَيْنَهُمْ يَمَّا أُنزِلَ اللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ هُمَ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا
مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن
لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآءَاتِكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا
فِي يَوْمٍ كُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَنَا حَكَمُ بَيْنَهُمْ يَمَّا أُنزِلَ اللَّهُ
وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ هُمَ وَاحِدٌ هُمْ أَرَأَنَ يَقْنُتُواكَ عَنْ بَعْضِ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ
فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاَعْلَمُ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِن كَثِيرًا
مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٥٦﴾ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ
حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٧﴾

سورة المائدة ، الآيات ٤٨ - ٥٠ .

ولم يعد يقبل من أحد أن يستمسك بما سبق من الكتب ويرفض القرآن :

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى
تُفِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ

سورة المائدة ، الآية ٦٨ .

وإقامة التوراة والإنجيل بالنسبة لأهل الكتاب المخاطبين بهذه الآية معناها : الإقرار
بوحداية الله ، ذلك أن التوراة والإنجيل المنزلين من عند الله يقران هذه الوحدانية
تقريباً جازماً ، ولكن أهل الكتاب حرفوهما . فالمطلوب منهم هو إقامتها مرة أخرى ،
أى الرجوع إلى أصل التوحيد . ثم إن التوراة والإنجيل قد ذكرا محمداً صلى الله عليه
وسلم وأمرأ باتباعه عند ظهوره ، فإقامتها معناها الإيمان بالرسول صلى الله عليه وسلم
وما نزل عليه من وحى . . أى الإسلام .

إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ

سورة آل عمران ، الآية ١٩ .

وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ
مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾

سورة آل عمران ، الآية ٨٥ .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال :
«الذى نفس محمد بيده ، لا يسمع بى أحد من هذه الأمة يهودى ولا نصرانى ثم
يموت ولم يؤمن بالذى أرسلت به إلا كان من أصحاب النار» متفق عليه .

• • •

على ذلك يمكن تلخيص موقف المؤمن من الكتب السابقة على هذا النحو :

١ - يؤمن بأن الله أنزل كتباً ورد ذكرها فى القرآن هى بترتيبها التاريخي كما يأتى :
صحف إبراهيم - التوراة - الزبور - الإنجيل - القرآن .

٢ - وأن هذه الكتب جميعاً تحتوى على حقيقة أساسية واحدة هى وحدانية الله عز وجل ووجوب إخلاص العبادة له بغير شريك ، وطاعته فيما يأمر به وينهى عنه .

٣ - أن الكتب السابقة على القرآن لم يعد لها وجود فى صورتها المنزلة لأنها إما ضاعت ولم يعد لها أثر معروف كصحف إبراهيم ، وإما حُرِفت على أيدي أصحابها كالطورا والإنجيل .

٤ - أن التحريف الغالب كان إما بالتغيير والإضافة وإما بالكتمان . ومن أبرز الإضافات أساطير الطورا وقصة تآليه عيسى وقصة التثليث . ومن أبرز ما كتموه الإخبار عن بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم .

٥ - أن مشيئة الله قد اقتضت نسخ الكتب السابقة كلها ما ضاع منها وما حُرِف . وأنزل القرآن مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه ، وناسخاً لكل ما سبق تنزيله من عند الله .

• • •

تولى الله حفظ القرآن :

أنزل الله القرآن مصدقاً لما بين يديه كما ذكرنا آنفاً وناسخاً له . ثم تكفل الله سبحانه وتعالى بحفظ كتابه الأخير مما تعرضت له الكتب السابقة كلها من ضياع أو تحريف :

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٥﴾

سورة الحجر ، الآية : ٩ .

ولقد ظل القرآن - كما أراده الله - محفوظاً خلال أربعة عشر قرناً من الزمان ، وسيظل باقياً ما شاء الله له أن يبق ، لم يصبه تغيير ولا تحريف . لم ينقص منه ولم يزد عليه حرف واحد منذ أنزله الله على رسوله صلى الله عليه وسلم .
لقد من الله على هذه الأمة بأن تكون خير أمة فى التاريخ .

كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ

سورة آل عمران ، الآية ١١٠ .

وَمَنْ عَلَيْهَا يبعثه الرسول صلى الله عليه وسلم من بينها :

لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ

إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَزَكَّيَهُمْ

وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿١٦٤﴾

سورة آل عمران ، الآية ١٦٤ .

وَمَنْ عَلَيْهَا كذلك بحفظ الكتاب المنزل إليها ، وعدم تعرضه للضياع والتحريف .
إن التوراة تولاهما قوم غضب الله عليهم لأنهم كفروا بالله وقتلوا أنبياءه وعاثوا في
الأرض فساداً .

وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءَ وَبَغَضِيبٍ مِنَ اللَّهِ

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ

بَغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾

سورة البقرة ، الآية ٦١ .

ومن هذه الصفات كلها التي اتصفوا بها عاثوا فساداً في كتابهم المنزل عليهم
فحوا منه ما لم يوافق أهواءهم ، وأضافوا إليه أساطير ما أنزل الله بها من سلطان .

فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ

الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا

قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ ثَمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ ثَمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾

سورة البقرة ، الآية : ٧٩ .

وأما الإنجيل فإن أصحاب عيسى وحواريه كانوا يعيشون في حالة اضطراب
وتشتت بسبب الاضطهاد الواقع عليهم من الدولة الرومانية ، فلم يدونوا الإنجيل
كما سمعوه من عيسى عليه السلام ، إنما تناقلوه ، أو تناقلوا ما وعت ذاكرتهم منه

(١) أى يكتلون كلاماً من عند أنفسهم .

سرّه وعلى خوف من عيون الدولة الرومانية . فلما بدئ بتدوينه بعد ثلاثين عاماً على الأقل من رفع عيسى عليه السلام (١) كان الأصل قد فقد ، وكانت الإضافات الدخيلة هي التي يتناقلها المسيحيون . ثم إن الأناجيل الموجودة الآن ليست هي نص الكتاب المنزل باعتراف أصحابها . إنما هي ذكريات شخصية كتبها كل مؤلف منهم على حدة وضمنها بعض الأقوال المنسوبة إلى المسيح .

أما القرآن فقد هيا الله له ظروفاً مختلفة تماماً ، تم بها الحفظ الذي قدره الله له منذ الأزل وهو في اللوح المحفوظ :

١ - هيا له أمة قوية الحافظة بصورة غير عادية . فقد كان العرب في الجاهلية يروون ألفواً من أبيات الشعر بغير تدوين ، إنما يحفظونها في ذاكرتهم ويتداولون روايتها .

٢ - هيا له سهولة في الحفظ :

وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدْرِكٍ ﴿١٧﴾

سورة القمر ، الآية : ١٧ .

٣ - هيا له أمة مستقرة آمنة ممكنة في الأرض ، لديها الفرصة الكاملة للحفظ والتدوين ، فكان الحفاظ يحفظون على يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يتقنوا الحفظ ثم يدونون ما يحفظون ويراجع عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه .

٤ - وأخيراً هيا له مراجعة من الملائكة الأعلى . فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحفظ ما يوحى إليه ثم يراجع على جبريل عليه السلام مرة كل سنة . وفي السنة الأخيرة راجع جبريل القرآن كله على رسول الله صلى الله عليه وسلم مرتين .

٥ - ثم إنه بعد تدوينه لم يعد هناك مجال لعبث عابث . بل إن الحفاظ ظلوا خلال القرون يراجعون كل نسخة تكتب من المصحف مراجعة دقيقة . فلما أن صار المصحف يطبع طباعة صارت لجان من كبار الحفاظ تراجع كل حرف منه قبل أن تأذن بطبعه .

وبهذه الوسائل كلها تحقق للقرآن ذلك الحفظ الذي قدره له الله منذ الأزل :

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ

صدق الله العظيم .

(١) فى رواية أنه بدئ بتدوينه بعد سبعين سنة .

مكانة القرآن في نفس المؤمن

للقرآن في نفس المؤمن مكانة ليست لأي كتاب آخر على الإطلاق .

فالقرآن هو كلام الله المنزل على رسوله صلى الله عليه وسلم ، المتعبد بتلاوته . وكفى بذلك تعظيماً في نفوس المؤمنين .

فالمؤمن يعظم ربه ابتداء ، فيعظم بالتالي كل شيء يأتيه من عند ربه ، فكيف بكلام ربه المنزل ، الموجه إليه ليهديه سواء السبيل ، وينير قلبه وطريقه ، ويهديه خير الدنيا وخير الآخرة ؟ .

إن الكتاب الذي يصلني من مؤلف قدير في مادته يكون عزيزاً عندي بمقدار ما أعرف عن ذلك المؤلف من مكانة في العلم . فكيف بكتاب رب العالمين القادر المقتدر العليم الحكيم ؟ .

وإن الكتاب الذي يعطيني جزءاً صغيراً من المعلومات ، وفي باب واحد من أبواب المعرفة يكون عزيزاً عندي بمقدار فائدتي منه . فكيف بالكتاب الذي يحوي الخير كله ويدل عليه ؟ .

وإن الكتاب الذي أعلم أن قراءتي له ترفع منزلتي بين أصحابي يكون أثيراً عندي بمقدار هذه الرفع . فكيف بالكتاب الذي يرفع منزلتي في الملأ الأعلى ، ويرفع منزلتي عند رب العالمين ؟ .

وإن الكتاب الذي يقدمه إليّ أستاذي وأعلم أن قراءتي له ستزيد درجاتي عنده أكون حريصاً على قراءته بقدر ما يزيدني من درجات وعلامات ، فكيف بالكتاب الذي تكون تلاوته تعبداً يرفع درجاتي عند الله ؟ .

ولله المثل الأعلى في السموات والأرض .

إنه لا يوجد كتاب في تاريخ البشرية كله نال من المكانة في نفوس أصحابه كما نال القرآن في نفوس المؤمنين .

ولا يوجد كتاب قُرئ وحفظ في تاريخ البشرية بقدر ما قرئ هذا الكتاب ، ولا عجب أن سماه رب العالمين « القرآن » فهو الكتاب المقروء ، الذي لا تفتقر قراءته في ليل أو نهار في صلاة أو ذكر أو حلقة درس أو ترتيل .

وإن علينا - إلى جانب القراءة - أن نتدبر معاني القرآن ، فقد أمرنا بذلك في

الكتاب العزيز :

كِتَابًا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكًا لِيَتَذَكَّرُوا آيَاتِهِ، وَلِيَذْكُرُوا الْأَلْبَابَ ﴿٢٩﴾

سورة ص ، الآية : ٢٩ .

والله يندد بالذين لا يتدبرون القرآن فيعمون عن آياته :

أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾

سورة محمد ، الآية : ٢٤ .

وحين نتدبر القرآن فستتضح لنا معان عدة ينبغي أن نكون على وعى منها :

١ - القرآن هو منهج التربية الإسلامية :

فالقرآن هو كتاب التربية - سى رى هذه الأمة التى وصفها خالقها بقوله سبحانه : « كنتم خير أمة أخرجت للناس » . ومن ثم فإنه يحوى جميع عناصر التربية الصالحة بين دفتيه . ومن ناحية أخرى فإن كل كلمة فيه هى توجيه تربوى لإنشاء « الإنسان الصالح » فى هذه الأرض . سواء كان أمراً بعبادة ، أو توجيهاً أخلاقياً ، أو نهياً عن أمر لا يحبه الله ولا يرضاه لعباده ، أو تشريعاً منظماً لحياة البشر ، أو قصة من قصص المؤمنين أو قصص المكذبين ، أو حديثاً عن اليوم الآخر ، ووصفاً لمشاهد الحساب والثواب والعقاب ، أو توجيهاً عقلياً لتدبر آيات الله فى الكون أو سننه فى الحياة .

كلها جاءت فى القرآن للتربية والتوجيه . وكان من حصيلة تدبرها على الوجه الأكمل وتنفيذها بالجدية الواجبة أن خرج هذا الجيل الفذ من المؤمنين ، صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذين استحقوا وصف الله لهم بالكامل ، وكانوا بالفعل خير جيل فى خير أمة أخرجت للناس .

٢ - القرآن كتاب الشريعة :

والقرآن هو كتاب الشريعة المنظمة لحياة البشر على الأرض .

وهو منهج حياة كامل .

فهو لم يدع جانباً من جوانب البشرية إلا تناوله بما يصلحه ويصلح له ، علاقة الفرد بربه . علاقة الفرد بالمجتمع . علاقة الحاكم بالمحكوم . علاقات الأسرة . علاقات الجنسين . علاقات المسلمين بالفئات غير المسلمة داخل المجتمع الإسلامى . علاقة الدولة الإسلامية بغيرها من دول الأرض .

كل شيء في حياة الإنسان تناوله هذا الكتاب المعجز بالتفصيل أو الإجمال (١) .
ومن ثم فلا شيء في حياة المسلم السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية أو
الأخلاقية أو الفكرية أو الروحية يرجع فيه إلى مصدر آخر غير هذا الكتاب (وشرحه
وتفصيله في سنة الرسول صلى الله عليه وسلم) ولا شيء في حياته يجوز أن يخرج عن
تعاليم هذا الكتاب ، مهما استجد في حياته من أمور ! .

لقد أنزل الله هذه الشريعة لتحكم حياة الناس إلى قيام الساعة . فقول القائلين
من مرضى القلوب : إن هذه الشريعة قد نزلت قبل أربعة عشر قرناً ، فهي لا تصلح
للتطبيق اليوم ، معناه اتهام الله عز وجل - والعياذ بالله من الكفر - أنه لم يكن يعلم
وقت تنزيل هذه الشريعة أنه ستجد في حياة الناس أمور غير التي كانت وقت نزول
القرآن ! أو اتهام له - تعالى عن ذلك علواً كبيراً - أنه نزل شريعة ناقصة وفرض على
الناس ألا يحكموا بغيرها وهددهم على ذلك بالخلود في النار ! .

إنما عرف المسلمون خلال التاريخ أن نظام حياتهم كله موجود في هذه الشريعة ،
وأن عليهم - حين يجد في حياتهم أمر - أن يستنبطوا له حكماً من الشريعة الشابتة
الأركان .

وعرفوا - فوق ذلك - أن هناك أموراً تركها رب العزة بغير نص ، لا نسياناً منه
جلت قدرته ولكن رحمة منه بعباده ، كما أخبر بذلك الرسول صلى الله عليه وسلم فهذه
يجتهدون فيها بما يحقق مصالح الناس دون أن يخالفوا مقاصد الشرع .
وفي جميع الحالات تكون شريعة الله هي الحاكمة في حياة الناس :

وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٤٤﴾

سورة المائدة ، الآية : ٤٤ .

﴿٤٥﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى
يُحْكَمُوا فِيهَا شَجَرَتَيْنِ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ
وَيُسَلِّمُوا سَلِيمًا ﴿٤٥﴾

سورة النساء ، الآية : ٦٥ .

(١) ما أجله القرآن فصلته السنة النبوية المطهرة . وهناك أمور متغيرة تجد في حياة البشرية يجتهد فيها الفقهاء
ولكنهم لا يجتهدون على أصول الشريعة المبينة في الكتاب والسنة .

٢ - القرآن مرشد السالكين في رحلة الحياة

والقرآن هو الذى يعرفنا حقيقة الإنسان ، ودوره فى الأرض ، وغاية خلقه ، وحدود طاقاته ، ومنشأه ومصيره .

بعبارة أخرى هو دليل الرحلة البشرية من مبدئها إلى منتهاها .

إن السائر فى رحلة يحتاج إلى دليل يبين له من أين تبدأ وأين تنتهى وأى شيء يجد فى الطريق ، وأين يمضى ، وأين يتوقف ليتزود بالزاد . فلإن لم يكن معه هذا الدليل فإنه يخطئ بخط عشواء ، ونهايته إلى البوار .

والرحلة البشرية الكبرى فى حاجة إلى دليل ، يبين للسائر فيها معالم الطريق .
وحين تضل البشرية عن دليلها - فى فترات جاهليتها - فإنها تتخبط وتصيبها الحيرة والقلق والضيايق ، كما يعبر عنها الشاعر الجاهلى المعاصر (١) حين يقول :

جئت لا أعلم من أين ، ولكنى أتيت !
ولقد أبصرت قدامى طريقاً فُشيت !

وليس أبلغ من هذا فى التعبير عن الضلال ! وهذه الأزمة تكررت بصورة أو بأخرى فى كل جاهلية من جاهليات التاريخ ، ولكنها أحداً ما تكون فى الجاهلية المعاصرة ، التى لا مثيل لها فى التاريخ ! .

إن الإنسان ليتساءل ، بوعى منه أو بغير وعى : من أنا ؟ من أين جئت ؟ إلى أين أذهب بعد الموت ؟ لأى شيء أعيش ؟ على أى نهج أعيش ؟

وإذا لم يجد إجابة واضحة شافية لهذه الأسئلة التى تخطر على الفطرة فإنه يشق ويضل ، ويتحير ويحس بالضيايق .

والله خالق هذه النفس البشرية يعلم أن هذه الأسئلة تخطر على الفطرة وتحتاج إلى جواب ، كما يعلم سبحانه أن طريقة حياة الإنسان فى الدنيا ، ومصيره فى الآخرة مرهونان باهتمامه إلى الأجوبة الصحيحة على هذه الأسئلة أو عدم اهتمامه إليها .
لذلك فقد نزل له فى كتابه الحكيم إجابة كاملة واضحة لتلك الأسئلة التى يتوقف على إجابتها كل شيء فى حياة الإنسان .

عرفه مِم خلق أول مرة : من قبضة من طين الأرض ونفخة من روح الله :

(١) هو «إيليا أبو ماضى» فى ديوان له يسمى «الجداول» .

إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾
فَلَا تَسْوْنِيهِ وَتَفَخَّنَ فِيهِ مِنْ رُّوحِي فَقَعُوْا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾

(سورة ص : ٧١ - ٧٢)

فعرف من ثم أنه جسد وروح . وأن حياته ينبغي أن تشمل جانب الجسد وجانب الروح ، متصلين غير منفصلين ، فلا يستغرقه جانب الجسد وحده ولا جانب الروح . وعرفه مهمته في الأرض :

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً

(سورة البقرة : ٣٠)

هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَ عَلَيْهَا

(سورة هود : ٦١)

وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِعِبَادُونَ ﴿٥٦﴾

(سورة الذاريات : ٥٦)

قُلْ إِن صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ

(سورة الأنعام : ١٦٢ - ١٦٣)

فعرف أنه مستخلف في هذه الأرض ليقوم بعمارها . وأن غاية وجوده هي عبادة الله بمعناها الواسع الذي يشمل شعائر التعبد كما يشمل نشاط الحياة كلها ، أي التوجه بنشاط الإنسان كله إلى الله ، وسيره فيه بمقتضى أوامر الله . وعرفه بالمنهج الذي ينبغي أن يعيش بمقتضاه :

قُلْنَا اهْبِطُوا

مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ تَّبَعَ هُدَايَ فَلَا

خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٨﴾

(سورة البقرة : ٣٨)

قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي

رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَدْعُو مِنْ
بِاللَّهِ وَكَلِمَتِهِ وَأَتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾

(سورة الأعراف : ١٥٨)

وأعطاه تفاصيل هذا المنهج في كتاب الله وسنة رسوله .
وعرفه كذلك بمصيره بعد الموت : إن الحياة لا تنتهى بانتهاء هذه الجولة في الحياة
الدنيا ، وإلا فهي عبث لا يصدر عن إله حكيم :

أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا

خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنْتُمْ لَا تَرْجِعُونَ ﴿١١٥﴾ فَقُلْ أَلَا إِلَهُ إِلَّا اللَّهُ
الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾

(سورة المؤمنون : ١١٥ - ١١٦)

إنه لا بد من البعث والحساب والجزاء لكى يتنقى العبث عن خلق الله ، ولكى
لا يستوى المحسن والمسيء فى نهاية المطاف :

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا
بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴿٢٧﴾
أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْفُسَيْدِينَ فِي الْأَرْضِ
أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾

(سورة ص : ٢٧ - ٢٨)

وهو يحاسب فى الحياة الآخرة بمقتضى ذات المنهج الذى نزل ليحكم حياة الناس
فى الأرض :

فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ
كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٩﴾

(سورة البقرة : ٣٨ - ٣٩)

ثم يكون الجزاء هو الخلود في الجنة أو النار :

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كَلَّمًا تَنْجِفُ جُلُودُهُمْ بَدَلَتْ لَهُمْ
جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ٥٦ وَالَّذِينَ
آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا

ظِلًّا ظِلِيلًا ٥٧ (سورة النساء : ٥٦ - ٥٧)

وهكذا يعطيه القرآن دليل الرحلة كاملاً من بدء الرحلة إلى منتهاها ، وبين له
كل معالم الطريق .

٤ - القرآن يدعو إلى تدبر آيات الله في الكون :

والقرآن يوجه أنظارنا - بصورة ملحوظة - إلى تدبر آيات الله في الكون : في
السموات والأرض ، والشمس والقمر ، والجبال والبحار ، والنبات والحيوان . وكل
ما يقع عليه الخس من كائنات .
يوجه أنظارنا إليها لتعرف على قدرة الله المعجزة في الخلق والتدبير ، فنؤمن بالله
ونعبده حق عبادته :

الْمُرْتَرَانَّ

اللَّهُ يَسْجُحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالظُّلُمُ صَافَتْ كُلُّ قَدْعَةٍ
صَلَاتُهُ وَتَسْبِيحُهُ ٥٨ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ٥٩ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ٦٠ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ سَحَابًا تَتَوَلَّفُ بَيْنَهُ
فَتُجْعَلُ مِنْهَا سَمَاوَاتٌ ثَلَاثٌ فَلْيُبْهِقُوا الْفُلُوكَ مِنْ
جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ
يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ٦١ يَقْلِبُ اللَّهُ الْيَلَّ وَالنَّهَارَ
إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ ٦٢ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ

مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ
 مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾
 لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبِينَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾

(سورة النور : ٤١ - ٤٦)

ويوجه أنظارنا إليها لتعرف - في ذات الوقت - على السنن الربانية التي يجري بمقتضاها نظام هذا الكون ، لكي نحقق - بالعلم - استغلال الطاقات الكونية المسخرة لنا أصلا من عند الله :

وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ

(سورة الجاثية : ١٣)

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ

وَالْأَرْضِ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ
 وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴿٣٢﴾
 وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٣﴾

(سورة إبراهيم : ٣٢ - ٣٣)

فهذه الطاقات الكونية مسخرة من عند الله للإنسان . نعم . ولكنها تحتاج لأن يتعرف الإنسان على السنن التي تجري بها لكي يستغلها في عمارة الأرض .
 والقرآن يوجهنا إلى هذه المعرفة التي توصلنا إلى استغلال ما سخر لنا من الطاقات :

وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتَيْنِ فَعَحَّوْنَا

عَايَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ
 وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلُّ شَيْءٍ فَضْلَنَاهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾

(سورة الإسراء : ١٢)

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَمْثِلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْخُمْرِ

(سورة البقرة : ١٨٩)

هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ^ط

(سورة الملك : ١٥)

وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ^م وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن

يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ^{١٥}

(سورة الحديد : ٢٥)

ويقول عن نبي الله داود :

وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ^{١٥}

(سورة سبا : ١٠)

وَعَلَّمَنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِيُحِصَنَكُمْ مِّنْ بَأْسِكُمْ^م

(سورة الأنبياء : ٨٠)

ومن هذه التوجيهات وغيرها في القرآن اتجه المسلمون إلى العلم ، وإلى العلم التجريبي خاصة ، فأنشئوا المنهج التجريبي في البحث العلمي ، الذي تقوم عليه النهضة العلمية الحاضرة في أوروبا ، بعد أن تعلمت أوروبا ما تعلمت في مدارس المسلمين . ومن قبل ذلك كان العلم على يد اليونان علماً نظرياً مجتأ لا يؤدي إلى تقدم كبير .

٥ - وتدبر السنن التي تحكم حياة الإنسان :

ويوجه القرآن أنظارنا كذلك إلى السنن الربانية التي تجري بها حياة البشر على الأرض ، لتتعرف على هذه السنن ونقوم حياتنا بمقتضاها ، لأنها سنن ثابتة لا تتغير ولا تتبدل :

فَلَنَجْزِيَنَّهُنَّ اللَّهُ يُغَيِّرُ أَلْوَنَهُ وَلَنُجِزِيَنَّهُنَّ اللَّهُ يُغَيِّرُ أَلْوَنَهُ^ط

(سورة فاطر : ٤٣)

فمن هذه السنن أن المؤمنين حين يستقيمون على أمر الله يستخلفهم ويمكن لهم في الأرض ومنحهم الأمن والطمأنينة ، وبارك لهم في حياتهم كذلك :

(١) أى قوة وصلابة .

(٢) إشارة إلى السلاح الذى يصنع من الحديد الصلب ويستخدم فى القتال .

(٣) إشارة إلى الدروع التى تستخدم فى الحرب .

وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا

سورة النور ، الآية : ٥٥ .

وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾

سورة الأنبياء ، الآية : ١٠٥ .

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا الْفِتْنَةَ عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٌ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ

سورة الأعراف ، الآية : ٩٦ .

ولكن الكافرين ليسوا ممنوعين من التمكين في الارض ولكن على وجه آخر :

مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ جَنَّاهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ

يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَذْهُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا

وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴿١٩﴾ كَلَّا يَذَّوُلَّا

وَهُوَلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾

سورة الإسراء ، الآيات ١٨ - ٢٠ .

مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ

إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُجْسَدُونَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ

فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحِطَّ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَطُلُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

سورة هود ، الآيتان ١٥ ، ١٦ .

فَلَمَّا سُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا
فَرَحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾

سورة الانعام ، الآية : ٤٤ .

فالمؤمنون يمكنون في الدنيا لإصلاح الأرض ، ثم تكون لهم العاقبة الحسنة في
الآخرة فينعمون بالجنة والرضوان :

الَّذِينَ انْتَمَكْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ آقَامُوا الصَّلَاةَ
وَأَتُوا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَظِيمُ الْأُمُورِ (٤١)
سورة الحج ، الآية : ٤١ .

أما الكافرون فيمكنون ابتلاء وفتنة ، وحين يوغلون في البعد على الله تفتح عليهم
أبواب القوة والاستمتاع وتنهل عليهم الأسباب . لا رضاء من الله عليهم بل ليزدادوا
إثمًا ليأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر :

حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا الْأَرْضَ
زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَّا وَغَطَّنَا أَهْلَهَا أَنتُمْ قَدِيرُونَ عَلَيْهَا آتَيْنَا أَمْرًا
لَّيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبِ بِالْأَمْسِ كَذَٰلِكَ
نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾

سورة يونس ، الآية : ٢٤ .

كذلك فإن التمكين للمؤمنين يختلف عن التمكين للكافرين من وجه آخر .
فالمؤمنون يمنحهم الله « بركات من السماء والأرض » فيعيشون في أمن وطمأنينة وبركة
في الوقت والصحة والأموال والأولاد . . . أما الكافرون فيفتح عليهم أبواب كل شيء
« من الرزق المادي ، ولكن بلا بركة ولا أمن ولا طمأنينة ، لأن الطمأنينة إنما تجيء
من ذكر الله وهم لا يذكرون الله » :

الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ
أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾

سورة الرعد ، الآية : ٢٨ .

ومن السنن الربانية كذلك أن أعمال البشر من سيئة أو حسنة تترتب عليها نتائج حتمية لا يمكن تغييرها ، لأن سنة الله لا تحابي أحداً ، ولا تتغير بمجاملة لأحد :

ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ

أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾

سورة الروم ، الآية : ٤١ .

وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا

فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾

سورة الإسراء ، الآية : ١٦ .

ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَ عَلَيْهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ

سورة الأنفال ، الآية : ٥٣ .

إِنَّا لِلَّهِ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ

سورة الرعد ، الآية : ١١ .

وَأَنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ ﴿٣٨﴾

سورة محمد . الآية : ٣٨ .

والنتائج تترتب بقدر من الله . ولكن الله يجزينا أنه يجرى قدره في الأرض بحسب ما يكون من سلوك الناس .

٦ - معرفة الأحداث التاريخية الكبرى :

ومن تتبعنا لسنة الله التي يجرى بها في حياة الناس نستطيع أن ندرك الأحداث الكبرى في التاريخ ، ونستطيع كذلك أن نقدر حاضرتنا الذي نعيش فيه ، وأن نزن تطلعاتنا إلى المستقبل بميزان الواقع .

لئن أحداث التاريخ الكبرى تمكين الأمة المسلمة في الأرض فترة طويلة من الزمن وفي رقعة فسيحة من الأرض ، حين كانت مستقيمة على أمر الله ، تحقيقاً لوعده

الله بالاستخلاف ، والتمكين والتأمين للذين آمنوا من هذه الأمة وعملوا الصالحات ، قيام هذه الأمة في فترة استخلافها بنشر الخير في ربوع الأرض وإقامة العدل الرباني في أرجائها .

ومن أحداث التاريخ الكبرى كذلك انحسار المد عن الحركة الإسلامية ، سواء السياسية أو العسكرية أو الاقتصادية أو العلمية أو الحضارية حين تخلى المسلمون عن رسالتهم التي أهلهم الله لها ، وهي أن يكونوا رواد البشرية وقادتها بعد أن يستقيموا هم أنفسهم على أمر الله . فلما انحرفوا عن طريق الله وتخلوا عن حقيقة إسلامهم لم تجاملهم سنة الله ، ولم يغنهم أنهم من ذرية قوم مؤمنين :

قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي ^{عَلَيَّ} قَالَ لَا إِنِّي نَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٤﴾

سورة البقرة ، الآية : ١٢٤ .

ومن أحداث التاريخ الكبرى أن أوربا - وهي أمة أو مجموعة من الأمم الجاهلية لا تؤمن بالله ورسوله ولا تحكم بما أنزل الله - قد مكن لها في الأرض ، وفتح عليها أبواب كل شيء : في السياسة والحرب والمال والقوة العلمية والعملية . وكثير من الناس ينهر بهذا السلطان الذي أوتيته أوربا ، وبهذا التمكين ، ويظن أنه مخالف لسنة الله ! ولكن تدبر آيات القرآن يرينا أنه لا شيء مما حدث في التاريخ يجرى مخالفاً لسنة الله ، ولا يمكن أن يحدث ذلك قط : فالذي حدث :

أولاً : أن هذه الأمة أو الأمم الجاهلية قد مكنت في الأرض بعد أن تخلت الأمة المسلمة عن دورها ، ونتيجة لهذا التخلي من جانب المسلمين تمكنت هذه الدولة الكافرة .

ثانياً : أن هذه الأمة حين مكنت انتشر الفساد في الأرض « بما كسبت أيدي الناس » .

ثالثاً : أن هذا التمكين الذي يعبر عنه القرآن بقوله : « فتحنا عليهم أبواب كل شيء » تنقصه البركة التي لا تعطى إلا للمؤمنين حين يمكنون في الأرض ، وليس فيها الطمأنينة التي تأتي من ذكر الله . إنما فيها الأمراض النفسية والعصبية والجنون والانتحار والجريمة والقلق والاضطراب والحيرة والضياع .. وكلها كما تقول إحصاءاتهم آخذة في الازدياد .

رابعاً : أن حضارتهم الجاهلية في سبيلها إلى الانهيار بحسب سنة الله كما ترى العين الفاحصة من وراء صور التقدم المادى الذى يبهى العيون ، وكما يقول مفكروهم أنفسهم . ولكن هذا الانهيار لا يحدث بين يوم وليلة ، لأن الله يقول :

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ

وَإِنْ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَبْلِهِ
أَمَلَيْتُمْ لَمَّا وَهَى ظَالِمَةٌ لَكُمْ تَذَكُّرًا ﴿٤٨﴾

سورة الحج ، الآيتان ٤٧ ، ٤٨ .

ذلك بالنسبة لرؤية الماضى والحاضر على ضوء السنن الربانية التى أمرنا الله أن نتدبرها ونحن نقرأ القرآن .

أما بالنسبة لتطلعاتنا نحو المستقبل ، فنحن نتطلع لأن نستعيد ما فقدناه من القوة والاستخلاف والتمكين والتأمين . وذلك من واجبنا ، لأن الله لم يخرج هذه الأمة لتكون فى وضع الاستخذاء والضعف ، ولا الذلة ولا الهوان :

وَأَعِذُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْحَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ وَعَدُّوا اللَّهَ وَعَدُّكُمْ

سورة الأنفال ، الآية : ٦٠ .

وَلِلَّهِ الْحِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ

سورة المنافقون ، الآية ٨ .

ولكن هذا الامر لا يتم بالتمنى . ولا يتم حتى يغير الناس ما بأنفسهم . ولا يتم دون جهد يبذل ودون جهاد :

لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَمِلِ الْكِتَابَ مِنْ يَمَلُ سَوْءَ الْحِزْبِ

سورة النساء ، الآية : ١٢٣ .

إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ

سورة الرعد ، الآية : ١١ .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا
 فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْتُمْ قُلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضِيهِ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ
 فَمَا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنْفِرُوا يَعَذِّبْكُمْ
 عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَنْصُرُوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى
 كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾

سورة التوبة ، الآيتان ٣٨ ، ٣٩ .

الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ
 اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الظَّالِمِينَ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ
 الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾

سورة النساء ، الآية : ٧٦ .

فحين يريد المسلمون أن يستعيدوا مكانتهم في الأرض فهذا هو الطريق ! .
 وهذا الذي نتعلمه من سنن الله ونحن نتدبر القرآن .

• • •

مقتضى الإيمان بالقرآن :

إن الإيمان بأن القرآن هو كلام الله المنزل على رسوله صلى الله عليه وسلم ،
 يقتضى أن تكون له آثار واقعية في حياتنا .

يقتضى أولاً أن نعيش معه ونتعبد بتلاوته وحفظه . فالقرآن ينبغي أن يكون هو
 صاحب والأنيس قبل أى صاحب آخر أو أنيس .

يكفى أن يستشعر المؤمن في قلبه أن الله يخاطبه هو شخصياً بهذا القرآن ، رجلاً
 كان أو امرأة ، فتى كان أو فتاة . وأن الله في عليائه يهتم بشئون البشر الذين خلقهم ،
 فلا يتركهم ضياعاً ، ولا يتركهم سدى . إنما يرسل لهم الهدى والنور ، ويتعهدهم
 بالرحمة والفضل .

يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَ كُفْرَهُمْ مِنْ دُونِكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا
الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَأَغْلَصُوا بِهِ - فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ
وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٧٥﴾

سورة النساء ، الآيتان ١٧٤ ، ١٧٥ .

يكفى أن يستشعر أنه هو شخصياً موضع نظر الله وعطفه ورحمته :

وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ^ط

سورة البقرة ، الآية : ١٨٦ .

وأنه أقرب ما يكون إلى ربه وهو قائم وساجد لربه يصلي ، وكذلك وهو يتلو
القرآن تعبداً وتدبراً وتقرباً إلى الله .

والحياة مع القرآن تستجيش الحس ، وتفتح القلب ، وتمنح الروح شفافيته لأنها
تعيش مع النور الرباني المنزل في الكتاب ، فيخف الإنسان من ثقله الجسد وجذبة
الأرض ، ويرفرف - ولو ساعة - مع الملائكة الأطهار .

• • •

ويقتضى ثانياً : أن نرى أنفسنا بهذا القرآن .

فالقرآن - كما ذكرنا - هو كتاب التربية الشامل الذي أخرج الأمة التي كانت « خير
أمة أخرجت للناس » .

وحين نقرؤه أو نحفظه للتعبد ، فإننا في ذات الوقت نقرؤه لنصوغ أنفسنا بحسب
أوامره وتوجيهاته .

سئلت عائشة رضى الله عنها عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت :
« كان خلقه القرآن » ! وهى جملة بليغة على إيجازها ، تعنى أن الرسول صلى الله عليه
وسلم كان هو الترجمان الصادق لكل ما جاء في القرآن من أوامر وتوجيهات .
ولن يستطيع أحد من البشر - مهما اجتهد - أن يكون مثل رسول الله صلى الله
عليه وسلم . ولكن الله يأمرنا بأن نتخذ منه الأسوة الحسنة :

لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُتُوهُ

حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾

سورة الأحزاب ، الآية : ٢١ .

ثم قال لنا من رحمته سبحانه :

فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ

سورة التغاين ، الآية : ١٦ .

فواجبنا إذن أن نحاول - ما استطعنا - أن نربى أنفسنا بالقرآن ونحس نحفظه ونتلوه .

ولنعلم أن أداة التربية العظمى في هذا الكتاب هي العقيدة .
العقيدة الصحيحة الراسخة كانت هي الأداة الأولى لتربية هذه الأمة الفذة في التاريخ ، وبصفة خاصة ذلك الجيل الأول الفذ الذي صنعه القرآن على يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان قمة لا يدانيها شيء في تاريخ البشرية كله .
والعقيدة ليست كلمة تقال باللسان : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله . . وإنما هي واقع يعاش ، ومنهج كامل للحياة . . إنها حياة كاملة في ظل الله تستمد من أوامره وتوجيهاته ، وتعمل بمقتضاها في واقع الأرض .
وإن المساحة العظيمة التي يشملها الحديث عن العقيدة في كتاب الله لم تكن من أجل هذه الكلمة التي تقال باللسان ، وإنما من أجل أن تتحول إلى عمل مشهود في عالم الواقع ، وترجم إلى وجدان وسلوك :

أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ

أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢٢﴾ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ

وَلَا يَنْقُضُونَ الْعِثْقَ ﴿٢٣﴾ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ

وَيُخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿٢٤﴾ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ

وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ رَبُّهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً

وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٥﴾

سورة الرعد : ١٩ - ٢٢ .

ولنعلم كذلك أن أسماء الله الحسنى وصفاته وأعماله الواردة في كتاب الله في معرض الحديث عن العقيدة لم تنزل لنحوها إلى أمور جدلية عقيمة كما فعلت الفرق الضالة الشاردة في تاريخ الإسلام . إنما نزلت للتعريف بالله سبحانه والإيمان بها وإثباتها كما جاءت من غير تحريف ولا تأويل ، ومن غير تشبيه ولا تمثيل ، يجعل المؤمنين يتربون على حقائق الإيمان الموروث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته الأخيار .

حين يقول الله سبحانه وتعالى : « إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين » فهو يعرفنا - من ناحية - بخصيصة من خصائص الألوهية ، هي أن الله - وحده - هو الرزاق دون شريك يشاركه في الرزق . وهو يربينا - من جهة أخرى - على هذه الحقيقة الإيمانية لنوقن - في السراء وفي الضراء سواء - أنه لا أحد على الإطلاق يملك قطرة واحدة من الرزق ، لا أن يزيدنا ولا أن ينقصنا ولا أن يقطعها سوى الله . ومن ثم فلا يجوز لنا أن نتوجه لغير الله في طلب الرزق ، ولا يجوز لنا أن نميل عن قوله الحق حفاظاً على الرزق أو نتبع أحداً من الظالمين - بالباطل - خشية أن يقطع عنا الرزق ، لأن شيئاً من ذلك لا يتم بأيدي البشر في الحقيقة إنما يتم بتقدير الله ، وإن كان البشر - في الظاهر - هم الذين يصنعون هذا أو ذاك .

والتربية على العقيدة أمر غير مجرد المعرفة النظرية بحقائق العقيدة ، فكثير من الناس إذا قلت له إن الله هو الرزاق وحده قال : نعم ! فإذا تعرض للحنة أو ضيق أو هدد في رزقه تزلزلت هذه الحقيقة من قلبه لأنها لم تكن راسخة بالفعل . . لم تكن تحولت إلى يقين ، وإلى سلوك مبني على ذلك اليقين ! .

وكل صفات الله وأسمائه وأفعاله واردة في القرآن على هذا النحو ، للتعريف بحقيقة الألوهية ، وللتربية على حقيقة الإيمان ، وأن الله هو الضار النافع . المحيي المميت . القابض الباسط . . كلها ينبغي أن تتحول في قلوبنا إلى يقين ، ثم تتحول في حياتنا إلى سلوك مبني على هذا اليقين ، وعندئذ نكون تربينا - كما تربت الأمة المسلمة الأولى - على حقائق الإيمان الواردة في القرآن .

• • •

ويقتضى ذلك أن تتحول حياتنا كلها إلى واقع إسلامي ، في كل منحي من مناحي الحياة .

فكما ينبغي أن يستقيم سلوكنا الشخصي على مقتضى كتاب الله ، من صدق وأمانة ونظافة وتطهر ، وبعد عن الإثم والبغى :

قُلْ تَعَالَوْا

أَنْلِ مَا حَرَّمَ رَبِّي كُفِّ عَنِ الْإِثْمِ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا
وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ إِنَّهُنَّ أَمْطَلُ نَفْسٍ تَحْنُ نَزْفُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا
الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ
ذَلِكَ وَصَّكُمْ بِهِ، لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي
هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ وَالْعَهْدُ أَوْفَاكُمْ لَا يَكْفُلُ
نَفْسًا إِلَّا وَنَعْمًا إِذَا قُلْتُمْ فَاعْدُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ
أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّكُمْ بِهِ، لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ
مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّكُمْ
بِهِ، لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾

سورة الأنعام : ١٥١ - ١٥٣ .

كذلك ينبغي أن يكون القرآن هو منهج حياتنا العامة إلى جانب حياتنا الفردية ،
لأن الإسلام لا يفرق بين الفرد والمجتمع في الالتزام بأوامر الله .
فالحكم ينبغي أن يكون بشريعة الله .
وتعاملاتنا الاقتصادية ينبغي أن تكون في حدود ما حلل الله .
وصلاتنا الاجتماعية ينبغي أن تكون محكمة بأوامر الله . في داخل الأسرة
وخارجها . في علاقات الجنسين . في علاقات الناس بعضهم ببعض . فيما يحل للمرأة
أن تبديه من زينتها ، وما يحل للرجل من نظر أو كلام .
والأفكار التي نتعلمها والتي نبثها ينبغي أن تكون متمشية مع مفاهيم الإسلام
وتوجيهاته ، غير متعارضة مع شيء ألزمتنا الله به . في كتابه الحكيم .

وبذلك نكون حقاً أمة القرآن ...

والله الموفق إلى ما فيه الخير .

كتاب من نهج علم التوحيد لطلاب المعاهد الإسلامية

تأليف
محمد قطب

الجزء الثالث

الطبعة السادسة
١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م



هـ : ١٤ ٠٢ ٦٤ - ٢٢ ٣١ ٦٣

حقوق المؤلف وقف لله تعالى على
جمعية تحفيظ القرآن الكريم
مدرسة ومعهد دار القرآن
وادي الزناتي ولاية قالمة
الجزائر

طبع « دار البعث » قسنطينة - الجزائر

رقم الابداع القانوني : 90/45168 - و قسنطينة

فهرست

مقدمة	٤
الباب الأول : الإيمان بالرسول	٦
١. وجوب الإيمان بالرسول ٦ - ٢. حقيقة النبوة والرسالة ٩ - ٣. الوحي وأنواعه ١٥ - ٤. حاجة البشر إلى الرسالة ١٧ - ٥. مهمة الرسول ٢٧ - ٦. أثر الرسول في حياة الناس ٣٦ - ٧. فضل الرسول على تقدم البشرية ٤٧ - ٨. مهمة التعليم الأساسية ٥٠ - ٩. جنابة التزعة المادية الإلحادية ٥٢ - ١٠. صفات للرسول ٥٥ - ١١. أولو العزم من الرسل ٦٥.		
الباب الثاني : الرسالة المحمدية	٩٧
١. حال العالم قبل الإسلام ٩٧ - ٢. دعوة إبراهيم وبشارة عيسى ورؤيا أم النبي (ﷺ) ١٠٢ - ٣. بشارة التوراة والإنجيل ١٠٣ - ٤. صفات الرسول (ﷺ) وأحواله قبل البعثة ١٠٦ - ٥. السيرة المحمدية هي السيرة القطعية في التاريخ ١٠٩ - ٦. شخصية جامعة ١١١ - ٧. مدرسة للتربية ١١٦ - ٨. خصائص الرسالة المحمدية ١١٨.		
الباب الثالث : المعجزة	١٤٩
١. اعجاز القرآن الكريم ١٥١ - ٢. نواحي الإعجاز في القرآن ١٥٥ - ٣. وضع العالم الإسلامي المعاصر ١٦٦ - ٤. مستقبل الأمة الإسلامية ١٦٩.		
الباب الرابع : الإيمان باليوم الآخر	١٧١
١. بعض الأدلة العقلية والنقلية على وجوب الإيمان باليوم الآخر ١٧٣ - ٢. آثار الإيمان باليوم الآخر في سلوك الفرد والجماعة ١٧٨ - ٣. الحقائق التي يشملها الإيمان باليوم الآخر ١٨٢.		
الباب الخامس : الإيمان بالقدر	١٩٩
أثر الإيمان بالقدر على الوجه الصحيح ٢٠١.		
خاتمة - العقيدة الإسلامية	٢٠٩
١. خصائصها ٢٠٩ - ٢. أثرها في الحياة الإنسانية ٢١٧.		

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ، ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين .

نحمده ونستغفره ونستهديه ، ونرجو رحمته ونخاف عذابه ، ونتطلع إليه من مقام العبودية الخالصة له سبحانه أن يتقبلنا في عباده الصالحين ، ونثنى عليه بما يليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه .

ونصلي ونسلم على سيد رسله وخاتم أنبيائه محمد ﷺ وعلى صحابته ومن تابعهم بإحسان إلى يوم الدين .

وبعد ، فهذا هو الكتاب الثالث من مقرر التوحيد يحتوى على منهج السنة الثالثة الثانوية بقسميها الأدبي والعلمي ، مكملًا لما سبقت دراسته في السنتين الأولى والثانية الثانويتين

وهو يشتمل على جملة أبواب يكتمل بها الحديث عن العقيدة الإسلامية وأركانها . ففيه باب عن الإيمان بالرسول يتناول وجوب الإيمان بهم . وحقيقة النبوة والوحي وحاجة البشرية إلى الرسالة ومهمة الرسل صلوات الله عليهم ، وصفاتهم ، والكلام عن بعض أولى العزم من الرسل .

وباب عن الرسالة المحمدية يتناول حال العالم قبل الإسلام ونبذة عن السيرة المحمدية وصفات الرسول ﷺ وما اشتمل عليه الإسلام وما تفردت به الرسالة المحمدية .

وباب عن المعجزة عامة والمعجزة القرآنية خاصة .

وباب عن الإيمان باليوم الآخر يتناول الإيمان بالغيب ووجوب الإيمان باليوم الآخر ومقتضياته ، والساعة وأماراتها ، والبعث ، والحشر ، والحساب ، والصراط ، وأوصاف الجنة والنار كما جاءت في القرآن الكريم .

وباب عن الإيمان بالقدر : حقيقته ووجوب الإيمان به ومراتبه وأثره في حياة المؤمنين .

ويختتم الكتاب بباب أخير عن العقيدة الإسلامية وخصائصها وترابط أركانها وأثرها في الحياة الإنسانية .

وقد سرتُ في هذا الكتاب بعون الله على ذات النهج الذي التزمته في الكتابين السابقين ، من تبسيط قضايا العقيدة وتقريبها إلى أذهان الدارسين بالشرح المفصل لجزئياتها ، والرجوع إلى القرآن الكريم لاستمداد الشواهد والأدلة منه ، والإشارة إلى بعض الأحاديث النبوية الواردة في الأبواب المختلفة حتى يتعود الدارس أن يعيش في جوّ القرآن والحديث ويستمد مفاهيمه الإسلامية من مصدرها الرئيسي . وإذا كنت قد أكثرت من التماذج والشرح في هذا الكتاب خاصة فليس المقصود هو استيعاب كل ما فيه عن طريق الحفظ ، بل المقصود فقط هو توسيع مدارك الطالب وتعويده الاستيعاب بالفهم مع تدريبه على تلخيص الفكرة لنفسه بأسلوبه الخاص .

وبتام هذا الكتاب يتم مقرر الدراسة الثانوية في علم التوحيد ، والحمد لله أولاً وأخيراً ، ومن الله وحده التوفيق .

محمد قطب

الباب الأول

الآيمان بالرسول

(١) وجوب الإيمان بالرسول

الإيمان بالرسول ركن من أركان الإيمان ، فلا يعتبر الإنسان مسلماً ولا مؤمناً حتى يؤمن بأن الله قد أرسل للبشر رسلاً من أنفسهم يبلغونهم الحق المتزل إليهم من ربهم ، ويبشرونهم وينذرونهم ، ويبينون لهم حقيقة الدين . كذلك لا يعتبر مسلماً ولا مؤمناً حتى يؤمن بالرسول جميعاً ، لا يفرق بين أحد منهم ، وأنهم جميعاً جاءوا بالحق من عند الله .

﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجْوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَآلِ الْكِتَابِ وَكَانَ خَائِضًا لِلْحَقِّ مِنَ اللَّهِ وَمَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدًا وَلَئِنْ لَمْ يَأْتِ الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّكَ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَهُوَ الْغَنِيُّ الْغَنِيُّ الْغَنِيُّ ﴾ (سورة البقرة : ١٧٧) .

﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنا مِنْ رِسَالَةٍ إِلَّا لَعَلَّكُمْ تُتَّقُونَ ﴾ (سورة آل عمران : ٨٤) .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ (سورة النساء : ١٣٦) .

﴿ إِنْ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا نُؤْمِنُ بِبَعْضِ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ۖ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِمًّا ۖ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرُهُمْ جَمِيعًا ۖ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ (سورة النساء : ١٥٠-١٥٢) .

وجاء في حديث (هَذَا جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ أَمْرَ دِينِكُمْ) : (قَالَ : مَا الْإِيمَانُ ؟ قَالَ : الْإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ...) رواه مسلم .

يتبين لنا من النصوص السابقة - وأمثالها كثير في القرآن والحديث - أن الإيمان بالرسول ركن أساسي من أركان الإيمان ، لا يتم إسلام المرء إلا به . وأنه يستوى عند الله من أنكر الرسل جميعاً ومن أنكر واحداً منهم بعينه ، فالمنكرون كلهم عند الله كفار . إنما المؤمن هو الذي يؤمن بالرسالات جميعاً وبالرسول جميعاً دون تفریق .

وإذا سألنا أنفسنا لماذا أوجب الله الإيمان بالرسول وجعله ركناً من أركان الإيمان ، ولم يكتف - سبحانه وتعالى - من البشر بوجوب الإيمان به وحده ، مع أن الإيمان بالله هو أساس كل شيء ، وعبادته هي غاية كل شيء ، فالإجابة على هذا السؤال واضحة . فكيف يعرف الإنسان ربه معرفة الحق إلا عن طريق الرسول ؟ وكيف يعبد العباد الحق إلا بإرشادهم ؟

انظر إلى ضلالات البشرية في أمر ربها خلال التاريخ !

كيف تصورته ، وكيف عبدته في جاهلياتها المختلفة ؟

مرة تصورته في قرص الشمس كما فعلت الجاهلية الفرعونية ، ومرة تصورته في النار الملتببة كما فعلت الجاهلية الفارسية . ومرة تصورته على هيئة بشر ذي خصائص فائقة كما فعلت الجاهلية اليونانية والجاهلية الرومانية . ومرة في القمر ومرة في النجم ومرة في صنم من الأصنام ! وهكذا اختلفت التصورات وضلت كلها عن معرفة الله الحق ، لأنها استرشدت بخيالها وأهوائها وعلمها القاصر ، ولم تأخذ الحق من طريقه الصحيح المعتمد عند الله ، وهو طريق الرسول الموحى إليهم بالحق .

ولا يقل عن ذلك ضلالاً ما تصورته الجاهليات المختلفة من وجود أرباب صغيرة مع رب الأرباب ، تقوم ببعض اختصاصاته سبحانه ! فإله للمطر ، وإله للبرق ، وإله للرعد ، وإله للريح ، وإله للبحر ، وإله للخصب ، وإله للنسل ، وإله لكل شأن من شئون الحياة يختص به من دون الله أو مع الله كما كان العرب يقولون في الجاهلية :

﴿ مَا تَعْبُدُونَ إِلَّا لِيُفْرِنُوا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ (سورة الزمر : ٣) .

أما العبادة فقد ضلت مثل ضلال التصور ! وذلك أمر طبيعي ! فما دام البشر لا يرجعون في أمر العبادة إلى المرجع الصحيح الذي يبصرهم بالحق ، فسوف يضربون في التيه كما تمل لهم أهواؤهم وخيالاتهم ، أو - بالأحرى - كما يمل الشيطان عليهم لإغوائهم ، فكانت النتيجة دائماً أنهم قدموا شعائر التعبد لغير الله ، ودعوا غير الله ، واستعانوا بغير الله ، وحرّموا وأحلّوا بغير سلطان من الله !

فإذا آمنا أن قضية الألوهية والربوبية هي القضية الكبرى في حياة الإنسان ، وأن عبادة الله هي غاية الوجود الإنساني : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (سورة الذاريات : ٥٦) أدركنا على الفور لماذا كان الإيمان بالرسول ركناً رئيسياً من أركان الإيمان ، لأنه يستحيل على البشرية - كما رأينا من الواقع التاريخي - أن تهتدي إلى الحق في شأن الألوهية ولا في شأن العبادة إلا عن طريق ذلك المصدر الموثق ، وهو الرسل المرسلون من عند الله .

وكذلك الشأن في وجوب الإيمان بالرسول كلهم دون تفريق بين أحد منهم . لقد جاءوا كلهم بقضية واحدة وكلمة واحدة . جاءوا يبينون أنه لا إله في هذا الوجود كله إلا إله واحد هو الله سبحانه وتعالى بلا شريك . وجاءوا يقولون للناس ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ﴾ (سورة هود : ٥٠ ، ٦١ ، ٨٤) .

فما معنى الإيمان بواحد منهم دون الآخر ؟! إن إنكار واحد منهم مثل إنكارهم جميعاً ما داموا كلهم جاءوا من عند الله ، وبلغوا شيئاً واحداً أوحى الله به إليهم ليبلغوه إلى الناس : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ (سورة الأنبياء : ٢٥) .

(٢) حقيقة النبوة والرسالة

لقد اقتضت حكمة الله أن يرسل الأنبياء والرسل لهداية الناس إلى الحق :

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ (سورة النحل : ٣٦) ،
﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ (سورة فاطر : ٢٤) ،
﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الدُّنْيَا وَالْكَفَّارُ فِيهَا ذُتِيرَ إِسْلَامًا ﴾ (سورة النساء : ١٦٥) .

وإذ اقتضت حكمة الله ذلك فقد كان من سنة الله في خلقه أن يصطفى بعض عباده فيمنّ عليهم بالنبوة أو الرسالة ، ويمنّ على أقوامهم ببعضهم إليهم .

﴿ وَلَقَدْ مَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴾ (سورة الصافات : ١١٤) .
﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَزَكَاةَهُمْ وَيُفَصِّلُ الْكُتُبَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (سورة آل عمران : ١٦٤) .

والنبوة والرسالة اصطفاء خالص من عند الله يختص به من يشاء من عباده ، وليست شيئاً يكتسبه العباد من ذات أنفسهم بعمل يعملونه من جانبهم .

وكل ما يقع للبشر في حياتهم هو من عند الله . وكل موهبة توهب لهم في ذات أنفسهم أو فيما بين أيديهم هي من عند الله . ولكن الله قدر أن يكون للإنسان جانب من الكسب في كل ذلك . فقد أعطى الإنسان القدرة على المعرفة ووهب له ذكاء يتفاوت من شخص إلى شخص ، ومنحه طاقات مختلفة ، ثم كلفه أن يعمل ، وأن يبذل جهداً

معيناً لتحصيل المعرفة واستخدام الذكاء في عمارة الأرض وغيرها من شئون الحياة :

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهَا وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾

(سورة الملك : ١٥) .

﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَ فِيهَا ﴾ (سورة هود : ٦١) .

﴿ عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ① عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (سورة العلق : ٤-٥) .

﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ

تَشْكُرُونَ ﴾ . (سورة النحل : ٧٨) .

ويستطيع الإنسان بتحصيله الشخصي أن ينمي ما وهب الله له من مواهب . فيستطيع مثلاً أن ينمي قوته الجسدية بالرياضة البدنية والتدريب فيصبح قوى الجسم متين العضلات . ويستطيع أن ينمي قوته الذهنية بالتدريبات العقلية وتعلم العلم وإمعان الفكر ، فيستنبط ويكتشف ويخترع ويدبر ويخطط . ويستطيع أن ينمي قوته الروحية بالامتناع عن بعض لذائذ الحس ، وبالتأمل ، وبإبعاد النفس شيئاً من الوقت عن عالم الحس القريب بصورة من الصور ، فتصفو روحه ، ويكتسب طاقة روحية كبيرة .

كل هذه الأعمال هي في أصلها موهبة من الله ، وهي فيما تنتهي إليه كسب يكسبه البشر بجهد يبذلونه وتحصيل يكدون فيه ويكدحون .

أما الرسالة والنبوة فوهبة من الله ذات طبيعة مختلفة . إنه لا يد للإنسان فيها ولا كسب ولا اختيار ، إنما هي اصطفاء خالص من جانب الله سبحانه وتعالى لعبد من عباده ، يجتبيه وينعم عليه ويبعثه بالهداية إلى الناس .

لا يوجد عمل معين يعمل به الإنسان من جانبه فيرتقى به إلى مرتبة النبوة ولو أنفق عمره كله فيه !

يستطيع الإنسان بالتدريب المستمر أن يصبح بطلاً من أبطال الرياضة إذا كان عنده استعداد جسمي معين .

ويستطيع بالتدريب المستمر أن يكون مهندساً بارعاً أو طبيباً نابغاً أو عالماً مبرزاً ،

إذا كان عنده الاستعداد العقلي المناسب .

ويستطيع بالتدريب المستمر أن يحصل على صفاء روحى يناسب استعداداه .
ولكنه لا يستطيع بأى جهد يبذله أن يكون نبياً ولا رسولاً . ولكن الله يصطفيه
فيكون ! ﴿ اللَّهُ يُصْطَفِي مِنَ النَّاسِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ (سورة الحج : ٧٥) .
وحقيقة إن الذين يصطفاهم الله ليكونوا رسلاً وأنبياء هم خيار الناس وأفضلهم :
﴿ وَكَانَتْهُمْ عِنْدَ رَبِّكَ الصُّفَاتِ الْآخِيَارُ ﴾ . (سورة ص : ٤٧) .

ولكننا نحن لا نستطيع - بمقاييسنا - أن نقول إن فلاناً من البشر يستحق النبوة
أو إنه أولى بها من غيره ! ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ (سورة الإنعام : ١٢٤) .
﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ ﴿ أَمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا
بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ﴾ (سورة الزخرف ٣١-٣٢) .

والأنبياء أنفسهم يتفاوتون في مراتبهم : ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ
مِّنْهُمْ مَّنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ
الْقُدُسِ ﴾ (سورة البقرة : ٢٥٣) .

ولكن النبوة في حد ذاتها مرتبة فوق مراتب البشر العاديين . فالبشر يتفاوتون
في مراتبهم ، منهم الحقيرون ومنهم العظم . ولكنهم - في أعلى درجات عظمتهم - يقفون
عند حد معين هو أدنى من مرتبة النبوة . فإذا اختار الله واحداً من البشر الممتازين
ليجعله نبياً فإنه يرفعه رفعاً من مكانه الذي كان فيه ليضعه في مرتبة جديدة عالية لم يكن
ليصل إليها من ذات نفسه مهما اجتهد ، لأنها خارج الحدود التي يستطيع البشر أن يصلوا
إليها باجتهدهم . ويصبح منذ لحظة اصطفاؤه شخصية أخرى ، بشرية - نعم - في كل
تصرفاتها العادية ، ولكنها مشتملة على عنصر جديد لا يتاح للبشر العاديين ، ذلك هو
الاتصال بالله عن طريق الوحي .

﴿ وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا ... ﴾

وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الرُّسُلِ إِلَّا إِنهٖنَّ بَشَرٌ مِّثْلُكَ أَلَا إِنَّهُمْ لَظُلُمٌ أَلْمُوتُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ﴿٢٠﴾

(سورة الفرقان : ٧ ، ٢٠) .

فهم بشر فيما يتعلق بالأمور العادية ، يولدون ويموتون ، ويأكلون الطعام ، ويسعون وراء الرزق ، ويتزوج منهم من يتزوج ويكون لهم ذرية أو لا يكون حسبما قدر الله لهم ، ويفرحون ويتألمون ، ويجرى عليهم كل ما يجري على البشر في هذه الشئون . ولكنهم ينفردون بهذه الخاصية الفريدة وهي تلقي الوحي من عند الله ، وإرسالهم للناس ليلفحهم ما أوحى الله به إليهم من الهدى والتبيان : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ (سورة الأنبياء : ٢٥) .

﴿ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَافِي ﴾

(سورة غافر : ١٥) .

كيف تم لهم هذه الخاصية ، وكيف تكون نفوسهم ومشاعرهم حين توهب لهم القدرة على تلقي الوحي من الله ؟!

لا نستطيع نحن البشر العاديين أن نعرف ذلك يقيناً لأنها تجربة خارجة عن حدود بشريتنا ، ولكننا نستطيع القياس للتقريب .

إن الإنسان منا ليحس أحياناً - ولو نادراً - بشيء من الصفاء الروحي ، فيحس كأن فيضاً من النور يشع من حوله ويملأ نفسه ومشاعره ، ويحس كأنه أصبح كائناً جديداً غير الذي كان من قبل ، لا تثقله ثقل الأرض ، ولا ينحبس في إطار جسده المحدود ، ولكنه يرفرف بروحه طليقاً من القيود . ويعود ينظر إلى الناس وإلى الوجود كله من حوله بنظرة جديدة وروح جديدة . فإذا بينه وبين الناس تعاطف ورحمة ، وبينه وبين الوجود مودة وتجاوب . ويحس فوق ذلك كله أنه قريب من الله ، لأن مشاعره صارت أنظف وأطهر ، وشعوره بعظمة الله أكبر ، وتطلعه إلى رحمة الله أشد .

كم نستغرق هذه اللحظات من حياة البشر ؟ وكم يطبقون أن يرتفعوا إليها ؟

إنها لحظات قليلة ولا شك في حياة الإنسان . ولكنها في نفسه عميقة الأثر . وإن

آثارها لتظهر في طمأنينة نفسه من الداخل وفي طريقة تعامله مع الناس في الخارج .
فيعاملهم بالمودة والرافة ، وتتسع نفسه لاحتمال الجهد والصبر على ما يلقاه من الناس !
وحين تتكرر هذه اللحظات وتتقارب فإنها تعطي صاحبها سمة واضحة ، ويعرف
الناس أن صاحبها عظيم النفس ، وأنه ليس كالأخرين الذين يعيشون في إطار مصالح
الأرض القريبة وشهوات النفس الهابطة .

ولكن للبشر على أى حال طاقة معينة يقفون عندها في هذه الأمور ، وبقدر ما
يحصلون منها تكون عظمتهم بالقياس إلى غيرهم من البشر .

والآن فلنتطلع إلى أفق آخر ..

فلنتصور إنساناً لا يعيش هذه المشاعر لحظات متفرقة ، ولا حتى لحظات متقاربة ،
إنما هي الأصل في حياته ، وهي الزاد الدائم الذى تتغذى به روحه ، والأفق الدائم
الذى يحلق فيه .. كيف يكون نوع مشاعره ، وعلى أى درجة من العظمة يكون ؟

ذلك ، بشيء من التقريب ، هو النبى - كل نبى ! - ثم تتفاوت مراتبهم بعد
ذلك فى الفضل !

ولنأخذ القضية كذلك من الجانب الآخر ..

إن الإنسان ليحس فى بعض اللحظات أن الله راض عنه ، وقريب برحمته منه ،
فكيف يكون أثر هذا الإحساس فى نفسه ومشاعره ؟ ألا يحس أن نفسه تتسع وتتسع ،
وروحه تصفو وترتفع ؟ ألا يحس بأن ذلك الفيض الإلهى قد ملأ قلبه بالنور ، ورفع
درجات عن الأرض ، حتى لكانه ليس جسداً جاثماً على الأرض ، ولكنه روح ترفرف
فى السماء ؟

ألا يجعله ذلك الفيض الإلهى أقرب إحساساً بعظمة الله ، وأشد رغبة فى عبادته ،
وأشد إخلاصاً فى دعائه والتوكل عليه ، وأقرب إلى استجابة أمره ، والعمل بما يرضيه ؟
ثم ، ألا ينعكس ذلك كله على تكوين نفسه وعلى تعامله مع الناس ؟

فإذا كان ذلك من أثر لحظات عابرة يحس فيها الإنسان بذلك القرب من الله .. فكيف

بمن يكلمه الله ؟ كيف بمن ينتزل عليه الله بالوحي ، فيشعر بتلك الصلة الموصولة بالله ؟ !
ذلك - بالتقريب - شأن الأنبياء ، ثم يتفاوتون فيما بينهم بما شاء لهم الله من درجات .

أما كيف يتم ذلك فأمر لا نعلمه نحن ، ولكننا نعلم أنه يتم بتهيئة خاصة من الله بمن بها على عبده الذي اصطفاه . كما قال سبحانه وتعالى عن نبيه موسى : ﴿ وَلِصْنَعِ عَلَّ عَيْنِي ﴾ (سورة طه : ٣٩) .

وكما قال عن نبيه المصطفى عليه الصلاة والسلام : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَئِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا لَهْدَى بِهِ عَنْ نَسَاهُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ (سورة الشورى : ٥٢) .

(٣) الوحي وأنواعه

يقول الله سبحانه وتعالى في سورة الشورى : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ رُسُلًا فَتَوَحَّيَ بِهِمْ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ ۝٥١ ﴾

(سورة الشورى : ٥١) .

وتبين هذه الآية أنواع الوحي الرباني إلى عباده المصطفين ليكونوا رسلاً وأنبياء .
إن الله لا يكلم أنبياءه مواجهة ، لأن هذه المواجهة لا يقوى عليها البشر في الحياة الدنيا .
إنما يكلمهم بإحدى طرق ثلاث :

(١) وحيًا يُلقى في النفس مباشرة فتعرف أنه من الله . ويسمى ذلك أيضاً بالإلهام
ومنه رؤى الأنبياء كرويا سيدنا إبراهيم أنه يذبح ولده إسماعيل : ﴿ يَبْنِي لِإِبْرَاهِيمَ فِي الْمَنَامِ إِتِ أَذْبَحْكَ فَأَنْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ﴾ (سورة الصافات : ١٠٢) .

(٢) أو من وراء حجاب ، كما كلم الله موسى عليه السلام : ﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَظِيئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَتُوسَّلَ لِيْ أَفَأَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾
(سورة القصص : ٣٠) دون أن يرى الله ، لأنه ذلك مستحيل بالنسبة إليه ، فلما طلب الرؤية حين جاء إلى ميقات ربه لم يُجِبْ إلى طلبه : ﴿ قَالَ رَبِّ ارْنِيْ أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرِيْكَ وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ نَرِيْكَ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ سَاجِدًا ۝١٤٣ ﴾ (سورة الأعراف : ١٤٣) .

٣) أو يرسل الله الملك المكلف بالوحي فيوحى إلى الرسول ما يشاء الله بطريقة من الطرق التى بينها رسول الله ﷺ :

الأولى : ما كان يلقيه الملك فى روعه وقلبه دون أن يراه ، كما قال ﷺ : (إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ نَفَثَ فِى رُوعِى أَنَّهُ لَنْ تَمُوتَ نَفْسٌ حَتَّى تَسْتَكْمِلَ رِزْقَهَا ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَجْمِلُوا فِى الطَّلَبِ) .

الثانية : أن يتمثل الملك لرسول الله ﷺ فى صورة رجل فيخاطبه حتى يعى عنه ما يقول .

الثالثة : أنه كان يأتيه فى صورة صلصلة الجرس . وكان أشده عليه حتى أن جبينه ليتفصد عرقاً فى اليوم الشديد البرد ، وحتى أن راحلته لتبرك به إلى الأرض إن كان راكبها .

الرابعة : أن يرى الملك فى صورته التى خلق عليها ، فيوحى إليه ما شاء الله أن يوحىه . وهذا وقع للرسول ﷺ مرتين كما جاء فى سورة النجم : ﴿ تَدْنَاهُ فَنَقُلُّهُ ۝ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِي مَا أَوْحَىٰ ۝ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ۝ أَفَتَمْرُونَهُ عَلٰى مَا يَرَىٰ ۝ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ۝ ﴾ (سورة النجم : ٨-١٤) .

(٤) حاجة البشر إلى الرسالة

خلق الله البشر وهو أعلم باحتياجاتهم .

لقد خلق لهم أجساداً تحتاج إلى الغذاء لكي تنمو وتعيش حتى تقضى أجلها المقدّر لها ، كما تحتاج إلى الكساء والمأوى . وخلق لهم عقولاً تحتاج إلى المعرفة والتعليم لتقوم بما تطلبه الأجساد من غذاء وكساء ومأوى ، وتقوم بما كلف الإنسان به من عمارة الأرض : ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَ فِيهَا ﴾ (سورة هود : ٦١) . وخلق لهم أرواحاً تحتاج إلى الهداية لتستقيم حياة الإنسان في الدنيا والآخرة .

ثم إن الله تكفل بكل احتياجات البشر ، لأنهم لا يملكون شيئاً بغير تلك الكفالة الربانية التي تعطيهم كل شيء ، وبغيرها لا يملكون شيئاً على الإطلاق .

تكفل بالرزق كله ، وجعله في متناول الإنسان في الأرض التي نشأ منها وفيما يحيط بها من ماء وهواء وأفلاك :

﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رُوسٍ مِّن فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَوْثَانًا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلنَّاسِ لَيْلٌ ﴾

(سورة فصلت : ١٠) .

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهَا ﴾ (سورة الملك : ١٥) .

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفَلَكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ۝ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآئِبِينَ وَسَخَّرَ لَكُمُ أَيْكُلًا وَالثَّوَارَ ۝ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا ﴾

(سورة إبراهيم : ٣٢ - ٣٤) .

﴿ وَخَرَجْنَاهُ مِمَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ ﴾ (سورة الجاثية : ١٣) .

وتكفل بالمعرفة التي تحتاج العقول إليها ، وزود الإنسان بالأدوات اللازمة
لتحصيلها :

﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ (سورة البقرة : ٣١) .

﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ أَعْلَمَكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾
(سورة النحل : ٧٨) .

﴿ أَفَسَاءُ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ① الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ② عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (سورة العلق : ٣-٥) .
﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ فَتَعَرَّوْا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِيَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ
وَلْيَغْلُوا عَدَّةَ الْآيَاتِ ③ وَالْحِسَابَ ④ وَكُلُّ شَيْءٍ فَضْلُهُ تَفْصِيلًا ﴾ (سورة الإسراء : ١٢) .

وتكفل كذلك بالهداية التي تحتاج إليها الأرواح فأرسل الأنبياء والرسل ليبينوا
للناس الحق ويهدوهم إليه : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا
الطَّاغُوتَ ﴾ (سورة النحل : ٣٦) .

ومع أن الله سبحانه وتعالى قد تكفل بكل ذلك رحمة منه بعباده بغير إلزام (فمنذا
الذي يملك إلزام الله جل وعلا بأى شيء على الإطلاق ؟!) .. مع ذلك فإن الإنسان
ليطغى ، ويظن في لحظة غفلته أنه مستغن عن كفاية الله في أى أمر من الأمور !
﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَغَفْلٌ ① أَنْ رَأَاهُ مُسْتَغْنًى ﴾ (سورة العلق : ٦-٧) .

يظن أحياناً أنه - بجهده الذاتى - هو الذى يخرج الزرع من الأرض ليأكله ،
ويستخرج الماء ليشربه ، ويعمر الأرض ليسكنها ويستمتع بها ، ويقول : أنا الذى
فعلت ذلك !

من أجل ذلك يذكره الله :

﴿ أَوَلَيْسَ مَا تَحْرُثُونَ ② وَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الَّذِينَ نَزْرَعُونَ ③ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطًا فَظَلَمْتُمْ تَفَكَّهُونَ ④ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنُونَ ⑤

بَلْ يَنْزِلُ سَحَابٌ مُمِيزٌ ۝ أَوَيْتُمْ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ۝ ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ ۝ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أَجَاجًا فَلَوْلَا تَفْكُرُونَ ۝ أَوَيْتُمْ الْكَارِ الْخَبِيرَ ۝ ءَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَهْرَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ ۝ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكُرَةً وَتَذَكُّرًا لِلْقَوِيں ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿ (سورة الواقعة : ٦٣-٧٤) .

وبذلك يردّه إلى الحقيقة ، وهى أن الله هو المنشئ والصانع ، وأنه إذا كان - سبحانه - قد يسر للإنسان تسخير طاقات السموات والأرض لعمارة الأرض وسكنائها والاستمتاع بخيراتها ، فكل ذلك من عنده - سبحانه - وبما أودع الإنسان من قدرة على التعرف على سنن الله التى يدير بها الكون ، واستخدام هذه المعرفة لمنفعته . ولكن الإنسان بذاته لا يملك شيئاً ! ولو شاء الله لجعل الزرع حطاماً بعد أن يبذل الإنسان كل جهد فيه ! ولو شاء لجعل الماء النازل من السحاب أجاجاً لا يصلح للشرب^(١) ولو شاء كذلك لم ينشئ المادة التى تتولد منها الطاقة الحرارية التى يستدفع بها الإنسان فأوجعه البرد أو قضى عليه !

(١) قد يظن بعض الناس لأول وهلة أن إنزال المطر من السحاب ، أو ما يسمونه المطر الصناعى ، يتعارض مع هذه الآية ، وأن الإنسان أصبح هو الذى يتزل الماء من المزن وليس الله جل جلاله ! وهذا الوهم السطحى لا حقيقة له . فالإنسان لا يخلق السحاب ، وليس هو الذى خلق الماء الذى يتصاعد إلى الجو فى هيئة بخار ويتكون منه السحاب الذى يتزل منه المطر . وحين يتحكم الإنسان فى استئزال الماء من بعض السحب فهو يستخدم السنن الربانية التى يتكاثف بها السحاب ويمطر ، ولا يأتى بشئ من عند نفسه ! ولقد جاءت الأخبار من أوروبا هذا العام (عام ١٣٩٦ من الهجرة الموافق لعام ١٩٧٦ من ميلاد المسيح) بأن الجفاف قد حل بأوروبا بصورة لم يسبق لها مثيل منذ مائة وخمسين عاماً فاحترقت الزروع والأشجار ومات منها الكثير ونفقت الماشية ووزعت المياه على الناس بالبطاقات فى بعض بلدان أوروبا ووقف الإنسان بكل علمه واختراعاته عاجزاً أمام هذا الأمر الربانى .

(٢) إن مشيئة الله هى التى جعلت عملية البحر التى ينشأ منها السحاب والمطر تصعد الماء العذب إلى السماء وتترك الملح فى جوف البحر ، فيتزل المطر من السحاب عذباً صالحاً للشرب ، ولو شاء الله لغير سننه فجعل المطر يتزل أجاجاً كماء البحر فيموت الإنسان عطشاً . وإلى ذلك تشير الآية : ﴿ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أَجَاجًا فَلَوْلَا تَفْكُرُونَ ﴾

كذلك يفرح الإنسان بما عنده من العلم ويحسب أنه من عند نفسه ، وأنه مستغن به عن الله . فيذكره الله :

﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۚ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾
(سورة النحل : ٧٨) .

فأدوات المعرفة هي أصلاً منحة من عند الله ، فضلاً عن أنها لا تؤدي إلى المعرفة بذاتها ، وإنما بما أودعها الله من قدرة على التعلم : ﴿ عِلْمٌ بِالْقَلَمِ ① عِلْمُ الْإِنْسَانِ مَا لَمْ يَسْأَلْ ﴾
ولو شاء الله لذهب بسمع الناس وأبصارهم وأفئدتهم فلا يقدرُونَ على شيء !
أو لو شاء لسلب قدرتهم على التعلم فلا يقدرُونَ على شيء مع وجود السمع والابصار !
كذلك يظن الإنسان أنه مستغن عن هداية الله ، أو أنه أعلم بأموره ومصالحه من الله !

والجاهلية المعاصرة أوضح مثال على ذلك ، وإن كانت الجاهليات كلها - لسبب أو لآخر - تتنكب طريق الهداية الربانية .

يقول الإنسان لنفسه في كل جاهلية ، وفي الجاهلية المعاصرة بصفة خاصة : إن لي عقلاً يفكر ، فأنا أفكر بعقلي وأدبر أمرى كله بغير حاجة إلى هداية الله .

ثم يكون من نتيجة ذلك كل الضلال والظلم والاضطراب الذي تعج به كل جاهلية ، وهذه الجاهلية بصفة خاصة !

إن الإنسان الجاهلي حين يقول هذه القولة الضالة يغفل عن مجموعة من الحقائق :
(١) يغفل أولاً عن أن هذا العقل الذي يتبه به عجباً هو موهبة من عند الله وليس كسباً ذاتياً من عند الإنسان ! فواجب الشكر على هذه النعمة ذاتها يقتضى أن يرجع الإنسان إلى ربه فيما أمر به من منهج لاستخدام هذا العقل والاستفادة بطاقته . وقد رسم الله منهجاً للتفكير في ملكوت الله يؤدي بالإنسان إلى معرفة الله الواحد الحق ، وما ينبغى تجاه الله من عبودية وطاعة والتزام .

(٢) ويغفل ثانياً عن أن الله منشئ هذا العقل ومانحه للإنسان قد جعل لطاقته

حدوداً معينة لا يستطيع أن يتعداها ، ثم كلفه ما يدخل في طاقته ، ولم يكلفه ما لا يقدر عليه وما ليس من شأنه .

فهذا العقل - مثلاً - مهياً للتعامل مع الكون المادى ، واستنباط السنن التى يجرى بها الله هذا الكون (أى ما نسميه فى علم الفيزياء : خواص المادة) واستخدام هذه المعرفة فى تسخير طاقات السماوات والأرض من أجل عمارة الأرض والاستمتاع بما فيها من متاع .

ولكنه ليس مهياً لمعرفة الغيب مهما اجتهد ومهما حاول .

وليس قادراً على الإحاطة بالأشياء كلها ، وأوضح دليل على ذلك « العلم » ذاته ، فهو يصف ما يستطيع معرفته من « ظواهر » الأشياء ولكنه لا يتعرض « لكنهها » لأن « الكنه » خارج عن إدراكه ! يتحدث مثلاً عن ظواهر الكهرباء ولكنه لا يعرف ما سرها . يتحدث عن خواص المادة ولكنه لا يتحدث عن المادة ذاتها ولقد حللها إلى أبسط تكويناتها وهى الذرة ، ثم حلل الذرة فقال إنها طاقة كهربية سالبة وموجبة ومتعادلة . وبقي السؤال الذى لا جواب له عند العلم ، ولا عند العقل : ما الطاقة ذاتها ؟! سؤال لا إجابة له إلا هذه الإجابة : إنها شيء أودعه الله فى بنية هذا الكون فحسب !

فإذا كان هذا موقف العقل من الأشياء فكيف يكون هو الحكم فى الغيبات التى لا سبيل له إلى إدراكها ، وفى الأمور التى يحتاج الحكم فيها إلى الإحاطة الكاملة بكل شيء ١٩ .

٣) على أن هذا الإنسان الجاهل حين يقول هذه القولة الضالة يغفل عن شيء آخر شديد الأهمية (أو هو يغالط فيه فى الحقيقة) وهو أن الذى يتحكم فى حياة الناس فى الجاهلية ليس هو العقل فى الحقيقة ولكنه الهوى والشهوات ، سواء كان هوى فرد واحد أو مجموعة من الأفراد أو هوى كل الناس !

والجاهلية المعاصرة أوضح نموذج لذلك .

وإلا فأين مكان « العقل » عند الناس فى الفوضى الخلقية المتخشية اليوم فى أرجاء الأرض ، وكل تجارب التاريخ تؤكد أنه ما من أمة فشت فيها الفوضى الخلقية إلا كان مصيرها إلى الانهيار ١٢ .

وأين العقل عند الدول الكبرى وهى تنفق على أسلحة الدمار ما لو أنفقته فى شئون السلم ما بقى فى الأرض كلها جائع واحد ولا محتاج ١٣ .

وأين ذهب العقل عن « الإنسان » كله فى هذه الجاهلية ، وهو يرى نتيجة بعده عن الله : الاضطراب والحيرة والأمراض النفسية والعصبية والقلق والجنون والضياغ ، ومع ذلك بصر على الماضى فى طريق الغواية ويتنكب طريق الله ١٤ .

كلا ! إنه ليس العقل هو الذى يتحكم فى حياة الناس فى الجاهلية ، ولكنه الهوى والشهوات .. ثم يزعم الإنسان لنفسه أنه فى غنى عن هداية الله !

على أن الجاهلية المعاصرة - وإن كانت أسوأ جاهليات التاريخ وأشدّها عتواً - ليست هى النموذج الوحيد لضلال البشرية حين تبعد عن هداية الله . والتاريخ ملىء بالماذج الصارخة على ذلك الضلال .

ففى الجاهلية الفرعونية كان الفرعون - وهو بشر يولد من أبوين بشريين - يعتبر إلهاً ! وتصل به الجرأة على الله أن يقول على ملا من الناس : ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴾ ! ويعبدّه الناس ويتقدمون له بشعائر العبادة !

وفى الجاهلية الهندية تعتبر البقرة إلهاً ! ويتبرك الناس بالاستحمام من بولها المقدس ! وفى الجاهلية العربية - وغيرها - كانوا يعبدون أصناماً ينحتونها بأيديهم ثم يقدمون إليها القرابين والصلوات !

وبالإضافة إلى هذه الضلالات التى تقع فيها الجاهليات فهناك لون آخر من الشرك تقع فيه كل جاهلية حين لا تتحاكم إلى شريعة الله .

فحين لا يكون شرع الله هو المتبع فلا بد أن يشرع البشر لأنفسهم ، وعندئذ يصبح بعض الناس أرباباً لبقية الناس . فالذين يشرعون من دون الله ويحلون ويحرمون على

هوامهم يتخذون من أنفسهم أرباباً في الواقع ، ويستعبدون الناس بسلطانهم ويخضعونهم لأهوائهم . والآخرون عبيد لهذه الأرباب ، ينفنون إرادتها ولا يملكون مخالفتها ، لأنها تملك السلطة التي تخضعهم بها . ومن هنا يصبح الإنسان عبداً لبشر مثله ، بدلاً من أن يكون على وضعه الكريم الذي كرمه به الله : عبداً لله وحده دون شريك .

وفضلاً عن ذلك فإن الفئة التي تشرع تضع التشريعات دائماً لصالحها على حساب المستضعفين الذين يقع عليهم عبء هذه التشريعات دون أن ينالوا من خيراتها إلا الفتات . فحين كان الإقطاع سائداً في الأرض كان الإقطاعي هو السيد الذي يملك السلطة والباقيون هم العبيد . وفي الرأسمالية يكون الرأسماليون هم السادة المسيطرون والعمال هم العبيد . وفي الشيوعية يكون الحكام - أعضاء الحزب الشيوعي - هم السادة المستمتعين بكل الخيرات وبقية الشعب هم العبيد . ولا يكون الناس أحراراً أبداً إلا حين تكون شريعة الله هي الحاكمة في الأرض . فعندئذ فقط يكون الحاكم والمحكوم سواء أمام القانون ، لأنه قانون الله المنفذ على الجميع ، لم يضعه فرد ولا طائفة لمصلحتهم الخاصة . ويكون الحاكم والمحكوم معاً عبيداً لله على سواء ، خاضعين لحكم واحد هو شريعة الله . كذلك توجد دائماً في كل جاهلية ألوان من الاختلالات الاجتماعية والخلقية والنفسية والفكرية تنشأ كلها من الابتعاد عن منهج الله .

ففي الجاهليات القديمة نجد أمثلة مضحكة ومقززة في ذات الوقت .

فقد كان المجرم في الجاهلية الإغريقية يعتبر بطلاً إذا استطاع أن يرتكب جريمة ويفلت من العقاب ! أما إذا لم يستطع الإفلات ووقع في يد الشرطة فعندئذ فقط يعتبر مجرمًا يستحق العقاب

وفي الجاهلية العربية كانوا يثدون البنات وكان الرجل يرث عن أبيه كل شيء حتى زوجاته (غير أمه) فيصبحن جزءاً من الميراث !!

وفي بعض بلاد الهند والتبت كانت المرأة التي يموت عنها زوجها تدفن معه حية ولا يعتبر ذلك جريمة في نظر الناس ، وإنما يعتبر قياماً بواجب الوفاء من الزوجة لزوجها !

وأما الجاهلية المعاصرة فلا تقل سوءاً إن لم تكن أسوأ ! ونظرة سريعة إلى المجتمع
البشرى المعاصر تكشف عن بشاعة ما فيه من اختلالات .

تقول الإحصاءات الأمريكية إن نسبة الطلاق فى أمريكا تزيد على ٤٠ ٪ من مجموع
الزيجات ، ومعنى ذلك اضطراب أحوال الأسرة وعدم استقرارها .
وتقول إن مرض الجنون يفتك بعدد من أفراد الشعب الأمريكى يزيد على أى وباء
آخر من الأوبئة الفتاكة ، ومعنى ذلك أن نوع الحياة الذى تقدمه الجاهلية المعاصرة
لا يتلاءم مع فطرة الإنسان ولا يسعدها .

وتقول إن نسبة الجريمة فى ارتفاع مستمر ، وإن وسائل الاعلام و« التليفزيون »
بصفة خاصة من العوامل المؤثرة فى ارتفاع نسبة الجريمة .

وتقول إن الجنوح الإجرامى عند الأطفال والمراهقين أصبح يشكل خطراً على
مستقبل الأمة . وإن من أهم أسباب هذا الجنوح غياب الأم عن البيت لانشغالها فى
العمل ، وعدم وجود من يرعى الأطفال وينشئهم تنشئة الصالحة لأن المحاضن لا يمكن
أن تغنى غناء البيت ...

وهذا كله رغم الرفاهية الظاهرية التى يعيش فيها الشعب الأمريكى !
كلا ، لا يستطيع الإنسان أن يحيا حياة سليمة بعيداً عن الهداية الربانية .
وكل حياة البشر بعيداً عن المنهج الربانى خلال التاريخ مصداق لهذه الحقيقة
وشاهد عليها .

ولم يستطع العقل البشرى مرة واحدة أن يضع منهجاً متكاملأ خالياً من العيوب ...
وكلما أبرز التطبيق العملى عيباً فى تلك المناهج البشرية حاول البشر إصلاحه بعيب
جديد تظهر نتائجه المنحرفة بعد حين من الزمان .

ذلك أن وضع المنهج الصالح لحياة البشر يحتاج إلى جملة أمور يقصر عنها العلم

البشرى .

يحتاج أولاً : إلى معرفة حقيقية كاملة بالكيان البشرى ذاته . والإنسان - على الرغم

من كل العلم المادى الذى عرفه - ما يزال شديد الجهل بكيانه الذاتى ، كما يقول « ألكسيس كاريل » أحد المفكرين الغربيين ، وهو بالتالى شديد الجهل بما يصلحه وما يصلح له ^(١) .

ويحتاج ثانياً : إلى إحاطة كاملة بماضى الجنس البشرى وحاضره ومستقبله ، والتجارب التى خاضها وأسبابها ونتائجها . وهذا يستحيل استحالة كاملة على الإنسان ، لأن كثيراً من أحداث الماضى مجهول له ، وهو عاجز عن الإحاطة بكل أحداث الحاضر الذى يعيشه ، أما المستقبل فهو غيب موحد أمامه لا يستطيع الاطلاع عليه .

ثم إنه يحتاج ثالثاً إلى أن يكون واضح المنهج غير متحيز ، لا مصلحة له فى أمر من الأمور ، ولا هوى ولا شهوات . وهذا أمر لا يتوفر أصلاً فى الإنسان ، الذى ينجذب دائماً إلى مصلحته الذاتية (كما يراها من وجهة نظره وكثيراً ما تكون خاطئة) وتحركه دائماً الأهواء والشهوات ما لم يلتزم بأمر الله : ﴿ إِنْ الْإِنْسَانُ لَغُلُوفٌ مُّكْوَنٌ ۚ إِذَا مَنَّ اللَّهُ الْفَتْرَ جَزُوعًا ۚ فَإِذَا مَنَّ اللَّهُ الْخَيْرَ مُنْوعًا ۚ وَلَا لِلْأَصْلَيْنِ ۚ ﴾ (سورة المعارج : ١٩-٢٢) .

ويحتاج رابعاً : واضح المنهج إلى علم كامل بمن يطيعه فى السر والعلن ، وإلى قدرة تامة على مجازاة من يطيع ومعاينة من يعصى حتى يكون المنهج محترماً ومطبقاً ، وهذه الأوصاف لا تتوفر فى الجنس البشرى ، فالإنسان لا يرى إلا فى حدود ما تبصر عيناه ، ولا يسمع إلا فى حدود ما يبلغ سمعه .

أما الله عز وجل فإنه يعلم جميع ما يفعله الإنسان من خير وشر قال تعالى :

(١) ألكسيس كاريل طبيب وعالم فرنسى ألف مجموعة من الكتب فى شتى الأبحاث العلمية والاجتماعية ، من أهمها كتاب بعنوان « الإنسان ذلك المجهول » نص فيه على أن الحضارة الغربية تضع مناهج سياسية واقتصادية واجتماعية وفكرية وتعليمية للإنسان وهى تجهل طبيعة ذلك الإنسان الذى تضع له هذه المناهج ! ومن ثم تكون النتيجة هى الخطأ الدائم والاضطراب وهذا هو السبب فى أننا نزيد تأخراً وهمجية كلما ازدادنا تقدماً فى الظاهر . وقال : إن عجز الإنسان عن معرفة طبيعة نفسه هو عجز أصلى لا سبيل إلى التغلب عليه ، وأنه لا مناص لنا من الرجوع إلى حكمة الخالق ، لأن حكمتنا الذاتية قاصرة ومضللة !

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَاسِبُهُمْ وَلَا يَشْعُرُ ۚ وَأَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَوْمَ الْقِيَامَتِ يُكَلِّمُ الَّذِينَ يَشَاءُ وَيُخَذِّلُ الَّذِينَ يَشَاءُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ دَقِيقٌ ۚ (١)

والله عز وجل قادراً على أن يجازي من أطاعه ويعاقب من عصاه على الدقيق والجليل قال تعالى : **فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۖ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۖ** (٢)

ومن ثم فإن المنهج الصالح لا يمكن أن يأتي إلا من مصدر واحد هو الله .

فالله هو الذي يعلم حقيقة الإنسان لأنه هو الذي خلقه سبحانه : ﴿ **أَلَيْسَ كَمَنْ خَلَقَ وَهُوَ**

الطَّيْمُنُ الْخَيْرُ ﴾ (سورة الملك : ١٤) .

والله هو الذي يعلم كل شيء في حياة البشر - وفي الكون كله - علم إحاطة واطلاع :

﴿ **يَعْلَمُ مَا ظَلَمَ فِي الْأَرْضِ وَمَا يُخْرِجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَرْجِعُ فِيهَا وَالْجِبَالُ الْغَوَّارُ** ﴾

(سورة سبأ : ٢) .

﴿ **عَلِيمُ الْغَيْبِ لَا يَفْرُبُ عَنْهُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا يَافِي ذَلِكَ وَلَآ أَخْبَرُ إِلَّا**

فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ (سورة سبأ : ٣) :

والله هو الذي شرع التشريع الحكيم لأنه هو الغني القادر ، وليس محتاجاً إلى شيء مما عند الناس وهو الواهب لهم كل شيء ، وهو الذي لا يزيد في ملكه أن يكون الناس كلهم على أتقى رجل منهم ، ولا ينقص في ملكه أن يكونوا على قلب أفجر رجل منهم كما يقول الحديث القدسي .

والهداية الربانية التي تشتمل على المنهج الصالح لحياة البشر طريقها هو الرسل والرسالات .

ومن ثم تصبح الرسالة حاجة بشرية لا غنى عنها ، ولا استقامة لحياة البشر بدونها .

وكما تكفل الله سبحانه وتعالى — رحمة منه بعباده — بكل ما يحفظ حياتهم من الطعام والكساء والمأوى والعقل المدبر المنظم ، فقد تكفل — سبحانه — كذلك بإرسال الرسل وإنزال الكتب لتستقيم حياة الناس في الأرض .

﴿ **لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ** ﴾

(سورة الحديد : ٢٥) .

(١) سورة المجادلة آية (٧) .

(٢) سورة الزلزلة آية (٧ - ٨) .

(٥) مهمة الرسل

(١) إن المهمة الأولى للرسل هي هداية البشرية إلى معرفة الخالق وتوحيده .

ولقد قلنا من قبل (فى كتاب السنة الأولى) إن الفطرة البشرية بذاتها تعرف وجود الخالق وتوجه إليه بالعبادة . ولكنها كثيراً ما تضل ، فتصور الخالق على غير حقيقته وتشرك معه آلهة أخرى . ومن ثم يرسل الله الرسل ليعرفوا البشر بحقيقة خالقهم وينفوا من عقولهم ونفوسهم التصورات الباطلة عن الله سبحانه وتعالى وما يترتب عليها من انحرافات فى الفكر والسلوك ، وليعالجوا بصفة خاصة قضية الشرك ، وهى أشد ما يتعرض له البشر من انحراف فى تصورهم للخالق وسلوكهم نحوه .

يقول الرسل جميعاً لأقوامهم : ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ ﴾

(سورة الأعراف : ٥٩ ، ٦٥ ، ٧٢ ، ٨٥) .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾

(سورة الأنبياء : ٢٥) .

فالله سبحانه وتعالى واحد أحد : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلِكُلِّ شَيْءٍ

كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ (سورة الإخلاص) .

ومن ثم تنتفى كل بنوة لله أو قرابة لأحد من البشر أو الجن أو الملائكة مما تعج به

خرافات الجاهلية ، ما بادمها وما لا يزال باقياً حتى اليوم .

كذلك ليس الله متمثلاً فى صنم أو وثن أو فى الشمس أو القمر أو النجوم أو غيرها

من الكائنات فكلها مخلوق والله هو الخالق : ﴿ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ ﴾ (سورة فصلت : ٣٧) .

﴿ وَأَنْتُمْ هُمْ رَبِّ الْفَعْرِ ﴾ (سورة النجم : ٤٩) .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادُ أَثَاكُ ﴾ (سورة الأعراف : ١٩٤) .

وكذلك فإن الله لا يشرك في حكمه أحداً ولا يوزع اختصاصاته سبحانه على أحد من خلقه ولا ينتزعونها هم منه قهراً عنه ! .

﴿ لَمْ يَغْنَبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْبِيَاءُ وَأَسْمِعَ مَا لَهُ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴾

(سورة الكهف : ٢٦) .

﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِي شَيْءٍ مِنْ شَرٍّ وَمَا

لَهُمْ مِنْهُمْ مِنْ ظَلِيمٍ ﴾ (سورة سبأ : ٢٢) .

﴿ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾

(سورة الأنبياء : ٢٩) .

كما يقوم الرسل بتعريف البشر باللهم بصفاته كلها وأسمائه الحسنى : ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ

الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا ﴾ (سورة الأعراف : ١٨٠) .

﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ الْغَيْبُ وَالشَّهَادَةُ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ (١١) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ

الْقَدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُبِينُ الْغَزِيْرُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (١٢) هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ

الْحُسْنَى يُسَمِّعُ لِمَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْغَزِيْرُ الْحَكِيمُ ﴾ (سورة الحشر : ٢٢-٢٤) .

فإذا عرف البشر ربهم على هذه الصورة ، وانتهى كل وهم باطل عنه في أذهانهم

وفي مشاعرهم ، بقيت القضية الثانية التي يفضل البشر بشأنها في جاهليتهم ، وهي الطريقة الصحيحة لعبادة الله .

العبادة الصحيحة

إن العبادة ليست فقط في الاعتقاد بأن الله واحد لا شريك له . ولا في تقديم

شعائر التعبد من صلاة ونسك ودعاء لله وحده دون شريك ، بل هناك أمر آخر :

﴿ اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا نَذَكَّرُونَ ﴾

(سورة الأعراف : ٣) .

إنه لا بد من اتباع ما أنزل الله وإلا فقد بطلت العبادة ولم يصبح المعبود إلهاً واحداً وإنما إلهين اثنين . واحد تقدم له شعائر التعبد ، وواحد يشرع وتطاع تشريعاته من دون الله ^(١) : ﴿ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ ﴾ (سورة النحل : ٥١) . تلك هي المهمة الكبرى للرسول جميعاً صلوات الله عليهم وسلامه : أن يهدوا البشرية لإلهها الواحد ، ويدلوهم على الطريقة الصحيحة لعبادته ، وبذلك تقوم حياتهم على قاعدتها الصحيحة : إفراد الله سبحانه وتعالى بالألوهية والربوبية ، وتوحيد العبادة له في الاعتقاد وشعائر التعبد واتباع ما أنزل الله من التشريع ، أى الحكم بما أنزل الله . (٢) وتبعاً لهذه المهمة نجى المهمة الثانية وهي تعريف الناس بالمنهج الحق الذى تستقيم به حياتهم فى الدنيا وينالون به رضوان الله فى الآخرة . وذلك بتبليغ ما أوحى به الله إليهم ، وشرحه وبيانه ، وتعريف الناس بطريقة تطبيقه وتدريبهم على ذلك كما يفعل المعلم مع تلاميذه حتى يطمثنوا أن أتباعهم قد وعوا ما أنزل الله وعياً صحيحاً وطبقوه التطبيق الصحيح .

وهذه المهمة تحتاج منهم إلى الصبر والمثابرة وسعة الصدر لأنها ليست مجرد إلقاء دروس عابرة ، ولا قراءة من كتاب . إنما هي مهمة التعليم ، بكل ما يشتمل عليه التعليم من مشقات .

(٣) ولا تقتصر مهمة الرسل على التعريف والتعليم ، على ما لهذا الأمر من أهمية بالغة فى حياة الناس . إنما تمتد إلى التربية . فليس دين الله معلومات تلقى ثم تحفظ . إنما هو سلوك عملى بمقتضى التعليم الربانى . والسلوك العملى لا يكتسب فجأة ، ولا يكتسب بغير جهد يبذله المربى والمربى على حد سواء . المربى - وهو هنا الرسول - يبذل جهده فى التوجيه والملاحظة والمتابعة والتذكير والصبر الطويل على انحرافات

(١) راجع كتاب السنة الأولى ص ١٠٣ .

الناس حتى تستقيم ، وبذل النصيح باللين والمودة حتى تتقبله النفوس وتعمل بمقتضاه .
والمربى يبذل الجهد فى ضبط أهوائه حتى تستقيم مع المنهج المنزل ، ومقاومة الشهوات
التي تجنح به عن الطريق ، ودفع وساوس الشيطان التي تزين له المعصية والبعد عن
طاعة الله .

ومهمة التربية من أشق المهام التي يقوم الرسل بأدائها . لأن النفوس لا تستقيم
على المنهج الصحيح بمجرد دعوتها إليه ! حتى لو عرفت وآمنت بأنه هو الحق ، وأنه
هو الأولى بالاتباع ! ذلك أن فى النفوس نزعات دائمة التطلع إلى متاع الحياة الدنيا
ولذائذها ، ويحتاج ضبطها داخل حدود الله التي يقول الله عنها : ﴿ يَلِكْ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا
تَعْدُوهَا ﴾ (سورة البقرة : ٢٢٩) . ﴿ يَلِكْ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْدُوهَا ﴾ (سورة البقرة :
١٨٧) ، يحتاج هذا الأمر إلى جهد ليس بالقليل ، وإلى تذكر دائم بالله وخشية منه ، لأن لحظة
الغفلة التي ينسى فيها الإنسان ذكر ربه هي التي يتحينها الشيطان لينفذ منها إلى قلب الإنسان :
﴿ وَأَقْعِدْ نَارَ الْكُفْرِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَفْشَى ﴾ (سورة طه : ١١٥) . ﴿ يَبْنِيءَ آدَمَ لَا يَفْنَى ﴾
الشَّيْطَانُ كَمَا أُنْزِلَ أَنْتُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمْ لِبَاسَهُمْ لِيُرْىَ سَوْآتِهِمْ إِنَّهُمْ يَكْفُرُونَ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ
لَا تَرْوَنَّهُمْ ﴾ (سورة الأعراف : ٢٧) . ﴿ وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا ۝ لَقَدْ
أَنَّ اللَّهَ وَقَالَ أَلِخْتُ مِنَ عَبْدِكَ نَفْسًا مَفْرُوسًا ۝ وَلَا ضَلَالَتَهُ وَلَا مَنِيَّةً وَلَا مُسْتَرْهَنَةً ﴾
(سورة النساء : ١١٧-١١٩) . (إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنَ الْإِنْسَانِ مَجْرَى الدَّمِ مِنَ
الْعُرُوقِ ..) (١)

أ) ووسيلة الرسل - صلوات الله عليهم وسلامه - إلى تربية أتباعهم وتقويم نفوسهم
حتى تستقيم على أمر الله وتتحصن من غواية الشيطان ، تبدأ من ذات أنفسهم ، بأن
يكونوا هم أنفسهم القدوة فى كل ما يدعون الناس إلى اتباعه .

(١) مضاف عليه .

سئلت عائشة رضى الله عنها عن خلق رسول الله ﷺ فقالت : (كَانَ خَلْقُهُ الْقُرْآن)^(١) .

لذلك يختار الله أنبياءه - وهم صفوة الخلق - من ذوى الأخلاق العالية التى تكون نموذجاً للناس : ﴿ وَكُلُّ نَبِيٍّ آخِبَارٍ ﴾ (سورة ص : ٤٨) . ﴿ فَأَتَكَ لَسَلْ خُلِي عَظِيمٍ ﴾ (سورة القلم : ٤) .

ب) ثم إنها تحتاج إلى الصبر والحلم وسعة الصدر : ﴿ وَأَضْيِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْوَةِ وَالْعِيَّى يُدْثُونَ وَجْهَهُ ﴾ (سورة الكهف : ٢٨) . ﴿ قَبَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لَئِنَّكَ لَمِنَ الْوَكُتِّ فَنَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَا نَفَعُكَ مِنْ حَرْلَةٍ فَأَعْفُ عَنْهُمْ وَأَسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِزْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ (سورة آل عمران : ١٥٩) .

ج) وتحتاج إلى التذكير الدائم بالله : ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (سورة الذاريات : ٥٥) .

د) وتحتاج إلى معايشة الناس ومصاحبتهم وملازمتهم لا العزلة والانقطاع عنهم ، حتى تقدّم لهم التوجيهات والتعليمات فى مناسباتها ، وتم الملاحظة والمتابعة المطلوبة التى لا بد منها حتى يستقيم الناس على الخلق المطلوب ، وتكون هناك فرصة لبذر العادات الصالحة فى نفوسهم .

هـ) وتحتاج إلى معرفة بطبائع النفوس ومدخلها لتقديم التوجيه المناسب لها بالطريقة التى تقوّمها ولا تنفرها : (أَمِرْتُ أَنْ أُخَاطِبَ النَّاسَ عَلَى قَدْرِ عُقُولِهِمْ)^(٢) (كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَتَخَوَّلُنَا بِالْمَوْعِظَةِ مَخَافَةَ السَّامَةِ)^(٣) .

٤) ومن مهام الرسل كذلك تعريف الناس بالقيم الحقيقية التى تستحق الاعتبار وتستحق أن يحرص الناس عليها ويسعوا إلى تحصيلها .

(١) رواه مسلم .

(٢) رواه الديلمى بسند ضعيف بلفظ (أَمَرْنَا أَنْ نَكَلِّمَ النَّاسَ عَلَى قَدْرِ عُقُولِهِمْ) .

(٣) رواه مسلم .

إن الناس بطبيعتهم منجذبون دائماً إلى متاع الأرض: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ النَّسُومَةِ وَالْأَنْفَكِ وَالْحَرِّ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ (سورة آل عمران : ١٤) .

وهم يحتاجون دائماً إلى من يرفعهم من ثقله الأرض هذه ويبصرهم بالقيم العليا التي ينبغي أن يتجهوا إليها من صدق وإخلاص وأمانة وتضحية وكرم وشجاعة وإيثار وعدل ، مما يليق بالإنسان الذي كرمه الله وفضَّله وجعله خليفة في الأرض وحمَّله الأمانة الكبرى : ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (سورة البقرة : ٣٠) .
﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَرْدِ وَالْأُخْطَرِ وَرَدَدْنَاهُمْ مِنَ الْفَلَكِ بِمَقَاتِلٍ فَتُكْفَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ (سورة الإسراء : ٧٠) . ﴿إِنَّمَا آتَيْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى الشَّمُورِ وَالْأَرْضِ وَلِجِبَالِهَا يَتِينَ أَنْ يَخُولَهَا وَأَشْفَقْنَا مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ﴾ (سورة الأحزاب : ٧٢) .

وهذه المهمة هي في الحقيقة جزء من مهمة التربية التي أشرنا إليها من قبل ولكننا نفردها بالحديث لأهميتها ، ولأن الرسل يخوضون صراعاً مريراً من أجل تقريرها أولاً ، ثم تربية فريق من الناس عليها .

فإن الذي يصد الناس عن الإيمان بالرسول بادية ذي بدء هو حرصهم على متاع الدنيا الزائف وخوفهم من أن يحرمهم منه الإيمان بالله والحكم بما أنزل الله !
فأما الملأ فإنهم يكونون مستحوزين على سلطان باطل يستعبدون به الناس لأهوائهم ومطامعهم ويخضعونهم بالقوة لذلك السلطان . لذلك فإنهم يحاربون الرسل ويصدون عن دعوتهم ، لأن هذه الدعوة تحرمهم من سلطانهم وطغيانهم برد الحكم لله ونزع حق التشريع من أيدي البشر ورده إلى الله الذي يشرع بالعدل بين الناس ويأمر به : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَمْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ (سورة النساء : ٥٨) .

وأما العبيد فعلى الرغم من أن الرسول المرسل من عند الله يحى لتحريرهم من العبودية للملأ ، ورد إنسانيتهم المسلوقة إليهم يجعلهم عبيداً لله وحده الذي يستحق

العبادة ، لا عبيداً لبشر مثلهم يتحكمون فيهم بالهوى والطغيان .. على الرغم من ذلك فإن الغالبية منهم تصد عن الرسل في مبدأ الأمر ولا تتبع هدايتهم .. وذلك لأنهم يكونون دائماً غارقين في الشهوات التي يأتي دين الله ليظهرهم منها ، ولكنهم - قبل أن يهتدوا - لا يرون ذلك تطهيراً وإنما يرونه - بنفوسهم المنحرفة - حرماناً من اللذائذ الأرض المتاحة ! .

﴿ زَيْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَمْيَؤُهُ الدُّنْيَا ﴾ (سورة البقرة : ٢١٢) .

﴿ وَفِرُوا بِالْأَمْيَؤَةِ الدُّنْيَا وَمَا أَمْيَؤُهُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَسْجِدٌ ﴾ (سورة الرعد : ٢٦) .

﴿ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ① الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ أَمْيَؤَةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ (سورة إبراهيم : ٢-٣) .

وهؤلاء الكفار ، والملا بصفة خاصة ، لا يتركون النبي المرسل يؤدي رسالته ، بل يتعرضون له بالأذى الذي يصل أحياناً إلى التهديد بالقتل أو السجن أو الطرد والنفي ، بل يصل في بعض الأحيان إلى التنفيذ ، كما قتل النبي يحيى والنبي زكريا .

﴿ قَالُوا لَنْ نَمُوتَ وَمَنْ يَمُوتُ لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (سورة الشعراء : ١١٦) .

﴿ قَالَ أَلَسْأَلَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِي لَمَّا جِئْتَهُمْ بِآيَاتِي أَنْ أَتَمُوا مَعَكُمْ مِنْ قَوْمِي أَوْ لَتَعُودَنَّ فِي يَمِينِنَا ② ﴾ (سورة الأعراف : ٨٨) .

﴿ قَالَ لَيْسَ أَخَذْنَاهُ مِنْ غَيْرِهِمْ لِأَجْسَانِكَ مِنَ التَّبَعِينَ ③ ﴾ (سورة الشعراء : ٢٩) .

وهنا - حين يتعرض الرسل لتلك المحنة - فإنهم - بسلوكهم العملي - يبرزون القيمة الحقيقية التي تستحق الحرص عليها والجهاد من أجلها .

لقد كانوا يملكون أن يتخلوا عن عقيدتهم وإيمانهم ويركنوا إلى المسألة فينجوا من العذاب الذي يلقونه هم وأتباعهم والاضطهاد الذي يتعرضون له . أو كانوا يملكون في القليل أن يحتفظوا بالحق الذي عرفوه في دخيلة أنفسهم ويكفوا عن الدعوة التي تزعج الكفار والملا بصفة خاصة ، فلعلهم لا يتعرضون لهم إن بقوا مؤمنين في ذات أنفسهم

(١) فرعون لموسى .

دون أن يدعوا أحداً غيرهم إلى الإيمان !

ولكن الرسل جميعاً يابون ذلك على أنفسهم . يابون أن يشتروا بكلام الله ثمناً قليلاً هو متاع الحياة الدنيا الزائل الزائف الرخيص . يابون أن يتخلوا عن دعوتهم حتى من أجل سلامتهم الشخصية وراحتهم .

بل إن الرسول ﷺ قد عرض عليه الملك والثروة والجاه والسلطان وكل مغريات الأرض فقال قولته الخالدة لعمه أبي طالب : (وَاللَّهِ يَا عَمُّ لَوْ وَضَعُوا الشَّمْسَ فِي يَمِينِي وَالْقَمَرَ فِي شِمَالِي لَأَتْرَكَ هَذَا الْأَمْرَ مَا فَعَلْتُ حَتَّى تَنْفَرِدَ سَالِفَتِي) أو قال : (حَتَّى أَهْلِكَ دُونَهُ)^(١) .

وهنا يقررون - بصورة واقعية مشهودة - أن القيمة الحقيقية العليا هي الإيمان بالله ، والدعوة إلى الله ، والجهاد في سبيل الله . وأن ذلك أفضل وأعلى وأعلى من متاع الأرض كله ، ومن الذهب والسلطان .

عندئذ تتغير القيم والمعايير في حياة الناس .

فأما الأتباع الذين آمنوا فانهم يرون رسولهم الذي اقتدوا به وآمنوا على يديه يصبر على الأذى . في سبيل عقيدته وبصر عليها ولا يتخلى عنها تحت أى ضغط من إغراء أو تهديد ، فيقتدون به ويصبرون معه على الأذى والاضطهاد والتشريد والتعذيب والحرمان ، ويستعلون بالعقيدة على متاع الأرض كله كما استعلى سحرة فرعون بعد إيمانهم ﴿ فَأَلْقَى التَّعْصَةَ تَبَدُّلاً لِّمَا كَانُوا يَكُونُونَ ﴾^(٥) قَالَ آمَنْتُمْ لَوْ قُلْنَا أَنْ أَدْنَى لَكُمُ الْكِبَرُ الَّذِي عَلَيْكُمْ أَلْتَصِرُ فَلَا تُقِطَعُنَّ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلُكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَا مِلَّتْكُمْ فِي جُدُوعِ الْفَخْلِ وَلَقَدْ كُنَّا أَتْبَاءً أَشَدَّ عَنَابًا وَأَنَّى^(٦) قَالُوا لَنْ نُؤْمِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرْنَا فَافْضِرْ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا^(٧) وَإِنَّا إِنَّمَا بَرِّئْنَا الْيَفُورَ لَنَا خَطْبًا وَمَا أَكْرَفْتَنَا عَلَيْكَ مِنَ الْيَفُورِ وَاللَّهُ خَبِيرٌ وَأَنَّى^(٨) (سورة طه : ٧٠-٧٣) .

وأما بقية الناس فانهم - تدريجياً - يستيقظون من غفلتهم ، إذ يرون قوماً من الناس يهددون في أمنهم وراحتهم ، وفي كل المتاع الذي يحزنون هم عليه ويرون أنه

(١) السيرة النبوية لابن هشام .

غاية الحياة كلها وأعلى ما فيها ، ومع ذلك لا يتخلون عن إيمانهم وعن عقيدتهم . فيتعلمون أن هناك فى الحياة ما يحرص عليه أكثر من المتاع ، وما يضحى من أجله بالمتاع . وذلك هو رضوان الله ومتاع الآخرة : ﴿ وَمَا هِيَ إِلَّا نُفُوسٌ مُّذْنَبَةٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (سورة العنكبوت : ٦٤) . ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَلَٰكِنَّا نَمُنُّ بِمَا نَعِدُهُ ﴾ (سورة آل عمران : ١٨٥) . وعندئذ يعدلون معايير حياتهم ليرتفعوا كما ارتفعت تلك الفئة المؤمنة ويدخلون فى الإيمان .

وأما الذين أصروا على الباطل واستحبوا الحياة الدنيا على الآخرة ورفضوا الهدى الربانى فأولئك مآلهم الدمار والبوار إما فى الآخرة وإما فى الدنيا والآخرة معاً : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلُوا قُرْبَانًا كَمِثْلِ ذُرِّيَّتِهِمْ فَأَخَذْنَا مِنْهُم بِعَهْدِهِمْ فَمِنْهُمْ مُّذْنَبَةٌ ﴾ (سورة إبراهيم : ٢٨-٣٠) . وهكذا تنقرر القيم العليا - فى ذروتها - من خلال الصراع الذى يخوضه الرسل وأتباعهم بين الحق والباطل ، ويتميز النفع الحقيقى من الزيف : ﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ﴾ (سورة الرعد : ١٧) . ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ ﴾ (سورة البقرة : ٢٥) . ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ لَآخِرُ مَا يُخَوِّدُ الْكَافِرِينَ لَٰكِنَّا نَمُنُّ بِمَا نَعِدُهُ ﴾ (سورة الحج : ٤٠) .

(١) أى الحياة الحقيقية التى تستحق أن يحرص عليها والحاوية للمتاع الحقيقى .

(٦) أثر الرسل فى حياة الناس

الرسل أعظم الناس أثراً فى التاريخ الإنسانى ، ذلك لأنهم يحملون معهم الإصلاح الجذرى الذى يصلح النفس البشرية ويقومها . ولأنهم هم القدوة الصالحة لكل خير . لقد كان فى تاريخ البشرية « قادة » كثيرون و« زعماء » و« مصلحون » . ولكنهم - ما عدا القلة المؤمنة منهم - كانوا محدودى الأثر فى حياة الناس . ولا يعدو تأثيرهم - مهما عظموا - الجيل الذى عاشوا فيه ، أو على الأكثر بضعة أجيال قليلة بعدهم . والسبب فى ذلك واضح :

(١) فهم غالباً ما يتصدون لحل مشكلة جزئية فى حياة أقوامهم . ويحلونها فى حدود البصيرة البشرية المحدودة الآفاق .

(٢) ثم إن أشخاصهم لا تخلو قط من انحراف من الانحرافات البشرية العديدة ، ومن نقص وهبوط فى بعض الجوانب .

ولهذين السببين معاً يكون تأثيرهم - مهما عظم - محدود النطاق . انظر إلى الزعيم السياسى - أى زعيم سياسى فى حياة البشرية - ما مهمته التى يسعى إلى تحقيقها ؟

إن مهمته محصورة فى تجميع أمته من شتات . أو تخليصها من نفوذ أجنبى مسيطر عليها . أو السعى إلى تغليبها على الأمم الأخرى .

لكن ، ما القيم والمعايير التى يبنى جهاده عليها ، ويوجه أمته إليها ؟

إنها - مهما كانت - قيم ومعايير محدودة لأنها مرتبطة بمتاع الأرض القريب ،
منقطعة عن الله والآخرة . ومن ثم فهي قيم هابطة وإن بدت مرتفعة في أعين الناس
في فورة حماسهم السياسية التي يدفعهم زعماءهم إليها ! وستظل أخلاق الناس معوجة
في مجموعها وإن حسنت بعض جزئياتها ، لأنها أخلاق محكومة بتلك القيم الأرضية
المحدودة . وستظل النفوس في انحرافها وإن ارتفعت مؤقتاً في فورة حماسها ، لأن
الأهداف التي تسعى إليها أهداف لا تتعلق بأصل الوجود الإنساني بقدر ما تتعلق بعارض
من عوارض هذا الوجود . وقد يصلح العارض ويظل الأصل بعيداً عن الصلاح .
لذلك تقرأ سيرَ الزعماء السياسيين في تاريخ البشرية - غير القلة المؤمنة - وتبحث
عما خلفوا في الأرض فلا ترى إلا آثاراً كالأطلال !

واقراً سيرة أى قائد حربى من عظماء التاريخ .. فما المهمة التي قام بها وما الآثار
التي خلفها ؟

إن مهمته محصورة في قيادة الجند وتوجيههم إلى القتال ، والانتصار بهم في
أكبر قدر من المعارك التي يخوضونها .

نعم ! ولكن فيم كانت الحرب ذاتها ؟ لأى هدف خاضها ، ولأى شيء انتصر
بجنده فيها ؟

أمن أجل الحق والعدل ؟ أمن أجل تثبيت مثل أعلى وإقرار وجوده في حياة
البشر ؟ أم من أجل الغلبة وتوسيع الرقعة الأرضية وشهوة السيطرة على الآخرين وإذلالهم ؟
وفي أى شيء يختلف الغالب والمغلوب ؟ أم أنهما سواء ، كل منهما يتمنى أن يفتك
بالآخرين لو استطاع ؟ !

ما سمعنا - في غير القلة المؤمنة من قواد التاريخ - أن أحداً منهم قام من أجل مثل
أعلى يريد إقراره في الأرض ، أو قيمة عليا يجاهد من أجلها ، ليرفع من نفوس البشر
ويقربهم إلى مستوى الإنسانية ! إنما الذى يغلب عليهم هو شهوة الفتح وزهو الغلبة
والمطامع الأرضية المتمثلة في توسيع الرقعة وزيادة الثروة على حساب المغلوبين وه ويل

للمغلوب ! كما قال واحد ممن يحسبون قادة في التاريخ^(١) ، لأن الحرب ليست لها أخلاق ! ولا قانون يحكمها إلا قانون الغاب : القوى يأكل الضعيف !

لذلك تبحث عن آثارهم الباقية في التاريخ فلا ترى إلا بعض البطولات الفردية في القتال ، ولكن لا تجد قيمة باقية . وحتى الإمبراطوريات الضخمة التي يكونونها على عهدهم سرعان ما تتفكك وتنطوى لأنها لا تمثل « قيمة » إنسانية ، إنما تمثل شهوات بشرية فحسب !

وانظر سير « المصلحين » الاجتماعيين .. كيف يصلحون ؟ وما آثارهم الباقية في التاريخ ؟

أغلبهم - فيما عدا القلة المؤمنة المهتدية بهدى الله - ذوو نظرات جزئية ، تتفق مع جزئية التفكير البشرى وعدم قدرته على الإحاطة ، فضلاً عن الجهل الأصيل بطبيعة النفس البشرية ودروبها ومنحنياتها ، وما يصلحها وما يصلح لها !

أغلبهم يتناولون مشاكل اجتماعية جزئية يجلدونها قائمة في مجتمعاتهم دون أن يتعمقوا إلى الأصول التي تنشأ عنها المشكلات . ثم يحلون حلولا جزئية كذلك بغير تقويم شامل لنفوس البشر ذاتها التي نشأ من انحرافها ما نشأ من خلل في تلك المجتمعات . فضلاً عن التعسف في معالجة الأمور في كثير من الأحيان لما ركب في طبع الإنسان من عجلة : ﴿ خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ ﴾ (سورة الأنبياء : ٣٧) . ولرغبته في أن يرى الثمرة السريعة في عمره المحدود .

وكثيراً ما يحدث - كما وقع في قضية تحرير المرأة في أوروبا - أن « الإصلاح » لا يكون جزئياً وقاصراً فحسب ، بل يكون على حساب جوانب أخرى يفسدها ذلك الإصلاح المزعوم ويخربها . فرفع الظلم الواقع على المرأة الغربية ، دون الرجوع إلى الحلول الصحيحة المتضمنة في المنهج الرباني ، قد أدى - كما نراها اليوم - إلى إشقاء

(١) هو الأمبراطور « غليوم » أمبراطور ألمانيا وأحد قادتها العسكريين .

المرأة ذاتها بإنها كها في العمل خارج البيت بالإضافة إلى تكاليف الأسرة والأولاد ، وتمزيق أعصابها بين أبنائها المثبثين بها وبين مقتضيات العمل في الخارج ، كما أدى إلى تحول المرأة إلى سلعة في السوق ، رخيصة الثمن لمن أراد . وذلك فضلاً على الفساد الخلقي الذي ملأ المجتمع ، وتفسخ روابط الأسرة وضياع النشء الجديد الذي ليس له أم ترعاه وتربيته التربية الصحيحة .

وليس هذا هو النموذج الوحيد لضلال « المصلحين » وتقديمهم للحلول التي تفسد أكثر مما تصلح . فإليك مثلاً آخر في اتجاه آخر .

لقد قام « مصلحون » ينددون بالظلم الواقع على العمال في المجتمع الرأسمالي ، وينادون بضرورة رفع هذا الظلم وإصلاح الانحراف . وكان كلامهم صحيحاً من حيث المبدأ بصرف النظر عن صحة الأدلة التي يستدلون بها أو عدم صحتها . فإن الرأسمالية نظام جاهلي منحرف ، يقوم على أساس المعاملات الربوية التي حرمها الله ، ويؤدي حتماً إلى أن فريقاً قليلاً من الناس يظل يأكل الربا أضعافاً مضاعفة كما وصف القرآن ، فيزدادون ثراء على حساب الكثرة المستضعفة التي تظل تهبط مواردنا على الدوام وتتضاءل ، فيقع عليها الظلم المتزايد ، بينما الفئة القليلة تعيش في الأرض فساداً بثراتها الفاحش تفسد به الأخلاق ، وتنتهك به الأعراض ، وتدوس به على كرامة الآدميين . ويزيد الأمر سوءاً في تلك المجتمعات الجاهلية أن هذه الفئة الطاغية هي التي تشرع - لأن تلك المجتمعات لا تتحاكم إلى شريعة الله - ومن ثم فإنها تضع التشريعات التي تضمن لها مزيداً من الثراء ، وتوقع مزيداً من المظالم على المستضعفين !

فالرأسمالية انحراف جاهل ظالم . هذا صحيح .

وقد قام « المصلحون » ينددون بمظالمه ويطالبون بضرورة إصلاحه .

ولكن كيف أصلحوه ؟!

إنهم - وهم لا يتبعون منهج الله ولا يستمدون منه الحلول لمشاكلهم - لا بد أن

يخرجوا من مأزق إلى مأزق ، ومن انحراف إلى انحراف .

لقد قالوا إن الملكية الفردية هي سبب الظلم كله فلنُلغِ الملكية الفردية ! ولننشئ مجتمعا بلا تملك ! أما الذين في أيديهم الملكية اليوم فلا بد من إبادتهم بادية ذى بدء ، وجعل الملكية كلها في يد الدولة - نيابة عن المجتمع - والدولة يشرف عليها الحزب الشيوعي الذي يعتق هذه الأفكار !

وماذا كانت النتيجة العملية لتطبيق هذه المبادئ ؟!

لقد أصبح الناس جميعاً أجراء للدولة ، هي التي تعين لهم أعمالهم ، وتحدد لهم أجورهم ، وساعات عملهم ، ومكان عملهم كذلك . وبالتالي لم يعد أحد يجرؤ أن يفتح فم بكلمة نقد واحدة للدولة ، والا ففقد عمله فوات من الجوع إن لم يتعرض للهلاك في السجن والتعذيب والتشريد ! وبعبارة أخرى أصبح الناس عبيداً على نطاق واسع ، وأصبحوا من خوف الموت الحسى في موت معنوى ، تحت ضغط الحديد والنار والتجسس الذي يجعل الأب لا يثق بابنه والأخ لا يثق بأخيه !

وفي الوقت الذي تستعبد فيه الدولة الناس لقاء لقمة الخبز وعيش الكفاف ، يمرح أعضاء الحزب الشيوعي الحاكم في بحبوحة من العيش وتترف لا يقل بذخاً عن الرأسمالين في الغرب الرأسمالي !

وهكذا يفعل « المصلحون » الذين لا يستملون من منهج الله .

• • •

أما « الفلاسفة » فلهم شأن آخر !

إنهم قوم يعيشون في « الأبراج العاجية » كما يقال ! أى يعيشون في عالم الأفكار المجردة في عزلة عن الممارسة وعزلة عن الناس .

إنهم ينظرون إلى المجتمع البشرى فيرون فيه مجموعة من العلل والانحرافات فيحللون أسبابها ويفكرون في علاج لها . وبصرف النظر عن صحة تحليلاتهم أو فسادها وجدوى حلولهم أو عدم جدواها ، فإنهم هم أنفسهم لا يقومون بتجربة عملية لها في

عالم الواقع . إنما هي أفكار . مجرد أفكار . عمل يتم كله في داخل الذهن ولا يمتد إلى دنيا الواقع .

وقد يتوصل بعضهم بالفعل إلى نظرة عميقة شاملة ، ودراية - نظرية - بالنفس البشرية وطبيعتها ، ولكنهم - وهم بعيدون عن ميدان التجربة الواقعية ، والاتصال المباشر مع الناس - لا يستطيعون أن يقدموا حلولاً واقعية قابلة للتطبيق ، فيظل جهدهم محصوراً في تقديم أفكار جميلة براقه ، قد تعجب القارئ أو السامع لأول وهلة ، ولكنها نادراً ما تحركه لعمل شيء في عالم الواقع . فيظل المجتمع بعلله وانحرافاته على ما هو عليه ، وتظل أفكار الفيلسوف البراقة مثلاً معلقة في الفضاء ! وتبحث في التاريخ عن الآثار الباقية لهؤلاء الفلاسفة فلا تجد إلا تأثيرات فردية ، ولا تكاد تجد مجتمعاً تحول عن طريقه أو قوم انحرافاته نتيجة فكر فكر فيه فيلسوف ! إلا أن يعتق فكره قوم من الناس فيتحول في نفوسهم إلى عقيدة يقومون بالدعوة إليها والجهاد في سبيلها ، وعندئذ تؤثر - لا بذاتها ، ولا بعمل الفيلسوف الذي فكر فيها - وإنما بجهد الذين اعتنقوها ودعوا إليها . وكثيراً ما يتضح عند التطبيق أن أفكار الفيلسوف في صورتها التي قدمها بها غير قابلة للتطبيق العملي ، وأنها في حاجة إلى تعديلات جوهرية أو صياغة جديدة ليتمكن الاستفادة بها في عالم الواقع .

• • •

أما الأنبياء فشأنهم مختلف .

(١) إنهم أولاً لا يتكلمون بأهوائهم ولا بتصوراتهم الخاصة ، ولا بتصورات البشر القاصرة المحدودة : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ ۝ إِن هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ (سورة النجم : ٣-٤) . لذلك فإن ما يدعون إليه الناس من قيم ومثل ومبادئ وأخلاق وسلوك عملي ليس متأثراً برؤيتهم الشخصية كالزعماء و« المصلحين » ولا بمصالحهم الذاتية أو أطماعهم أو أحقادهم (كما تقوم الشيوعية على الأحقاد !) ولا بالقصور البشري

الذى يعجز عن الإحاطة ، ومن ثم يعجز عن تقديم الحل الصحيح .

(٢) وهم ثانياً - بالتوجيه الربانى - لا يتعاملون مع المشكلات الجزئية العارضة ، إنما يتعاملون مع الجذور الأصلية العميقة . يتعاملون مع النفس البشرية مباشرة فيقومون انحرافات من الجذور قبل أن يتجهوا لإصلاح المظاهر الخارجية للانحراف .

إنهم لا يعالجون المشاكل الاقتصادية منفصلة كما صنعت الشيوعية . ولا المشاكل الاجتماعية منفصلة كما صنع دعاة تحرير المرأة . ولا المشاكل السياسية منفصلة كما يصنع الزعماء السياسيون فى بلادهم .. فتكون الحلول كلها غير مجدية جدوى حقيقية لقصورها وجزئيتها ، فضلاً عن إفسادها لجوانب الحياة الأخرى ، لأن كل زعيم أو مصلح من هؤلاء حين يحاول علاج الجزئية الخاصة به يغفل عن آثارها فى الجوانب الأخرى ، أو لا تهتم الجوانب الأخرى - وخاصة الأخلاقية والروحية - كما قال قائلهم : الاقتصاد لا علاقة له بالأخلاق ! والسياسة لا علاقة لها بالأخلاق !

أما الأنبياء المؤيدون بالوحي فلا يقعون فى هذا الخطأ الفادح الذى يقع فيه الزعماء والمصلحون . إنما يعنون بتقويم النفس من أساسها ثم يقدمون الحلول الشاملة التى يوحى بها الله إليهم لعلاج انحرافات المجتمع ، فيقوم الإصلاح على أساس مكين من داخل النفس ، فضلاً عن تكامل هذا الإصلاح المتمثل فى منهج شامل ، لا يحل جزئية ويدع جزئية أخرى ، كما أنه لا يحل جزئية على حساب جزئية أخرى . فلا ينشأ عنه الخلل الذى تتسم به مناهج البشر الجاهلية .

(٣) ثم إن الحلول التى يقدمونها - بالتوجيه الربانى - ليست أفكاراً إصلاحية كأفكار الفلاسفة ، وإنما هى مناهج عملية مترلة من لدن اللطيف الخبير الذى يعلم كل شئ عن النفس البشرية والمجتمع البشرى ، ويعلم الطريقة الصحيحة التى تستقيم بها حياة البشر على الأرض : ﴿ قُلْ أَنتُمْ أَعْلَمُ أَمْرًا ﴾ (سورة البقرة : ١٤٠) .

﴿ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾

(سورة البقرة : ٢١٦)

٤) والأنبياء بنواتهم هم القدوة الحية التي تتمثل فيها باديء ذي بدء المبادئ والقيم والأفكار التي يدعون إليها . فالله سبحانه وتعالى يختار أنبياءه ورسله من الأخيار ، ثم يصوغ نفوسهم الصياغة التي تؤهلهم لحمل الحق الذي يبلغونه للناس (أدبني ربِّي فأحسن تأديبي) ^(١) فليس فيهم النقائص ونقط الضعف التي تعتور الزعماء والمصلحين من البشر العاديين ، والتي لم ينج منها زعيم واحد ولا قائد ولا مصلح خلال التاريخ البشري كله . إنما يعثمهم الله أنقياء أنقياء ، طاهرين مطهرين فيكونون هم النموذج الذي يحتذى ، ولا تقع الفرقه - كما تقع دائماً في حياة المفكرين والمصلحين - بين ما يفعلونه وما يدعون إليه .

٥) والأنبياء ليسوا كالفلاسفة الذين يقدمون الأفكار وهم محتجبون عن الناس في أبراجهم العاجية . إنما هم يختلطون بالناس ويدعونهم دعوة مباشرة إلى الأفكار والمبادئ والقيم التي يحملونها . وأهم من ذلك أنهم يربون أتباعهم عليها . وذلك هو الجهد الحقيقي الذي يبذله الأنبياء ويؤتي ثماره في واقع الأرض . إن الأفكار التي يحملونها لا تظل مثلاً معلقة في الفضاء ، إنما تتحول إلى واقع حي من خلال أشخاصهم أولاً ثم من خلال هذا الفريق من البشر الذين يربونهم . ومن ثم يصبح الأمر الذي يدعى الناس إليه واقعاً مشهوداً يعرف الناس صورته الواقعية ، فيقبلون عليه حين يرون ثماره الجميلة متمثلة في واقع بشري يرونه أمام أعينهم .

٦) ثم إن الوسيلة الحقيقية العظمى التي يسلكها الأنبياء في إصلاح الحياة البشرية وتقويمها هي ربط القلب البشري بالله ، يتطلع إليه ويخشاه . وتلك أفعال الوسائل في الإصلاح وأبعدها أثراً في واقع الحياة . وذلك قبل اللجوء إلى الوسائل الأخرى كلها التي تستخدم عادةً في تنظيم الحياة البشرية . ومن أجل ذلك يكون بناؤهم راسخاً شديد الرسوخ لأنه يعتمد على عنصر أصيل عميق في داخل النفس . بينما لا تملك

(١) سئل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عن هذا الحديث فقال « الحمد لله المعنى صحيح لكن لا يعرف له إسناد ثابت » . وقد أورده السيوطي مروياً عن ابن مسعود .

النظم الأخرى كلها - التى تقوم على مناهج البشر - إلا أن تغرى الناس بالمنافع والمصالح أو ترغمهم بقبضة السلطان . ومن ثم تنهار تلك النظم بمجرد أن تنتهى المنافع والمصالح أو تضعف قبضة السلطان . بينما يبقى البناء الذى يبنيه الأنبياء على مدار التاريخ راسخ الأركان .

٧) وكما ينفرد الرسل بمنهجهم الإصلاحى الشامل - الموحى به من عند الله - وبالطريقة التى يشتون بها دعائم هذا المنهج فى واقع البشر عن طريق القدوة والتربية ، فإنهم ينفردون كذلك بالعلم النافع الذى يقرب من الله وينجى من عذابه يوم القيامة . إن « المصلحين » جميعاً - فيما عدا القلة المؤمنة منهم - لا يوجهون البشر إلا إلى النفع القريب الحاصل فى الحياة الدنيا ، ولا يوجهونهم أبداً إلى الله واليوم الآخر ! إن آفاقهم محصورة فى الحياة الدنيا ، بحكم أنهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر . لذلك فإن توجيهاتهم لأقوامهم لا تخرج عن نطاق آفاقهم المحدودة . كما أنهم - بحكم بشريتهم من ناحية ، وبعدهم عن الإيمان بالله من ناحية أخرى - يوجهون أقوامهم إلى الالتفاف حول أشخاصهم ، أو - فى أفضل الأحوال - حول مبادئهم وقيمهم المحدودة الآفاق .

وهذا العلم الذى يعلمونه لأقوامهم عن طريق توجيهاتهم ومناهجهم قد يكون مفيداً فى الحياة الدنيا (على فرض خلوه من العيوب وهو عادة لا يخلو منها !) وقد يعطى الناس بعض ما يشتهونه فى الحياة الدنيا من متاع يتمثل فى المأكل والمشرب والملبس والمسكن والسلامة والصحة والرفاهية والمال والأولاد ..

ولكنه - على فرض خلوه من النقائص والعيوب والانحرافات . وتحقيقه لمصالح الناس فى الأرض^(١) - فإنه ينتهى بأصحابه إلى البوار ، لأنهم كما وصفهم القرآن :
(١) رأينا من الواقع التاريخى ، والتاريخ المعاصر بصفة خاصة . أن هذا لا يتحقق بتمامه أبداً فى واقع البشر . فن ناحية ينقسم الناس فى الجاهلية دائماً إلى سادة وعبيد . ومن ناحية أخرى تتحقق بعض المصالح دائماً على حساب المصالح الأخرى . وتصلح بعض الأمور بفساد أمور أخرى ! ولكننا نفترض هذا جدلاً .

﴿ يَسْكُنُونَ ظَهْرَ مَرَاتِنِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَفِلُونَ ﴾ (سورة الروم : ٧) .

إن حياة الإنسان لا تنتهى بانتهاء الحياة الدنيا ، وإنما تنتهى مرحلة منها فحسب ، وتبدأ مراحل أخرى تنتهى بالبعث والنشور ، والامتحان الذى يكرم المرء فيه أو يهان ، فيصل إلى النعيم الخالد أو العذاب المقيم .

ولو كانت الحياة الدنيا هى نهاية المطاف لصحت دعوى أولئك المصلحين فيما يدعون إليه من ألوان « الإصلاح » ! وإن كانت فى واقع الأمر لا تحقق كل مصالح الناس وتورث كل جيل مفاصد الجيل الذى قبله !

فكيف والحياة التى يحيها الناس على الأرض هى أقصر مراحلها ؟! سنوات معدودة هى سنوات العمر المحدود ، وبعد ذلك من الآماد ما لا يحصيه إلا الله ! ثم بعد ذلك الخلود !

ألا إنه هو الخسران المبين حين ينحصر تفكير الناس فى الحياة الدنيا ، ولو أصلحوا كل أمور الحياة الدنيا واستمتعوا فيها بكل ما يشتهون ﴿ أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ۖ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ۖ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَمْتَعُونَ ﴾ (سورة الشعراء : ٢٠٥ - ٢٠٧) . فكيف وهم لا يصلحون كل أمور الأرض ؟ وكيف ونعم الأرض دائماً مشوب ، وأقل عيوبه القلق الدائم عليه من تقلب الأحوال ، وهى دائماً تتقلب ، ومن الموت وهو لا بد أن يحيى ؟!

إنها الخسارة المضاعفة .. فى الحياة الدنيا وفى الحياة الآخرة : ﴿ وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَيْبٌ ۖ وَإِنَّ أَذَارَ الْآخِرَةِ لَيُلْجِئُ الْخَوَانَ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ (سورة العنكبوت : ٦٤) .

لذلك فكل علم الأرض لا ينفع ، إذا انقطع بالإنسان عن الله واليوم الآخر . إنما العلم النافع هو الذى ينفع الناس فى دنياهم وآخرتهم معاً ، فيحقق لهم مصالحهم الحقيقية فى الدنيا ، ويوصل بهم إلى دار الأمان فى الآخرة : ﴿ وَأَدْخِلْ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ۖ ﴾ (سورة إبراهيم : ٢٣) . ﴿ وَفِي مَا أَشْبَهَتْ أَنْفُسَهُمْ خَالِدُونَ ۖ لَا يَخْرُجُ عَنْهَا الْكَفَرُ ۖ ﴾

وَتَلَقُّهُمْ السَّلاَمَةُ مَلَكًا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿ (سورة الأنبياء : ١٠٢ - ١٠٣) .

العلم النافع هو المعرفة اليقينية بالله واليوم الآخر ، واتباع ما أنزل الله فى الحياة الدنيا . هذا هو الذى يضمن للناس حاضرهم ومستقبلهم . فأما حاضرهم فيصلح ويستقيم باتباع المنهج الربانى ، وأما مستقبلهم فيصلح بدخول الجنة التى وعد الله بها المتقين من عباده ، الذين آمنوا به فى الحياة الدنيا واستقاموا على أوامره وانتهوا عن نواهيه . وعندئذ يكون العلم الأرضى كله - من طب وهندسة وعلوم ورياضيات وكيمياء وفيزياء .. إلخ - محقق الفائدة لأنه يعين الناس على تحقيق المنهج الربانى ولا يفتنهم عن الآخرة . وإلا فإنه - هو ذاته - يصبح علماً ضاراً إذا استخدم فى تزيين الحياة الدنيا بحيث تفتن الناس عن عبادة ربهم الحق ، وتنسيهم ثواب الله وعقابه ، وتغرقهم فى ضلال الشهوات !

وهذا العلم النافع ينفرد به الأنبياء والرسل لأنهم يتلقونه تلقياً مباشراً من الله سبحانه وتعالى عن طريق الوحي ، ويؤمنون به إلى درجة اليقين ، ثم يدعون الناس إلى الإيمان به لتصلح دنياهم وآخرتهم .

أما الدعاة الآخرون والمصلحون ، الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ، فإنهم يرفضون هذا العلم النافع ابتداء ، فكيف يعلمونه للناس ؟ ويستنكفون عن عبادة الله فكيف يدعون إلى عبادته ؟

وبالعلم النافع وحده صلحت أحوال الناس خلال التاريخ ، واستخدم العلم الأرضى فى ظله فى نفع الناس وفى الخير . وبغير هذا العلم - الذى تفرد به الأنبياء والرسل ، ودعا به الدعاة المؤمنون من بعدهم - ظل العلم الأرضى ينفع ويضر ، ويزداد ضرره عن نفعه على مر الأجيال ، حتى يصبح فى الجاهلية المعاصرة كما نراه اليوم : أداة للإفساد والتدمير أكثر مما هو أداة للإصلاح والتعمير !

(٧) فضل الرسل على تقدم البشرية

حين نتحدث عن تقدم البشرية يتبادر إلى ذهن البعض منا - بتأثير الجاهلية المعاصرة - أننا سنتحدث عن التقدم المادى من سيارات وطائرات وما إليها من الوسائل والأدوات .. ! ولا ينبغي أن يظن هذا الظن من ينظر إلى الأمور نظرة عميقة ونظرة جادة !

فالتقدم المادى جانب من التقدم البشرى ، نعم ، مهم وضرورى ، ولكنه ليس هو الذى يضع الإنسان فى مكانه من سلم الرقى « الإنسانى » . إنما الذى يضعه فى ذلك المكان هو مقدار ما يشتمل عليه من القيم والمبادئ « الإنسانية » تصوراً وسلوكاً ، وفكراً ومشاعر . ولنعقد مقارنة سريعة تحسم لنا الحكم فى هذه القضية : هل مجتمع الصحابة رضوان الله عليهم أفضل فى المقياس الإنسانى أم المجتمع الغربى المعاصر بما يعج به من مفساد ومظالم واضطرابات وانحرافات ؟

أيهما أقرب إلى صورة الإنسان « فى أحسن تقويم » كما خلقه الله وكما أراده أن يكون : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ٥ تَذَرْدَنَّهُ أَسْفَلَ سَوِيلَيْنِ ٦ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ٧ ﴾ (سورة التين : ٤ - ٦) .

أيهما أحب إلى الله وأحب إليك : ذلك الصحابى الجليل فى تقواه وورعه ، وصدقه وأمانته ، ونظافة سلوكه ونظافة مشاعره ، وعدله واستقامته ، وتواضعه لله عز وجل مع ترفعه عن السفاسف والدنايا ، وشجاعته فى الحق ، وحرصه على الموت فى سبيل الله والعقيدة التى يعتنقها ، وفى سبيل تحرير الناس من عبادة العباد وعبادة

الشهوات إلى عبادة الله الواحد بلا شريك .. أم ذلك الغربى المتفش بما لديه من علم
ظاهري المتجبر في الأرض بما لديه من إمكانات مادية ، الهابط في حمأة الشهوات ،
التردى في تعامله مع نفسه وتعامله مع الآخرين إلى عالم الحيوان : ﴿ تَرَدَّدَتْهُ أَنْفَلَ
سَوِيلَيْنِ ﴾ . لعل القضية لا تحتاج إلى بيان !

حقيقة أن المسلمين - بعد أن استقر لهم أمر الدين ، ومكنوا في الأرض - قاموا
يسعون إلى تحصيل العلم الأرضي والتقدم المادى ، وبلغوا فيه شأواً لم يبلغه غيرهم
في وقتهم ، شعوراً منهم بأن هذا واجب عليهم للقيام بعمارة الأرض بالحق كما أمرهم
الله .. ولكن ظل المقياس الذى يقيسون به حياتهم هو المقياس « الإنسانى » لا المقياس
المادى . المقياس الذى وضعه الله العليم الحكيم لتقويم « الإنسان » ، لكى يكون « فى
أحسن تقويم » منفرداً بين خلق الله بالخلافة فى الأرض وحمل الأمانة الكبرى التى
أشفت من حملها السموات والأرض والجبال : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ
وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾

(سورة الإسراء : ٧٠) .

فحين نتحدث عن تقدم البشرية فإنما نتحدث عن تلك القيم والمبادئ التى تجعل
من الإنسان إنساناً بصرف النظر عن حظه من التقدم المادى : كيف يتعامل مع ربه .
كيف يتعامل مع نفسه . كيف يتعامل مع الآخرين .

وفى هذا المجال - وهو مجال الحياة الأصيل فى الحقيقة - نجد أن الفضل الأكبر
هو للأنبياء والرسل قبل كل الخلق ، لأنهم هم - بما أوحى إليهم ربهم ، وبما جاهدوا
فى سبيل الله - هم الذين قرروا تلك المبادئ والقيم فى واقع الأرض ، وجعلوها
حقيقة واقعة فى عهدهم ، وراثاً يتناقل من بعدهم .

ونستطيع أن نقول فى اطمئنان إن كل ما عرفته البشرية من خير حقيقى مرجعه
إلى الوحي الربانى الذى حمله الرسل ودعوا إليه ، ووثقوا وجوده الواقعى فى الأرض
بجهادهم ، وإن كل ما أصاب البشرية من شر كان سببه الانحراف عن تعاليم الرسل

وعلم الاقتداء بهم . وحين يختلط الحق بالباطل كما هو اليوم ، ويختلط الخير بالشر كما يحدث فى كل جاهلية ، يكون ما بقى من الخير فى الأرض - أياً كان مقداره - راجعاً إلى الأنبياء والرسل ، وما فيها من الشر راجعاً إلى الناس .

إن كل ما تتشلق به البشرية اليوم من الحق والعدل والحرية والإخاء والمساواة مستمد - فى أصله - من تعاليم الرسل ، مع فارق واحد : أنه كان على يد الرسل حقيقة واقعة ، ربوا عليها أتباعهم ، وجعلوها سلوكاً واقعياً فى حياتهم ، وهى على يد الأفاقين اليوم كلام جميل يخدع به الناس دون أن يكون له رصيد من الواقع !

وإن الفترات المشرقة فى تاريخ البشرية كله هى الفترات التى سادت فيها تعاليم الرسل وكانت واقعاً يعاش بالفعل ولا يكفى بأن يردد بالقول .

وتلك الفترات هى فترات الحضارة الحقيقية والمدنية الفاضلة . وما عداها فهو حضارات جاهلية زائفة ، يختلط فيها الخير بالشر ، ثم يظل الشر يترايد حتى يصبح هو الغالب على حياة الناس ، ويظل يأكل ما بقى من خير متضائل حتى ينهار البناء كله على من فيه كما يوشك أن يحدث اليوم .

ولن ينقذ البشرية من الدمار اليوم - ولا فى أى يوم - إلا أن تعود إلى تعاليم الرسل تطبقها فى واقع حياتها ، وإلا أن تعود مسلمة إلى ربها : ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ الْأَنْبِيَاءُ﴾ (سورة آل عمران : ١٩) . ﴿وَمَنْ يَنْتَهِ عَمَّا إِلَيْكُمْ دِينًا فَكَانَ قَبْلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْأَجْرَيْنِ مِنَ الْخَيْرَيْنِ﴾ (سورة آل عمران : ٨٥) .

(٨) مهمة التعليم الأساسية

إن مهمة التعليم الأساسية هي تربية الناس على تلك القيم والمبادئ التي جاء الرسل ليحققوها في واقع الأرض ، قبل أن تكون هي إعطاء المعلومات وتكثيفها في أذهان الناس .

إن البشرية لا تتقدم بحشو المعلومات في أذهان الناس ، ولا بتحويل هذه المعلومات إلى سيارات وطائرات ، وأدوات للمتاع الأرضي ، أو إلى قنابل ومدمرات !

إنما تتقدم - كما رأينا في الفقرة السابقة ونحن نتحدث عن فضل الرسل على تقدم البشرية - بالقيم والمبادئ « الإنسانية » ، على أن تكون واقعاً عملياً لا كلمات تلاك في الأفواه بغير رصيد من الواقع .

والسبيل إلى بذل تلك القيم والمبادئ هو التعليم^(١) .

وكما كان الرسول ﷺ هو المعلم الأول ، بعد الله سبحانه وتعالى ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ «عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمُ» وكان هو المربي الأكمل ، فمهمة المعلم كذلك أن يكون هو القدوة لتلاميذه فيما يريهم عليه من مكارم الأخلاق وأن يهتم بتربيتهم عليها ، ولا يكفى بتلقينهم المعلومات وتدريبهم على الخبرات ، أياً كانت قيمة تلك المعلومات والخبرات . فهي وحدها لا تصنع « إنساناً » ولا تحرك البشرية إلى عمل واحد من أعمال الخير . إنما الذي يحركها إلى عمل الخير هو إيمانها بالقيم العليا والمبادئ الإنسانية . والمدفع هو المدفع . ولكنه في يد المؤمن أداة لتمكين الحق في الأرض وإقامة

(١) التعليم في المصطلح الإسلامي يعني التربية أساساً ، ويشمل المعلومات كذلك وليس مقصوراً على إعطاء المعلومات والخبرات كما هو الشائع في كلام « التربويين » اليوم . ودليل ذلك من القرآن قوله تعالى : ﴿ وَكُلًّا زَيَّلْنَا ﴾ (سورة طه : ١١٤) ومن الحديث قوله ﷺ (وأعوذ بك من علم لا ينفع) أي لا يقرب من الله .

العدل الرباني في حياة الناس ، بينما هو في يد الكافر أداة للبني والظلم والطغيان في الأرض بغير الحق . وكذلك كل ثماره التقدم العلمي . هي أدوات يمكن استخدامها للخير كما يمكن استخدامها للشر . والذي يحدد وجهتها وغايتها هو القيم الكامنة في قلب من يستخدمها من أجل ذلك كانت المهمة الأولى للتعليم - قبل إعطاء المعلومات وتكوين الخبرات - هي تكوين هذا القلب الذي سيستخدم المعلومات والخبرات لكي يستخدمها للخير لا للشر ، يستخدمها لنفع البشرية لا لضررها .

وتكوين القلب إنما يكون بتأديبه بأدب النبوة ، فذلك هو السبيل إلى الارتقاء به حتى يصبح ﴿ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيرٍ ﴾ إذ الأنبياء - وإمامهم رسول الله ﷺ - هم صفوة الخلق ، وهم القدوة في مكارم الأخلاق . فإذا تأدب الإنسان بأدبهم في الأمانة والصدق ، والاستقامة والعدل ، ونظافة الظاهر والباطن ، المستمدة كلها من تقوى الله وخشيته ، فقد مجتمع له الخلق الفاضل ، وتحققت به الغاية التي سعى الرسل لتحقيقها . ومن ثم صار « إنساناً صالحاً » كما يريد الله ، وتحقق به وعد الله في الدنيا والآخرة : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْخَرَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَمْ يَعْنَنْ لَهُمْ مِنْهُمْ الَّذِينَ آمَنُوا أَرَضِمْنَا كَثْرَهُمْ مِنْ مُبْدِيهِمْ أَمْ جَعَلْنَاهُمْ أَكْبَرَهُمْ فَلَبُدُّوهُمْ وَبَدَّلْنَاهُمْ آخَرَهُمْ وَلَهُمْ فِي السَّاعَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (سورة النور : ٥٥) . ﴿ الَّذِينَ إِنْ مَسَّخَرْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ أُولَئِكَ هِيَ صَفَةُ الْأَمْثُرِ ﴾ (سورة الحج : ٤١) . ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَيْنِ الْأَنْبِيَاءِ أَنَّ

وبعبارة أخرى فإن مهمة التعليم الأساسية هي تكوين الإنسان العابد لله ، بالمعنى
الواسع الشامل للعبادة ، الذى يشمل الاعتقاد والعمل . يشمل شعائر التعبد وعمل
الصالحات والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . وهذا الإنسان العابد لله - بالمعنى
الشامل للعبادة - هو الذى يقيم المدينة الفاضلة . هو الذى يعمر الأرض بمقتضى المنهج
الربانى . هو الذى يقيم العدل الربانى بين الناس . هو الذى ينتصر للحق . هو الذى
يجاهد فى سبيل تحقيق المثل العليا ، وتحويلها إلى واقع حتى ملموس .

(٩) جنایة التزعة المادية الإلحادیة

إن الجنابة الكبرى للترعة المادية الإلحادية الشائعة اليوم في الجاهلية المعاصرة هي حرمانها للبشرية من الاهتداء بالمنهج الرباني والاقتماد بهدى النبوة. ﴿وَجَعَلُوا قُلُوبَهُمْ قَاسًا وَقِرًا﴾ (سورة إبراهيم : ٣٠).

لقد قطعت تلك المادية الملحدة ما بين الناس وبين الله : ﴿ وَالَّذِينَ يَبْغُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَهُمْ أَنْ يُوْصَلَ وَيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ الْعَذَابُ وَلَهُمْ سُوءُ النَّارِ ﴾ (سورة الرعد : ٢٥) . وأوصدت قلوبهم عن الاستماع لوحى الله ، بل أنكرت الرسالات والرسول أصلاً ، بل لجت في غيها إلى إنكار وجود الله : ﴿ وَإِنْ يَرَوْا كَلْعًا فَلَا يَأْمِنُ بِهِمْ وَلَا يَنْصَرُونَ لَهُمْ يَكْفُرُوا بِهِمْ فَأَنْتَهُمْ كَذِبُونَ أَكْثَرُ الْكَذِبِ ﴾ (سورة الأعراف : ١٤٦) .

واستكبروا في الأرض بغير الحق واستكفوا عن عبادة الله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ فِي مَسْجِدِ اللَّهِ ذِكْرًا لِغَيْرِ سُلْطَانٍ أُتِيَتْهُمُ ابْنُ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا مُمْرِكُونَهُ فَاسْتَعِذُوا بِاللَّهِ إِنَّهُمْ فِي الشَّيْءِ الْبَعِيدِ ﴾ (سورة غافر : ٥٦) .

وماذا كانت نتيجة ذلك الاستكبار بالباطل ، والبعد عن هداية الله ؟

كانت النتيجة أن الشيطان أصبح هو المعبود في الأرض بدلاً من الله !

إِنَّ دَعَاةَ الْمَادِيَةِ الْمَلْحَلَةَ قَدْ أَوْهَمُوا النَّاسَ أَنَّ الْإِنْسَانَ حِينَ يُلْقَى عَنْهُ عِبَادَةُ اللَّهِ

سيصبح سيد نفسه ، ويصبح هو الله ! (نستغفر الله)^(١) فإذا صار في الحقيقة ؟

(١) يقول أحد كتابهم الملحدّين - وهو جوليآن هكسلي - في كتاب « الإنسان في العالم الحديث » :
لقد تعلم الإنسان وأصبح مسيطراً على البيئة ولم يعد جاهلاً بالكون ولا عاجزاً عن السيطرة

صار الناس عبيداً للطغاة بصورة لم يشهدها التاريخ ، سواء طغاة الرأسمالية فى الغرب أو طغاة الشيوعية فى الشرق .

وصار الناس عبيداً للآلة ، هى التى تحركهم وتسيرهم وتكيف أفكارهم ومشاعرهم .
وصار الناس عبيداً للشهوات ، تملكهم ولا يملكونها ، وتدمر حياتهم ولا يستطيعون استنقاذ أنفسهم منها : سواء شهوة الجنس أو الخمر أو المال أو السلطان !
وبعبارة موجزة أصبح الإنسان - كما قلنا - عبداً للشيطان !

فأين هى الكرامة التى استمتع بها الإنسان حين نزع عنه العبودية لله ؟
إن العبودية لله هى التى تمنح الإنسان كرامته وعزته ورفعته وحرية ، لأنها عبودية كريمة لإله كريم هو الذى تفضل على الإنسان بالكرامة : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ (سورة الإسراء : ٧٠) .
وهو الذى منح المؤمنين به العزة : ﴿ وَفِي الْعِزَّةِ لَبَّاسُوا وَلِؤْلُؤًا مِنْ ثِيَابِهِمْ ﴾ (سورة المنافقون : ٨) .
وبث فيهم الاستعلاء بالإيمان : ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (سورة آل عمران : ١٣٩) . وحررهم - بالإيمان به والعبودية له وحده - من الذلة لبشر مثلهم أباً كان وضعه فى الأرض ، أو لقوة أو لجأه أو لسلطان !

فما الذى منحهم إلههم الجديد حين عبدوه من دون الله ؟

منحهم الذلة للطغاة والعبودية للشهوات ..

إنه على قدر الإله الذى يعبد الإنسان يكون موضع الإنسان ذاته ! فحين يعبد الله الحق يكون فى موضع الكرامة والرفعة ، وحين يعبد آلهة من دونه يكون فى موضع الذلة والهوان ..

ومن جهة أخرى صار الإنسان حين ابتعد عن المنهج الربانى الذى هدت

النبوة إليه ؟

على طاقاته كما كان من قبل ومن ثم فقد آن للإنسان أن يأخذ على عاتق نفسه ما كان يلقيه من قبل - فى عصر الجهل والعجز - على عاتق الله ، ويصبح هو الله ! وهذا مصداق قوله تعالى : ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ ۚ ۝١٠٠ أَنْ رَأَاهُ اسْتَغْنَى ۚ ﴾ (سورة العلق : ٦ - ٧) .

كيف صارت أخلاقه ، وكيف صارت أحواله ؟

أما أخلاقه فيكفى شاهداً عليها تقطع روابط الناس ، والعزلة الفردية الأنانية التي يعيشون بها ، وغلبة المنافع المادية عليهم - أفراداً أو شعوباً أو دولاً أو تكتلات - ولو خالفوا في سبيل الوصول إليها كل القيم والمبادئ والأخلاق (وخذ قضايا الاستعمار والتمييز العنصري نماذج « للأخلاق » المعاصرة ، وخذ كذلك قضية فلسطين ١) كما يكفى شاهداً عليها التبدل المسف في الإباحية الجنسية التي تباح فيها الأعراض وتختلط فيها الأنساب . وتموت فيها النخوة بالصدور ، وينقلب فيها الإنسان كالحیوان المسعور .

وأما أحواله فيكفى شاهداً عليها الاضطرابات النفسية والعصبية والجنون والقلق والانتحار ، ومحاولة الهروب من الواقع بالإدمان على المسكرات والمخدرات .
ويكفى شاهداً عليها معدل انتشار الجريمة ، وهو معدل يتزايد باستمرار ، وبقل يتزايد أمن الناس وطمأنينتهم وشعورهم بالاستقرار .

ويكفى شاهداً عليها الظلم السياسي والاقتصادي والاجتماعي الواقع على جمهرة أهل الأرض ، تحت أسماء براقعة من الديمقراطية والاشتراكية والعدالة والحرية والإخاء والمساواة ١

وأخيراً يكفى شاهداً عليها شبح الجوع الذي ينجم على أرجاء واسعة من الأرض وشبح الحرب والدمار الذي ينجم على الأرض كلها بلا استثناء .
تلك هي حصيلة التخلي عن منهج الله ، والابتعاد عن هدى النبوة الذي أرسلت به من عند الله .

وتلك هي جناية المادية الملحقة على البشرية ، حين قطعت ما بينها وبين ربها وأوصدت في وجهها طريق الهداية الربانية وصدتها عن الاهتداء بالهداة الحقيقيين الذين يحملون العلم النافع ويهدونه إلى البشرية ، ويقودونها به في طريق الصلاح الحقيقي والفلاح الحقيقي ، الذي يصلح الأمور في واقع الأرض ويؤدي في الآخرة إلى رضوان الله والنجاة من النار ..

(١٠) صفات الرسل

١ - بشريتهم :

كل الرسل الذين أرسلوا من عند الله للناس كانوا بشرأ ، وكانوا ينطقون بلغة أقوامهم الذين أرسلوا إليهم .

ولله في ذلك حكمة كانت تخفى على الجاهليّات التي بعث إليها أولئك الرسل ولكنها لا تخفى على من يتدبر الأمر ببصيرة .

لقد كانت الجاهليّات تأخذ الأمر من جانب التكذيب لا من جانب التصديق .
ولذلك كانت الحكمة تخفى عليها !

كانوا يكذبون ابتداءً بالوحي ، ويعتبرونه شيئاً غير قابل للتصديق ! ثم يبنون على ذلك تصورات خاطئة من عند أنفسهم . كانوا يقولون إنه لا يمكن أصلاً أن يوحى الله إلى واحد من البشر بشيء ! ذلك أن تصورهم لقدرة الله ناقص ومحدود : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ﴾ (سورة الأنعام : ٩١) .

وتصورهم كذلك للطاقة البشرية محصور في نطاق ذواتهم فحسب . ولما كانوا هم لا يتلقون وحياً ولا يخطر في بالهم أن يتلقوا شيئاً من الوحي قط ، فهم يقيسون كل البشر على أنفسهم ، فيقولون إنه لا يمكن أن ينزل الوحي على أى واحد من البشر على الإطلاق ! ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴾ (سورة

(١) من العجيب الذى يلفت النظر أن هذه التصورات الجاهلية ما تزال تتردد بذاتها في كل جاهلية حتى جاهلية القرن العشرين !

الإسراء : ٩٤) ﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكُفَرُؤُنَ هَذَا سِحْرٌ كَذَّابٌ﴾ (سورة ص : ٤) .
ثم يرتبون على هذه الاستحالة تصوراً آخر خاطئاً ، فيقولون إنه إذا كان الله يريد فعلاً أن يصنع هذه العجيبة الخارقة وهى تنزل الوحي ، فلا بد أن يكون كل ما يتعلق بهذه الظاهرة غريباً وخارجاً عن تصور البشر . ومن ثم فلا يجوز - فى نظرهم - أن يتنزل هذا الوحي على واحد من البشر لأن الكيان البشرى شىء عادى ومألوف ، فلا يتناسب معه ذلك الشىء غير المألوف وهو الوحي ! إنما الذى يتناسب معه - فى وهمهم - هو عجيبة أخرى خارقة ، هى نزول ملك من السماء يتنزل عليه الوحي ، أو - فى القليل - يكون مع الرسول الذى يتنزل عليه الوحي ! ﴿فَقَالَ الْمَلَكُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ (سورة المؤمنون : ٢٤) . ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ (سورة الأنعام : ٨) .
﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْتِيهِ الْحُكْمُ وَالشَّيْءُ فِي الْآسَافِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرٌ﴾ (سورة الفرقان : ٧) .

وهكذا نرى ضلال الجاهليات من خلال تصوراتها الضالة عن قدرة الله وحدود الطاقة البشرية ، يعميها عن حكمة إرسال الرسل من البشر دون الملائكة .. ولو قدروا الله حق قدره وعرفوا أن قدرة الله ليست محدودة بحدود تصورهم الضيق ، وإنما هى قدرة بغير حدود : ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (سورة النور : ٤٥) ولو عرفوا أن الطاقة البشرية ليست محصورة فى نطاق ذواتهم ولا فى نطاق علمهم ، وأن هناك جوانب من النفس البشرية تخفى على العلم وإن بدت آثارها واضحة كظاهرة التفكير والتذكر (٣) وجوانب أخرى أشد خفاء لا يكاد الإنسان يعرف لها

-
- (١) ذلك بالإضافة إلى الحسد الشخصى : ﴿أَلَيْسَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كِتَابٌ مِنْ آيَاتِهِ﴾ (سورة القمر : ٢٥) . ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْفَرَسَيْنِ عَظِيمٍ﴾ (سورة الزخرف : ٣١) .
(٢) قوم نوح عليه السلام .
(٣) لا يعرف العلم كيف تم عملية التفكير ولا عملية التذكر مع أنها تحدث فى كل يوم وكل ساعة .

كنها كظاهرة التخاطر عن بُعد^(١) ، وأن الله يصطفى أفراداً من البشر فيمنحهم القدرة على تلقي الوحي بأجهزة خاصة في داخل نفوسهم دون أن يخرجهم ذلك عن حدود بشريتهم .. لو عرفوا ذلك كله ما عجبوا ان جاءهم منلرمنهم وما استنكروا هذا الاستنكار فقالوا ، أبعث الله بشراً رسولاً ؟! وما طلبوا هذا الطلب الساذج : لولا أنزل عليه ملك ؟! لقد غفلوا في طلبهم ذلك عن عدة أشياء :

أ) أن الملائكة لا يمشون في الأرض مطمئين كالشبر ، لأنهم لم يخلقوا لسكنى الأرض ! ﴿ وَمَا مَعَ النَّاسِ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْمَدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ۖ قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ مُّطْمَئِنِّينَ لَنَزَلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَائِكَةٌ مُّسَوَّلُونَ ﴾ (سورة الإسراء : ٩٤ - ٩٥) .

ب) أن الملك لو نزل على الأرض فلا بد له أن يتخذ صورة البشر ، وعندئذ لا يستطيعون أن يتعرفوا على حقيقة الملائكية ، ولا أن يميزوا بينه وبين سائر البشر : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكَ فَهُوَ لَكُنْهُ أَهْلًا وَلَكِنْ تَتَذَكَّرُ أَلَيْسَ لَهُ مُبَارَاةٌ ﴾ (سورة الأنعام : ٩) .

ج) أن من سنة الله أنه حين تكذب الجاهلية رسولها وتصر على التكذيب بعد نزول الآية التي يطلبونها لكي يتأكلوا من صلق رسولهم ، فإن الله ينزل الملائكة عندئذ ، ولكنه ينزلهم بأمر معين هو التدمير الفوري على أولئك الكافرين : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَائِكَةً لَّفُتِيَ الْأَمْرُ لَوْلَا يُنْظَرُونَ ﴾ (سورة الأنعام : ٨) . ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُ اللَّهُ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُؤْمِنِينَ وَهُمْ يَقُولُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَكْفُرَ بِهِ ﴾ (سورة الفرقان : ٢٢) .

د) أن الحكمة منتفية تماماً في جعل الرسول من غير البشر أنفسهم . إن الرسول لا يأتي للتبليغ فقط . أى أنه لا يأتي ليبلغ الناس أمراً معيناً من عند الله ثم يمضى . وإنما يمكث مع الناس حتى يربى فئة منهم على الحق يكون هو بذاته القدوة العملية لهم ، ويكونون هم بدورهم قدوة للناس : ﴿ لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ (سورة الحج : ٧٨) . فأن تتحقق القدوة إذا كان الرسول من غير

(١) أى تبادل الخواطر أو الأحاسيس عن بعد ، أو الإحساس مقدماً بأن شيئاً سيقع أو أن شخصاً سيحضر . وهناك شواهد يومية تقع في حياة الناس تؤكد وجود هذه الظاهرة .

البشر ١٩! ألا يقول الناس يومئذ : هذا ملك ونحن بشر! لنا أجساد ونزعات وشهوات؟! بلى! سيقولون! وسيمتنعون عن الالتزام بأمر ربهم بحجة أن هذا الالتزام ليس في وسع البشر ولا هو من شأنهم إنما هو من شأن الملائكة الذين لا يسكنون هذه الأرض، ولا يحسون بثقل الأرض تشدهم عن طريق الرغبات والشهوات! وعندئذ سيقولون كيف يرسل الله إلينا ملكاً ويطلب منا الاقتداء به في أعماله! أفلا يرسل إلينا بشراً مثلنا، يحس كما نحس، ويفكر كما نفكر، ويشعر بضروراتنا وبحدود طاقتنا!؟ . وتلك هي الحكمة الكبرى من إرسال الرسل بشراً، يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق، حتى لا يقف اختلاف الجنس حائلاً بين الناس وبين الاقتداء برسولهم فيما يفعل وما يقول، وحتى تتمثل الأسوة للبشر في واحد من جنسهم، له ذات تركيبهم، وذات مطالبهم، وذات ضروراتهم البشرية من طعام وشراب وملبس ومسكن.. الخ. حقيقة إن الرسل - إذ يصطفاهم الله لبيعثهم إلى الناس - يصوغهم صياغة خاصة تتناسب مع هذا الأمر العظيم، وتكون لهم طاقات تفوق طاقات البشر العاديين. فضلاً عن أن نزول الوحي إليهم واتصالهم المباشر بالله عن طريق الوحي يعمق في نفوسهم معاني لا يمكن أن تبلغ ذلك المدى عند البشر العاديين.

نعم، ولكن هذه خصوصيات يختص الله بها رسله ولا يكلف البشر أن يصلوا إليها. لأنهم لا يستطيعون الوصول إليها بمجهودهم البشري! ولكن المهم في الأمر أن صفة البشرية لا تفارق الرسول: ﴿قُلْ إِنَّمَا رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ (سورة الإسراء: ٩٣). ﴿فَلَمَّا آتَا بَشَرٌ مِّثْلَكَ بِوَحْيٍ إِلَىٰ أَنَّمَا إِلَهُ الْوَاحِدُ فَقَدْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ (سورة الكهف: ١١٠). ومن ثم فالقدوة فيه متمثلة فيما ليس من خصوصيات الرسل وهذا هو الذي يكلف الله به عباده: ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا﴾ (سورة التغابن: ١٦). ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ (سورة البقرة: ٢٨٦). أي أن كل التكليف التي كلف الله بها البشر هي في حدود طاقتهم لأن الله لا يكلف النفوس فوق وسعها،

وهو العلم بحقيقة طاقاتها . أما حكمة إرسال الرسل بلغات أقوامهم فهي واضحة بلا شك : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ يُبَيِّنُ لَهُمْ ﴾ (سورة إبراهيم : ٤) .
٢ - عصمتهم :

الرسل معصومون فيما يبلغون عن الله . فهم لا يخطئون في التبليغ عن الله ، ولا يخطئون في تنفيذ ما أوحى الله به إليهم . عصمتهم الله من الخطأ في هذه وتلك (وذلك من خصوصياتهم) .

« أولاً ، لأن الأمر لا يستقيم إذا أخطأ الرسول في التبليغ عن الله ، إذ ليس لذلك إلا إحدى نتيجتين - كلتاهما خارجة عن التصور : إما أن يسكت الوحي عن تصحيح الخطأ ، ومعنى ذلك أن الله سبحانه وتعالى أراد أن يبلغ الناس أمراً معيناً ثم رضى جل جلاله أن يبلغ عنه غير ذلك الأمر .. وهذا لا يجوز في حق الله تبارك وتعالى . وإما أن يتزل الوحي بالتصحيح ، فيعود الرسول فيقول للناس : إن الله أمرني أن أبلغكم كذا وكذا ولكني أخطأت في التبليغ ، وإليكم الآن تصحيح البلاغ ! ويتج عن ذلك لا محالة أن يفقد الناس الثقة فيما يبلغهم إياه الرسول عن ربه لأن احتمال الخطأ في التبليغ قائم في أذهانهم .

وكلا هذين الأمرين خارج عن التصور لأنه يتنافى مع الحق الذي يتزل به الوحي ، ومع التوقير والتعظيم اللازمين لكلام الله سبحانه وتعالى ، ومع وجوب الطاعة للرسول صلوات الله وسلامه عليهم : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ (سورة النساء : ٦٤) .
« ثانياً ، ولا يستقيم الأمر كذلك إذا أخطأ الرسول في تنفيذ ما أوحى الله به إليه ، لأن القلوة تنتفي يومئذ ، ويضطرب الأمر في نفوس الأتباع الذين اتبعوا الرسل فلا يعرفون أى طريق يسلكون . وفضلاً عن ذلك تذهب جدية الأمر من مشاعرهم . فالمفروض في الشخص المؤمن أن يجتهد في اتباع ما أنزل الله قدر جهده ليكون أقرب إلى الصواب . فإذا كان القلوة أمامه - وهو الرسول - يخطئ في التنفيذ ، فسوف يحس هو أنه في حل من أن يخطئ ! وليس عليه أن يتحرى الصواب ، فهو ليس

أفضل من الرسول المؤيد بالوحي ، وعندئذ ينفرط عقد الأمر ولا يعود للدين ما أَراده الله له من تعظيم في نفوس المؤمنين .

حقاً لقد يحدث في تصرفات الرسل الشخصية - في غير ما يتعلق بالوحي - أو في اجتهاداتهم الشخصية ما يستوجب التصحيح أو التعديل من قبل الله سبحانه وتعالى ، كما وقع لنبي الله داود حين حكم لأحد الخصمين قبل أن يستمع لقول الخصم الآخر : ﴿ وَهَلْ آتَاكَ نَبِيُّكَ الْخَصِمَ إِذْ تَسَوَّرُوا الْحَرَابَ ۖ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصِمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَأَخِمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ ۖ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِغٌ وَنِيعُونَ بَعْضُهُمْ لِبِئْسَ خَلِيفَةٌ لِّبَعْضُهُمْ فَجَاءَهُ فَقَالَ أَكْفِلْنِي مَا وَعَدَنِي فِي الْيَوْمِ ۖ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَجِيحِهِ قَاتَ كَثِيرًا مِنْ أَهْلِ الْخَلَاءِ يَتَوَلَّىٰ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَئِنَّكَ لَمِنَ الْفَاسِقِينَ ۖ ﴿٢٤﴾ ﴾ (سورة ص : ٢١ - ٢٤) .

وكما وقع من عبوس الرسول ﷺ في وجه ابن أم مكتوم إذ جاءه يطلب الإسلام والاستماع إلى كلام الله ، والرسول ﷺ مشغول عنه يرجو إسلام أبي جهل عمرو بن هشام ، فلما ألح عليه ابن أم مكتوم تضايق الرسول ﷺ وعبس في وجهه : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى ۖ ﴿١﴾ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ۖ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لِمَ لَهُ رِزْقَى ۖ ﴿٣﴾ أَوَيْدَكَ رَفَعْنَا عَنْكَ الْإِسْرَى ۖ ﴿٤﴾ أَنَا مِنَ السَّعْيَى ۖ ﴿٥﴾ فَأَن تَصَدَّقَنِي ۖ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَرْكُنِي ۖ ﴿٧﴾ وَأَنَا مِنَ جَاءَكَ يَسْعَى ۖ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَى ۖ ﴿٩﴾ فَأَن عَنْهُ تَلَكَّى ۖ ﴿١٠﴾ كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۖ ﴿١١﴾ ﴾ (سورة عبس : ١ - ١١) .

أو كاجتهاده عليه الصلاة والسلام في أمر الأسرى في وقعة بدر ، إذ قبل مبدأ أخذ الأسرى بدلاً من قتلهم كما اقترح عليه عمر بن الخطاب رضى الله عنه فترل الوحي مؤيداً لرأى عمر :

﴿ مَا كَانَ لِإِبْنِي أَنْ يَكُونَ لَهُ دَأْسُ حَتَّى يُفْزِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَصَ الذُّنُوبِ وَأَلَّهِ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ۖ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۖ ﴿١﴾ لَوْلَا كِتَابُ رَبِّكَ اللَّهُ سَبَقُ لِسَانِكُمْ فِيمَا أُنْذِرْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۖ ﴿٢﴾ فَكُلُوا مِنَّا حَتَّىٰ حَلَّالًا طَبِيبًا وَاشْفُوا ۖ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۖ ﴿٣﴾ ﴾ (سورة الأنفال : ٦٧ - ٦٩) .

ومثل هذه الأشياء لا تقدر في عصمة الأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه . بل هي

أقرب لتوكيد بشريتهم . فهم بشر عرضة للخطأ فى التصرفات الشخصية والاجتهادات الشخصية ولكنهم معصومون من الخطأ فيما يتعلق بالوحى تبليغاً أو تنفيذاً . وهذا يجعلهم أقرب للقدوة والأسوة ، فلو أنهم أصبحوا بعد بعثتهم نوعاً آخر من الخلق غير بقية البشر ، لا يقع فى تصرفاتهم كلها ما يقع للبشر العاديين لأصبحت القدوة بهم عسيرة ، ولقال الناس لأنفسهم : هؤلاء الرسل ليسوا مثلنا فى أي شيء فكيف نفتدى بهم ؟! ومن جهة أخرى يبقى الوحى - وما يتصرف به الرسل طبقاً للوحى - أمراً قائماً بذاته ، لا يتأبه الخطأ ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه فتجب له الطاعة الكاملة : ﴿ وَالْقَنَمِ إِذَا هَوَىٰ ۖ مَا سَلَ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۚ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ (سورة النجم : ١ - ٤) . ﴿ مَن يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ (سورة النساء : ٨٠) . ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ (سورة النساء : ٦٤) .

٣ - مجال القدوة بهم :

يبعث الله رسله من صفوة خلقه ، ويختارهم من ذوى الصفات التى تصلح للأسوة والقدوة . ذلك أن الرسل هم هداة البشرية ، وهم معلموها ومربوها ، وقادتها الذين يقودونها إلى الخير . فلزم من ذلك أن يكونوا هم بنواتهم القدوة فى كل ما يدعون إليه من مكارم الأخلاق .

ولقد علم الله سبحانه وتعالى من طبيعة البشر ، وهو خالقهم العليم بهم^(١) أنه لا يكفى فى هدايتهم أن يسمعوا كلمة الحق تلقى إليهم . بل لا بد أن يروها مجسدة فى كيان بشرى يتمثلها ويترجمها إلى واقع حى مشاهد وملمس . وعندئذ تكون قربة إلى حسهم ، قربة إلى وجدانهم وتكون أيسر عليهم فى التحقيق وفى التطبيق .

لذلك لا ينزل الله سبحانه وتعالى وحيه فى قراطيس يقرأها الناس ، وهو القادر سبحانه - لو شاء - أن ينزل على كل بشر قرطاساً يقرأه ! وإنما ينزل كلماته على قلب

(١) ﴿ الْآيَاتُ مَرْسَلَةٌ وَأَمَّا اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ (سورة الملك : ١٤) .

بشر ، يصنعه على عينه ، ويمنحه من الصفات ما يجعله خير أداة لحملها ، وخير نموذج لتقديمها للناس .

إن الله يدعو الناس بادية ذى بدء إلى الإيمان به وحده بغير شريك ، ويبعث الرسل ليقولوا للناس : ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ (سورة هود : ٥٠ ، ٨٤ ، ٦١) . ثم يدعوهم إلى صورة معينة من العبادة تتمثل فى شعائر تعبدية وأوامر ونواهي تنظم حياة البشر على الأرض ، وتقيم بينهم العدل الربانى الذى ينبغى أن تقوم عليه حياتهم : ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ (سورة الحديد : ٢٥) .

ويرى الناس الإيمان المطلوب - أول ما يرونه - متمثلاً فى سلوك الرسول الذى يدعوهم إليه . فهم يرونه يدعو إلى عبادة الله الواحد غير مستند إلى جاه أو سلطان ، بل متحدياً بدعوته كل جاه أو سلطان !

إنه يجرىء والملا مستكبرون فى الأرض بغير الحق ، يستعبدون الناس بغير سلطان شرعى ، لأنهم لا يحكمون بما أنزل الله ، فيعلن كلمته البسيطة التى تدوى فى آذان الملا كالصيحة المدوية : (اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ) . ويدرك الملا على الفور أن هذه الكلمة البسيطة ، المدوية فى ذات الوقت ، معناها تنحيتهم عن سلطتهم الطاغية التى يستعبدون بها الناس ، ورد العبودية لله وحده ، يستوى فى ذلك الملا والمستضعفون على حد سواء !

ولا يسلم الملا ما فى أيديهم من السلطة الغاشمة بسهولة ! بل يقومون يتحدثون الرسول وبنائوته وبناصبونه العداء . ويرى الناس الرسول المرسل إليهم يقف وحده إزاء السلطان الغاشم لا يستند إلى شيء من قوى الأرض ، بل يستند إلى الله . إنه يحقق معنى الإيمان بالله فى صورة ملموسة مشهودة ، لا فى صورة كلمات تنطق بها الأفواه أو شعارات معلقة فى الفضاء !

ويشتد الأذى بالرسول من اضطهاد الملا الواقع عليه ، فلا يلجأ إلى مداينة القوم ولا ملاينتهم على حساب دينه وعقيدته . ويرى الناس مرة أخرى صورة واقعية لعنق

الإيمان بالله . إنه ليس إيماناً سطحياً يتحطم تحت الضغط مهما اشتد ، ولا إيماناً وقتياً يتبخر تحت وطأة الأحداث ! إنما هو الإيمان الراسخ الذي يزداد عمقاً مع اشتداد الأحداث ! ويتعرض الرسول في كثير من الأحيان إلى التهديد بالنفى أو السجن أو القتل فلا يترشح عن موقفه الصلب ، ولا تؤثر عليه كذلك المغريات التي يتعرض لها أحياناً كوسيلة من وسائل الحرب ضد عقيدة التوحيد ودعاة التوحيد ! ويلجأ الرسول إلى الله وحده بدعوه أن ينقذه مما يلقاه من عنت الجاهلية وينجيه من مكرمهم وكيدهم . ومرة أخرى يرى الناس الصورة الحية للإيمان العميق كيف تكيف المشاعر وتوجه السلوك . عندئذ لا يكون الإيمان دعوى ، ولا صورة مبهم غير متميزة الملامح . إنما يكون صورة واقعية ملموسة ، يدرك الناس معناها الشعوري والسلوكي ، ويقتدى بها المؤمنون الذين استجابوا لدعوة الإيمان .

ثم إن الله يطلب من الناس أخلاقاً معينة يتخلقون بها ، وتجرى تعاملاتهم بمقتضاها . يطلب منهم الصدق والإخلاص والأمانة ، والصبر والثبات والشجاعة ، والكرم والمروءة والتحاب في الله ، والبعد عن الفواحش والبغى والإثم .. ويحتاج ذلك كله إلى قدوة يقتدى بها الناس .

إن الناس قد يعرفون هذه المعاني كلها نظرياً ، يعرفونها بما سمعوا عنها في القصص أو قرأوا عنها في التاريخ ! .. ولكن ذلك وحده لا يحفزهم إلى الاقتداء بها والتخلق بما تقتضيه من أخلاق ! إنما يحتاجون إلى أن يروها ممثلة أمام أعينهم في واقع بشري لتسهل عليهم القدوة وتكون قريبة المنال .

ويعلم الله من خلقه أنهم يحتاجون إلى ذلك ، فيرسل إليهم الرسل نماذج حية لكل المعاني التي يريد الله من خلقه . نماذج للصبر على الشدائد وتحمل الأذى في سبيل الله . نماذج للثبات على الحق بأي ثمن ولو كان الثمن هو الحياة ذاتها أو هو الأمن والسلامة والاستقرار . نماذج للحب والمودة الصافية التي لا تتطلب لذلك مقابلاً شخصياً ولا منفعة قريبة . نماذج لاستقامة الطبع والصراحة وعدم المداورة في الحق .

وباختصار : هم نماذج لكل حميد من الخلق وحميد من الخصال ، والقدوة
متمثلة في كل ما يصدر عنهم من أقوال أو أفعال .

ولكن الدعاة والمصلحين بالذات لهم في الأنبياء والرسل قدوة خاصة .

إن الدعاة هم وريثة الأنبياء . وهم يتعرضون لكثير مما يتعرض له الرسل والأنبياء .

يتعرضون للأذى من المستكبرين في الأرض الذين يكرهون كلمة الحق لأنها

تكشف حقيقتهم للناس .

ويتعرضون للصد حتى من الجماهير التي قاموا لتخليصها من الظلم والظلم والظلم ..

ويتعرضون لليأس من أن يكون جهادهم ذا ثمرة ، أو أن يروا ثمرة جهادهم

في عمرهم القصير المحدود ..

لذلك يحتاج الدعاة بصفة خاصة أن يتأسوا بالأنبياء والرسل : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ

فِي رَسُولِ اقْوَامٍ حِكْمَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ (سورة

الأحزاب : ٢١) .

ويحتاجون بصفة خاصة أن يتأسوا بهم في الثبات والصبر والتحمل ، والتوكل على

الله وتفويض الأمر لله ، فإن ذلك من ألزم مستلزماتهم في جهدهم الشاق الذي يبذلونه

في سبيل الله .

والقرآن يوجه رسول الله ﷺ أن يقتدى بالأنبياء والرسل من قبله : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ

آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴾ ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى

اللَّهُ فَبِهَدْيِهِمْ أَتَقْدِرُ ﴾ (سورة الأنعام : ٨٩ - ٩٠) . فكيف يكون حالنا نحن البشر

العاديين ؟ ألسنا أحوج إلى القدوة وأحوج إلى الالتزام ؟

(١١) - أولو العزم من الرسل

يقول الله سبحانه وتعالى مخاطباً رسوله ﷺ : ﴿ فَأَصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ (سورة الأحقاف : ٣٥) .

وواضح من الآية أن الصفة البارزة في أولئك الرسل أولى العزم هي الصبر .
ذلك أنها هي الصفة التي يطلب الله عز وجل من رسوله الكريم ﷺ أن يتأسى بهم فيها من بين صفاتهم العديدة .

وكل الرسل - كما رأينا في الفقرة السابقة - ذوو صبر وثبات وتحمل . فلا بد أن يكون اختصاص « أولى العزم » بهذا الوصف الذي وصفهم به الله في كتابه الكريم ناشئاً من زيادة في صفة الصبر عن الرسل العاديين ، وقدرته فائقة على تحمل الشدائد ، وثبات في مواجهة المواقف الصعبة التي مرت بهم في أثناء قيامهم بالدعوة إلى التوحيد .

وإذا كان الرسل جميعاً هم هداة البشرية وقادتها ، وهم موضع القدوة والأسوة ، فإن في حياة أولى العزم من الرسل عبراً خاصة ، لطول جهادهم ، وكثرة المواقف الصعبة التي تعرضوا لها ، وثباتهم في وجه العواصف المزلزلة التي تنحلق لها القلوب ، واطمئنانهم إلى قدر الله ووعدته بالنجاة والنصر . ثم فيما حل بالملكذيين من أقوامهم من هلاك وتدمير .

إن الدعاة بصفة خاصة - كما قلنا في الفقرة السابقة - هم أولى الناس بأخذ العبرة من سير الرسل جميعاً . ولكنهم أجدر بأن يأخذوا العبرة من سير أولى العزم من الرسل ، وعلى رأسهم محمد ﷺ ، لأنه ما من موقف يتعرضون له في دعوتهم إلا له مثل

أَوْ سَبِيهِ فِي سَيْرِهِمْ .. ثُمَّ يَنْتَصِرُ الْحَقُّ بَعْدَ الْجِهَادِ الطَّوِيلِ وَالْجُهْدِ الشَّاقِّ ، وَتَذْهَبُ قُوَى الْبَاطِلِ بَدَدًا وَيَبْقَى الْحَقُّ رَاسِخًا فِي الْأَرْضِ يَظْلِلُ النَّاسُ بِظِلَالِهِ الْوَارِقَةِ ، وَيَنْعَمُ النَّاسُ فِي رُبُوعِهِ بِالْأَمْنِ ، بَعْدَ أَنْ يَكُونَ الْمُجَاهِدُونَ قَدْ ضَحَوْا فِي سَبِيلِهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَرَأْسِهِمْ ، وَأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ، يَذْهَبُ مِنْهُمْ مَنْ ذَهَبَ شَهِيدًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْقَى مِنْهُمْ مَنْ يَبْقَى شَهِيدًا لِلْحَقِّ بِصَبْرِهِ وَثَبَاتِهِ وَنَجْرَدِهِ لِلَّهِ : ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾ (سورة الأحزاب : ٢٣) .

وإليك نبذة سريعة عن بعض أولئك الرسل الكرام من أولى العزم :

١ - نوح عليه السلام :

من أبرز أمثلة الصبر على مشاق الدعوة والصبر على صدود المدعوين نوح عليه السلام . فلقد لبث يدعو ما يقرب من ألف سنة دون أن يستجيب له من قومه إلا أفراد قليلون ! وحتى ابنه لم يستجب إليه وغرق مع المفرقين ! وكذلك امرأته ! وإن من أشق الأمور على نفس الداعية أن يدعو دون أن يستجيب له الناس الذين يدعوهم إلى الخير وإلى النجاة ، ولكن أشق من ذلك أن يأتي الصدود من قبل المقربين من الأهل ، بما فى ذلك الزوجة والولد ، أقرب الناس إلى الإنسان ، وأحراهم أن يكونوا أول المستجيبين .

ويقص القرآن الكريم علينا قصة نوح فى مواطن كثيرة بالإيجاز حيناً وبالإطناب حيناً آخر ، ولكنها كلها تحمل العبرة لمن يتدبر القصة بقلب واع ولب متفتح ، ففى قصص الأنبياء كما يقول القرآن ﴿ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ (سورة يوسف : ١١١) .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ (سورة العنكبوت : ١٤) .

واستمع إلى قصته مع قومه (في سورة نوح) :

يَا بَهْمَةٌ وَأَصْرُوا وَأَسْتَكْبِرُوا أَلَيْسَ كِبَارًا فَرَأَيْتُمْ عَوْنَهُمْ يَجْعَلُ لَكُمْ فِي آغْلَتِكُمْ وَأَسْرَرْتُ لَكُمْ أَسْرَارًا ﴿١٢﴾ فإِذَا كَانَتْ نَتِيجَةُ الدَّعْوَةِ الْمَثَابِرَةُ الَّتِي لَا تَقْتَرُ بِالنَّهَارِ وَلَا بِاللَّيْلِ ، وَتَأْخُذُ حِينًا صُورَةَ الْجَهْرِ وَحِينًا صُورَةَ السَّرِّ . ﴿١٢﴾ قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنِّي أَهْمُهُ عَصْفِي وَأَتَتَّبِعُهُ مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالَهُ وَوَلَّعَهُ الْإِنْسَارَ ۖ وَمَكْرًا أَمْكَرَ الْكِبَارَ ۖ وَقَالُوا لَا تَنْتَهَ لِلْعَمَلِ وَلَا تَذَرْنِ وَلَا أَسْرَاعًا وَلَا يَبْعَثُ وَيَعْرِقُ وَيَسْرِكُ ۖ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا ۖ

لقد كان قبل بعثته نجاراً . وكان معروفاً في قومه بالأمانة والاستقامة والاجتهاد في الصنعة . فلما اختاره الله للرسالة اتبعه بعض المستضعفين من قومه ولكن الملا - كما هي العادة - استكبروا وعصوا ، وراحوا يجادلون ويكذبون .

كانت دعواهم في التكذيب أنه بشر مثلهم ! ولو أراد الله أن يرسل إليهم رسولا
لأنزل ملكاً من السماء ، أما أن يرسل بشراً مثلهم فأمر - في دعواهم - غير جائز !
فهو إذن كاذب في دعواه أنه رسول من عند الله ، وما يريد بدعواه هذه إلا أن يتميز
عليهم ! فجزاؤه على ذلك أن يتهم بالجنون !

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتُومِرَاعِبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ الْمَلَأُوا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَطْبِعًا مِمَّا يَمِئْتَانَا يَهْتَدِي إِلَىٰ عَابَادِنَا الْأَنْزِلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ يُدْعَىٰ جِنَّةً فَتَرْتَبِصُ بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ (سورة المؤمنون : ٢٣ - ٢٥) .

ثم كان من دعواهم في التكذيب كذلك أن الذين اتبعوه ليسوا من عليّة القوم بل من أراذلهم (كما يسمونهم) :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِذْ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ ﴾
 البقرة ﴿٢٦﴾ قَالَ الْمَلَأَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا تَرَكُ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَكَ وَمَا تَرَكُ أَتَّبِعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَنْ
 بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ أَنْتُمْ كَذِبِينَ ﴿ (سورة هود : ٢٥ - ٢٧) .
 ثم طالبوه - زيادة في التعنت - أن يطرد أولئك الأراذل من صحبتته إذا أرادهم
 أن يستمعوا إليه ، وأن يعلن أنهم مطرودون من رحمة الله أيضاً !

[illegible]

كَلَّا أَتَىٰ لَإِن مَّا مَلَكَ وَلَا وَلَدٌ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ إِن يُؤْمِنُ بِاللهِ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِ
إِذَا لَئِن الظَّالِمِينَ ﴿ (سورة هود : ٢٩ - ٣١) .

وواضح من الآيات أنهم كانوا يُعتتونه كذلك بأن يطالبوه بأن تتدفق عليهم الأموال
من خزائن الله ، وأن ينبتهم بالغيب ، وأن ينزل الملائكة من السماء إذا أراد منهم أن
يؤمنوا به !

ولقد صبر نوح عليه السلام على هذا العنت كله ، وعلى الصد الطويل من قومه
بعد الدعوة المستمرة لهم عاماً بعد عام ، سرّاً وجهراً ، ونهاراً وليلاً .

﴿ وَأَوْحَىٰ لِلنَّوْحِ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾
(سورة هود : ٣٦) .

وأوحى الله إليه أن يصنع الفلك الذي سيحمل فيه المؤمنون حين يجيء الطوفان
الذي يفرق المكذبين .. وكانت فرصة لقومه لكي يسخروا منه ويتهموا بالجنون ، إذ أنه
ما الذي يدفع إنساناً عاقلاً أن يصنع فلكاً في أرض يابسة تحيطها الجبال ؟ !

﴿ وَبَصَّعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنِّي فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا
تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَتَوَفَّوْا قُلُوبَكُمْ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ (سورة هود: ٣٨-٣٩) .
وفي الموعد المقرر في قدر الله جاء الطوفان ..

لقد كان نوح قد دعا ربه بعد الجهاد الطويل مع قومه والصبر الطويل على أذاهم
أن يدمر عليهم : ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنْ الْكَافِرِينَ دَبَّارًا ﴾ (سورة نوح : ٢٦) . ثم إنهم
كانوا قد توعدوه بالقتل : ﴿ قَالُوا لَئِن لَّمْ يَنْتَهِ يَنُوحُ لَنَكُونَنَّ مِنَ الْمُجْرِمِينَ ﴾ (سورة الشعراء :
١١٦) . فدعا ربه أن ينجيه من أذاهم : ﴿ قَالَ دَيْدَانٌ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَأَفْتَحَ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتَحًا وَخَفِيقَ
وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (سورة الشعراء : ١١٧ - ١١٨) . ﴿ فَمَعَارِبَهُ رَأَىٰ مَغْلُوبًا فَانْتَصَرَ ﴾
(سورة القمر : ١٠) .

لقد وصلت الأمور إلى قمتها .. ولم يبق إلا أن تمتد يد الله بالنجاة والرحمة
للمؤمنين ، وبالبطش والدمار للمكذبين :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا أُخِذْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا أَمْرُكَ إِلَّا بِقَلِيلٍ ﴾ (سورة هود : ٤٠) . ﴿ فَلَمَّا رَأَىٰ أَنِّي مُغْلَقٌ فَانصَرْتُ ۖ إِنِّي فَتَقْتُ أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَا يُمْشِكُهُ ۖ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَمَسْنَا لَهَا مَاءً عَلَىٰ أَمْرٍ قَدَرٍ ۖ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاكَ الْوَاجِ وَدُسِّرُ ۖ فَجَرَىٰ بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفْرًا ﴾ (سورة القمر : ١٠ - ١٤) .

لقد كانت هذه هي معجزة نوح ..

الطوفان يغرق الأرض اليابسة ذات الجبال العالية ، ويفرق المكذبين جميعاً لا يبقى منهم فرد واحد . بينما تكتب النجاة للمؤمنين في داخل الفلك المشحون ، الذي كان الملا يسخرون من نوح وهو يصنعه فوق اليابسة !

ولكن الابتلاء مع نوح لم يكن قد انتهى حتى لحظة الطوفان ! كانت هناك بقية من الابتلاء يتعرض لها ذلك الرسول من أولى العزم .. في ولده أقرب الناس إليه ! ﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوْحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَبْنَئُ أَرْكَبَ مُعْنَا وَلَا تَكُن مَعَ الْكَافِرِينَ ۖ قَالَ سَاوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِيُنِي مِنَ السَّاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَجَعُوا إِلَىٰ مَا لَمْ يَكُنُوا عَلَيْهِمْ فَكَانَ مِنَ الْمَرْفُوتِينَ ﴾ (سورة هود : ٤٢ - ٤٣) .

وينتهي الطوفان .. وتم المعجزة .. ويفرق المكذبون .. وينجو المؤمنون وما تزال في نفس نوح حسرة على ولده الذي ظن - من وعد الله له بنجاة أهله - أنه من الناجين ! حسرة مزدوجة على فقدته في الحياة الدنيا ، وفقدته يوم القيامة حيث يكون في النار مع الكافرين .

﴿ وَفِيكَ يَأْرَضُ ابْنُكَ وَمَا ذَكَرْنَاكَ إِلَّا بِقَلِيلٍ وَغَضِبَ السَّاءُ وَفُضِيَ الْأَمْرُ وَأَسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ۖ وَنَادَىٰ نُوْحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ ابْنِي مِنِّي أَهْلًا قَانَ وَغَدَا الْخَوْفُ وَأَنْتَ أَخْبَرُ الْمُحْسِنِينَ ۖ قَالَ يَبْنَئُ إِنْ شِئْتَ لَيْسَ مِنِّي أَهْلًا ۖ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَتَّقِلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ۖ إِنِّي أَعْطُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ (سورة هود : ٤٤ - ٤٦) . ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنِّي أَهْلًا ﴾ ولو كان ابنك من صلبك . فقد فرقت العقيدة بينكما فلم يعد من أهلك ، لأن أهلك هم المؤمنون .. وهذا عمل غير صالح لأنه أبى أن يؤمن وأصرَّ على الكفر .. فكان جزاؤه

الحق هو جزاء الكافرين ..

وعندئذ يصل نوح عليه السلام إلى الذروة : ذروة التسليم لله ، والاطمئنان إلى قدر الله ، والرضى بما كتب الله ، وطلب الرحمة والمغفرة من الله :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي آعُودُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُقْهَرْنِي وَرَحْمَتِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (١٧) قِيلَ يَتُوحُّ أَفِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَرَضَّكَ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمُورِنَا مَعَكَ ﴿ (سورة هود : ٤٧ - ٤٨) .
﴿ سَلَّمَ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴾ (سورة الصافات : ٧٩) .

٢ - ابراهيم عليه السلام :

﴿ إِنَّا إِبرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُنْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (سورة النحل : ١٢٠) .
ولفظ « أمة » الذي ورد في الآية الكريمة يحمل مجموعة من المعاني . فمن معانيها أن إبراهيم عليه السلام - وحده - كان يساوي أمة كاملة في عمق إيمانه ورجاحة عقله وكريم خصاله . ومنها أن إبراهيم عليه السلام كان أباً لأمة خرجت كلها من ذريته ، فقد مد الله له في العمر وأمدّه بذرية واسعة عريضة كان منها عدد غير قليل من الأنبياء : ﴿ وَوَعَدْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ إِسْحَاقَ وَيُصْحَبُونَ كَلَامَ مَدِينَةٍ فَبِأَيِّ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٨٥) وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِسَّاكَ كُلٌّ مِنْ الصَّالِحِينَ ﴿ (٨٥) فَاسْتَجِبْ لِلْبَيْتِ وَالْبَيْتِ وَنُوحًا وَلُوطًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿ (٨٦) وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَأَخَوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَمَدِينْنَاهُمْ إِلَ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿ (سورة الأنعام : ٨٤ - ٨٧) .

ومن معانيها كذلك أن إبراهيم عليه السلام كان إماماً . فقد قال الله له : ﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ (سورة البقرة : ١٢٤) . وهو إمام الحنفاء الذين استقاموا على طريق الله وأخلصوا له العبادة والتوحيد . فقد تكرر وصفه في القرآن بهذه العبارة ﴿ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ . وجاء الأمر للرسول ﷺ ﴿ أَنَا نَجْعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ﴾ (سورة النحل : ١٢٣) . فهو الإمام الذي يتبعه الحنفاء .

وقد منَّ الله عليه برجاحة العقل وبلاغه الحجة وسرعة البديهة كما يبدو لنا في حاجته لقومه لإبطال الوثنية بالبرهان العقلي ، كما ورد في القرآن في مواضع شتى ،

منها ما جاء في سورة الأنعام : ﴿ فَاذْكُرْ لِلَّذِينَ هُمْ عَنْ آلِهَتِهِمْ تَارِكُونَ لِيَفْجُرُجَ الْآسَافِ ۚ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كُدُّهُمْ وَلَا تُبَالِي لَهُمْ آيَاتُنَا وَلَا يَحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ أَمْرِنَا ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝١٤﴾ وَكَذَلِكَ نُزَيِّلُ الرِّيحَ هَهُنَا وَلِئُكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝١٥﴾ فَلَمَّا جَزَّ عَلَيْهِ أَيْلٌ رَاكِبًا قَالَ مَتَارِدٌ فَلَمَّا أَقْبَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْإِفْلِينَ ۝١٦﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَعَرَ بَارِغًا قَالَ مَتَارِدٌ فَلَمَّا أَقْبَلَ قَالَ لَيْنٌ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ۝١٧﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَارِغَةً قَالَ مَتَارِدٌ هَذَا أَجْرٌ فَلَمَّا أَقْبَلَ قَالَ يَقُولُ ابْنُ بَرٍّ ۝١٨﴾ نَشْرُكُونَ ۝١٩﴾ إِنِّي وَجْهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝٢٠﴾ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحِبُّونَ فِي اللَّهِ وَفَدَّ مَدِينًا وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ ۝٢١﴾ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ۝٢٢﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُ وَلَا تَخَافُونَ أَنْتُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَهُ يُنْزِلُ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَنَّى الْفَارِيقِينَ ۝٢٣﴾ أَخَى بِالْإِنْسَانِ إِنْ كُنْتُمْ تَقُولُونَ ۝٢٤﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُنْتَدُونَ ۝٢٥﴾ وَنَلِكُمْ جَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ عَلَى قَوْمِهِ نَزَّاعٌ رَفَعَ دَرَجَتَهُ مِنْ نَشَأِهِ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ۝٢٦﴾ (سورة الأنعام : ٧٤ - ٨٣) .

فقد أراد إبراهيم أن يصرف قومه عما هم فيه من الشرك إلى الإيمان بالله الواحد الذى لا شريك له ، فاستدرجهم إلى التفكير فى شأن الأصنام التى يعبدونها ﴿ اَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً ﴾ ؟ بهذا السؤال الإنكارى الذى يهز الغافلين :

﴿ وَأَنذِرْ عِبَادَكَ بِآيَاتِهِ ﴾ ٦٩ ﴿ إِذْ قَالَ لِأَسْبَدِ وَقَوْمِيءَ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ ٧٠ ﴿ قَالُوا نَعْبُدُ أَسْمَاءَ فَنَظَّلْنَاكَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ ٧١ ﴿ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكَ إِذْ تَدْعُونَ ﴾ ٧٢ ﴿ أَوْ يَنْفَعُونَكَ أَوْ يَضُرُّونَ ﴾ ٧٣ ﴿ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ (سورة الشعراء : ٦٩ - ٧٤) .

وبعد أن أيقظ تفكيرهم بهذه الأسئلة التي لا إجابة لها عندهم إلا أنهم وجدوا آباءهم كذلك يفعلون ، راح يتظاهر أمامهم بأنه يبحث عن إله يعبد بعد أن أعلن رفضه الباتّ لعبادة الأصنام (وهو في حقيقة الأمر مهتدي إلى الله الحق ، ولكنه يريد أن يتدرج بقومه عباد الأصنام درجة درجة حتى يصل بهم إلى اليقين) فلما جن عليه الليل ، رأى في السماء كوكباً لامعاً ، فقال أمام قومه : سألتكم هذا الكوكب اللامع إلهاً ! فلما أفل أعلن لقومه أنه لا يعبد إلهاً يافل ويغيب ! ﴿ قال : لا أحبُّ الآفلين ﴾ فلما رأى القمر بازغاً قال (متظاهراً) هذا أجدر أن يكون إلهاً ، فنوره أقوى من نور الكوكب . ولكن القمر بدوره أفل ! فتظاهر بالحيرة : ﴿ لئن لم يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ

من القوم الضالين ﴿ . وأخيراً طلعت الشمس بضياؤها الساطع وحرارتها وقوة شعاعها فتظاهر بالفرح الشديد لعبثوره أخيراً على الإله المنشود ! ﴿ قال هذا ربِّي ! هذا أكبر ! ﴿ فلما أفلت الشمس أعلن أخيراً إعراضه عن كل تلك الآلهة الزائفة التي لا تستحق العبادة ، وتوجهه للإله الحق ، الذي فطر السماوات والأرض ، على استقامة لا رجوع فيها ولا انحراف عنها (وهذا معنى « حنيفاً ») وأعلن براءته التامة من كل شرك في عبادة الله . ونستطيع أن نتصور بطبيعة الحال استنكار قومه لموقفه ومحاجتهم إياه ، وإن كانوا لا يملكون حجة حقيقية أكثر من أنهم يفعلون كما فعل آبائهم فحسب ، وأن آباءهم لا يمكن أن يكونوا مخطئين خلال كل تلك الأجيال !

ولكنه بصر على موقف الهدى الذي هداه الله إليه ، وعلى عبادة الله الواحد الذي هداه إلى حقيقة الإيمان . عندئذ يلجأون إلى تخويفه بانتقام الآلهة من تجديفه في حقها وكفره بها ، ويتوعدونه بأن هذه الآلهة المزعومة ستناله بالأذى لا محالة . وعندئذ يردّ عليهم في اطمئنان الواثق : ﴿ ولا أخافُ ما تُشركون به ﴾ ولكنه في أدبه مع ربه لا يقطع بأمر هو بعد في طبقات الغيب ، فقد يكون الله سبحانه وتعالى قد قدر له أن يصيبه شيء من الأذى فيقول : ﴿ ولا أخافُ ما تُشركون به إلا أن يشاء ربي شيئاً ، وسع ربي كل شيء علماً ﴾ ثم يعود إليهم فيجابههم بحقيقة موقفهم : كيف تخوّفوني بتلك الآلهة المزعومة التي تشركون بها ، وهي عديمة السلطان لا تملك ضرراً ولا نفعاً ، ولا تخافون أنتم من الله الحق الذي يملك الضر والنفع ، وأنتم تشركون به وتعصون أمره ؟! فأينا أحق بالأمن ؟ الذي يلجأ إلى الإله الحق ويدخل في حماه ، أم الذي يحتمي بغير حمى سوى الأوهام ؟

ثم يقرر الحقيقة التي تلخص الموقف تلخيصاً حاسماً : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُنْتَدُونَ ﴾ وليس الأمن المقصود هو السلامة من الأذى في الحياة

(١) الظلم المقصود هنا هو الشرك ، وبيان ذلك قوله تعالى في سورة لقمان : ﴿ يَبْتَغِي لَكَ الشِّرْكَ يَا بَنِيَّ ﴾ (آية : ١٣) .

الدنيا . إنما هو السلامة من عذاب الله في الآخرة مع الاطمئنان إلى قدر الله في الحياة الدنيا ، وأن كل ما يصيب المؤمن هو خير له ، فيشكر فيكون خيراً له . رواه مسلم ^(١) .
وتلك هي بلاغة الحجة التي من الله بها على إبراهيم في حاجته لقومه ، نراها مع سرعة البديهة في موقف آخر في مناقشة « النمرود » وهو الطاغية الجبار الذي كان يحكم الأرض التي يعيش فيها إبراهيم .

﴿ أَلَمْ نَرِ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ لِبَرَاهِيمَ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا نَحْنُ وَأُمِّيْتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِي بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ قَبِلْتُ الَّذِي كَفَرْتُ ﴾ (سورة البقرة : ٢٥٨) .

على أن الأمر لم ينته بين إبراهيم وقومه بتلك المحااجة التي وقعت بينهم وبينه . فقد اعترم إبراهيم أن يقتلع الشرك بيديه ، فعمد إلى تلك الأصنام التي يصرون على عبادتها ، فحطمها في غفلة من القوم !

﴿ وَلَقَدْ مَتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ عَابِدُونَ ﴿ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَابِدِينَ ﴾ ﴿ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ ﴿ قَالُوا أَجِئْنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتُمْ مِنَ اللَّاعِبِينَ ﴾ ﴿ قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَكُمْ وَأَنَا عَلَى دَلِيلٍ مِنَ الْهُدَى ﴾ ﴿ وَنَاقَهُ لِأَكْبَدَتْ أُمَمُكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُذْ بَرِينَ ﴾ ﴿ فَعَلَّمَهُ جَدًّا إِلاَّ كَبِيرًا لَمَّا لَقِيَهُ ﴾ ﴿ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴾ ﴿ قَالُوا مَنْ فَكَّلَ هَذَا يَا لَيْتَ إِنْ تُلِينَا الْقُلُوبَ ﴾ ﴿ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ - إِبْرَاهِيمُ ﴾ ﴿ قَالُوا فَاتَّبَعُوهُ عَلَى أَنْغِينِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّبِعُونَ ﴾ ﴿ قَالُوا أَنْتَ فَكَّلَ هَذَا يَا لَيْتَ إِنْ تُلِينَا ﴾ ﴿ قَالَ بَلْ فَتَلَّ كَيْدُهُمْ هَذَا فَفَتَلُوهُمُ إِذْ كَانُوا يَظُنُّونَ ﴾ ﴿ (سورة الأنبياء : ١-٦٣) .

ولقد هزتهم المفاجأة بالفعل فكادوا يرجعون إلى صوابهم من شدة وقعها على نفوسهم ! ولكنهم عادوا فأصروا على الضلال . وبدلاً من أن يؤمنوا ، راحوا يتوعدون إبراهيم عليه السلام بالإحراق في النار !

(١) ولفظه عن صهيب قال : قال رسول الله ﷺ عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله له خيرٌ وليس ذلك لأحدٍ إلا للمؤمن ، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له .

﴿ فَجَعَلُوا إِلَهًا أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ ٥ ثُمَّ نَحْنُ نَعْبُدُ آلَهُمْ نَعْدُوهُمْ وَعَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَظُنُّونَ ٥ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ٥ أَفَلَا تَعْلَمُونَ ٥ فَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ٥ قَالُوا خِزْقُوهُ وَأَصْبِرْوَا ؕ إِنَّا كُنْتُمْ قَاعِلِينَ ﴾ (سورة الأنبياء : ٦٤ - ٦٨) .

وهنا نواجه موقفاً لا يصبر فيه إلا أولو العزم !

حقيقة إن الله أوحى إلى النار ألا تحرق إبراهيم : ﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾ (سورة الأنبياء : ٦٩) . ولكن النص القرآني لا يدلنا على أن الله أخبر إبراهيم بأن النار لن تمسه بسوء فهو إذن يواجه النار وهي النار . يواجهها مطمئناً إلى قدر الله . نعم ، ولكنه لا يستبعد إصابته الأذى كما قال لقومه من قبل : ﴿ وَلَا آخَافُ مَا تَشْكُرُونَ يَوْمَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا ﴾ (سورة الأنعام : ٨١) .

إنه موقف الإيمان العميق بالله ، الذي لا يترشح أمام أى خطر ، ولو كان الخطر هو الحرق فى النار !

وكانت المعجزة التى نصره الله بها وأنجاه من كيد الكافرين : ﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ٥ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ٥ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ٥ ﴾ (سورة الأنبياء : ٦٩ - ٧١) .

ولكن ذلك لم يكن الابتلاء الوحيد فى حياته ، ولا كان المن الرابى هو المن الوحيد ..

إنما الابتلاء العظيم كان حين أمره الله أن يذبح ولده إسماعيل :

﴿ قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْفُوهُ فِي الْجَحِيمِ ٥ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ٥ ﴾ وَقَالَ لَبِذْ ذَاهِبًا إِلَىٰ رَبِّ سَيِّئِينَ ٥ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ٥ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ٥ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَبْنَئُ لِي وَآرَىٰ فِي التَّنْمِيرِ أَنِّي أَبْتَهِك ٥ ﴾ (سورة الصافات : ٩٧ - ١٠٢) .

لقد رأى إبراهيم فى منامه هذه الرؤيا التى فهم منها أن الله يأمره بذبح ولده الحبيب

إسماعيل الذى وهب له على الكبر : ﴿ أَتَعْبُدُونَ إِلَهًا آخَرَ الَّذِي وَهَبَ لِي الْكِبَرَ إِذْ إِنِّي أَنَا مَتَّعْتُ رَجُلًا سَمِيعًا بَصِيرًا ٥ ﴾ (سورة إبراهيم : ٣٩) .

إنه موقف لا تطيقه أعصاب أى أب ، فضلاً عن إبراهيم الرقيق المشاعر ، الفياض الوجدان .. ولكنه أمر من الله فهل يعصيه ؟ كلا ! إن إبراهيم لا يعصى ربه بحال ولو كان الأمر فوق الاحتمال .

بل إن الفتى نفسه ليسلم أمره لله فى هذا الموقف العصيب ، ويستسلم لقدر الله : ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَتِيمٌ إِنِّى أَرِىْ فِى النَّامِ إِتِىَ أَذْهَبُ فَأَنْظِرْ مَاذَا تَرَىْ قَالَ يَآبَتِ أَفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِىَ إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ (سورة الصافات : ١٠٢) .

إن كل ما يملكه الإنسان من الخيال لا يستطيع أن يصور تلك اللحظة الرهيبة ، لحظة أن هم إبراهيم بذبح ولده الحبيب ، استجابة لأمر الله . موقف لا يطيقه إلا أولو العزم .. ولقد أطاقه إبراهيم .. ﴿ فَلَمَّا أَتَمَّاتِلَّةٌ لِلْحَيِّينِ ﴾ (سورة الصافات : ١٠٣) .

ولكن الله تداركه برحمته .. لم يكن الله يريد حقا أن يذبح ولده .. إنما كان « يتليه » .. كان يختبره .. إلى أى مدى هو على استعداد لإطاعة الله فيما يأمر ؟ هل يطيعه فى الأمر الهين ويتوقف عن طاعته فى الأمر العظيم ؟ أم هو على استعداد دائم لإطاعة الله أياً كان الأمر الصادر إليه من الله ؟

ولقد نجح إبراهيم فى الابتلاء .. بل نجح نجاحاً باهراً لا يقدر عليه إلا أولو العزم الشديد .. فترلت رحمة الله :

﴿ فَلَمَّا أَتَمَّاتِلَّةٌ لِلْحَيِّينِ ٥٠ وَنَدَيْتُهُ أَنْ يَذْبَحْهُ ٥١ قَدْ صَدَّقَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ ٥٢ ﴾ (سورة الصافات : ١٠٣ - ١٠٧) .

عند ذلك من الله عليه بالإمامة جزاء على ما نجح فى الابتلاء :

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ الْبَيْتَ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُمْ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ (سورة البقرة : ١٢٤) .

وبشرف الله إبراهيم وإسماعيل بإقامة قواعد البيت المعظم ، وإعداده للطائفتين والعاكفين والركع السجود ، فيدعوان هناك دعاءهما الحار :

﴿ وَادْعَنَا أَلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمَّا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ

طَهَرَ ابْنِي لِبَاطِنِينَ وَالْعَافِينَ وَالرَّحِيمِ السَّجُودِ ﴿٣٥﴾ قَالُوا قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنْ ثَمَرَاتِ
 مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَفِيهَا فِيهَا الْمَصِيرُ ﴿٣٦﴾ وَكَأذِيقُ
 إِبْرَاهِيمَ الْقَوَاعِدِ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلَ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِكَ وَمِنْ
 ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَإِزِدْنَا مَنَاسِكَاتِنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٣٨﴾ رَبَّنَا وَابْنِثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ بَنِيهِمْ
 عَلَيْهِمْ آيَاتُكَ وَبِعِلْمِهِ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ وَزَيِّنْ لَهُمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣٩﴾ (سورة البقرة: ١٢٥ - ١٢٩) .

ويستجيب الله الدعاء . ويبعث محمداً ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين ليتلو على
 هذه الأمة آيات الله ويعلمها الكتاب والحكمة ويزكيها بإذن الله .

ويقول الرسول ﷺ : « أنا دعوة أبى إبراهيم .. » (١) .

« سلام على إبراهيم » .

٣ - موسى عليه السلام :

﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴾ (سورة النساء : ١٦٤) .

﴿ قَالَ يَتُومَىٰ لِي أَمُطِفْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلَامِي فَقَدْ مَاءَ بَيْتِكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾

(سورة الأعراف : ١٤٤) .

من أكثر القصص وروداً في القرآن الكريم قصة موسى وفرعون ، ذلك أنها مليئة
 بالعبر لمن يتدبرها ، وزاخرة بالدروس التي تنفع المؤمنين .

كانت عين الله ترعاه منذ مولده ، لأن الله كان يعلمه لأمر خطير ..

ولد في مصر ، في بيت من بيوت بني إسرائيل ، في الوقت الذي كانت أشد
 ألوان الاضطهاد تقع عليهم تنفيذاً لقرار انحذه ضدهم فرعون ، فكان كل ولد ذكر يولد
 في بيوت بني إسرائيل يقتل بأمر ذلك الفرعون ، وترك البنات لينشأن في الذل والضياع
 بغير رجال ! وذلك فضلاً عن ألوان أخرى من السخرة والاستعباد والتعذيب . وكانت
 الحجة الظاهرية لفرعون في هذه الأعمال أن بني إسرائيل قد كثروا في البلاد فهو
 يخشى مغبة زيادتهم ! والحقيقة أنهم كانوا على دين غير دينه ، يعبدون إلههم الذي

(١) أخرجه أحمد والبخاري والطبراني والحاكم والبيهقي .

عرفوه منذ أيام إبراهيم وإسماعيل وإسحق : ﴿ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ^(١) الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيَّ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَيَا حُشَى الْهَذَا وَخَلَدُوا غَيْرَهُ يَاسُورُ ﴾ (سورة البقرة : ١٣٣) . وقد كانوا جاءوا إلى مصر أيام يوسف عليه السلام ، ومكثوا فيها وتكاثروا ، فظلوا يعبدون الله ولا يعبدون الفرعون .. ومن هنا غضبه عليهم وطغيانه فيهم ..

ولقد كان يملك - لو صدقت حجة الظاهرية - أن يطردهم من مصر ويعيدهم إلى بلادهم التي جاءوا منها ، فيتخلص منهم دون أن يوقع الأذى بهم . ولكنها شهوة الطغيان والاستعباد هي التي كانت تحركه ضد بني إسرائيل .

في تلك الظروف العصيبة ولد موسى عليه السلام ، فخافت أمه من عيون فرعون أن يكشفوا وجوده فيقتلوه . وهنا تبدأ نعم الله عليه ، إذ يوحى إلى أمه بالوسيلة التي تحفظه من القتل ، وإن كانت تبدو في عيناها وسيلة عجيبة ، هي أعجب ما يخطر في البال على الإطلاق !

ولنرجع إلى سورة القصص نأخذ منها تفاصيل قصة موسى :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَلَا تَحْزَنِي ۚ فَاذْخُرِيهِ فِي إِلَيْهِ لِيَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ ذِيًّا وَلَوْ تَحَزَنَ ۖ إِنَّ رَأَدَؤُهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمَرْسُولِينَ ﴾

يا لها من بشارة في أخرج اللحظات ، وإن كانت الوسيلة عجيبة لولا أنها من عند الله . أرضعيه ولا تحزني ! وإذا خفت عليه من جنود فرعون فألقيه في اليم ! ولا تحزني ! إنا رادوه إليك .. وليس هذا فحسب . بل إنا جاعلوه كذلك من المرسلين . ولم يطمئن قلب أم موسى أن تبقى في بيتها وترضعه ! وكأنها اطمأنت إلى الوسيلة الثانية أكثر ، فهو في اليم أبعد عن جنود فرعون ! ولكن قدر الله من وراء ذلك كان يرتب أمراً ! ﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۚ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمُّنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِلِينَ ۝ وَلَمَّا لَمَسَتْ أُولُو فِرْعَوْنَ كُفْرَهُمْ إِلَى اللَّهِ لَآ أَتَقْنَتُوا عَلَيْهِمْ أَنْ يُصْبِحَ وَرَثَتُهُمْ وَلَكَ وَرَثَةٌ ۖ وَلَا يَشْعُرُونَ ﴾

(١) يعقوب هو إسرائيل الذي تسمى باسمه بنو إسرائيل .

لقد حمله التيار إلى قصر فرعون فالتقطوه . ولقد عرفوا من قرائن الحادث أن هذا وليد من بنى إسرائيل فهموا بقتله بادية ذى بده حسب أوامر الفرعون . ولكن الذى يجرى فى الكون هو أمر الله لا أمر الفرعون ولا غيره من الكائنات . ولئن كان أمر فرعون سارياً ونافذاً فليس لأنه الفرعون ذو الجبروت ، ولكن لأن الله قد قدر ذلك لأمر يريد - سبحانه - ويعلمه . فإذا أراد الله أن ينجو موسى من القتل ، فلن يستطيع أمر فرعون أن ينفذ ! لأنه لم يكن نافذاً من قبل بذات نفسه ولكن بمشيئة الله ، فإذا وقفت مشيئة الله فى طريقه فأنى له النفاذ ؟ ! .

بل تم السخرية العظمى بآل فرعون - بقدر الله المقدر - أن يكونوا هم الذين يتولون حمايته وتربيته ﴿ ليكون لهم عدوا وحزناً ﴾ ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ !
 إن فى ذلك لعلبة لأولى الأبصار .

﴿ وَأَصْبَحَ قُورَآءُ أُوْمُرَئِى قَرِيْقَاتٍ إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِيَهُ لَوْلَا أَنْ رَبَّنَا عَلَّيْهَا لَتَكُوْنَنَّ مِنَ الْمُؤْمِنِيْنَ ﴾

مرة أخرى تتدخل رعاية الله .. إنها لو أبدت ما هى فيه من خوف وقلق لانكشف الأمر ، ولعرف عيون فرعون فى أى بيت ولد موسى .. وعندئذ فقد يقع البطش بأهل البيت كله ومن فيه . ولكن الله يربط على قلبها بالإيمان .
 إن الله هو الذى يربط على القلوب فتثبت ، وليس البشر من عند أنفسهم هم الذين يصنعون !

﴿ وَقَالَ لِأَخِيهِ قُصَيْبٍ قَبَضْتُ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ عَمَلٍ بَيْنَ يَدَيْكُمْ فَكُنتُمْ لَكُمُوهُمْ وَأَهْلُكُمْ ۝ فَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَلَنَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾

كل خطوة بتدبير من عند الله حتى يبلغ الأمر غايته المقدره .

الرضيع - بتقدير الله - يرفض المراضع جميعاً ﴿ وحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ ﴾ حتى يخشى عليه آل فرعون من الهلاك جوعاً . وفى ذات الوقت تدفع أم موسى ابنتها - بدافع

القلق عليه - لتتقصي أخباره . فتذهب الفتاة - ولا حرج عليها فإن فرعون لا يتعرض للنساء بالقتل بل يقيهن إمعاناً في الفساد ! - فتبصر به في قصر فرعون فترشدهم - وهم لا يعرفونها - إلى أهلها ليرضعوه ويكفلوه !

وتم الحلقة الأولى من القدر المقدور ، ف يرجع موسى إلى أمه كي تقر عينها ولا تحزن ، ولتعلم أن وعد الله حق !

وتبدأ الحلقة الثانية في قصر فرعون ، حيث يربي موسى كأنه أمير من أمراء الأسرة ، يعزز ويكرم ، ويؤتى له بالمعلمين والمثقفين ، ويتعلم لغة قومه في بيت أمه ، ولغة فرعون في بيت فرعون !

ثم يدخل في مرحلة ثالثة تنقل خطواته - بقدر الله - إلى بعيد ..

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ٥ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِنْ شِيعَةِ هَٰذَا وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَايَا الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ٦ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَقَدْ أَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ٧ قَالَ رَبِّ إِنَّمَا أَشْكَتَ عَلَىٰ قَلْبِي أَن كُنْتُ ظَالِمًا لِّلْجَنَّةِ ٨ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي ائْتَصَرَ بِإِلَٰهِنَا مِن الْأَمْرِ يَنْتَصِرُهُ قَالَ لِمُوسَىٰ إِنَّكَ لَنفَوِي مُّبِينٌ ٩ فَلَمَّا أَن أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لِّمَا قَالَ يَمْوَسَىٰ أَشْرَبُ قَالَ نَقْتُلُكَ كَمَا قَتَلْنَا الْأَمْرِي لَن رُبِدُّ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا رُبِدُّ أَن تَكُونَ مِنَ الصَّالِحِينَ ١٠ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَمْوَسَىٰ إِنَّ الْآلَاءَ يَأْتِيكَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَمِنَ النَّاصِحِينَ ١١ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ١٢ ﴾

لقد كان الاضطهاد واقعاً على بني إسرائيل في كل مكان . وهذا رجل مصري يقتل مع إسرائيل في أثناء مرور موسى . ويعلم الإسرائيلي أن موسى - وإن كان منهم - ذو حظوة في قصر فرعون ، فيستصرخه لإنقاذه من قبضة المصري . وتهيج في نفس موسى مشاعر الغضب من الذل والاستعباد الواقع على بني إسرائيل فيضرب المصري

ضربة قوية - بغير نية القتل - ولكن يد موسى القوية الباطشة تقضى على الرجل فيموت .
 فيندم موسى على نتائج فعلته ويستغفر الله وينوى ألا يعود إلى مثل ذلك . ولكنه في
 صباح الغد يسير في طرقات المدينة خائفاً يترقب ، ويتحسس أخبار حادث الأمس ،
 وهل عرف الناس أن موسى هو الذى قتل المصرى ؟ عندئذ يلتقى بنفسه الإسرائيلى واقعاً
 فى قبضة مصرى آخر يعتدى عليه ، فيهم أن يبطش بالمصرى (رغم عزيمته بالأمس
 ألا يعود إلى ذلك ١) فيخاف المصرى (أو يخاف الإسرائيلى ظناً منه أن موسى يريد
 أن يبطش به هو) فيقول : « أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفساً بالأمس !؟ » فيعرف
 موسى أن الخبر قد انتشر .. وفيما هو يفكر فى العواقب يحيطه رجل لا يعرفه (لعله هو
 مؤمن آل فرعون الذى سيرد ذكره بعد) ينصحه بالخروج لأن الملاء يأمرون به ليقتلوه ..

﴿ وَكَانَ تَوَجُّهُ إِلَى مَدْيَنَ فَامَّا عَسَىٰ أَنْ يَهْدِيَنَا سَبِيلَ اللَّهِ وَمَا هُوَ بِمُتَّبِعٍ إِلَّا الْغَلِيظَ الَّذِي ظَنَرْنَا أَنَّ مَدْيَنَ بِأَمْنٍ مِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ وَفِيهَا قَوْمٌ عَادُونَ ﴾
 ﴿ فَتَوَلَّىٰ مُسَارِعَةً إِلَى الْفِجْلِ فَقَالَ رَبِّدْنِي لِأَنْزِلَ
 لِي مِنْ خَيْرِ قَوْمٍ ﴾ فجاءته إحدى نسائه على استحياء قالت إن أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقت لنا فلما
 جاءه وقف على القصر قال لا تخف تجوز من القوم الفلانيين ﴿ فَاتَّخَذَ هُكَيْلًا ابْنُ أَخِي خَيْرَ
 مَنْ اسْتَحَرَّتْ الْقَوْمُ الْأَمِينَ ﴾ قال ما تريد أن أنصحك إحدى بنتي مبيت على أن تأجركى ثمى جميع
 فلما أتممت عشرين عندي وما أريد أن أشق عليك سجدت إن شاء الله من الصليحين ﴿ قَالَ ذَلِكَ
 بَيْنِي وَبَيْنَكَ ابْنَا الْأَجَلَيْنِ فَصَبْتُ فَلَا مَدُونَ عَلَى اللَّهِ عَلَيَّ مَا قَوْلُ وَكَيْلٍ ﴾

لقد توجه إلى مدين - بقدر من الله - وهناك على بشر مدين وجد زحمة من الناس
 يسقون ، ووجد فتاتين لا تقلدان على الحصول على الماء حتى يخف الزحام وليس لهما
 من يحمل عنهما ذلك العبء لأن أباهما شيخ كبير^(١) ، فتقدم موسى بما فيه من شهامة
 وأريحية فسقى لهما ، ثم تولى إلى الظل يستريح من عناء السفر وبشكر الله على الأمن

(١) تقول بعض الروايات إن الشيخ الكبير والد الفتاتين هو نبي الله شعيب . وليس فى النص
 القرآنى ما يثبت ذلك ولا فى حديث صحيح .

والماء والظل .. فإذا إحدى الفتاتين تدعوه لمقابلة أبيها ليجزيه على شهامته ومروءته . فلما قص عليه موسى قصته قال له « لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ » . ثم عرض عليه بناء على اقتراح الفتاة باستجاره - أن يزوجه إحدى ابنتيه مقابل خدمته ثمانية أعوام أو عشرة إذا شاء ، فقبل موسى العرض وبقي مع الرجل الصالح تلك السنوات .

وانتهى الأجل المضروب فخرج موسى بأهله ، فأنس من جانب الطور ناراً فقال لأهله امكثوا حتى آتيكم من النار بقبس تصطلون دفته .. وهناك تقع لموسى مفاجأة مذهلة لم تكن له - ولا لغيره - في الحساب .

إن النار التي ذهب يأتي منها بقبس يصدر منها صوت يناديه ! ويقول الصوت :
إني أنا الله رب العالمين !

﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّيْلٍ أَوْ نَارًا نَهَارٍ فَخَبَرُوا أَنَّهُمْ أَجِدُوا مِنَ النَّارِ أَلَمَ لَهُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ ﴿ فَلَمَّا أَنهَاشُوا دِيَمِينَ شُعْلَى الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَمُوسَى لِيْ- أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾

إنها مفاجأة يذهل لها أى إنسان . ولا شك أن موسى قد أذهلته المفاجأة لولا الأنس الذى أحسه فى ذلك الصوت ، والذى جعله يبقى إلى جانب النار يستطلع ما يكون من أمرها . أما المفاجأة التى لم يطقها موسى فهى تحرك العصا التى كان يحملها كأنها ثعبان ضخم !

﴿ وَأَنْ إِلَىٰ عَصَاكَ لَمَّا نَهَضْتُمْ مَكَانَهُمْ أَنَا جَانٌّ وَلَا مُدِيرٌ وَإِنَّهُ يُقْسِمُ بِمُوسَى أَقْبَلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ ﴾ ﴿ أَسْأَلُكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْجُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَأَضْمُمُ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنْ الرَّهْبِ فَذَلِكَ بَرْهَانُكَ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾

لقد أصبح موسى رسولاً منذ تلك اللحظة . وها هو ذا يؤمر أن يذهب إلى فرعون بهاتين المعجزتين : العصا التى تتحول إلى ثعبان ضخم ، واليد التى يدخلها فى جيبه فتخرج بيضاء من غير سوء .

ولكن موسى يخاف الذهاب إلى فرعون . لقد قتل منهم نفساً ، فهو عرضة أن يقتلوه ، وفى لسانه عقدة فهو يخشى أن يضطرب نطقه فلا يفصح عما يريد أن يقول ،

ويطلب من الله أن يرسل معه أخاه هرون يعاونه في الأمر :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قُلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ٥ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْضَعُ مِنِّي لِسَانًا فَارْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴾

وتنجلي نعمة الله عليه فيجيب سؤاله ، ويطمئنه إلى أن فرعون وملاه لن يصيبوه بالأذى :

﴿ قَالَ سَنُضِلُّكَ يَا أَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكَ سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكَ مَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمْ وَمَنْ أَتَّبَعُكُمْ أَتُفْلِحُونَ ﴾

ويذهب موسى إلى فرعون بالآيات فيحدث بينه وبينه ما يحدث في كل جاهلية

بين الطاغوت وبين الداعية الذي يدعو إلى لا إله إلا الله ١٩

إنها قصة واحدة مكررة في التاريخ !

ما من طاغوت في الأرض يرحب بدعوة لا إله إلا الله أو يهادنها على أقل تقدير !

إنها كلمة بسيطة غاية البساطة : « لا إله إلا الله » ولكنها كما قلنا من قبل تدوى

في أذن الطاغوت كالصيحة المدوية . إن معناها المباشر أن هذا الطاغية ليس إلهاً كما

يريد أن يصنع من نفسه ، إنما هو عبد لله ، ينبغي أن يخضع لسلطانه ويأتمر بأمره ،

لأنه هو - سبحانه وتعالى - الإله الحقيقي الذي يُعبد وحده ، ويطاع وحده ، ويحكم

في أمور الناس بحكمه وحده .

من هنا تنشعب المعركة بين الطاغية وبين الداعية للا إله إلا الله ، ولو كان الداعية لا

يحمل سلاحاً ولا يدعو لقتال ، بل يدعو للمهادنة والانتظار كما دعا نبي الله شعيب :

﴿ مَا كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ أَنْسُوا بِالَّذِي أُرْسِلَ بِهِ وَمَا هُمْ إِلَّا الَّذِينَ يَكْفُرُونَ فَأَصِرُوا حَتَّى يَخُذَ اللَّهُ بِكُمْ بَئِينًا

وَهُوَ خَيْرُ الْحَكِيمِينَ ٨٧ ﴾ قَالَ الَّذِينَ أَسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ

مِنْ قَوْمِنَا أَوْ لَنَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ (سورة الأعراف : ٨٧ - ٨٨) .

إن الطاغية يعتبر مجرد الدعوة للا إله إلا الله حرباً معلنة ضده هو شخصياً لأنه

يدرك جيداً معناها ! يدرك أن معناها رد السلطة المغتصبة التي يستعبد بها الناس إلى

صاحبها الحقيقي .. إلى الله سبحانه وتعالى رب الجميع .

ومع أن موسى لم يطلب من فرعون بادئ الأمر أن يؤمن به ويتبعه ، إنما طلب منه فقط أن يطلق بنى إسرائيل ولا يعذبهم ، إلا أن المعركة نشبت مع ذلك بينه وبين موسى كما تنشب في التاريخ كله بين الطاغية وبين الدعوة للإله إلا الله ! ذلك أن موسى إنما يطالبه بإطلاق بنى إسرائيل وعدم تعذيبهم باسم الله الذى هو مرسل من قبله ؛ ومن ثم فالقضية واحدة فى النهاية ! قضية الإله الحقيقى الذى ينبغى أن يطاع : هل هو الله أم الطاغوت ! إنك من أى باب دخلت ، فالقضية فى حس الطاغوت واحدة !

قد تكون القضية هى رفع ظلم سياسى ، أو ظلم اجتماعى ، أو ظلم اقتصادى ، أو ظلم فردى ولكنك إذا طلبت رفع الظلم باسم الله ، وباسم الحكم بما أنزل الله ، فقد كفرت بالطاغوت ، وأعلنت صراحة أو ضمناً نزع الربوبية منه وردها إلى الله ! وكل شىء قد يحتمله الطاغوت إلا هذه بالذات ! إنه يحس أنها تصيبه فى مقتل ، ولو كانت كلمة تعلن بغير سلاح ولا قتال !

وقد أحس فرعون كما يحس الطغاة أبداً حين يدعون إلى شىء باسم الله وطاعة الله .. أبى واستكبر .. ثم هدد بالبطش !

وفى الحوار الذى دار بينهما كما ورد فى سورة الشعراء ما ينبىء عن ذلك :

﴿ فَأَيَّا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝١١ أَنَّا بِلِقَاءِ رَبِّنَا عَلَى نَارٍ ۝١٢ قَالَ لَرَبِّكَ إِنَّا وُلَدَاءُ وَلَيْتَ إِنَّا مِن عُمَرَكَ سِينَنَ ۝١٣ وَقَعَلْتَ قَوْلَكَ إِلَيْنَا فَتَعَلَّ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ۝١٤ قَالَ فَعَلَّهَا إِنَّا وَآنَا مِن الصَّاغِرِينَ ۝١٥ فَفَرَزْتُ مِنْكُمْ فَاخْتَرْتُكُمْ فَهَبْ لِي رِيحَكُمْ وَجَعَلْنِي مِنَ الرَّاغِبِينَ ۝١٦ وَنِلْكَ نِعْمَةً تَنْشَأُ عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ ۝١٧ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝١٨ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنُودَ مُؤْمِنِينَ ۝١٩ قَالَ لِيَنَّ حَوْلَهُ آلَاتُ تَسْمَعُونَ ۝٢٠ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ۝٢١ قَالَ إِنِّي رَسُولُكُمُ الَّذِي أُزِيلُ إِلَيْكُمْ الْحَنُونَ ۝٢٢ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنُودَ تَسْمَعُونَ ۝٢٣ قَالَ لِيَنَّا نَخْذَنَ مِنَ الْغَنِيِّمَ لِجَعَلْنَاكَ مِنَ السَّاجِدِينَ ۝٢٤ ﴾ (سورة الشعراء : ١٦ - ٢٩) .

(١) الخطاب فى الآية لموسى وفرون .

(٢) يشير فرعون إلى المصرى الذى وكره موسى ففضى عليه .

موسى يطلب إطلاق بنى إسرائيل ، وفرعون يحول القضية إلى قضية الألوهية :
 من المعبود الذى ينبغى أن يطاع ؟ وذلك أن موسى يطلب إطلاق بنى إسرائيل باسم
 الله ، لا باسم قضية سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية أو وطنية أو عرقية !
 ولقد طلب فرعون الآيات لا ليؤمن ، ولكن كبراً وتحدياً :

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا
 الْأَوَّلِينَ ① وَقَالَ مُوسَى لَيْتَ أَكْمَلُ مِنْ جَاءَ بِالْمُدَى مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ
 لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ② وَقَالَ فِرْعَوْنُ بَنَاتِي اللَّامَاتُ لَكُنَّ مِنَ الْوَعْبِيِّ فَأَوْذِلْ بِهِنَّ عَلَى الطِّبْنِ
 فَأَجْعَلِ لِمَنْ حَالَ قُلُوبُ أَطْلُغُ إِلَيْنَا مُوسَى وَإِنِّي لَأُظَنُّهُ مِنْ الْكَذَّابِينَ ③ وَأَنشَأَ خَبْرَهُمْ
 وَجَسَدُهُ فِي الْأَرْضِ بِكَذِبِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمُ إِلَيْنَا لَا يَرْجَعُونَ ④ ﴾ (سورة القصص : ٣٦ - ٣٩) .
 لقد رأوا من موسى سبع آيات بينات : العصا ، واليد ، والطوفان ، والجراد
 والقمل ، والضفادع ، والدم .

﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَمْوَسَىٰ أَدْعُ لَكَ رَبُّكَ بِمَا عَمِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ
 بِكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ رَحْمَةً مِنَّا ① فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّدَّةٍ لَّيَلَّوْا أَزْمَنَ لِّئَلَّا يَتَنَبَّهُوا ② ﴾ (سورة
 الأعراف : ١٣٤ - ١٣٥) .

وبقيت من الآيات التسع ^(١) التى أرسل بها موسى آياتان :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنَا نِيرُوحِيَا وَنَاكُمُ شُعْبُونَ ① فَارْسَلْ فِرْعَوْنَ فِي اللَّيْلِ حَاشِيَرِينَ ② إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشُرُومَةٌ
 لِّبَلُونَ ③ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَاطُونَ ④ وَلَنَا لَجَمِيعٌ حَذِرُونَ ⑤ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ⑥ وَكُنُوزٍ
 وَمَقَارٍ كَثِيرٍ ⑦ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ⑧ فَأَتَّبَعُوهُ مُشْرِقِينَ ⑨ فَلَمَّا رَأَى الْفِتْنَانِ قَالَ
 أَتُحِبُّ مُوسَىٰ لِمَا لَدَّرَكُوتَ ⑩ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ⑪ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنَا ضَرِبْ هَذَا الْفَقْرَ
 فَأَخْلَقْ تَمَّكَانَ كُلُّ فِرْعَوْنَ كَالظُّلُودِ الْعَظِيمِ ⑫ وَأَزَلْنَا تَمَّ الْأَخْيَرِينَ ⑬ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَمَنْ تَعَدُّ الْجَمْعِينَ ⑭
 نَزَّاعَةً الْأَخْيَرِينَ ⑮ ﴾ (سورة الشعراء : ٥٢ - ٦٦) .

غرق فرعون الذى قال لملكه : ﴿ أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْظَىٰ ﴾ (سورة النازعات : ٢٤) .

(١) فى نسع آيات إلى فرعون وقومه انهم كانوا قوماً فاسقين . (سورة النمل : ١٢) .

وغرق معه جنده الذين استخفهم - بفسقهم - واستعبدهم لسلطانهم : ﴿ فَاسْتَحَفَّ قَوْمُهُ
فَاطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ (سورة الزخرف : ٥٤) .

وكانت آية لكل جبار عنيد في الأرض . ولكن متى كان الطغاة يعتبرون ؟
﴿ قُلْ أَنْظَرُوا مَا ذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُعْشَى الْآيَاتُ وَالنَّذِيرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (سورة يونس: ١٠١) .
وانتهت فترة عصية من حياة موسى .. فترة الجهاد الذي استمر بضع سنوات
مع فرعون وملكه ، والأذى يتزل بيني إسرائيل لا يكف عنهم ، وهو يحاول أن يبعث
فيهم الصبر والاصطبار ، ويبعد عنهم شبح اليأس :

﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَنْذَرُنَا مُوْسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْرِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَيَكْفُكَ قَالَ سَتَقْبِلُ
 آيَاتِنَا فَتُنْقَلِبُ إِلَىٰ قَوْمِكَ فَأُفْرِقَهُمْ فَمَا تَكْفُرُ ۖ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْمِعُوا لِقَوْلِي وَأَطِيعُوا أَمْرَ اللَّهِ وَأَطِيعُوا أَمْرِي وَأَطِيعُوا
 أَمْرَ رَسُولِهِ ۚ إِنَّكُمْ عَلَىٰ عِندِ رَبِّكُمْ مُنْظَرُونَ ۖ ﴿١٢٨﴾ قَالُوا أُوذِيَ مَوْسَىٰ مِنْ قَبْلُ وَأَن تُلَاقِيَهُ فَمِثْلُ آبٍ مُّارٍ ۚ قَالُوا سُبْحَانَ اللَّهِ لَا تاتِينَا وَهِيَ الْمَاءُ ۚ قَالُوا أَتُفَكِّرُونَ
 أَن يُلَاقِيَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْلِفًا عِدَّةَ وَعْدِهِ ۚ وَمَنْ عَصَىٰ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَأَحْضَرُوا لَهُ آيَةً فَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۚ ﴿١٢٩﴾ ۝ ﴿سورة الأعراف : ١٢٧-١٢٩﴾ .

ويتحقق وعد الله لبني إسرائيل فيستخلفهم في الأرض :

﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسَخِّمُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا وَنَمَتُ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحَسَنَىٰ عَلَىٰ بَيْتِ إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَوَدَّعْنَاهُمَا مَا كَانَ بِصَنْعِ قِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ وَمَا كَانُوا يُعْرِشُونَ ﴾ (سورة الأعراف : ١٣٧) .

فهل استقاموا على طريق الله الذى أسبغ عليهم من نعمه ما لم يسبغه على أحد من العالمين ؟ !
كلا ! إنهم ما كادوا يحسون بالأمن من أذى فرعون وظلمه ، ويحسون بالكرامة
بعد الهوان والذل ، حتى بدأوا يتجبرون ويعصون ربهم ، حتى وموسى عليه السلام
حتى بين ظهرانيهم !

﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَ سَمْعِيلَ الْجَبَرِ فَأَلَوْا عَلَى قَوْمٍ يَكْفُرُونَ عَلَى أَصْنَانٍ لَّهُمْ ﴾ (سورة الأعراف : ١٣٨) .
ثم انخلوا العجل الذهبي إلها حين ذهب موسى لميقات ربه !

﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ خَلْقِهِ عِجْلًا خِجْدًا لَمُخَوَّاتٍ أَلَمْ يَكُونُوا أَتَقْوُونَ اللَّهَ لَعَلَّهُمْ لَا يُصَلِّمُونَ ﴾ (سورة الأعراف : ١٤٨) .

وقالوا : لن نؤمن حتى نرى الله جهرة !

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِمُوسَى أَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ زُرَّيْنَاكَ جَنَّةَ فَأَخَذْنَاكَ الصَّعِيقَةَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾

(سورة البقرة : ٥٥) .

وتوالت جرائمهم ومعاصيهم بعد ذلك وموسى يصبر عليهم ولا يسلم من أذاهم !

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ مَازُوا مُوسَىٰ قَبْلَ أَن يَأْتِيَهُم بَأُكْحُم بَأْسًا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجْهًا ﴾

(سورة الأحزاب : ٦٩) .

﴿ أَمْ يُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ ۖ كَمَا سَأَلُوا يُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ ۚ وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ الْإِيمَانُ فَذَلِكَ سَوَاءُ النَّبِيِّ ﴾

(سورة البقرة : ١٠٨) .

وكانت قمة معصيتهم - في حياة موسى - هي رفضهم الجهاد لدخول الأرض

المقدسة التي وعدهم الله بها :

﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا

وَاتَّكُم مَّا لَمْ يُوْثِقْ أَهْكُم مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٥٠﴾ يَقَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ

أَذْبَارَكُ فَتَقَبَّلُوا خَيْرِينَ ﴿١١﴾ قَالُوا يَسُوءُ إِنْ فِيهَا قَوْمٌ جَبَّارِينَ قَالُوا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا

مِنْهَا فَإِنَّا دَخَلُونَا ﴿٧٧﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ اللَّهَ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمَا

وَرَبِّكَ فَتَنَّا لَا تَمَاهِكُمْ قَعْدُونُ ﴿٣١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٣٢﴾

قَالَ فَإِنَّهَا مُرْمِيَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿١٠٠﴾

(سورة المائدة ٢٠ - ٢٦).

ومضى موسى للقاء ربه بعد طول المصابرة على عصيانهم وانحرافهم ، والمحاولة

الدائبة لتقويمهم .. مضى وهم سادرون في غيهم ، لا يزيلون إلا معصية الله وكفراً به .

(١) ما زالت عبادة الذهب قائمة فيهم منذ ذلك الحين .

ويعمل القرآن الكريم وصفهم في مثل هذه الآيات :

﴿بَشِّرْكَ أَفْلَ الْكَافِرِ أَنْ يُزِيلَ عَلَيْهِمْ كَنْبًا مِنْ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرُ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرَأَيْتَ اللَّهُ جَعَلَهُمْ أَصْلَفَ بِطُلُوعِهِمْ نَا أَخَذُوا الْعِصَى مِنْ تَحْتِ مَا جَاءَتْهُمْ السَّيِّئَاتُ فَمَقَّوْنَاهُ عَنْ ذَلِكَ وَأَنْتَ مُوسَى مُطْمَئِنِّ بِمَا ۝ وَرَفَعْنَا فُرْقَانَهُمْ الْظُورَ يَمَيِّتُهُمْ فَمَا أَصْبَرُوا إِلَيْنَا أَلَمْ نَجْعَلِ الْإِنْسَانَ مِثْلَ خُلُقٍ ۝ فَمَا تَفْقَهُمْ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُمْ وَكَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَقِيلُوا الْأَنْبِيَاءُ بَغْدَا حَتَّى وَقِيلَ لَهُمْ قُلُوبُنَا غُلَّتْ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا لِبِلَالٍ ۝ وَبِكُفْرِهِمْ وَقِيلَ لَهُمْ عَلَى مَرْبَةٍ يُهْتَكُ عَظِيمًا ۝ وَقِيلَ لَهُ إِنْ أَنْتَ إِلَّا السَّيِّعُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَمَا قُلْتُمْ وَمَا كُنْتُمْ عَلَيْهِمْ وَلَا كُنْ شَيْءٌ لَهُمْ . . . فَيُظْلَمُ مِنْ الَّذِينَ هَادُوا حَزَنًا عَلَيْهِمْ طَبَعُ أَهْلِكَ لَهُمْ وَيَصْدِرُ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ۝ وَلَنُخْذِلَنَّ الرِّبَا وَفَدُّهُمَا عَنْهُ وَأَكْلَهُمْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝ (سورة النساء : ١٥٣ - ١٦١) .

لذلك استحقوا اللعنة وباءوا بغضب من الله :

﴿لِئِنْ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ۝ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ۝ (سورة المائدة : ٧٨ - ٧٩) .

﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ۝ (سورة البقرة : ٦١) .

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتِ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ۝ (سورة آل عمران : ٢١ - ٢٢) .

لقد صنع اليهود من الشر في أجيالهم المتعاقبة ما لم تصنعه أمة أخرى في التاريخ .
٤ - عيسى عليه السلام :

﴿وَلَتَجِدَنَّ آيَةَ الْبُرْءِ لِلنَّاسِ ۝ (سورة مريم : ٢١) . ﴿وَأَلَيْتَ أَحْسَنَ رِزْقًا فَقَعْنَا فِيهَا مِنْ رِزْقِنَا وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ۝ (سورة الأنبياء : ٩١) .

لكل نبي معجزة واحدة على الأقل . وأرسل موسى عليه السلام في تسع آيات إلى فرعون وقومه . ولكن معجزة عيسى في ولادته بغير أب تعتبر متفردة بين المعجزات جميعاً . فقد شاء الله سبحانه وتعالى أن يجعله هو ذاته آية للعالمين .

﴿ وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ اتَّخَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ۝ فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ۝ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ نَذِيرًا ۝ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ۝ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَدْ أَكْ بَقِيًّا ۝ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىٰ هَيْئَةٍ وَلَقَدْ خَلَقْنَا آيَةَ لِلنَّاسِ وَلَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝ فَهَلْهُنَّ أَمْهَاتُ ۝ ﴾ (سورة مريم : ١٦ - ٢٢) .

هكذا تبدأ قصة عيسى عليه السلام .. أو لعلها تبدأ قبل ذلك في الحقيقة في الرعاية الخاصة التي رعى بها الله مريم منذ مولدها :

﴿ إِذْ أَلَّهِ أَصْطَقَىٰ نَاقَةً وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِصْرَ كُلِّ الْعَالَمِينَ ۝ ذُرِّيَّةً بِضَافٍ ۝ تَبَرَّأَ وَأَنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝ إِذْ قَالَتْ امْرَأَتُ عِصْرَ رَبِّ لِي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَأَنَّهُ أَغْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَئِنَّكَ لَآتِيٌّ كَذَافٌ ۝ فَاتَّخَذْتُمَا مَاءً مِّنْ تَحْتِهَا يَمِينًا ۝ فَتَقَبَّلَ رَبُّهَا يَقْبُولُ صَحِينَ وَأَتْبَعَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا صُفْحًا مِنَ الْحَرَابِ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَنَزَّلُهُ إِلَيْنَا هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝ ﴾ (آل عمران : ٣٣ - ٣٧) .

فهذه امرأة عمران نهب ما في بطنها للمعبد (على عادة القوم الأتقياء يومئذ) نظن أنها ستلد ولداً ذكراً - فما كان يوهب للمعبد إلا الذكور . فلما وضعت فوجئت بأنها أنثى ! وتحسرت على أنها لم تلد ذكراً تستطيع أن توفي به نذرها . فواساها الله سبحانه وتعالى بقبول ابنها مريم في المعبد ولو كانت أنثى ! وكلف النبي زكريا برعايتها في المعبد والقيام بحسن تربيتها ، ففوجيء زكريا بأحوال منها غير معتادة : « كلما دخل عليها زكريا المحراب وجدَ عندها رزقاً ! » فهو يسعى إليها بالطعام فيجد الطعام فائضاً عندها ومتجدداً ! فعرف أنها مباركة ، وزاد ذلك من عطفه عليها ورعايتها ..

ثم إن الله اصطفاه وطهرها ..

﴿وَإِذْ قَالَ الْمَلِكُ يُنَادِ ابْنُ اللَّهِ اصْطَفِكِ وَطَهَّرَكِ وَأَصْطَفَكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ۝﴾ يُنَادِ

أَفْنِي لِرَبِّكِ وَأَنْجِدِي وَأَرْكَبِي مَعَ الرَّاكِبِينَ ﴿ (سورة آل عمران : ٤٢) .

فهي النقية النقية الطاهرة المباركة .. حتى لقد لقبها أهلها « أخت هرون » من شدة

تقواها وصفاء سريرتها .

وبينا هي في عزلتها ، وهذه حالها ، يجيئها جبريل عليه السلام بهذا الخبر العجيب :

أن الله سيب لها غلاماً زكياً ! وتذهل من المفاجأة وتضطرب لها اضطراباً عنيفاً ،

ويتمثل في خيالها ما يمكن أن يقال عنها فتدافع عن نفسها : « أتى يكون لى غلام ولم

يَمْسَسْنِي بَشْرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا » . فيقول لها الملك : كذلك ! إنه أمر هين على الله . إن الله

يريد أن يجعل منه آية للناس ورحمة . ثم إنه لا فائدة في الجدل ! فهو أمر محتوم !

﴿وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا ۝﴾ فَمَلَّتْهُ ۝

هكذا تبدأ المعجزة بخلقه بغير أب .. بالمشيئة الربانية فحسب .. بغير الأسباب

التي تعودها الناس في حياتهم .

نعم إن هناك سنة جارية ، هي من أمر الله ، وقد جرت هذه السنة بأن يأتي النسل

من لقاء الزوجين وإخصاب البويضة بهذا اللقاء ، بحيث لا يتكون جنين إذا لم يحدث

للبيضة إخصاب .

ولكن مشيئة الله سبحانه وتعالى ليست مقيدة بهذه السنة الجارية ولو أنها من أمر الله !

إنما الله سبحانه وتعالى يخلق بغير أسباب . يقول للشئ كن .. فيكون ..

ونسى نحن هذا الأمر سنة خارقة ! لأنها تخرق ما تعودنا عليه من سنة الله الجارية .

ولكن الإعجاز في الحقيقة قائم في هذه وتلك ! وإلا فمن الذي خلق البويضة في رحم

الأم وجعل من خصائصها أن تنجب بعد الإخصاب ؟ ! إنه الله الذي يقول للشئ كن فيكون !

ومع ذلك يظل للخارقة وضع خاص في حسنا ، لأنها تخالف المألوف .. ويعلم

الله ذلك منا ، فيجعل المعجزة دائماً خارقة للمألوف ، لتلفت حسنا بشدة إلى الخالق

الذى لا يعجزه شيء فى السموات ولا فى الأرض !

واقترضت مشيئة الله أن تكون كذلك ولادة عيسى عليه السلام ..

وإذ تكون ولادة عيسى بغير أب معروف ، فإن مريم تكون حتماً عرضة للاتهام !
بل إن أهلها هم أول من يوجه الاتهام إليها ! فإن فضيحتها لن تكون خاصة بها ! إنما
هى ستلطخ الأسرة كلها بالعار ، وهى التى ورثت التقوى وحسن السمعة جيلاً بعد جيل :
﴿ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ ، قَالُوا يَمْرُؤٌ مُّكَذِّبٌ شَيْءٌ فَرِيًّا ﴾ يَأْتِخَ مَرْثُ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ
سَوِيًّا وَمَا كَانَ ثَأْنُكَ بَيْنَنَا ﴾ (سورة مريم : ٢٧ - ٢٨) .

وتنتزل رحمة الله بمريم ، التى تقبلها ربها بقبول حسن منذ مولدها ، ورعاها
وأكرمها ، واصطفأها وطهرها .

تنتزل فى معجزة جديدة لعيسى ، لا تقل إعجازاً ولا تقل روعة فى الحس :
﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نَكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي
نَبِيًّا ﴿ وَجَعَلَنِي مَسَارِكًا أَبْنَى مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا ذَمَّتْ حَيًّا ﴾ وَرَبُّا يُولِدُنِي وَلَمْ يَجْعَلْ لِي
جَبَارًا شَفِيًّا ﴿ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ (سورة مريم : ٢٩ - ٣٣) .
﴿ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (سورة آل عمران : ٤٦) .

وتتوالى المعجزات فى حياة عيسى ..

﴿ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقْتُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ
فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَزِّلُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ وَالْحُمَّى بِالْمَوْتِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنْفِثُكُمْ بِمَآ تَأْكُلُونَ وَمَا تَذِيرُونَ
فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾ (سورة آل عمران : ٤٩) .

ومع أن هذه المعجزات كلها قد جاءت تأييداً لرسالة عيسى عليه السلام ، فإن الذين
آمنوا به إيماناً صحيحاً كانوا قلة قليلة سواء فى أثناء حياته على الأرض أو بعد رفعه منها .
فأما اليهود الذين أرسل إليهم عيسى فقد كذبوه وأبوا أن يتبعوه إلا قليلاً منهم .
وقالوا إن المسيح الذى وُعدنا به سيكون ملكاً ذا سلطان ، أما هذا فقد جاء يهناؤنا عن
ملكوت الرب ! فهو إذن ليس المسيح الموعود !

وأما النصارى فقد آلهوه وجعلوه ابن الله .. فكفروا .

ولتتبع موقف كل من الفريقين .

فأما اليهود فقد كانوا - حتى في حياة موسى عليه السلام - قوماً ماديين . عبدوا العجل الذهب ، وظلوا من بعدها يعبدون المال ويتغنون في تحصيله عن طريق الحرام ، بأكل الربا، وأكل أموال الناس بالباطل : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ ﴾ (سورة آل عمران : ٧٥) .^(١)

ووصلوا إلى درجة من قساوة القلب وصفها القرآن في هذه الآية : ﴿ تَوَفَّتْ قُلُوبُهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فِيهِمْ كَالْجَارِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَأَنْ يَزِلَّ الْجَارُ لَمْ يَنْجُرْ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَأَنْ يَنْهَارَ لَمْ يَنْجُرْ مِنْهُ الْمَاءُ وَأَنْ يَنْهَارَ لَمْ يَنْجُرْ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَنِ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (سورة البقرة : ٧٤) .

فأرسل الله إليهم عيسى عليه السلام ليردهم إلى الصورة السوية التي يرضى عنها الله ، فيتركوا ماديتهم الهابطة ، وتلين قلوبهم بدلاً من قسوتها ، ويستشعروا تقوى الله وخشيته ، فيكفوا عن جرائمهم الويلة التي لطخت تاريخهم كله .. لذلك جاء عيسى عليه السلام يحدثهم عن ملكوت الرب ، ويقول لهم : من أراد ملكوت الرب فليترك ماله وأولاده وليتبعني . ويحدثهم عن الروح وصفائها ، وعن رفعة الإنسان بالجانب المعنوي منه : « ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان » .

لكنهم من أجل ذلك كرهوه !

إنهم يريدون أن يظلوا في الدنس الذي يعيشون فيه ولا يريدون أن يرتفعوا عنه بحال من الأحوال . لذلك كذبوا عيسى وحرصوا على صلبه :

﴿ وَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَفُتِنًا مِنْ بَعْدِهِ . إِنْ رَأَيْتُمْ فَرِيقًا كَذِبْتُمْ فَهُنَا مُوسَى ابْنُ مَرْيَمَ ابْنُ الْبَنَاتِ وَأَيُّنَهُ رُوحُ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ أَنْجَبْتُمْ فَفَرِقْنَا كَذِبْتُمْ وَفَرِقْنَا تَقُولُونَ ﴾ (سورة البقرة : ٨٧) .
فأما التكذيب فقد أقاموه على هذه الدعوى المزعومة التي سبقت الإشارة إليها ،

(١) ما زال اليهود يعتبرون كل البشر غيرهم أميين ! أو أميين بتعبيرهم ! ويعتبرون أموال البشرية كلها حلالاً لهم ولو حصلوا عليها بكل الطرق غير المشروعة .

وهي أن المسيح الذي ورد ذكره عندهم في التوراة سيكون ملكا عليهم ويجعل لهم سلطاناً على الأمم الأخرى . أما هذا فيتحدث فقط عن ملكوت الرب وليس بيده سلطان ! وأما التآمر لصلبه فقد كانوا يحرضون ضده الحاكم الروماني المسمى « بيلاطس » الموالي على فلسطين من قبل الرومان . كانوا يقولون إنه شخص مشاغب ومهيج للجماهير ! وإنه يحرضهم على عدم إطاعة القيصر الروماني ! وقد حاول بيلاطس أن يصدّهم عن هذه الاتهامات ، وقال لهم إنه لم يسمع عنه إلا كل خير ، وإنه يدعو إلى السلام والمحبة ، فقالوا له إن الأمن لن يستتب في الأرض إلا إذا حوكم هذا الرجل وصلب ! وإنه طالما بقي حياً فستظل الاضطرابات قائمة من حوله ! ثم لفقوا له قضية يكون من نتائجها محاكمته وصلبه . وهم يزعمون أنهم قتلوه بالفعل فوق الصليب . ولكن القرآن يكذب ذلك تكذيباً قاطعاً ، كما تكذبه كتابات كثيرة للنصارى أنفسهم ، بل إن الأناجيل ذاتها مضطربة اضطراباً شديداً حول هذا الموضوع . والذي حدث بالفعل هو أن الله ألقى شبهه على شخص آخر (يهوذا الأسخريوطي) فأخذ وصلب بدلاً من المسيح ^(١) . أما المسيح فقد رفعه الله إلى السماء ونجاه مما كان اليهود يكيدون له :

﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ قَالُوا الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَوْ كُنَّا نَعْلَمُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ابْتِغَاءَ الْقَتْلِ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ۖ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْنَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ (سورة النساء : ١٥٧ - ١٥٨) .

أما قوله تعالى في سورة آل عمران (٥٤-٥٥) ﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكِرِينَ ۖ ﴾ إِذْ قَالَ اللَّهُ لِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ خُذْ هَٰذَا وَرَافُكُ إِلَىٰ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ فمعنى « متوفيك » هنا أني أوفيك أياك المقدرة لك على الأرض أي أن أجله المقدّر له في الأرض قد انتهى

(١) يهوذا الأسخريوطي كان واحداً من الحواريين (تلاميذ المسيح) ولكنه خانه سراً وتآمر ضده مع اليهود . وتقول الروايات المسيحية نفسها إنه كان أشبه الناس بالمسيح كما تقول الروايات التاريخية الصحيحة إن عملية الصلب تمت في الغسق أثناء دخول الظلام وإن الجماهير التي حُرّضت ضد المسيح رأت يهوذا فحسبته هو المسيح - لقرب الشبه بينهما - فدفعته دفعاً إلى الجنود فوضعوه على الصليب . أما المسيح فقد اختفى وظل الناس يبحثون عنه فلا يجدونه .

ثم رفعه الله إليه ، وليس معناها أنه مات ، بل رُفع حياً ، ليبقى حتى يتزل مرة أخرى في آخر الزمان ويحكم الناس بشريعة محمد ﷺ كما تقول الأحاديث الصحيحة .
وتلك معجزة من المعجزات التي صاحبت حياة المسيح عليه السلام ، أو هي آخر معجزاته . فيلاده مُعْجَز وكذلك توفيته أجله في الأرض معجزة ، وكلاهما خارق للمألوف .
تلك قصته مع اليهود .. أما النصارى فقد انحرفوا بشأنه في اتجاه آخر .. وانحرفوا من معجزاته حجة باطلة لتأليه تارة وادعاء بنوته لله تارة أخرى .

كانت معجزة مولده أنه ولد من غير أب ، فقالوا : لا يمكن أن يكون بغير أب ، فهو إذن ابن الله !

ويرد القرآن عليهم: ﴿ إِنْ مَثَلْ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (سورة آل عمران : ٥٩) .

فالخلق عند الله هو الخلق . يتم بالمشيئة وليس بالأسباب ! ومشية الله ليست مقيدة بنوع معين من الأسباب ، بحيث تعجز عن الخلق إذا لم تتوفر الأسباب المألوفة في علم البشر !
لذلك يعقب في سورة مريم (التي أوردنا نصوصاً منها من قبل) بعد تفاصيل مولد عيسى عليه السلام بقوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ۚ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (سورة مريم : ٣٤ - ٣٥) .

ولم يكتف النصارى بادعاء بنوة عيسى لله ، بل انحرفوا من معجزات إحياء الموتى وخلق الطير من الطين وبقية المعجزات الأخرى تكأة لادعاء الألوهية للمسيح عليه السلام !
والقرآن يقرر إزاء هاتين المعجزتين بالذات أنهما تتمان بإذن الله : ﴿ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ وَلِيَّ الْمَوْتِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنْفِثُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾ (سورة آل عمران : ٤٩) .

فلا مجال البتة لاتخاذ هذه المعجزات ذريعة لتأليه عيسى عليه السلام !

كما بلغ الشطط بهم أن أضافوا إلهاً ثالثاً إلى الآب والابن ، ذلك هو روح القدس .. وهذا كله صنعوه بأيديهم في مجامعهم المقدسة في اجتماع تلو اجتماع كما تقرر توارينهم

هم أنفسهم ، ولم ينتزل في الإنجيل ولم يكن من أوامر المسيح لهم ، بل كان منهم حتى القرن الخامس الميلادي من يقول قولة الحق : إن المسيح بشر ورسول لله .

ولكن الكنيسة ظلت تطارد الذين يقولون ذلك وتحرق كتاباتهم حتى لا يبقى غير ما زيفته هي في مجامعها من كتابات وقرارات .

وحتى هذه القرارات لم تكن عملاً خالصاً من أعمال المسيحيين !

يقول درابر الأمريكى في كتابه « الدين والعلم » :

« دخلت الوثنية والشرك في النصرانية بتأثير المناهقين ، الذين تقلدوا وظائف خطيرة ، ومناصب عالية في الدولة الرومية ، بتظاهرهم بالنصرانية ولم يكونوا يحفلون بأمر الدين ، ولم يخلصوا له يوماً من الأيام .. وكذلك كان « قسطنطين » . فقد قضى عمره في الظلم والفجور ، ولم يتقيد بأوامر الكنيسة الدينية إلا قليلاً في آخر عمره (سنة ٣٣٧ م) . « إن الجماعة النصرانية ، وإن كانت قد بلغت من القوة بحيث ولت قسطنطين الملك ، ولكنها لم تتمكن من أن تقطع دابر الوثنية ، وتقتلع جرثومتها وكان نتيجة كفاحها أن اختلطت مبادئها ، ونشأ من ذلك دين جديد ، تتجلى فيه النصرانية والوثنية سواء بسواء .. هنالك يختلف الإسلام عن النصرانية ، إذ قضى على منافسه (الوثنية) قضاء باتاً ، ونشر عقائده خالصة بغير غش ..

« وإن هذا الأمبراطور الذى كان عبداً للعقائد الدينية تساوى شيئاً ، رأى لمصلحته الشخصية ، ولمصلحة الحزبين المتنافسين - النصراني والوثني - أن يوحدهما ويؤلف بينهما : حتى إن النصراني الراسخين أيضاً لم ينكروا عليه هذه الخطة . ولعلمهم كانوا يعتقدون أن الديانة الجديدة ستردهم إذا طعمت ولقحت بالعقائد الوثنية القديمة ! وسيخلص الدين النصراني عاقبة الأمر من أدناس الوثنية وأرجاسها »^(١) .

فهي إذن عقائد وثنية أضيفت بأمر الأمبراطور إلى العقيدة النصرانية « لتأليف

قلوب الوثنيين » !

(١) نقلاً عن كتاب : « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » للسيد أبى الحسن الندوى .

وقد كانت عقيدة التثليث منتشرة في مصر في أسطورة إيزيس وأوزوريس وحوريس الذين يتجمع من ثلاثتهم إله واحد ، كما كانت منتشرة في الهند كذلك في صورة أخرى ، ومن هذه الأساطير - التي انتقلت إلى الأمبراطورية الرومانية بالعدوى - صيغت عقيدة النصارى بمعرفة رجال الكنيسة المزيفين .

وبناقشهم القرآن في هذا الأمر في مواضع شتى ويصدر الحكم بشأنهم :

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُنَ أَلْسِنَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ مَا كَانَ لِلْبَشَرِ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالنَّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيْحَيْنِ بِمَا كُنْتُمْ تَصِلُونَ ﴿٧٩﴾ وَمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُخَدُّوا ثَلَاثَةً وَاللَّيْلُ اثْنَتَا أَرْبَاعًا أَيْمَنُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾ (آل عمران: ٧٨-٨٠).

ومما يذكر بهذا الصدد أن وفد نجران من النصارى الذين ذهبوا لمجادلة الرسول ﷺ

في شأن المسيح أنزل الله بشأنهم :

﴿فَمَنْ حَاجَّكَ مِنْ بَدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفَكُمْ ثُمَّ نَنْهَاهُ فَعَجَلْ لَنَتَّ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٦١﴾﴾ (سورة آل عمران : ٦١) . فلما واجههم الرسول ﷺ بهذه الدعوة إلى المباهلة أبوا وانصرفوا !! ومعنى ذلك في الحقيقة أن النصارى وإن جادلوا في أمر عيسى واشتدوا في الجدل إلا أن هذه العقيدة الزائفة لا تبلغ من نفوسهم مبلغ اليقين !

ويقول القرآن لهم :

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا آلُ مَرْيَمَ وَرُوحُ مِنْهُ فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا

(١) يقول القرآن بشأن آدم عليه السلام : ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي خَالِقٌ شَرًّا مِنْ طِينٍ ﴿٧٠﴾ فَلَاذًا

سَوِيَّهُ وَنَعَّمْنَا مِنْ رُوحِ قَدُّوسٍ فَجَعَلُوهُ نَسْبًا سَاجِدًا ﴿٧١﴾﴾ (سورة ص : ٧١-٧٢) . ومع ذلك لم يقل

أحد إن آدم إله ولا إنه ابن الله .

خَبِيرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَحِيدٌ سُبْحَنَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَوْنُ
بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿ (سورة النساء : ١٧١) .

ثم يواجههم بالحكم الفصل في شأنهم :

﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۚ وَقَالَ الْمَسِيحُ بَنِي إِسْرَءِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي
وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَزَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَقَدْ
كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ ۚ تَلَاوَنُوا بَيْنَهُمْ بَدْوًا وَكُنْتُمْ لَهُمْ خِيَرَتًا ۚ قَالُوا لَوْ كُنَّا نَعْلَمُ
الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ ﴿ (سورة المائدة : ٧٢ - ٧٣) .

وتختتم سورة المائدة بهذا الموقف المؤثر :

﴿ فَلَاذَ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ۖ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ
أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِنْ كُنْتُ فَلَنُفْعَلَ ۚ فَقَدْ عَلِمْتُمْ تَعْلَمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٧٤﴾
مَا قُلْتَ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مِمَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۚ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ
الْقَرِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٧٥﴾ إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۚ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْغَفِيرُ
الْحَكِيمُ ﴿٧٦﴾ قَالَ اللَّهُ مَذَابُكُمْ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ صَلَافٌ ۚ لَكُمْ جَنَّتُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا
أَبَدًا ۚ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ ذَلِكَ الْقَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٧﴾ يَوْمَ تَمْلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَى كُلِّ
شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿

وهكذا نجد أن جهاد الرسل جميعاً متعلق بتلك القضية الكبرى : قضية التوحيد .

قضية الإيمان بالله واليوم الآخر .

وأن جهدهم كله كان منصرفاً إلى إعادة الناس إلى حظيرة الإيمان بعد شرودهم
عنها ، وردهم إلى رؤية الحق الذي عموا عنه ، والارتفاع بهم من انتكاس الحيوان
إلى رفعة الإنسان ، الذي شرفه الله بالخلافة في الأرض ، وفضله على كثير من خلق ،
ليقوم بعمارة الأرض بمقتضى المنهج الرباني ، الذي يكفل للبشر سعادتهم وطمأنينتهم
في الحياة الدنيا . ويكفل لهم في الآخرة الجنة والرضوان .

(١) يعني أنهيت عمري المقدري في الأرض كما مر من قبل .

الباب الثاني

الرسالة المحمدية

(١)

حال العالم قبل الإسلام

قبل مجيء الإسلام كانت البشرية كلها قد تردت إلى حالة شديدة من سوء ، وظلمات لا يبدو فيها بصيص من النور .

لم تكن الجزيرة العربية وحدها هي التي تسودها الجاهلية . وإنما كانت الجاهلية تعم وجه الأرض كلها بغير استثناء .

كانت هناك دولتان « عظيمتان » هما فارس والروم ، تحكمان معظم الأرض المعمورة يومئذ ، ولكل منهما « حضارة » تاريخية ! ولكن على أى شيء كانت تقوم تلك « الحضارات » ؟ وعلى أى مستوى فكرى وروحى ومادى كان يعيش « الإنسان » فى داخلها ؟ فى فارس كان كسرى هو الذى يحكم . ولكنه لم يكن ملكاً ، إنما كان إلهاً . ! كانت مراسم التحية التى تقدم له أشبه شيء بشعائر التعبد ! لم يكن يحق لأحد أن يدخل عليه حتى يمر بحاجبه وراء حاجب ، فإذا مثل بين يديه انحنى له انحناء عظيمة ، ويظل منحنياً حتى يؤذن له بنصب قامته ! فإذا تكلم قدم لكلامه بعبارات من الثناء تُشعر بالخضوع والمذلة أكثر مما تُشعر بالرغبة فى الثناء ! ثم إذا انصرف لم يحق له أن يعطى ظهره للإله المعبود ! بل يخرج بظهره ، حتى يظل وجهه هو المواجه لكسرى حتى يغيب عن ناظره ، لأنه لا يجوز فى حق ذلك الإله المزعوم أن يستدبره الناس بظهورهم لأن فى ذلك ما يחדش عظمته وقداسته !!

وكان الناس عبيداً بالفعل لذلك الإله . يعيشون - أياً كان مستواهم - على الصورة التى يسمح بها كسرى ، أو تسمح بها تقاليد الملك المتوارثة منذ أجيال . وحفنة من

« الناس يستمتعون بخيرات البلاد ، أولئك هم بلاط كسرى ، المتحكمون معه فى رقاب العبيد ، أما بقية الشعب ففي حالة من الذل والفقر والعبودية لا تليق « بالإنسان » وكانوا يساقون إلى الحروب التى يشنها كسرى أو قواده « الطموحون » يموت منهم من يموت لغير قضية يؤمن بها ، ويحى من بقى حياً فى ذل العبودية والضياع .
مظاهر « العظمة » ومظاهر « الحضارة » كلها فى إيوان كسرى وقصره وبلاطه وكل ما يتعلق به ، أما « الشعب » فلا أهمية له إلا بمقدار ما يخدم مصالح أولئك السادة المتحكمين وعلى رأسهم ذلك « الإله » !

وهناك « فنون » نعم ، وإنتاج مادی .. ولكنه كله مسخر - مع الناس أنفسهم - لخدمة تلك المصالح المقدسة لا يخرج عنها !
أما العبادة الرسمية فهى عبادة النار !
ولهذه النار كهنة يسهرون على إيقادها حتى لا تنطفئ .. لأنها إذا انطفأت كان ذلك ، فالأسيئاً على الإله الجالس على عرش الأكاسرة !
وأما الأخلاق فقد انهارت ، وتفشت شيوعية مزدك بما تحمل من إباحية وفوضى وانحلال .

أى هوان فكرى وروحى ومادى كان يعيش فيه الإنسان فى ظل تلك الحضارة « العظيمة » ؟ !

* * *

وفى بلاد الروم لم يكن الحال أفضل من ذلك ..
فالقيصر يحاط بالهالات كما يحاط كسرى .. والناس - كحالمهم فى كل جاهلية - سادة وعبيد . السادة قلة ولكنهم يملكون كل شىء فى أيديهم ، والعبيد هم الكثرة المغلوبة على أمرها ، المسخرة لمصالح السادة .
والحروب التى يشنها القيصر وقواده لا تنتهى . وإليها يساق العبيد ليموتوا بالألوف ومئات الألوف .. فى سبيل ماذا ؟ ما القضية التى يدافعون عنها ويموتون من أجلها ؟ وما القيم التى يحرسونها ؟ إنها « الأمبراطورية » ! إنها الأُمجاد الشخصية للقيصر والقواد ! إنها شهوة

الغلبة والاستعباد والإذلال والقهر ! إنها البربرية الوحشية التي لا يحكمها قانون !
وهناك مثل فارس فنون وإنتاج مادي وعمارة للأرض .. ولكن لمن؟ للسادة
أم للعبيد؟! وما دور العبيد فيها غير خدمة الأسياد؟!

وهناك « عقيدة » .. عقيدة وثنية جاهلية تحرسها الكنيسة ورجال الدين . الله
ثالث ثلاثة ، والمسيح ابن الله ! والأحبار والرهبان أرباب يحكمون عالم الروح والفكر
بغير ما أنزل الله ، ويأكلون أموال الناس بالباطل ، في الوقت الذي يحكم القيصر
عالم الحس والمادة بالقانون الروماني الجاهلي .. أى بغير ما أنزل الله . والناس عبيد للقيصر وبلاطه
من ناحية ، وعبيد من ناحية أخرى « لقداسة البابا » ومن حوله من الأحبار والرهبان .

* * *

فإذا تجاوزنا الأمبراطوريتين « العظيمتين ! » وجدنا في آسيا « الحضارة » الهندية
و« الحضارة » الصينية ..

في الهند - كما في كل مكان .. سادة وعبيد . ولكن العبيد في الهند هم وضع
خاص . إنهم خلقوا من قدم الإله ! ولذلك فهم دنسون نجسون ! وعليهم أن يحتسبوا
كل ما يقع عليهم من إذلال وإهانة وتعذيب ، لأن هذا قدرهم من ناحية ، ومن ناحية
أخرى لأن هذا هو طريقهم الوحيد للخلاص ! الخلاص عن طريق تسخير الأرواح !
فالإنسان يقضى عمره المحدد ، ثم تسبخ روحه فتدخل في إنسان آخر جديد . ولكنها
نفس الروح ! فإذا رضى العبيد (المنبوذون) بقدرهم . ورضوا بالهوان والذل ،
وقاموا بأشق الأعمال وأقذرها ، فربما .. ربما تسبخ أرواحهم في أشخاص جدد ،
أرفع شأنًا من العبيد (وإن كانوا لا يصلون قط إلى مقام السادة الذين خلقوا من رأس
الإله أو من ذراعيه !) فيكونون بذلك قد وصلوا إلى « الخلاص » المنشود !

وهناك « عبادات » .. عبادات لا حصر لها ، لآلهة لا حصر لها كذلك .. ولكنها
كلها تشترك في شيء واحد . في أنها ضلال . ولكن ربما كان أعجب ما فيها « بغايا
المعبد » ! بغايا يقمن بالبغاء في المعبد ! لوجه الإله ! بل لوجه الشيطان ! وربما كان

أعجب ما فيها كذلك عبادة البقرة .. والتمرغ في روثها والاستحمام ببولها .. من أجل
البركة ! ولو أن البقرة نطقت لسخرت من عبّادها ، ولعجبت من « الإنسان » الذى
كرمه الله . كيف يرضى لنفسه بذلك الهوان !

وفى أقصى الأرض توجد الصين ..

بلاد مترامية الأطراف يحكمها أمباطور .. مقدس ككل حكام ذلك الزمان .
تقدم له طقوس العبادة وتقدم له القرابين ، ويختر الناس بين يديه ساجدين . والإله
المعبود هو بوذا . تقام له التماثيل وتعبد . ينحتها الناس بأيديهم ثم يعبدونها ! وفى البوذية
كما فى ديانات الهند يُحتقر الجسد ويعذب من أجل خلاص الروح . وتُحتقر الحياة
الدنيا وتنبذ من أجل الحصول على الخلود .. الخلود أين ؟ وعلى أية صورة ؟ الخلود
مع بوذا .. فى عالم الأوهام !

وهناك فنون ، وهناك إنتاج مادي ، وهناك « حكمة » ولكنها كلها إلى ضياع ،
لأن الناس أنفسهم ضائعون !

* * *

أما الجزيرة العربية فغارقة فى الجاهلية ككل البشرية !

وتختلف الجاهليات فى صورتها الخارجية باختلاف البيئة ودرجة الحضارة المادية
التي تسودها . ولكنها فى جوهر الجاهلية سواء . فالجاهلية هى الشرك ، وهى الحكم
بغير ما أنزل الله .. و« الإنسان » فيها ضائع ، تحكمه أوهام ما أنزل الله بها من سلطان ،
وتحكمه شريعة غير شريعة الله .

كان فى الجزيرة ألوان ثلاثة من الديانات .. كلها ضلال !

فهناك اليهود مركزون فى المدينة وما حولها ، قد حرفوا كتابهم « المقدس » منذ أجيال
طويلة ، وملأوه بالكاذب والأساطير ، وغيروا فيه شرائع الله ، ثم نبذوها جملةً
وأصبحوا يحكمون أهواءهم ومصالحهم ، ويعبدون الشيطان فى الحقيقة بدلاً من
عبادة الله .

وهناك فئات قليلة من النصارى فى ضلالتهم التى ابتدعوها من تثليث وتأليه
لعيسى واعتباره ابناً لله .

وهناك العرب الوثنيون فى طول الجزيرة وعرضها يعبدون الأصنام ، ويضعونها
فى الكعبة ، بيت الله الحرام ، فى المكان الذى أمر ابراهيم واسماعيل بإقامة قواعده
ليعبد فيه الله وحده بلا شريك ، المكان الذى دعا فيه إبراهيم: ﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ
أَمِينًا ﴾ وقال تعالى حكاية عنه ﴿ وَأَجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴾

ثم يقولون إنهم على دين إبراهيم !

وتعشش فى رءوسهم مجموعة شتى من الأساطير !

الملائكة بنات الله .. وتعبد لأنها بنات الله !

واجن ذوو نسب مع الله . ومن أجل ذلك يعبدون !

والأصنام ، ينحتونها بأيديهم ويعبدونها ، ويقولون ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلُفًا ﴾

وقريش تتحكم فى عقائد العرب ، تأمرهم أن يطوفوا بالبيت عرايا ، وتحل

الأشهر الحرم ، وتحرم غيرها نسيئاً ، وتحل الميتة ، وتحرم من الأطعمة الحلال ما

تشاء .. والعرب يطيعون شريعتها الزائفة ويعصون شريعة الله !

ويثدنون البنات ، ويحتقرون المرأة ويظلمونها ، ويشربون الخمر ويلعبون الميسر

ويستبيحون الزنا . وتمضى حياتهم فى الشراب واللهو أو غارات السلب والنهب .. أو

الفراغ ! وبعض القبائل الغنية كقريش وثقيف وهوازن تشتغل بالتجارة بعض وقتها

وتشتغل بالربا الفاحش فى أموال الناس ، ثم تنصرف هى الأخرى إلى الفراغ !

و« الإنسان » ضائع كما هو ضائع فى كل الجاهليات ..

* * *

كذلك كان حال العالم قبيل البعثة المحمدية . شرك يملأ وجه الأرض ، وظلمات

لا يبدو فيها بصيص من النور .

وفى هذا الجو الحالك المظلم بعث النور .. بعث محمد بن عبد الله صلوات

الله وسلامه عليه .

(٢)

دعوة إبراهيم وبشارة عيسى ورؤيا أم النبي صلى الله عليه وسلم

يقول الرسول ﷺ : (أنا دعوة أبي إبراهيم ، وبشارة عيسى ، ورؤيا أمي التي رأت). (أخرجه أحمد والبراز والطبراني والحاكم والبيهقي فيما روه عن العرباض ابن سارية) .

فأما دعوة إبراهيم عليه السلام (التي سبقت الإشارة إليها) فهي المتضمنة في قوله تعالى : ﴿وَإِذِ نَادَىٰ رَبَّهُمْ إِبْرَاهِيمُ الْفَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٣١﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ بَلَّغُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِكَ وَبُعِثْ لَهُمُ الْكُتُبَ وَالْحِكْمَةَ وَزَيِّرْ لَهُمُ الْحِكْمَ ﴾ (سورة البقرة : ١٢٧ - ١٢٩) .

وأما بشارة عيسى عليه السلام فهي في قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَنْبِئُكَ بِمَا تَعْمَلُ ﴿٦٠﴾ رَبُّكَ قَالَ لَا يَأْتِي مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ (سورة الصف : ٦) .

وأما رؤيا أم النبي ﷺ فهي عن ابن عباس : « أن آمنة كانت تقول : أتاني آتٍ حين مرّ بي من حملي ستة أشهر في المنام . وقال لي : يا آمنة إنك حملت بخير العالمين ، فإذا ولدته فسميه محمداً واكتمى شأنك » .

وهكذا التقت الدعوة والبشارة والرؤيا كأنها نقط لامة على الأفق ، تشير كلها إشارة موحدة إلى شخص الرسول ﷺ وهو بعد في ضمير الغيب ، حتى ولد فاطلق منه النور .

(٣)

بشارة التوراة والإنجيل

تحدثنا من قبل (فى مقرر السنة الثانية الثانوية) عن إشارات التوراة والإنجيل إلى الرسول ﷺ رغم ما أصابهما من التحريف على يد اليهود والنصارى . فإذا رجعنا فى هذا الشأن إلى القرآن نجد إشارتين صريحتين فى هذا الصدد .

﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الْمَكْنِيبَ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاُولَئِكَ أَمْنُوا بِهٖ وَعَزَرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۚ اُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (سورة الأعراف : ١٥٧) .

﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّةُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيَّاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ الْجُرُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْطَهُ فَكَانَ زُرْعًا فَانْصَلَفَ ۚ فَاُنسَوَىٰ عَلَىٰ سَوْقِهِ ۖ يُجِيبُ الرَّاعِيَ لِيَغِیْظَ ۖ يَوْمَ الْكُفَّارِ ۚ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (سورة الفتح : ٢٩) .

وإذا كان اليهود والنصارى - خلال التاريخ - قد طمسوا تلك الإشارات الواضحة فإنهم لم يستطيعوا محوها محواً كاملاً ! وقد أشرنا فى كتاب السنة الثانية إلى نسخة التوراة القديمة التى عثر عليها فى دير سانت كاترين بسيناء عام ١٣٦٥هـ - ١٩٤٥م ، وفىها ذكر صريح للرسول ﷺ ثم اختفت بعد ذلك ولم يعد يرد لها ذكر !

وكان اليهود فى المدينة - قبيل بعثة الرسول ﷺ - يقولون للأوس والخزرج :

لقد أطل زمان نبيّ ! وسوف نقاتلكم به ونغلبكم . وإلى هذا تشير الآية القرآنية : ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْضُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (سورة البقرة : ٨٩) .

وهم حين كانوا يقولون ذلك للأوس والخزرج لم يكونوا يرحمون بالغيب ، وإنما كانوا يشيرون إلى ما هو مكتوب عندهم في التوراة . مما يدل على أن نسخ التوراة القديمة لم تذكر الرسول ﷺ باسمه وصفته فحسب . بل أشارت كذلك إلى مكان بعثته وإلى زمانها التقريبي . مما جعل اليهود يتوقعون قرب البعثة المحمدية . بل إن النص الذي أوردناه في كتاب السنة الثانية من التوراة ليدل على أنهم كانوا يعرفون مكان بعثته ومكان هجرته كذلك ، وذلك على الرغم مما ألقى على النص من الغموض !

أما النصارى فقد بدلوا في الإنجيل لما دونوه بعد مدة من رفع عيسى عليه السلام ، ثم ظلوا كلما ترجموه من لغة إلى لغة يزيّدون الإشارات إلى الرسول ﷺ غموضاً . ومع ذلك فما تزال هذه الإشارة باقية في أناجيلهم على لسان عيسى عليه السلام وهي : « سيأتي من بعدى الفارقليط » وفي بعض النسخ يضاف إلى هذه العبارة « من لا استحق أن أحلّ سيور حذائه »^(١) . ويأتي وصفه : « يملأ الأرض نوراً وعدلاً » وفي بعض النسخ : « يوبخ العالم على خطيئته ، ويعلم الناس جميع الحق ، لأنه ليس ينطق من عنده ، بل يتكلم بكل ما يسمع من عند الله » ومعنى ذلك أنه رسول موحى إليه من عند الله . وقد مر على ذلك قرابة عشرين قرناً من الزمان ، وما جاء إلا محمد ﷺ نبياً ورسولاً .. ولن يجيء غيره ! فهو هو الذي تشير إليه أناجيلهم بلفظ الفارقليط^(٢) . وقد أمر موسى وعيسى عليهما السلام أتباعهما أن يؤمنوا بهذا الرسول حين يأتيهم ،

(١) يعنى : هو أعظم منى بكثير ، إلى درجة أنني لا أستحق أن أحلّ سيور حذائه . وذلك من تواضع عيسى عليه السلام .

(٢) كلمة يونانية معناها « أنحمد » وهي أقرب شئ إلى اسم « أحمد » الذي ورد في بشارة عيسى عليه السلام في سورة النصف : ﴿وَمُبَشِّرِ رَسُولٍ يُدْعَى اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾

قِيَاماً بِأَمْرِ اللَّهِ وَمِيثَاقَهُ مَعَ الرُّسُلِ جَمِيعاً : ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ أَنْ تَأْتِيَكُمْ رَسُولٌ مِمَّنْ لَمَّا مَعَكُمْ تَتَّبِعُوا بِرَأْيِهِمْ وَتَقَرَّبُوا إِلَيْهِمْ كَرْتَيْنَ أُولَئِكَ يَنْفَكُونَ عَنْ ذِكْرِهِمْ فَكَرِهْنَاهُ لَكُمْ فَمَا تُصَحِّحُونَ لَهُمْ أَنْ يَقُولُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَفِي سُلْطَانٍ عَظِيمٍ ﴿٨١﴾ (سورة آل عمران : ٨١) .
 وَلَكِنْ نَكَلُوا عَنْ أَمْرِ أَنْبِيَائِهِمْ حَسِداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ : ﴿وَذَكِّرْهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لِيُذْخَرُوا مِنْ بَيْنِهِمْ مَنْ يُبَدِّلُ دِينَهُمْ عَنْ دِينِهِمْ أَوْ يُعِدُّ لَكُمْ إِلَهُاً غَيْرَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْفِكُ عَنْكُمْ اللَّهُ يَوْمَهُمُ الْبَاقِي﴾ (سورة البقرة : ١٠٩) . ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَخَائِفُونَ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (سورة البقرة : ١٤٦) .

(٤)

صفات الرسول صلى الله عليه وسلم وأحواله قبل البعثة

يختار الله سبحانه وتعالى رسله من صفوة خلقه .

والرسول ﷺ هو صفوة الأنبياء جميعاً و صفوة الخلق .

ويتولى الله سبحانه وتعالى رسله بالرعاية والتهديب قبل بعثتهم دون أن يشعر الناس بذلك ودون أن يتوقعوا ، حتى إذا بعثهم كانوا - نفسياً وروحياً وخلقياً - مؤهلين لحمل الرسالة والقيام بها على الوجه الذى يريد الله منهم .

ولا يعرف الناس بطبيعة الحال - وإن كان الله يعلم - أن هذا الشخص بعينه سيكون رسولاً . ولكنهم يشعرون بصفاته المتميزة ويقدرونها ، ويقولون أحياناً إن هذا الشخص سيكون له شأن ..

وقد صدق ذلك كله بالنسبة لرسول الله ﷺ ، على مستوى غير معهود فى تاريخ الرسل من قبل .

ولا نقول إن هذا كان شعور أمه ﷺ ، فربما كانت الرؤيا التى رأتها هى التى أعطتها إرهاباً بذلك . ولا نقول كذلك إن هذا كان شعور عمه أبى طالب ولا جده عبد المطلب ، فربما كانت صلتهم المباشرة به هى التى أوحى إليهما بذلك . إنما كان هذا شعور قريش كلها على اختلاف مشاربها ، كما كان هذا إحساس كل من رآه ولو مرة واحدة فى رحلة من رحلات التجارة التى شارك فيها أو طائفاً حول الكعبة أو جالساً صامتاً لا يلهو كما يلهو الشباب من أقرانه .

لقد كان سمته ، حتى في شبابه الباكر ﷺ ، سمت الرجل الوقور العميق التفكير ، ومشاعره مشاعر « الإنسان » .

ولقد كانت الجاهلية تعج بالمفاسد واللهو وتفاهة الفراغ ، وإن لم تخلُ من رجال هنا وهناك لهم هبة ووقار وجد . ولكن هذا الأمر كله كان نادراً شديداً الندرة بين الشباب . والشاب الذي لا يلهو في الجاهلية يكون عجباً ! فإذا أضف إلى جده ووقاره أنه لا يغشى مجالس الشراب التي يغشاها حتى الشيوخ من ذوى الوقار ! ولا يقارف شهوات الجاهلية وإن كانت مباحة لا حجر عليها ولا إنكار من أحد ! ولا يذهب إلى تلك الأصنام المنصوبة إلى جوار الكعبة وإن كانت موضع العبادة والتقديس من الجميع ! ويتعفف عن الظلم في تلك الجاهلية التي يقول شاعرها :

ومن لم يَسْذُذْ عن حوضه بسلاحِهِ .. يُهْدَمْ وَمَنْ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ يُظْلَمُ !

إذا أضف ذلك وغيره من الصفات الكريمة النادرة إلى الوقار والجد في سن الشباب ، فلا شك أنه يلفت نظر كل من حوله ، لأن أحداً من الشيوخ أنفسهم لا يتوفر فيه ذلك فضلاً عن الشباب .

ثم إن صفةً من صفاته ﷺ كانت من البروز والعمق حتى إنها لفتت نظر قريش كلها ، تلك هي الأمانة . حتى لقبوه بالأمين . وكان الناس يودعون لديه أماناتهم لشدة اطمئنانهم وثقتهم في أمانته . كما بدا صدقه وأمانته حين عمل بالتجارة مع عمه أبي طالب ، بينما التجارة في الجاهلية لا تخلو من الجشع ولا تخلو من الخداع !

ولقد كان صمته في مجالس قريش ، مع حكمته ورجاحة عقله حين يتكلم ، مثار إعجاب قريش كلها وموضع تقديرها واحترامها ، حتى كانوا يستشيرونه في أمورهم كما يستشار الشيخ المحنك ، ويرضون بحكومته فيما يحتكمون إليه من أمور .

ولعل أشهر ما كان من ذلك هو تحاكم قريش إليه في أمر الحجر الأسود . فقد رأت قريش أن تعيد بناء الكعبة لما أصابها من تهلم في بعض أحجارها ، وأن ترفعها ضعف ما كانت عليه من ارتفاع ، واتفق رأيهم جميعاً على ذلك وعملوا فيه

متعاونين حتى جاء دور وضع الحجر الأسود في مكانه ، وهنا برز التنافس بين قبائل قريش كلٌ يريد أن يكون لها وحدها ذلك الشرف ! وظلوا في جدلهم أربعة أيام متوالية لا يتفقون على شيء ، والمنافسة تتزايد وتحمى حتى كادوا يقتتلون فيما بينهم ! وأخيراً اتفقوا على أن يأخذوا برأى أول قادم عليهم ! وكان أول قادم - بقدر من الله - هو الأمين .. فاستبشرت قريش كلها وارتضوا حكومة الأمين بينهم ، اطمئناناً إلى أن لديه الحل الذى يحسم النزاع ويزيل الخلاف ! وقد كان ! نزع رداءه وقال : ليمسك رجل من كل قبيلة من قريش بطرف الرداء ، ففعلوا فقام إلى الحجر الأسود فوضعه بيديه فوق الرداء وقال احمלוه إلى المكان الذى سيوضع فيه حتى إذا فعلوا ذلك مشتركين ومتعاونين أخذ الحجر الأسود بيديه الكريمتين فوضعه في مكانه من الكعبة . وبذلك اشتركت قريش كلها على قلم المساواة في شرف رفع الحجر ثم اختص الأمين - برضاهم - بشرف وضعه في مكانه . وعاد الكل راضين مستروحين لقضاء الصادق الأمين .

وفى وصف خديجة رضى الله عنها له ﷺ حين أخذت تطمئننه وهو يرتجف من شدة المفاجأة حين نزل الوحي عليه أول مرة ما يعطى صورة عن أخلاقه ﷺ وانعكاسها فى نفوس الناس . إذ تقول له : لا والله لا يُخزبك الله أبداً ، إِنَّكَ تَصِلُ الرَّحِمَ وَتَصْدُقُ الْحَدِيثَ وَتَحْمِلُ الْكَلَّ وَتُكْسِبُ الْمَعْدُومَ وَتَقْرَى الضَّيْفَ وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ » رواه البخارى ومسلم عن عائشة رضى الله عنها .

وكان ﷺ يُكثر - فى صمته - من التفكير والتأمل ، وعُرف عنه أنه كان ينحنّ شهراً كلّ سنة فى غار حراء ، فى عزلة عن الناس ، يتعبد على دين إبراهيم ، بعيداً عما أصاب هذا الدين من تشويه وتحريف على يد الجاهلية الوثنية السائدة ..

لقد كان الله يُعدهُ لذلك الأمر الخطير .. أمر الرسالة الموجهة إلى كل البشرية .. وصدق رسول الله ﷺ حيث قال : (أَدَّبَنِي رَبِّي فَأَحْسَنَ تَأْدِيبِي)

السيرة المحمدية هى السيرة القطعية فى التاريخ

من قَدَرِ الله بالنسبة للإسلام أن تبقى أصوله كاملة ومن غير تحريف ، لأنه الدين الباقي إلى أن تقوم الساعة ، والذي قَدَرَ الله سبحانه وتعالى أن يحفظه ويظهره على الدين كله : ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾ (سورة الصف : ٩) .

وكما حفظ الله القرآن بقدرته حيث قال جلت قدرته : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُمُ الْحَافِظُونَ ﴾ (سورة الحجر : ٩) . فقد حفظ كذلك السنة المطهرة وحفظ السيرة النبوية الكريمة فلم تضع كما ضاعت سير كثير من الأنبياء من قبل ، ولم تدخل عليها التشويهاً والتجريفات التى دخلت على سير أنبياء بنى إسرائيل من موسى إلى عيسى عليهما السلام فيما يسمّى الكتاب المقدس بعهديه القديم والحديث (المقابلين للتوراة والإنجيل) .

إن من يقرأ العهد القديم بصفة خاصة يتفزز من بشاعة ما ألصق بالأنبياء - فى سيرهم المزيفة - من نهم فاحشة لا تليق بشخص عادى فضلاً عن نبي مرسل . فما من جريمة فى الأرض - على بشاعتها - إلا ألصقت زوراً وبهتاناً بأولئك الأنبياء ، من قتل وسرقة وغصب ونهب وغش وكذب وفسق خلقى !! وهذا كله مكتوب بأيدى المؤمنين بأولئك الرسل ! وصدق الله العظيم : ﴿ قُلْ يَسْمَا بِأَمْ كَرِهَ إِلَهُكُمْ أَن تَقُولُوا هَٰذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لَئِيْشَرُوا بِهِمْ ثُمَّ قَلِيلًا مِّنْ يُؤْمِنُونَ ﴾ (سورة البقرة : ٩٣) . ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْكَيْدُ فَلْيَزْبُكُوا ﴾ (سورة البقرة : ٧٩) .

لقد حرّفوا سير أنبيائهم لا عن جهل . ولكن ليبرروا لأنفسهم شناعة سلوكهم فى الأرض ! فإذا كان أنبياءهم يصنعون ما ينسبونه إليهم من أفاعيل . أفلا يكونون

هم في حل مما يفعلون ؟!

فأما الأناجيل في تزويرها لسيرة عيسى عليه السلام فلا تقل نكراً وإن كان على صورة أخرى ! وأي شيء أشد نكراً من تأليه عيسى وادعاء بنوته لله ؟ ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَكًا ۖ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ۝ تَكَاذَبْتُمْ وَتُنْفِطِرُونَ مِنْهُ وَتَنْشُقُونَ الْأَرْضَ وَتَخْرِجُ الْجِبَالَ مَدَا ۝ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَكًا ۝ ﴾ (سورة مريم : ٨٨ - ٩١) .

ذلك ما أصاب سير الأنبياء من قبل من نسيان أو تحريف ، فأما سيرة الرسول ﷺ فقد صانها الله عن العبث وعن النسيان ، ووكّلها - بقدر منه - إلى أمة ذات قدرة غير عادية على حفظ الروايات والنصوص ، ومن ثم بقيت محفوظة على مدار التاريخ . وبذلك فهي السيرة القطعية في التاريخ كله التي يمكن الوثوق بوقائعها وأحداثها ونسبتها إلى صاحبها ﷺ .

ومن خلال هذه السيرة - ومن خلال القرآن كذلك - حفظت اللامحات الصادقة من سير الأنبياء من قبل . فلا حقّ يوثق به من سير أولئك الأنبياء إلا ما ورد في القرآن أو الحديث . وفضلاً عن ذلك فإننا نستطيع أن نقرأ في سيرة الرسول ﷺ سير الأنبياء جميعاً ، فقد جمّع في حياته ﷺ ما تفرق في حياة الأنبياء من قبل !

(٦)

شخصية جامعة

إن شخصية الرسول ﷺ هي أعظم شخصية في تاريخ البشرية كله ، لا بالنسبة للعظماء من البشر فقط ، بل بالنسبة للأنبياء والرسل كذلك ، بما فيهم الرسل أولو العزم .

فإذا قسنا بمقاييس العظماء من البشر ، فإننا إذا وجدنا قائداً سياسياً في أمة نذر نفسه للقيادة السياسية وانقطع لها ، فوجد أمتة في شتات ، لا يربط بينها رباط ، ولا تجتمع على كلمة ولا هدف ، فاستطاع من خلال قيادته الحكيمة ، وتأثير شخصيته أن يجمع الأمة من شتاتها ، ويوجد بينها الرباط الذي يجعل منها أمة متماسكة ، ووحيد كلمتها ، ورسم لها هدفاً تتجمع حوله فتتآلف قلوبها .. ثم برز إلى المعترك الدولي بهذه الأمة بعد توحيدها ، فأحلها مكاناً مرموقاً بين دول العالم وشعوبه ، وجعل لها احتراماً وتقديراً بينهم .. فبماذا نسمى ذلك القائد السياسي في لغتنا وكيف نصفه ؟ ألا نقول إنه رجل عظيم ؟ وهو قد انقطع لهذه المهمة وحدها دون سواها ؟

فكيف إذا كان هذا جانباً واحداً من جوانب متعددة تشملها شخصية الرسول الأعظم ﷺ ، وكيف إذا كان وهو لم ينقطع لهذه المهمة وحدها ، قد بذ فيها أى سياسى في التاريخ ممن تخصصوا في القيادة السياسية فحسب ؟

وإذا وجدنا مصلحاً اجتماعياً وجد المظالم والانحرافات الاجتماعية متفشية في مجتمعه ، الأنانية هي رائد الأفراد ، والأثرة هي رائد الجماعات . القوى يظلم الضعيف ، والغنى يأكل الفقير . والمجتمع أفراد وجماعات متفرقة ، تتناحر فيما بينها على السلطة أو المال أو الجاه ؛ نهazon للفرص كلهم ، لا يراعى أحدهم لأخيه

حقاً ولا يرقب فيه إلا ولا ذمة .. فنذر نفسه لإقامة العدل الاجتماعى وإزالة الانحرافات من مجتمعه ، وأوجد التوازن المنشود بين الفرد والمجتمع ، وبين الحاكم والمحكوم ، وجعل أغنياء الأمة يتعاطفون مع فقرائها ويشركونهم فى جانب من أموالهم ، فيعيش المجتمع كله كأنه أسرة واحدة كبيرة ، متكافلة متعاونة متحابّة . فكيف نسمى ذلك المصلح فى لغتنا وكيف نصفه ؟ ألا نقول إنه رجل عظيم !؟

فكيف إذا كان هذا جانباً واحداً من جوانب شخصية الرسول ﷺ وحياته ، وكيف إذا كان فى هذا الجانب قد بذّ المتخصصين ، الذين انقطعوا لهذا الجانب وحده وتخصصوا فيه !؟

وإذا وجدنا مصلحاً أخلاقياً ، رأى الفساد الخلقى منتشرأ فى مجتمعه : الكذب والنفاق ، والغش والخيانة ، وأكل أموال الناس بالباطل ، والخمر والزنا والميسر ، والسلب والنهب والغصب .. لا يأمن أحدهم على نفسه حتى يكون سلاحه فى يده ، ولا يأخذ حقه إلا بقوة عضلاته ، فإذا كان صاحب الحق ضعيفاً أكل كما تأكل الذئب الفريسة ، فإن كان يتيماً أو امرأة فلا يتحرك لنجدته ضمير .. رأى ذلك فنذر نفسه لإصلاح الأخلاق فى مجتمعه ، فاستطاع بصبره وجهاده أن يضع لأمة دستوراً أخلاقياً تتعامل به فيما بينها ، يرعاه القوى والضعيف ، يقلّ الكذب أو انتهى ، وقضى على الخمر والزنا والميسر ، وصار صاحب الحق آمناً على حقه ولو كان ضعيفاً أو يتيماً أو امرأة ، وصار وازع الضمير هو الذى يحكم العلاقات بين الناس .. ألا نقول لمن توصل إلى ذلك إنه رجل عظيم ؟ ..

فكيف إذا كان هذا جانباً واحداً من جوانب تلك الشخصية الفذة ، ويكون أثر الرسول ﷺ فيه أكبر من أثر أى مصلح فى التاريخ نذر نفسه لهذه المهمة فحسب ؟ وإذا وجدنا مربياً نذر نفسه للتربية ، فاستطاع أن يُخرج جيلاً من الأفاذاذ ، كل واحد منهم قائد فى ميدانه ، وقدوة فى سلوكه وأخلاقه ، ومثانة شخصيته وتماسكها بحيث لا تلعب بها الأهواء ولا تهزها الأعاصير .. ثابت كالطود ، ذو شخصية إيجابية

وفعالة في عالم الواقع ، يتحرك فيحرك الجموع من حوله .. كيف نسميه ؟ ألا يستحق منا - بجدارة - أن نقول إنه مربّب عظيم ؟!

فكيف إذا كان هذا جانباً واحداً من جوانب متعددة ، وكان الرسول ﷺ قد بذّ فيه أعظم عظماء المرين في التاريخ ، بالجيل الذي ربّاه على عينه فكانت منه قيادات في كل ميدان على مستوى القمة من البشرية ؟!

وإذا وجدنا قائداً عسكرياً انقطع لمهمته فحسب ، فربى جيشاً من الأبطال جنوداً وقادة ، فعوّدهم الصبر على المكاره ، والثبات عند الشدة ، والإقدام عند الخطر ، وخاض بهم المعارك فانتصر بهم حتى عوّدهم النصر ، يلتفون حوله ، يأتمرون بأمره ، ويطيعون تعليماته ، بل يتسابقون إلى مكان الخطر ، يطلبون الشهادة ويسعون إليها سعياً ، فتكتب لهم إحدى الحُسنيين : الشهادة أو النصر .. ألا نقول إنه قائد عظيم ؟

فإذا كان هذا القائد العسكري قد وضع نصب عينيه وهو يربى جيشه ألا يكونوا أبطال قتال فحسب ، بل يكونوا كذلك مثلاً أخلاقية حتى وهم يقاتلون ، لا ينسيهم هول الحرب أخلاقهم ، ولا تُخرجهم المكاره عن طورهم ، بل يلتزمون بالأخلاق في المعمة وبعد المعمة ، في تعاملهم مع أعدائهم وأصدقائهم على السواء ؟ ألا نقول مرة أخرى إنه قائد عظيم ؟

ثم إذا كان هذا القائد قد ربّى جنوده لا على الأخلاق الفردية فحسب ، بل على أن لهم مثلاً أعلى وقيماً يقاتلون في سبيلها . فهم لا يقاتلون من أجل الغلبة فحسب ، ولا من أجل توسيع الرقعة وتشييد السلطة ، إنما يقاتلون لمثل أعلى يحرصون عليه أشد من حرصهم على نتيجة المعركة ذاتها ، ويتحرونه في كل خطوة ، وقيسون إليه كل حركة .. فهل يكفي أن نقول فقط إنه قائد عظيم ؟!

فكيف إذا كان الرسول ﷺ قد بذّ في هذا الجانب أى قائد عسكري في تاريخ البشرية ، وهو جانب واحد من جوانب متعددة في شخصه الكبير ؟!

ولو أن إنساناً نذر نفسه للعبادة ، حتى شقّت روحه وصفت ، لا ينسى ربّه

لحظة ، ولا ينقطع ما بينه وبينه ، بل هو موصول القلب بالله أبداً ، فى صلاته وفى عمله ، فيما بينه وبين نفسه ، وفيما بينه وبين الناس ، فإذا هو مع الناس لطيف وودود ، وإذا هو فى عمله متقن مخلص ، وإذا تقوى الله وخشيته تسيطر على تصرفاته كلها وتحكمها . ثم لو أن هذا الإنسان قد استطاع أن يجمع حوله جماعة من العباد ، يربيه على عمق الصلة بالله ، وعلى الذكر الموصول لله ، فإذا هم يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ، وإذا الإيمان بالله هو المحرك لأعمالهم وأفكارهم ومشاعرهم ، وإذا تقوى الله هى المقدمة فى حسهم على كل متاع الأرض وكل مغريات الأرض .. ألا نقول عنه إنه روح عظيمة فى ذات نفسه ، وإنسان عظيم بالنظر إلى ثمار غرسه من الصحاب ؟ هذه وغيرها جوانب من شخصية الرسول ﷺ ، بذ فى كل جانب منها مَنْ تخلصوا لها ووهبوا أنفسهم لها على حدتها .. فكيف نسعى من جمع فى شخصه الكريم هذه الشخوص كلها ، وكل واحد من بينها عظيم !؟

على أن عظمة الرسول ﷺ لا تكمن فى اجتماع هذه الشخوص المتعددة فى شخصه الكريم فحسب .. بل هناك درجة أعلى من العظمة ، هى أن هذه الجوانب كلها لم يشغله واحد فيها عن الآخر ! فعمل القائد السياسى لم يشغله عن عمل القائد الحربى ولا عن عمل المصلح الاجتماعى ولا المصلح الأخلاقى ، ولا عن عمل المربى ولا عن عمل العابد .. بل لم يشغله ذلك كله عن أسرته وزوجاته وبناته ، فكان نعم الزوج ونعم الأب ، ولو أن إنساناً تفرغ فقط لمطالب أسرة فى حجم أسرة الرسول ﷺ فعدل فيها عدله وأعطاهما ما أعطى الرسول أسرته من الرعاية والحب ، ألا نقول إنه إنسان عظيم ! فكيف إذا كانت هذه الأمور كلها لا يلهيه جانب منها عن الجوانب الأخرى ، وهى تنوء بالمختصين فيها ، المنقطعين عن الجوانب الأخرى ؟ ..

كان يتعبد حتى تتورم قدماه ﷺ ، وحتى تشفق عليه عائشة رضى الله عنها من الجهد فتقول له هوّن على نفسك فقد غفر لك الله من ذنبك ما تقدم وما تأخر ، فيقول لها ﷺ : أفلا أكون عبداً شكوراً ؟!

ومع هذه العبادة التي يعجز عنها المنقطعون لها وحدها فهل طفئ هذا التعبد على مهامه الأخرى ﷺ ، فلم يعط القيادة السياسية حقها ، أو التربية الخلقية ، أو تربية المقاتلين في سبيل الله ، أو تربية أولئك الأفذاذ الذين كانوا قادة التاريخ في كل ميدان ، كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي وخالد وعكرمة ، وأسماء وسمية .. ومئات غيرهم من الصحابة رضوان الله عليهم ؟!

كلا ! وإنما لعظمت بعضها فوق بعض ، تجتمع كلها في شخصه الكريم .. فإذا قسنا هذه الشخصية الفذة بالأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم فنحن على ذات المستوى من العظمت .

إن شخصية الرسول ﷺ وحياته وسيرته قد جمعت ما تفرق في الأنبياء الآخرين مما تميزوا به .

فإذا كانت حياة نوح عليه السلام قد تميزت بطول صبره على صد قومه مع عدم الانقطاع عن دعوتهم ، وإذا كانت حياة إبراهيم عليه السلام قد تميزت بحلمه وأمانته ، والرفق في توصيل الحق إليهم ، مع الامتثال الكامل لأمر الله والإسراع إلى طاعته ، وإذا كانت حياة موسى عليه السلام قد تميزت بالقيادة الحكيمة التي ارتبط بها بنو إسرائيل حتى خرجوا من الاستضعاف والذل إلى الحرية والكرامة وتكونت منهم أمة تحكم بشريعة الله ، وإذا كانت حياة عيسى عليه السلام قد تميزت بجانبها الروحاني الشفيف اللطيف ، في مواجهة المادية الطاغية التي كانت تسود وجه الأرض ، وتربية مجموعة من التلاميذ (هم الحواريون) على درجة عالية من الخلق والروحانية والطاعة لتعاليم رسولهم .. فإن حياة الرسول ﷺ قد استوعبت ذلك كله في طياتها ، وكان أثره في كل جانب من هذه الجوانب أعظم من كل من سبقوه من الرسل الكرام . وذلك كله من فضل الله عليه وهو يعده للرسالة الخاتمة : ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾ (سورة الصف : ٩) . ﴿ وَأَنْزَلَ آفَاقَهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْعِزَّةَ وَعَلَيْكَ مَا نَزَّلَ كُنْ تَقِيماً وَكَانَ فَضْلُ آفَاقِهِ عَلَيْكَ عَظِيماً ﴾ (سورة النساء : ١١٣) .

(٧)

مدرسة للتربية

السيرة النبوية هي المدرسة التربوية للجيل الصالح : ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ (سورة الأحزاب: ٢١).

لقد حوت هذه السيرة كل ما يكفل إنشاء « الإنسان الصالح » الذي يدعو إليه القرآن وتقتضيه الخلافة الراشدة في الأرض .

سئلت عائشة رضى الله عنها عن خلق رسول الله ﷺ فقالت : « كان خلقه القرآن » .

عبارة مختصرة جامعة . معناها أن الرسول ﷺ هو الترجمان الحى لكل ما ورد في القرآن من توجيهات وأوامر ونواهٍ وقيم ومبادئ وأخلاقيات .

فإذا كان القرآن هو كتاب التربية المنزل من السماء . فالرسول ﷺ هو النموذج الكامل لهذه التربية الربانية بجميع حذافيرها . ومن ثم فإن سيرته ﷺ تشتمل على كل العناصر المطلوبة لتربية المسلمين .

وفى أى جانب من جوانب التربية بحث الإنسان ، فسيجد فى شخصية الرسول ﷺ وفى تعاليمه وتوجيهاته ومواقفه العملية كل ما يحتاج إلى معرفته فى ذلك الجانب .

الصديق . الأمانة . التقوى . نظافة الظاهر والباطن . عمق الإيمان بالله . الإسراع لتلبية داعى الله . الشجاعة . الصبر . الحكمة . الزهد . لباقة القول . حسن التصرف . لطف المعشر . لين الحب وحزم الجد ... الاتزان والتوسط فى كل أمر .

وإن علينا لواجبين اثنين إذا رغبتا فى تكوين جيل صالح من المسلمين :

١ - التعرف على سيرة الرسول ﷺ ودراسة المتدبر الواعى لمحتوياتها .

٢ - محاولة التنفيذ العملى لتوجيهات الرسول ﷺ ، المتمثلة فى سنته القولية وسنته العملية .

إن هذين العنصرين - إذا أخذناهما بجد - يحققان لنا ما نصبو إليه من تكوين جيل رائد يزيل عن الإسلام غربته الثانية التى نعيشها اليوم^(١) ، ويعيد للأمة الإسلامية أمجادها . ولن نحتاج يومئذ إلى التطلع فى شرق الأرض وغربها للبحث عن مناهج للتربية أو شخصيات للقدوة ..

إن كل مناهج التربية البشرية ناقصة ومنحرفة إلى جانب منهج التربية الإسلامية . وكل الشخصيات أقزام إلى جانب الرسول ﷺ ، فما الذى يدعونا إلى مد أيدينا بالطلب ونحن نملك الكنوز ؟ وما الذى يدفعنا إلى الاقتداء بالأقزام ونحن نملك المثل الرفيع ؟ فلنعد إلى هذه السيرة العظيمة ولنحاول أن نقبس قبسات من الرسول ﷺ ، تنير قلوبنا وتحفزنا إلى معالى الأمور .

(١) يقول الرسول ﷺ : (بدأ الإسلامُ غريباً وسيعودُ غريباً كما بدأ) ونحن اليوم نعيش هذه الغربة الثانية التى تحدث عنها الرسول ﷺ . وعلينا إزالتها كما أزال الجيل الأول من المسلمين غربته الأولى .

خصائص الرسالة المحمدية

الرسالة المحمدية هي الرسالة الخاتمة ، وبها كمل الدين وتمت النعمة الربانية على البشرية . قال تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكَ دِينَكَ وَرَضْتُ عَنْكَ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ (سورة المائدة : ٣) .

وتختص الرسالة المحمدية عن الرسائل السابقة كلها بجملة خصائص :

١ - ختمها للرسالات السابقة ونسخها لها :

محمد رسول الله ﷺ هو خاتم الأنبياء والمرسلين : ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ (سورة الأحزاب : ٤٠) .

ويقول الرسول ﷺ : (مَثَلِي وَمَثَلُ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بُيْتًا فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ ، إِلَّا مَوْضِعَ لَبْتَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ مِنْ زَوَايَاهُ ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ وَيَعْجَبُونَ لَهُ وَيَقُولُونَ : هَلَا وَضِعَتْ هَذِهِ اللَّبْتَةُ ؟ ! فَأَنَا اللَّبْتَةُ ، وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ) رواه مسلم .

ورسالته هي الرسالة الخاتمة الناسخة لما قبلها : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ ﴾ (سورة المائدة : ٤٨) . فهو مصدق لما بين يديه من الكتب في أنها كلها منزلة من عند الله ، كما أنه مصدق لها في العقيدة . فالكتب كلها تقول إنه لا إله إلا الله وحده بلا شريك ، والقرآن يقول نفس الشيء . والكتب كلها تقول : ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ والقرآن يدعو نفس الدعوة . ولكن القرآن مهيم على ما بين يديه من الكتب في شأن التشريع فهو يحمل الكلمة الأخيرة المنزلة من عند الله ، وشرعه هو الشرع الواجب الطاعة ، ومن

ثم فهو ينسخ كل ما أتى قبله مخالفاً له .

وعلى هذا المعنى تفهم أيضاً هذه الآية : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ (سورة المائدة : ٦٨) . فهم مطالبون بإقامة التوراة والإنجيل في أمر عبادة الله الواحد بلا شريك (رداً على قول اليهود : عزير ابن الله ، وقول النصارى : المسيح ابن الله) وفي أمر الاعتراف برسالة محمد ﷺ لأنهم يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل باسمه وصفته ومكان بعثته ومكان هجرته . ثم هم مطالبون بإقامة ما أنزل إليهم من ربهم - أى القرآن - عقيدةً وشريعة . وإلا فهم ليسوا على شيء كما تصفهم الآية ، أى ليسوا على دين صحيح يقبله الله منهم .

٢ - دعوتها إلى الإيمان بما جاء به الأنبياء من قبل :

﴿ قُلُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ مُسْلِمُونَ ﴾ (سورة البقرة : ١٣٦) .

والرسالة المحمدية هي الرسالة الوحيدة التي يؤمن أتباعها بالرسول جميعاً وبما أنزل إليهم ! فقد كفر اليهود بعبسى عليه السلام ومحمد ﷺ ، وكفر النصارى بمحمد ﷺ وآمنوا بعبسى ولكن لا على أنه رسول بل على أنه إله وابن الله ! أما المسلمون فهم وحدهم الذين يؤمنون بالرسول جميعاً من لدن آدم ونوح إلى محمد ﷺ . ويصف القرآن المتقين الذين آمنوا برسول الله ﷺ وأصبحوا مسلمين بأنهم : ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ① وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ (سورة البقرة : ٣ - ٤) .

وتلك ميزة اختص الله بها هذه الرسالة وأتباعها . فقد قدر الله لهذه الأمة أن تسود في الأرض : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ حَتَّى يَسْتَخْلِفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَمْ يُكُنْ لَهُمْ دِينُهَا الَّذِي أَرَضَيْتُمْ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمَنًا يُعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُ بِي شَيْئًا ﴾ (سورة النور : ٥٥) . وعلم الله سبحانه وتعالى أن هذه الأمة

ستواجه شعوب البشرية كلها ودياناتها جميعاً ، وأنه سيدخل في ذمتها يهود ونصارى .
 ويريد الله أن تكون هذه الأمة قائدة ورائدة : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا
 شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ (سورة البقرة : ١٤٣) . وأن تكون قوامةً
 بالقسط ، لا في داخل نفسها فقط ، ولكن بين البشرية كلها : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا
 قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ ﴾ (سورة النساء : ١٣٥) .

لذلك فقد أعدها الله سبحانه وتعالى لحمل الحق ونشره بين الناس . ومن بين هذا
 الإعداد أن تؤمن بما أنزل على الأنبياء السابقين لأنه حق منزل من عند الله ، ولكيلا
 يكون في صدرها حرج ولا حقد على أمة من الأمم بسبب نبي تلك الأمة أو كتابها !
 فقد حقد اليهود على النصارى بسبب عيسى عليه السلام وبسبب تنزيل الإنجيل الناسخ
 (في بعض أحكامه) لكتابهم ، كما حقدوا على المسلمين - ومعهم النصارى - بسبب
 محمد ﷺ والقرآن الناسخ لما سبق من الرسالات جميعاً . أما المسلمون فلا يحقدون على أحد
 وليس في صدورهم حرج من شيء ، فهم يؤمنون بالرسول جميعاً والرسالات جميعاً بغير تفریق .
 من أجل ذلك عاش اليهود والنصارى في ظل الحكم الإسلامي مكرمين آمنين
 لا يقع عليهم اضطهاد ولا ظلم ، بينما المسلمون الذين يقعون تحت حكم اليهود أو
 النصارى يقع عليهم كل أنواع الظلم والاضطهاد : تؤخذ أموالهم وأرضهم ويذلون
 ويهانون ويبادون بالآلوف ومئات الآلوف !

ولذلك لا تصلح الأمة اليهودية ولا الأمة النصرانية لقيادة البشرية ، لأن كليهما
 لا تستطيع التخلص مما في نفسها من الأحقاد . أما الأمة الإسلامية فهي التي تصلح
 وحدها لقيادة البشرية (وقد قادتها بالفعل مرة من قبل لعدة قرون) لأنها هي الوحيدة
 التي تحكم في الأرض بغير أحقاد ، بذلك الإعداد الرباني الذي يؤهلها للقيادة :
 ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ (سورة
 آل عمران : ١١٠) . والذي يشمل فيما يشمل الإيمان بالرسول السابقين كلهم ورسالاتهم
 بلا تفریق وبغير أحقاد !

يقول الرسول ﷺ (كان كُلُّ نَبِيٍّ قَبْلِي يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعثُ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً) رواه الشيخان .

ويقول القرآن الكريم : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (سورة الأنبياء : ١٠٧) .
﴿ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (سورة القلم : ٥٢) . ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾
(سورة سبأ : ٢٨) . ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ ﴾ (سورة الأعراف : ١٥٨) . ﴿ يَأْمُرُ الْكِتَابَ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا
مِّمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ ﴾ (سورة المائدة : ١٥) .

فالرسول ﷺ قد أرسل إلى الناس كافة بما فيهم أهل الكتاب . ومن ثم فالدعوة
التي يحملها هي دعوة للناس كافة . وقد قدر الله أن يرسل رسلاً متفرقين ومتتابعين
في كل أمة على حدة : ﴿ وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ (سورة فاطر : ٢٤) . ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي
كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الصُّغُورَ ﴾ (سورة النحل : ٣٦) . ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رَسُولَنَا
نَشْرًا ﴾ (سورة المؤمنون : ٤٤) .

ثم قدر أن تكون رسالته الأخيرة إلى الناس كافة ، وباقية إلى يوم القيامة .
ونستطيع أن نتدبر شيئاً من حكمة الله في ذلك . فقد كانت الأمم من قبل تعيش
في عزلة بعضها عن بعض ، كما كانت - في طفولتها - تعيش بما يشبه مشاعر القومية ،
أي تعيش في داخل حدود « القوم » الذين تنتسب إليهم . فكان الله يرسل إليهم يومئذ
رسلاً محليين ، كل منهم يدعو في داخل منطقة من الأرض محدودة ، ويدعو قومه
خاصة فيقول لهم : ﴿ يٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾

ويعلم الله سبحانه وتعالى في سابق علمه أن البشرية ستتضج ذات يوم وتصل
إلى مرحلة الرشد ، وأن فوارق المكان والزمان ستضيق وتتداوب ، فعندئذ يرسل
إليها رسلاً واحداً - هو خاتم النبيين محمد ﷺ - فيبلغ الرسالة إلى آفاق الأرض ،
ويحملها أتباعه من بعده إلى كل أطراف المعمورة ، بحيث لا يبقى صقع من أصقاع

الأرض لا تصل إليه !

ومن ناحية أخرى فقد علم الله سبحانه وتعالى من خلقه - وهم في طفولتهم - أنهم يحتاجون إلى معجزة حسية حتى يؤمنوا بصدق الرسول الذي أرسل إليهم . ومن طبيعة المعجزة الحسية أن تكون محصورة في نطاق ضيق ، هو نطاق المشاهدين الذين يستطيعون أن يروها بأنفسهم أو يسمعوها من قريب عن حدوثها . لذلك كان طبيعياً أن يعرض الرسول معجزته على « قومه » خاصة لأنهم هم القريبون منه الذين يتسنى لهم رؤية المعجزة أو السماع عنها .

ثم يعلم الله سبحانه وتعالى ان البشرية ستنضج ذات يوم فلا تنصر على المعجزة الحسية ، المحدودة النطاق بطبيعتها ، وإنما يتيسر لهم أن يؤمنوا بمعجزة من نوع آخر ، غير محدودة النطاق^(١) ، فيرسل بها رسوله ﷺ يبلغ بها العالمين .

والله هو الأعلم بخلقهم ، وبما يصلح لهم في كل حين من الزمان : ﴿الْأَيْكَلُمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (سورة الملك : ١٤) .

٤ - شمولها لمطالب الحياة البشرية في جميع الميادين :

كما كانت الرسائل السابقة محدودة في المكان فقد كانت كذلك محدودة فيما تشمله من نواحي الحياة البشرية .

لقد جاءت كلها شاملة للقضية الكبرى التي لا تستقيم حياة البشر من غيرها في الدنيا ولا في الآخرة ، تلك هي قضية الألوهية : لا إله إلا الله ، اعبدوا الله ما لكم من إله غيره . ثم جاءت - إلى جانب ذلك - بإرشادات وتشريعات تناسب حالة القوم الذين بعث الرسول إليهم وتصلح المفاصل الموجودة لديهم ، كما بعث شعيب يقول : ﴿أَوْفُوا بِالْعَهْدِ وَأَتُوا نِعْمَتِي﴾ ﴿وَزِنُوا بِالْقِطَاسِ السَّيْقِيمِ﴾ ﴿وَلَا يَخْسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَ هُمْ وَلَا تَعْتَوِي فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (سورة الشعراء : ١٨١ - ١٨٣) . وبعث لوط يقول : ﴿أَنَا نَذِيرٌ مِنَ الْعَذَابِ﴾ ﴿وَنَذِيرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَنْوَاعِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ (سورة الشعراء : ١٦٥ - ١٦٦) .

(١) سنتكلم فيما يلي عن المعجزة عامة والمعجزة القرآنية بصفة خاصة .

ثم جاءت التوراة شاملة لكثير من جوانب الحياة الاجتماعية والاقتصادية ، ولكنها محدودة بقوم معينين ، هم بنو إسرائيل ، وزمن معين مقدر في علم الله . لذلك تعتبر تشريعاً خاصاً بهم ، يلائم أحوالهم الخاصة ، ويراعى تقسيماتهم السبطية (نسبة إلى الأسباط الإثني عشر وهم أولاد يعقوب عليه السلام) ويكلف كل سبط منهم بمهمة معينة في حياة تلك الجماعة المحدودة المحصورة .

وجاء عيسى عليه السلام يقول لهم : ﴿ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيِّ مِنَ التَّوْرَةِ وَلَأَجَلَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُزِمَ عَلَيْكُمْ ﴾ (سورة آل عمران : ٥٠) . فالإنجيل يعتبر مكملًا للتوراة في الواقع وتعديلاً جزئياً لبعض أحكامها ، أو تخفيفاً لبعض العقوبات التي فرضت على بنى إسرائيل من جراء ظلمهم .

ثم جاء الوقت الذى يعلم الله أن البشرية قد تهيأت فيه لتلقى رسالة عامة شاملة ، وقدر الله أن تبقى هذه الرسالة فى الأرض إلى يوم القيامة فأصبح من المناسب لهذه الرسالة - الشاملة للبشرية كلها - أن تكون شاملة كذلك لكل مطالب البشرية فى جميع الميادين . وهذا هو الحق بالنسبة للرسالة المحمدية .

إنها تشتمل بادئ ذى بدء - كالرسالات كلها - على القضية الكبرى ، قضية الألوهية (وستكلم عن هذه النقطة بشيء من التفصيل فى فقرة تالية) لأنها هى المقوم الأول من مقومات الحياة البشرية ، التى لا يستقيم بدونها أى إصلاح فى الأرض ، ومن ثم فهى المطلب الأول من مطالب الإنسان الصالح فى الحياة الدنيا .

ثم تشتمل بعد ذلك على تشريعات وتوجيهات فى كافة شئون الحياة : السياسية^(١) والاقتصادية والاجتماعية والفكرية والروحية والخلقية .. الخ .

ولا يتسع المجال فى هذا الكتاب لدراسة مفصلة لتلك الجوانب كلها ، فهى مجال المتخصصين فى دراسة الشريعة الإسلامية والفقه الإسلامى ، ولكننا نشير فقط

(١) مما يلاحظ فى التوراة أنها لم تتعرض لأى تنظيمات سياسية على نطاق « أمة » إنما ورد فيها تنظيم للعلاقات الداخلية بين أسباط بنى إسرائيل بحسب .

فيما يتعلق بدراستنا الحاضرة إلى ثلاثة أمور :

١ - أنه لا يوجد جانب من جوانب الحياة البشرية على الإطلاق لم يتعرض له الإسلام بتشريع أو تنظيم . فهو بصفة عامة ينظم علاقة الإنسان بربه (وهى العبادة بشئى أنواعها وفى مقدمتها الاعتقاد بوحداية الله والالتزام بطاعته) وعلاقة الإنسان بنفسه (وهى التزكية التى تشير إليها الآية : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴾ (سورة الشمس : ٩) . وجميع الأخلاقيات والأعمال اللازمة لهذه التزكية) وعلاقة الإنسان بغيره (وهذه تشمل العلاقات السياسية والاقتصادية والاجتماعية بصفة عامة ، أى : علاقة الفرد بالفرد ، وعلاقة الفرد بالأسرة بما فى ذلك علاقات الجنسين ، وعلاقة الفرد بالمجتمع . وعلاقة الحاكم بالمحكوم ، ثم علاقة المسلمين عامة بغير المسلمين فى السلم وفى الحرب . وهى التى يقابلها فى الاصطلاحات الشائعة بين الناس اليوم : القانون المدنى وقانون الأحوال الشخصية والقانون الجنائى ، والقانون التجارى وقانون الإجراءات والقانون الدستورى ، والقانون الدولى) .

بل إن الاسلام قد عنى كذلك بنواحٍ من الحياة لم يرد ذكرها فى أية رسالة سابقة (ولا أى تنظيم بشرى سابق) كالعناية بالطهارة والنظافة : ﴿ وَبِأَيْدِكَ فَطْرُ ﴾ (سورة المدثر : ٤) . والزينة ؛ قال تعالى : ﴿ يَبْنِىْ ءَادَمَ خُذُوْا زِيْنَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ (سورة الأعراف : ٣١) . ﴿ وَالْخَيْلَ وَالْإِبْهَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ﴾ (سورة النحل : ٨) . ولفت النظر إلى الجمال فى خلق الله ^(١) : ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرْمَوْنَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴾ (سورة النحل : ٦) . ﴿ أَنْظِرُوا آلَ نُوحٍ إِذَا أَنْتَرَوْهُ ﴾ (سورة الانعام : ٩٩) . ﴿ أَمْ نَخْلُقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلْنَا لَكَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَبَاءً ذَاتَ بَهْجَةٍ ﴾ (النمل : ٦٠) .

٢ - أن الله سبحانه وتعالى - وقد فرض هذه الشريعة إلى أن تقوم الساعة - يعلم أنه ستجد للناس فى حياتهم أمور ، وأن الحياة لن تبقى على صورتها يوم نزل هذا الدين . لذلك نجد فى الشريعة نوعين من التشريعات :

(١) فى غير ما يأتى الإنسان بالنظر إليه أو تعاطيه .

(أ) تشريعات مفصلة تفصيلاً كاملاً ودقيقاً للأمور التي لا ينبغي أن تتغير في حياة البشر لأنها غير متعلقة بما يجد في حياة الناس من أمور كشعائر التعبد ، والطهود ، وعلاقات الجنسين ، وعلاقات الأسرة ، وعلاقة المسلمين بغير المسلمين .. الخ .

(ب) تشريعات مجملة تتناول الأصول العامة دون التفصيلات للأمور التي يعلم الله سبحانه وتعالى أنها تتغير في حياة البشر بتغير ظروفهم وأحوالهم ومدى قيامهم بعمارة الأرض واستغلال الطاقات التي سخرها الله للإنسان : ﴿ وَسَخَّرْنَا لَكُمَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا بِإِذْنِهِ ﴾ (سورة الجاثية : ١٣) . وذلك كالنواحي السياسية والاقتصادية التي تتغير صورتها على الدوام من جيل إلى جيل . ولكنها ، رغم تغيرها ، ينبغي أن نلتزم بأصول ثابتة . فالصورة السياسية مثلاً تتغير ، ولكن الحكم بما أنزل الله لا بأي شريعة أخرى مسألة لا يجوز أن تتغير .. ومبدأ الشورى لا يجوز أن يتغير . والحكم بين الناس بالعدل لا يجوز أن يتغير . ومبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يجوز أن يتغير . وكذلك فإن الصورة الاقتصادية تتغير بتغير ما يستغل من طاقات السماوات والأرض ، ولكنها في تغيرها ونموها المستمر لا ينبغي أن تخرج عن الأصول العامة التي تحكمها ، كتحريم الربا والاحتكار والغصب والسلب والنهب والغش والسرقة في أي صورة من صورها ، كما ينبغي ألا يكثر المال وألا يستخدم في المعصية ، وأن تؤدي زكاته ، وأن ينفق منه في سبيل الله . وبذلك تتحقق لهذه الشريعة صفة المرونة في الأمور المتغيرة مع ثبات الأصول العامة التي تحكمها .

٣ - أن هناك أموراً متروكة لم يرد بشأنها نص وهي التي قال عنها الرسول ﷺ (إِنَّ اللَّهَ تَرَكَهَا رَحْمَةً بِالنَّاسِ غَيْرِ نَسْيَانٍ)^(١) وهذه تتسع لما يجد في حياة الناس من مخترعات ومكتشفات وتنظيمات ، والأصل فيها الإباحة ما لم تتعارض مع نص من نصوص الشريعة . بهذه الصورة المعجزة يتسع الإسلام لكل نمو بشرية منذ نزول هذه الشريعة إلى أن تقوم الساعة . لا يقف في سبيل نموها السليم ، وإنما يقف فقط في طريق انحرافاتها

(١) رواه الحاكم من حديث طويل له .

فيقوّمها ، لأن غايته الأصلية هي تقويم حياة البشر على الأرض في جميع العصور ، حتى يكون الإنسان دائماً كما خلقه الله وكما أراده أن يكون : ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ ① تَزِدُّهُ أَنْفَلَ سَفِيلِينَ ② ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ (سورة التين : ٤ - ٦) .

فلا يقف الإسلام في سبيل التقدم العلمي والتقدم الحضارى . بل إن الإسلام هو الذى بعث المسلمين لينشئوا حركة علمية ضخمة ، كان من أهم آثارها المنهج التجريبي في البحث العلمي ، الذى تعلمته أوروبا على يد المسلمين في الأندلس والشمال الإفريقي وصقلية وجنوب إيطاليا الإسلامى ، والذى قامت عليه نهضتها العلمية الحاضرة . والإسلام هو الذى أنشأ حضارة تاريخية ضخمة أنارت العالم كله وقت أن كانت أوروبا تعيش في ظلام القرون الوسطى ، المظلمة بالنسبة إليهم ، المزدهرة بالنسبة للإسلام . وكان أروع ما في هذه الحضارة أنها تعمر الأرض بأقصى ما في طاقة البشر من قدرة على التعمير في جميع الميادين وجميع الاتجاهات ، ولكن دون أن تقطع ما بين الإنسان وخالقه كما تصنع الحضارة الجاهلية المعاصرة في الغرب ، ودون أن تقطع ما بين الحياة الدنيا والآخرة كما تصنع تلك الجاهلية ، فتدفع الناس دفعاً إلى التكالب المزرى على شهوات الأرض ، وعلى تحطيم كل القيم الفاضلة في سبيل ذلك المتاع الرخيص ، وما ينشأ عن ذلك حتماً من فساد الفطر وفساد الأخلاق والصراع الرهيب الذى يهدد الأرض بالدمار !

كلا ! إن الإسلام ينشئ حضارة من نوع آخر ، أئمن وأعلى ، حضارة تعمر الأرض نعم ، ولكنها تعمرها بمقتضى النهج الربانى ، فلا تحرم الناس من المتاع الطيب ، ولكنها تحافظ على كيانهم الإنسانى وهم يتناولون ذلك المتاع ، ولا تهبط بهم إلى مستوى الحيوان : ﴿قُلْ مَنْ حَزَنَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ (الأعراف : ٣٢) . ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَسْتَمْتُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَشْجُورَةٌ﴾ (سورة محمد : ١٢) .

٥ - منهجها الفكرى :

تميزت هذه الدعوة كذلك بأن لها منهجاً فكرياً في البحث عن الحق .

إن هذه الدعوة تخاطب الإنسان كله ، وجدانه وفكره على السواء . وكما يستثير القرآن وجدان الإنسان لينفعل بمشاهدة آيات الله في الخلق فيحس بعظمة الخالق وقدرته المعجزة ، فيخضع وجدانه لعظمة الله ويستسلم له ، فكذلك يوقظ القرآن عقل الإنسان ليتدبر ، وليناقش الأمور مناقشة فكرية منطقية هادئة تصل به إلى اليقين .

فبينما يخاطبه ، لإثارة وجدانه ، بمثل هذه الآيات : ﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ۗ اللَّهُ خَيْرٌ مِّنَّا يُشْرِكُونَ ۝ أَمَنَّا خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنبِتُوا شَجَرَهَا ۗ أَوَلَمْ مَعَ اللَّهُ بِهِمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ۝ أَمَنَّا جَعَلْنَا الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلْنَا خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلْنَا لَهَا دَوَابَّ وَجَعَلْنَا بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَوَلَمْ مَعَ اللَّهُ بِهِمْ أَكْثَرُ مِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ۝ أَمَنَّا يُحِبُّ الْمُضْطَرَاءَ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْثِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُ لَكُم خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ۗ أَوَلَمْ مَعَ اللَّهُ ۗ فَلَيْلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝ أَمَنَّا يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُزِيلِ الزَّيْحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ أَوَلَمْ مَعَ اللَّهُ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝ أَمَنَّا يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ أَوَلَمْ مَعَ اللَّهُ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝ (سورة النمل : ٥٩ - ٦٤) .

فانه يخاطبه لا يقاط عقله بمثل هذه الآيات :

﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝ (سورة النحل : ١٧) .

﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ۝ (سورة الأنبياء : ٢٢) .

﴿ مَا تَتَّخِذُ اللَّهُ مِّن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِّن ذَلِيلٍ ۚ إِذَا ذُكِّرَ بِكُلِّ أَلَمٍ يَخْلَقُ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ۝ (سورة المؤمنون : ٩١) .

﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرْقَانُ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ۝ (سورة النساء : ٨٢) .

﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ۝ (سورة الطور : ٣٥) .

﴿ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَمَاضٍ ۚ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِنْ فُطُورٍ ۚ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنسِيبَ إِلَيْكَ الْبَصَرُ فَمَا يَسَاءُ هُوَ حَسِيرٌ ۝ (سورة الملك : ٣ - ٤) .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلَا نَتَّبِعُ مَا أَنزَلَ عَلَيْهِ ءَابَاءُنَا ۚ وَلَوْ كَانَ

ءَابَاؤُهُمْ لَا يَسْقُلُونَ شَيْئًا وَلَا يَنْتَدُونَ ﴿ (سورة البقرة : ١٧٠) .

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لِبَشَرِكَ بِهِ ، عَلِمَ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾

(سورة الإسراء : ٣٦) .

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَشْئِيًّا وَفُرْدِيًّا ثُمَّ لَنْفَكِرُوا أَمْ لَا يَصَاحِبُكُمْ مِنْ جَنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴾

لَكُمْ مِنْ بَدَنِي عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿ (سورة سبأ : ٤٦) .

إن هذه الآيات وأمثالها تكون في مجموعها منهجاً فكرياً للوصول إلى الحق يمكن

تلخيصه في هذه النقاط :

١ - التخلي عن التقليد الأعمى والموروثات الفاسدة التي لا تقوم على دليل ولا برهان .

٢ - عدم اقتضاء أى فكرة قبل تمحيصها وعرضها على البرهان والمنطق ، لأن الإنسان مسئول عن تفكيره واعتقاده ، لأن الله أعطاه سمعاً وبصراً وعقلاً ليفكر لنفسه ويتدبر ، ويوم القيامة سيسأل سمعه وبصره وعقله : كيف اقتفى شيئاً دون أن يعرف حقيقته ؟

٣ - التدبر في كل الأمور بالمنطق العقلى ، وعدم اتخاذ المواقف بدافع الهوى

لأن الهوى يعمى الإنسان عن الحق .

فإذا اتبع الإنسان هذا المنهج ، فالقى عنه موروثاته التي لا تقوم على دليل ، وكف

عن التقليد الأعمى ، ورفض أن يتبع شيئاً يعرض عليه إلا برهان ، ثم أنشأ يفكر بالمنطق بعيداً عن الهوى فإنه لا بد واصل بإذن الله إلى الحق .

وقد تميزت هذه الدعوة بمنهجها الفكرى هذا عن سائر الرسالات قبلها ، حيث

كانت المعجزات الحسية هى الدليل على صدق الرسول المرسل من عند الله . وكانت وسيلة الناس إلى التصديق هى مشاهدة المعجزة أو السماع بها .

أما هذه الدعوة التى أراد الله لها أن تبقى حتى يرث الله الأرض ومن عليها ، فقد

جعلها - سبحانه وتعالى - موجهة إلى العقل ، لتخاطب أجيال البشرية كلها منذ نزولها

إلى آخر الزمان ، لا عن طريق شىء حسى يراه جيل بعينه ، وإنما عن طريق أدلة

دائمة فى تركيب الإنسان وهى العقل . والعقل مصاحب للإنسان فى كل أحواله وهى

أى مكان يكون فيه . ومن ثم تخاطبه هذه الرسالة وتدعوه إلى التصديق بها عن طريق هذه الأداة الكامنة فى تركيبه ، فلا يجد مفراً - لو أخلص فى استخدام عقله - من التسليم بما فيها من حق .

والقرآن لا يطالب الناس بالتسليم الأعمى بشيء على الإطلاق ، بل يطالبهم بالتدبر والتفكر فى كل القضايا - حتى قضية الألوهية الواجبة التسليم - لكى يسلّموا عن اقتناع ، فيبقى التسليم راسخاً لا يهتز ولا يتقلقل .

قضية الألوهية . قضية الرسالة . قضية الوحي . قضية البعث - وهى كلها من أركان الإيمان الأساسية - لم يطلب القرآن التسليم بها بلا دليل ! إنما قال للناس فكروا وتدبروا ثم اسألوا أنفسكم بعد التفكير والتدبر ، أإله مع الله ؟! أيعجز الله عن إرسال الرسل وتنزيل الوحي وإحياء الموتى ومحاسبتهم ؟! فإذا كان الجواب الذى يصل إليه العقل هو النفى ، فقد وجب الإيمان إذن ووجب التصديق .

وليس معنى ذلك أن العقل البشرى يستطيع أن يحيط علماً بكل شيء ، فإن له حدوداً لا يستطيع أن يتجاوزها مهما حاول . ولكن المعنى أن الإسلام قد دعا العقل البشرى أن يعمل فيما هو متاح له ، ليصل إلى اليقين فى تلك الحقائق الرئيسية الكبرى التى تكون أساس الإيمان ، وأن الإسلام قد تفرد بهذا بين الرسالات .

على أن المنهج الفكرى الذى تتميز به الدعوة الإسلامية لا ينحصر فيما يتعلق بأمور العقيدة ، بل يمتد فيشمل ميادين أخرى .

فإذا كان القرآن قد طالب العقل البشرى بأن يتدبر آيات الله فى الكون ليتعرف على الخالق الذى له ملك السماوات والأرض وهو على كل شيء قدير ، فقد طالبه كذلك بالتفكر فى تلك الآيات ليتعرف على السنن الربانية التى تحكم سير هذا الكون ، ليتمكن من استخدام ما سخر الله له فى هذا الكون من طاقات : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ جَمِيعًا إِنَّهُ ﴾ (سورة الجاثية : ١٣) . ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتَيْنِ فَعَزَّزْنَا بِهِنَّ الْبَنِينَ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِلْبَاطِلِ وَأَعْيَيْنَا عَنْكُمْ آلِ الْيَتِيمِ وَالْحَسَابَ كُلَّ شَيْءٍ فَعَلْنَاهُ

نَفْصِيلاً ﴿ (سورة الإسراء : ١٢) . ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَمْرِ الَّذِي قَدْ مَرَّ مِنْكُمْ فَرَّغْتُمُ الْأَمْرَ ﴾ (سورة البقرة : ١٨٩) . (لَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءً فَإِذَا مَرَضْتُمْ فَتَدَاوُوا ...) (رواه مسلم) واللفظ : لكل داء دواء فإذا أصيب دواء الداء برأ بإذن الله عز وجل .
 وإن أمثال هذه التوجيهات في القرآن والسنة التي لا تكفى بطلب مشاهدة الأشياء بل تلفت النظر إلى عللها . لهي التي بعثت الأمة الإسلامية تطلب العلم من مصادره التي كانت متاحة يومئذ . ثم تنشئ من بعد حركتها العلمية الذاتية التي تتلمذت عليها أوربا فأنشأت نهضتها .. وكان أبرز ما فيها منهج المشاهدة والملاحظة والتجريب ، الذي يقوم على أساسه كل التقدم العلمي الحاضر .

كذلك يطلب القرآن من العقل البشري أن يتأمل في حكمة التشريع (بقدر ما يتاح له) حتى إذا طبقه كان تطبيقه واعياً متفهماً ، فتختتم كثير من آيات الأحكام بمثل هذا التعقيب : ﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (سورة النور : ٦١) . وهذا التوجيه هو الذي أنشأ الفقه الإسلامي ، وهو آمن ما أنتجه العقل المسلم من روائع . وما يزال هذا النتاج حياً وقابلاً للحياة والنمو ما دامت الحياة ..
 كما أن الإسلام وجه العقل البشري إلى تدبر السنن الربانية التي تسير حياة البشر على الأرض : ﴿ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلنَّاسِ عَلَى النَّاسِ مَقَرًّا وَمُقَرَّبَاتٍ ﴾ (سورة الفتح : ٢٣) . ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بِيَدِهِ حَتَّى يُبَيِّرَ أَمْرًا بِأَمْرٍ فَهُمْ لَا يُمِرُّونَ ﴾ (سورة الرعد : ١١) . ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا أَلَمْ يَعْلَمُوا ﴾ (سورة الروم : ٤١) . ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُنْزِلِينَهَا فَتَقَاتُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴾ (سورة الإسراء : ١٦) . ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ (سورة الأعراف : ٩٦) . ﴿ فَلَنَسْأَلُ مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَجِدْنَاهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعُوا أَوْ تَوَخَّاهُمْ بَغْتَةً فَيَدْأُوهُم مُّغْلِبُونَ ﴾ (سورة الأنعام : ٤٤) . ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمَ تُفْصَلُ الَّذِينَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً ﴾ (سورة الأنفال : ٢٥) . (لَتَأْمُرَنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّهُمْ يَخْشَوْنَ اللَّهَ الْغَيْبَ وَأَقْبَلُوا إِلَيْهِمْ فِي الْيَوْمِ الَّذِي تَخْرُجُونَ فِيهِ لِيُخْبَرُوا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) (رواه الترمذي) .

والغرض من هذه التوجيهات هي أن يعرف الإنسان أن حياته لا تمضي بلا ضوابط .
 وأنه ليس معنى من نتائج عمله . بل إن كل عمل يعمل به الإنسان فرداً أو جماعة له
 عواقبه سواء في الحياة الدنيا أو في الآخرة ، حسب سنن ربانية لا تتبدل ولا تتحول
 ولا تحابي فرداً ولا جماعة . فمن أجل ذلك عليه أن يتدبر الطريق الذي ينبغي أن
 يسلكه ، ويتدبر عواقب عمله قبل أن يقدم عليه .

كذلك يطلب الإسلام من العقل البشرى أن يتدبر عبرة التاريخ : ﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ
 سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْكَاذِبِينَ ﴾ (سورة آل عمران : ١٣٧) .
 ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ
 مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمُ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴾ (سورة
 غافر : ٢١) . ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَنْفَلِتُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى
 الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَتَّبِعُنَّ أَفْئِدَةً إِلَى فِي الضُّدُورِ ﴾ (سورة الحج : ٤٦) .

فالمطلوب إذن هو دراسة التاريخ لا على أنه مجموعة من الحوادث حدثت بغير
 رابط ولا دلالة ، ولكن على أنه يجرى حسب السنن الربانية الثابتة ، وأن هناك رابطاً
 يربط الأحداث هو قدر الله المقدور ، الذي يسير حسب تلك السنن الثابتة . فإذا تدبر
 العقل ذلك ووعى عبرة التاريخ ، فإنه قمين ألا يقع فيما وقع فيه السابقون من أخطاء
 وخطايا ، بل يقوم خطاه بحيث لا تصطدم مع السنن الربانية ، فيسير آمناً في الحياة
 الدنيا ، في طريق يؤدي به إلى الأمن في الدار الآخرة .

وعلى ذلك يمكن تلخيص المجالات التي يطلب الإسلام من العقل البشرى أن
 يتفكر فيها بهذه المجالات الخمسة :

(١) التدبر في آيات الله في الكون للتعرف على الخالق والإيمان به والتسليم له .

(٢) التدبر في آيات الله في الكون للتعرف على السنن التي تسير الكون لاستخلاص

طاقاته وتسخيرها لعمارة الأرض .

(٣) التدبر في حكمة التشريع لإحسان تطبيقه على الأحوال المتجددة في حياة الناس .

٤) التدبر فى السنن الربانية التى تسير حياة الناس فى الأرض بمقتضاها لتقويم حياة المجتمع البشرى .

٥) التدبر فى عبر التاريخ والاستفادة منها فى تجنب الأخطاء ، والاستقامة على الطريق الصحيح .

وذلك أوسع مجال يمكن للفكر البشرى أن يعمل فيه العمل المثمر المفيد .

٦ - غنى مصادرها التشريعية :

مما تميزت به هذه الدعوة كذلك غنى مصادرها التشريعية . فالرسالات السابقة كلها تجد تشريعاتها محصورة فى الكتاب المنزل فحسب . أما هذه الدعوة التى لم تنزل لقوم محدودين ولا لفترة من الزمان محدودة ، وإنما نزلت للبشرية كافة ولأمد من الزمن ممتد إلى قيام الساعة ، فقد خصها الله بسعة فى المصادر التشريعية ثلاثم سعة رقعتها وامتداد زمانها . فنجد مع الكتاب سنة الرسول ﷺ تفصل ما أجمله الكتاب وتبين أحكامه تارة ، وتستقل بتقرير الحكم تارة أخرى . فقد فرض الله الصلاة - مثلاً - ولكن أحكام الصلاة يبينها السنة . وكذلك الأمر فى الزكاة ، فالسنة هى التى فصلت أحكامها وأنواعها ومقاديرها . واستقلت السنة ببعض الأحكام كحد الردة وحد الخمر وحكم الرجم للزانى المحصن ، وأحكام البيع والشراء .. الخ .

وإلى جانب الكتاب والسنة فباب الاجتهاد مفتوح فيما لم يرد فيه نص ، أو فى طريقة تطبيق النص على حالة لم تقع فى عهد الرسول ﷺ ، وهذا هو الذى كفل لهذه الشريعة أن تتسع للنمو الدائم فى حياة البشر ولا تضيق عنه ، وجعل الحياة فى ظلها تتحرك وتنمو أبداً ولا تتجمد ، وهو ما لم يكن متاحاً للدعوات السابقة لأن الله قدر لها فترة محدودة من الزمن تنسخ بعدها . أما هذه الرسالة فلا ناسخ لها ، لذلك وهبها الله القدرة على الامتداد ومواكبة الحياة المتجددة على الأرض .

ويعدد العلماء مصادر التشريع فى الإسلام بهذه الأصول الأربعة :

١ - الكتاب .

٢ - السنة .

٣ - والإجماع .

٤ - والقياس .

٧ - موافقتها للفطرة البشرية :

حين نقول إن هذه الرسالة تميزت بموافقتها للفطرة البشرية فليس معنى هذا أن الرسائل السابقة مخالفة للفطرة أو مجافية لها . فكل الرسائل من عند الله أصلاً (وإن كان قد أصابها التحريف فيما بعد) ولكن الرسائل السابقة كما أسلفنا قد روعى فيها أنها جاءت لقوم محدودين ولفترة من الزمن محدودة ، لذلك كانت كلها تعالج أموراً محلية وجزئية . أما هذه الرسالة العالمية الممتدة في الزمن فقد جاءت لتعالج أمر الانسان كله ، بصرف النظر عن جنسه أو لونه أو لغته أو زمانه أو مكانه .. ومن ثم فهي تتعامل مع الفطرة الإنسانية ذاتها في جميع أحوالها لا مع البيئة ولا الزمان ولا المكان ، فروعى فيها من لدن منزلها جلت قدرته أن تكون موافقة للفطرة تماماً ومتلبسة بها .

إن الله هو خالق الفطرة البشرية العليم بما يصلحها وما يصلح لها . وهو منزل هذا الدين . نزله على علم . وفصله على قدر الإنسان : ﴿ فَطَرَنَ اللَّهُ الْبَشَرَ الْإِنْسَانَ : ﴿ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ الْإِنْسَانَ عَلَيْهِ لَا بُدَّ لَهُ مِنْهَا ﴾ (سورة الروم : ٣٠) .

وكلما مر الزمن ، وتقلبت البشرية في النظم الجاهلية بعيداً عن منهج الله فأصابها الاضطرابات والانحرافات ، تبين لنا ما كان خافياً علينا من حكمة هذا الدين في موافقته للفطرة البشرية وتقويمه لانحرافاتهما .

إن في الفطرة البشرية كما خلقها الله مجموعة من الدوافع أودعها الله في الفطرة لتعين الإنسان على القيام بما كلف به من أمر الخلافة في الأرض ، كدافع الطعام والشراب والملبس والسكن والجنس والتملك وإثبات الذات .. الخ . ولكن هذه الدوافع مع ضرورتها لعمارة الأرض خطيرة على الكيان البشري إذا تركت بلا ضابط يضبط منطلقها . فعندئذ تتحول إلى شهوات جامحة لا يملك الإنسان نفسه من سلطانها .

والنظام الأمثل هو الذى يسمح لهذه الدوافع بالقدر المعقول من الحركة فلا يعطلها ولا يكبتها من أصولها ، وفى الوقت ذاته يضبط منطلقها فلا تتحول إلى شهوات ، فيأخذ الإنسان نصيبه من المتاع الطيب ، وينضبط سلوكه فى ذات الوقت فى الحدود التى لا تعود عليه بالعطب والدمار .

وذلك بالضبط هو ما يصنعه الإسلام .

يتيح للدوافع كلها أن تعمل ، لا يستقذر شيئاً منها ولا يستنكره ، وفى الوقت ذاته يعمل على تهذيب هذه الدوافع والارتفاع بها إلى أقصى ما يملك الإنسان من رفعة فى حدود كيانه البشرى ، فلا تصبح شهوات جامحة وإنما رغبات منضبطة بالحدود التى رسمها الله - بعلمه وحكمته - وقال عنها : ﴿ نِلْكَ حُدُودَ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا ﴾ (سورة البقرة : ١٨٧) . و ﴿ نِلْكَ حُدُودَ اللَّهِ فَلا تَعْدُوْهَا ﴾ (سورة البقرة : ٢٢٩) .

لذلك لا يُقرّ الإسلام الرهبانية ، لأنها تعطل دوافع الفطرة وتكبتها .

(ذَهَبَ ثَلَاثَةُ رَهْطٍ إِلَى بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَسَأَلُوا عَنْ عِبَادَتِهِ ﷺ ، فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَانَهُمْ تَقَالُوهَا^(١) ، فَقَالَ أَحَدُهُمْ : أَمَّا أَنَا فَأُصُومُ الدَّهْرَ وَلَا أَفْطِرُ ، وَقَالَ الْآخَرُ وَأَمَّا أَنَا فَأَقُومُ اللَّيْلَ وَلَا أَنَامُ ، وَقَالَ الثَّالِثُ أَمَّا أَنَا فَلَا أَنْزُوجُ النِّسَاءَ . فَلَمَّا سَمِعَ بِهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ لَهُمْ : أَمَّا وَاللَّهِ إِنِّي لَأُخْشَاكُمُ اللَّهَ وَأَتَّقَاكُمْ لَهُ ، وَلَكِنِّي أَصُومُ وَأَفْطِرُ ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ ، وَأَنْزُوجُ النِّسَاءَ . فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي) (رواه الشيخان والنسائي) .

كذلك لا يُقرّ الإسلام الانفلات مع الشهوات الجامحة كما تصنع الجاهلية المعاصرة بصفة خاصة ، فتفسد الفطرة وتفسد الأخلاق ، وتنحط بالإنسان إلى درك الحيوان . هذا التوازن - الذى رأينا نموذجاً منه فى الحديث السابق فى أمر الطعام والشراب وراحة الجسد وعلاقة الجنس ، والذى يجعل الإنسان « فى أحسن تقويم » - يقيمه الإسلام فى جميع مجالات الحياة بلا استثناء .. خذ نموذجاً لذلك الملكية الفردية .

(١) أى رأوها قليلة فى نظرهم .

إن الغرب الرأسمالى يسمح للفرد بالتملك فى غير حدود وبلا ضوابط ، فينشأ عن ذلك الظلم السياسى والاجتماعى والاقتصادى الموجود فى الغرب .

والشيوعية تكبت نزعة التملك فلا تسمح بالملكية الفردية إطلاقاً .. مما أدى إلى قتل الحوافز الفردية وتناقص الإنتاج حتى أصبحت روسيا - التى تملك أخصب مزارع القمح فى العالم ، فى أوكرانيا وروسيا البيضاء - تحتاج إلى استيراد القمح من أمريكا بسبب عجز الإنتاج !

والإسلام لا يصنع هذه ولا تلك .

إنه يتمشى مع الفطرة فيبيع الملكية الفردية من حيث المبدأ ، ليتيح للحوافز الفردية أن تعمل . ولا يكتبها كما تصنع الشيوعية ، ولكنه يضع الضوابط التى تمنع الظلم وتمنع الفساد . فيحرم الربا والاحتكار والغصب والسلب والنهب والسرقة والغش كطرق للتملك أو لتنمية المال . ثم يفرض الزكاة التى تحد من التضخم وتشرك الفقراء فى جهد الأغنياء . ويوجب الإنفاق فى سبيل الله ، ويحرم الكثر ، ويحرم الترف والمخيلة بالمال . وهذه كلها ضوابط تمنع ما يحدث فى الغرب الرأسمالى من فساد خلقى وظلم اجتماعى وسياسى واقتصادى .

وهكذا لو تتبعنا جميع مجالات الحياة نجد التوافق الكامل بين هذا الدين وبين الفطرة البشرية ، كما نجد التوجيهات التى تمنع الانحراف أو تعالجه عند حدوثه ، فتظل الفِطْرَةُ أقرب ما تكون إلى السلامة والحياة أقرب ما تكون إلى الاستقرار .

٨ - سماحتها ويسرها :

﴿هُوَ أَجْنَبٌ كُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ (سورة الحج : ٧٨) .

﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ (سورة البقرة : ١٨٥) .

﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ (سورة النساء : ٢٨) .

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا

مَاءً فَلَبَسُوا صَدَسًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ

أرأيت كيف يعالج الإسلام النفس البشرية ؟ إن هذه الشهوات محببة إلى الناس كما تقرر الآية ، فهل حرمها الله في ذاتها ؟ كلا ! إنما رسم لها فقط حدوداً تكون حلالاً في داخلها ، حراماً في خارجها . وتلك الحدود هي التي لا تصلح الحياة إلا بها فهي إذن مفروضة . ولكن الإسلام يجب للإنسان أن يتخفف من هذه الشهوات حتى لا تصبح شغله الشاغل ، وحتى لا تشغله عن الجهاد في سبيل الله - وهو ضرورة - أو تصده عن الإيمان بالله فتضيع آخرته : فيقول له باديء ذي بدء : ﴿ أَوَلَيْسَ لَكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَٰلِكُمْ ﴾ خير من الاستغراق مع هذه الشهوات ؟ الجنة بما فيها من نعم خالد ورضوان . ولمن هذا النعيم ؟ هنا يرسم صورة جميلة شفيفة رائعة جذابة لعباد الله الذين يستحقون ذلك النعيم : إنهم الصابرون والصادقون والقانتون والمنفقون والمستغفرون بالأسحار .. صفات كلها نبيلة وحببية إلى النفس . والقرآن يشجع عليها بهذا العرض الرائق الجميل . أرأيت إن شغل الإنسان نفسه بتحصيل هذه الصفات الجميلة ، أيعود يستغرق في الشهوات ؟! كلا ! إنه - من ذات نفسه - سينصرف عنها ، دون إحساس بالقسر ولا بالإعنت . وما يريد الإسلام منه في الوقت ذاته أن ينصرف عنها انصراف الرهبانية المعنت ، إنما انصراف التخفف والترفع والرضى بالقدر الطيب المعقول ..

ويفرض الإسلام صلوات محددة في اليوم واللييلة ، ولكنه يحبب في النوافل : (مَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْتَطِشُ بِهَا ...) حديث قدسي رواه البخاري .

وكذلك يفرض صيام شهر رمضان ، ولكنه يحبب في صيام النفل .

ويفرض الزكاة بمقادير معينة في المال ، ولكنه يحبب في الإنفاق في سبيل الله .

وهكذا يأخذ بيد الإنسان في رفق يحبه في الصعود حتى يحبه ويستقيم عليه ،

فينطبق عليه هذا الوصف : ﴿ إِنَّا الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَزَلَّ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ (سورة فصلت : ٣٠) .

أما التكاليف المفروضة ذاتها فقد روعي فيها أن تكون في حدود الطاقة البشرية :

﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ (سورة البقرة : ٢٨٦) . فإن عجز الإنسان عنها - عجزاً حقيقياً لا ادعاءً ولا فراراً من التكليف (والله أعلم به) - فإن الله يخفف عنه بمقدار عجزه ، ويوجهه أن يقول : ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا أَوْرَاقَ كَمَا حَمَلْنَا عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ . وَاعْفُ عَنَّا وَارْحَمْنَا ﴾ (سورة البقرة : ٢٨٦) .

ثم إن زلَّ فإن الله لا يطرده من رحمته إلا إذا أصرَّ ..

﴿ فَتَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَ قَتَابٍ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (سورة البقرة : ٣٧) .
 ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحْشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ فَرَحٌ ﴾
 إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ٥٥ أُولَٰئِكَ جَزَاءُهم مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّتِ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِمَا أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ (سورة آل عمران : ١٣٥ - ١٣٦) .
 فأى سماحة أكبر من ذلك حتى مع المذنبين !؟

٩ - نماذج لأهم ما جاءت به من القيم العليا :

(١) إحياء عقيدة التوحيد

كل الرسائل جاءت أساساً من أجل إحياء عقيدة التوحيد التي يكون الناس قد انحرفوا عنها إلى الشرك : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الصِّغُوتَ ﴾ (سورة النحل : ٣٦) . ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ (سورة الأنبياء : ٢٥) .

ومع ذلك فإن من يتدبر القرآن يلاحظ على الفور مدى العناية التي أولاها القرآن لهذه القضية الخطيرة ، بطريقة غير مسبوقه في الرسائل السابقة .

إن الله قد قدر بقاء هذه الرسالة وامتدادها إلى آخر الزمان ، وأنزلها كذلك لكل العالمين . لذلك نجد في القرآن مناقشة لكل الشبهات التي يمكن أن تخطر على البال بالنسبة لعقيدة التوحيد ، ومطاردة شديدة ودائبة لهذه الشبهات حتى تنجلي من النفوس ، وتخلص العقيدة صافية من كل غبش على الإطلاق .

حقيقة إن القرآن كان يردّ على شبهات كانت قائمة وقت نزوله ، سواء بين العرب الوثنيين أو بين أهل الكتاب من اليهود والنصارى . ولكن العناية العظيمة التي بذلت لقضية التوحيد ليست على قدر الرد على تلك الشبهات فحسب ، بل المقصود منها ترسيخ عقيدة التوحيد في النفوس بحيث لا تقتلع بعد ذلك أبداً .

وأقوى دليل على أن هذه العناية لم يكن القصد بها مجرد الرد على الشبهات القائمة في نفوس العرب المشركين وأهل الكتاب فحسب ، أن الحديث في التوحيد ، والدعوة إلى ترسيخ الإيمان به ، وتوسيع مساحته في النفس حتى يشمل كل أقطارها ، ظل يتنزل على المؤمنين في المدينة ، حتى بعد أن آمنوا ، وحتى بعد أن قام مجتمع مؤمن يقاتل في سبيل نصره هذا الدين ، ودولة تحرسه من عدوان المعتدين :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ ۚ ﴾ (سورة النساء : ١٣٦) .

فالدعوة هنا - كما هو واضح - ليست للكفار ولكن للمؤمنين .. ودعوتهم إلى الإيمان - وهم مؤمنون بالفعل - معناها دعوتهم إلى الحرص على الإيمان وإلى مزيد من الإيمان ! نعم ، لقد جلّى القرآن قضية التوحيد وقضية الشرك بأجلى بيان .. وتتبعها في النفس البشرية بكل دروبها ومنحنياتها ، لكي لا يعيش الشرك في أى ناحية منها ولا يخالط أى عمل أو فكر أو شعور يصدر عن المؤمن أو يخطر في دخيلة نفسه .

لقد بين القرآن - بادئ ذي بدء - قضية على أقصى درجات الأهمية ، وهي أن الشرك ليس محصوراً في تقديم شعائر التبعّد لغير الله ، ولكنه يشمل كذلك الحكم بغير ما أنزل الله :

﴿ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ إِلَيْنَا مِنَ الْكِتَابِ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ (سورة

الأعراف : ٣) . ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْلَا نُنَزِّلُ الْكِتَابَ لَإِنَّهُمْ فِيهِ لَبَاطِلٌ ۖ وَلَا يَخَافُونَ ۚ ﴾ (سورة النحل : ٣٥) .

فعدم اتباع ما أنزل الله - في آية « الأعراف » - صنو لاتباع الأولياء من دون الله ، أى أنه شرك . وآية « النحل » تفصل أعمال الشرك - على لسان المشركين - فإذا

هى عبادة غير الله والتحريم (والتحليل) بغير إذن من الله ، أى عدم اتباع ما أنزل الله .
وفى سورة النساء (٦٥) يقول : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُخَرِّجُوا مِنكُم مِّمَّا
شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ رَجَاءً بِمَا كَفَضْتُمْ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾

وفى سورة المائدة بتكرار النص على هذه الصورة : ﴿ وَمَنْ لَّمْ يَخُجْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ
هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ (آية : ٤٤) . ﴿ وَمَنْ لَّمْ يَخُجْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (آية :
٤٥) . ﴿ وَمَنْ لَّمْ يَخُجْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (آية : ٤٧) .

وفى سورة النور يقرر أن المحك الحقيقى لدعوى الإيمان هو التحاكم إلى شريعة
الله ، وإلا فهى دعوى كاذبة : ﴿ وَيَقُولُونَ ، اسْتَأْذِنُوا اللَّهَ وَرَسُولَ اللَّهِ أَطْفَنَّا ثُمَّ يُقَالُ قَوْلًا مِّنْهُمْ
مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منكم
مُفْرِضُونَ ... إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا
وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (الآيات ٤٧ إلى ٥١) .

ويظل القرآن يكرر على مسامع الناس - فى استفاضة ملحوظة - أن الله وحده
هو الخالق لكل ما فى هذا الكون ، ومن ثم فهو وحده الذى ينبغى عبادته ، وهو وحده
الذى ينبغى أن يطاع وأن يكون له الحكم فى كل أمر من الأمور .

﴿ آلَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ﴾ (سورة الأعراف : ٥٤) .

﴿ إِنَّ الْحُكْمَ لِلَّهِ وَاللَّيْلَةُ لَإِيَّاهُ ذَلِكَ الَّذِينَ الْفَاسِقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

(سورة يوسف : ٤٠) .

﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنَ بِهِ اللَّهُ ﴾ (سورة الشورى : ٢١) .

وفى معرض هذه القضية يحىء العرض المستفيض لآيات الله فى الكون ، الذى
يزخر به القرآن الكريم بصورة ملحوظة ، حتى يتعمق فى النفس البشرية الإيمان بأن الله
هو الخالق وحده ، ومن ثم فهو المعبود وحده بغير شريك .

ثم يتخذ القرآن لترسيخ هذه العقيدة وسائل متعددة منها :

١ - التذكير الدائم بنعم الله وأنها من عند الله وحده لا من عند سواه ، حتى يظل

الناس موصولي القلب بالله عن طريق نعمه وفضله .

٢ - التذكير الدائم بأن كل ما يصيب الإنسان فهو بقدر من الله ، وأن أحداً لا يملك تغيير قدر الله بأي صورة من الصور .

٣ - التعريف بالله بصفاته وأسمائه الحسنی . وقد وردت الأسماء الحسنى والصفات كلها في معرض التعريف بالله بصورة تعمق الإحساس بوحدانية الله وترسخ الإيمان بها في النفوس فهي وسيلة تربوية بعيدة الأثر في تعميق عقيدة التوحيد في النفس . وبهذه الوسائل وغيرها تعمقت عقيدة التوحيد في نفوس المؤمنين بصورة غير مسبقة في تاريخ البشرية ، وتقرر التوحيد في الأرض عقيدة مسلمة لا يتطرق إليها الشك ، وإن شابها بين الحين والحين انحرافات تقع من المسلمين ، إلا أن جلاء عقيدة التوحيد في الإسلام هو من القوة والرسوخ بحيث لا يلبث المنحرفون أن يرجعوا عن انحرافهم ويعودوا إلى الأصل الصحيح .

ولم يتقرر هذا الأمر في الأرض بهذه الصورة إلا بعد الإسلام . فكل ديانات التوحيد من قبل حرفت وشوهت على يد أتباعها حتى ضاع منها عنصر التوحيد وضاعت أصوله المنزلة من عند الله . وبقي الإسلام وحده قائماً بهذه القضية عبر القرون ، ثابت الأركان ، ينحرف عنه من ينحرف ، ويزيغ عنه من يزيغ ، ولكن أصوله ثابتة لا ينالها التحريف ، ترجع إليها الأجيال جيلاً بعد جيل ، فتفيء إلى التوحيد الصحيح : ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ لَإِيْسَتُمْ﴾ (سورة آل عمران : ١٩).

(٢) إبراز الكرامة الإنسانية

لا يوجد نظام في الأرض أبرز كرامة الإنسان - بالحق - بمثل ما أبرزها الإسلام . و«الديمقراطية» الغربية ذات دعوى عريضة في أنها هي التي قررت - لأول مرة - حقوق الإنسان . وهي دعوى زائفة من ناحيتين :

الناحية التاريخية أولاً : فالإسلام قد سبق الديمقراطية الغربية في تقرير حقوق الإنسان بعشرة قرون على أقل تقدير .. وكانت أوروبا يومها غارقة في ظلام العصور

الوسطى ترزح تحت وطأة الإقطاع ، حيث يعيش الناس هملًا لا حقوق لهم ولا كرامة ، يتحكم السيد الإقطاعي - وهو فرد واحد - في مئآت وألوف من العبيد ، يقتلهم إذا شاء ويبيعهم إذا شاء ، ويشغلهم سخرة في أرضه بلا أجر .. فجاء الإسلام فقرر حرمة الدم والمال والعرض .. وإنسانية الإنسان !

والناحية الواقعية ثانياً :

فالإسلام حين قرر حقوق الإنسان ، قررها في عالم الواقع ، وللتنفيذ العملي . أما أوربا فقد قررت حقوق الإنسان فعلاً في كتب كثيرة ، ودساتير ومواثيق دولية . ولكن أين هي في عالم الواقع ؟ أين هي في الاستعمار الذي يسلب كرامة الأمم والشعوب ؟ أين هي في التفرقة العنصرية حيث يحرم السود - فقط لأنهم سود - من كل حقوق الإنسان ؟ وأين هي في فلسطين ، حيث يطرد شعب من أرضه ويشرد منها ليوصلها شذاذ الآفاق ؟ وأين هي في المذابح التي تقام للمسلمين في كل أرض إسلامية تملكها غير المسلمين ؟ خبر على ورق ، وكلام لا رصيد له من الواقع ..

حقيقة إن هناك مظاهر « ديمقراطية » في البلاد الغربية لأهلها وللقاطنين فيها . فالفرد حر فيما يعمل ، حر فيما يتكلم ، حر فيما يعتقد ، لا يجوز للسلطة أن تتدخل في شئونه إلا حين يعتدى هو على القانون . وثُمَّ ضمانات للفرد . فلا يعتقل بغير جريمة ، ولا يحقق معه إلا بالطريق القانوني ، ولا يحاكم إلا بمقتضى القانون ، ولا يحكم عليه إلا بما يقرره القانون ... ولكن هذه الحرية تمتد من ناحية إلى الحد المفسد ، فتبيح الإلحاد والكفر وتبيح الفساد الخلقي بجميع صورته وألوانه ، وتقصر من ناحية أخرى تقصيراً شديداً حين تتعرض مصالح الرأسمالية للخطر من قريب أو من بعيد .. فلا هي هنا ولا هناك تضع الإنسان في موضع الإنسانية الكريم !

أما في الشيوعية التي تزعم أنها هي « الديمقراطية الحقيقية » ، فلا كرامة للإنسان على الإطلاق ! لا يستطيع أن يفتح فمه بكلمة نقد واحدة للدولة أو للحزب الشيوعي الحاكم ، ولا ضمانات له على الإطلاق ، وهذا كله - في زعمهم - مقابل تحرره من

سيطرة الإقطاع ورأس المال . وحقيقة إن سيطرة الإقطاع ورأس المال مذلة لكرامة الإنسان . ولكن سيطرة الدولة من جانب آخر لا تقل إذلالاً واستبداداً بل هي أشد ! أما الإسلام فهو يقرر كرامة الإنسان بادئ ذي بدء بتحريره من كل عبودية زائفة لغير الله ، الحقيقي وحده بالعبادة والتقديس ، فلا عبودية للحاكم ولا للسلطة ولا للمال ولا للجاه ولا للون ولا للجنس ، ولا لأي اعتبار من الاعتبارات التي تستعبد الناس في الأرض .

وفي سبيل ذلك ينزع الإسلام حق التشريع من البشر ويرده إلى صاحبه وهو الله سبحانه وتعالى ، لأن البشر إن شرعوا لأنفسهم فلا بد أن ينقسم الناس إلى سادة (هم الذين يشرعون) وعبيد (هم الذين يقع عليهم التشريع) . أما حين يكون الله هو المشرع ، فالكل في موقف العبودية والطاعة له سواء ، الحاكم والمحكوم ، والغنى والفقر . ثم يضع الإسلام الضمانات التي لا تكفل حرمة الدم والمال فقط ، بل حرمة العرض كذلك . لا على مستوى الجريمة الخلقية ، بل على مستوى الكرامة الإنسانية فلا يُعتدى على الإنسان بالغمز ولا باللمز ولا بالسخرية ولا بالغيبة ولا بالاتهام الباطل !

ثم ينفذ ذلك في عالم الواقع . فحين يضرب ابن عمرو بن العاص الشاب القبطي لأنه تفوق عليه في السباق ، ويقول له أنا ابن الأكرمين ، ويشتكى والد الشاب إلى عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، يعطيه عمر العصا ، ويقول له اضرب ابن الأكرمين ! ثم يلتفت إلى عمرو بن العاص ويقول له : يا عمرو ! متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ! ثم إن الكرامة الإنسانية تبرز في هذا الدين في نواحٍ شتى إلى جانب ما ذكرناه من الحقوق والضمانات .

- ١ - فليس هناك خطيئة أبدية تستذل أعناق البشر حتى يأتي ابن الله (نستغفر الله) ليفتدي بنفسه خطايا البشر بالموت فوق الصليب ! إنما يتلقى آدم التوبة والمغفرة من ربه مباشرة : ﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (سورة البقرة : ٣٧) .
- ٢ - وليس هناك كهنوت يتوسطون بين الإنسان وبين الله . إنما يتصل العبد بربه

مباشرة في شعائر التعبد وفي الدعاء والاستغفار .

٣ - ومن خلال عمل الإنسان تكون النتائج التي يجرى بها قدر الله في الأرض ! ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُ لَئِنْ أَفْتَحَ بِكَ مَغْزِيَ رَاقِمَةٍ أَنتَ بِهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ (سورة الأنفال : ٥٣) .
﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا أَلَمْ تَرَ جَعَلُوا ﴾ (سورة الروم : ٤١) . فالإنسان هو الذي يقرر مصيره بما يقدم لنفسه من أعمال :
﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۖ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ (سورة الزلزلة : ٧ - ٨) .
(يا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُخْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوْفِيكُمْ إِيَّاهَا فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ وَمَنْ وَجَدَ شَرًّا فَلَا يُلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ) . (حديث قدسي رواه مسلم) .

٤ - الإنسان هو المقدم في التصور الإسلامي لا المادة ولا « الطبيعة » كما يقول التفسير المادى للتاريخ . فالكون كله مسخر للإنسان من عند الله : ﴿ وَسَخَّرْنَا لَكُمْ مَتَافِيَ السَّمَوَاتِ وَمَتَافِيَ الْأَرْضِ جَمِيعًا إِنَّهُ ﴾ (سورة الجاثية : ١٣) . ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ (سورة الإسراء : ٧٠) .

٥ - يسعى الإسلام لإبراز الكرامة الإنسانية بتنمية الجوانب الإنسانية في الإنسان لا الجوانب الحيوانية فيه . فيريه على القيم العليا والترفع عن الدنابا والاستعلاء على الشهوات الدنسة والمتاع الحسى الغليظ ، وبذلك يكون كريماً حقاً لأنه يكون طليقاً من قيود الحيوان ، ويكون « فى أحسن تقويم » جديراً بأن تنزل عليه الملائكة : ﴿ إِنَّكَ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا نَتَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا ﴾ (سورة فصلت : ٣٠) .

(٣) تقرير مبدأ الشورى والعدل

﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ ﴾ (سورة الشورى : ٣٨) .
﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾ (سورة النساء : ٥٨) .

يعتبر مبدأ الشورى من أهم ما جاءت به الدعوة الإسلامية من المبادئ من الناحية

السياسية ، ومن ناحية إبراز كرامة الإنسان كذلك . وقد اعتبرت أوروبا حق التمثيل البرلماني وحق البرلمان في مناقشة سياسة الدولة من أهم الانتصارات التي حققها « الديمقراطية » في عالم السياسة ، وقررت بها كرامة « المواطن » العادي . وقد بذلت أوروبا للوصول إلى هذا الحق جهوداً مضنية ودماء كثيرة ، بينما الإسلام - دين الله - يعطى هذه الحقوق للبشر ابتداءً قبل أن يطلبوها بأنفسهم . ودون أن يبذلوا من أجلها الجهد ولا الدماء !

كان رسول الله ﷺ يستشير المسلمين فيما لم ينزل فيه وحى ، ويأخذ بالأصوب من الآراء كما استشار يوم بدر في شأن المكان الذي ينزل فيه المسلمون . أو يأخذ برأى من الآراء ويتنزل الوحي بالتصحيح كما أخذ برأى أبى بكر في مسألة الأسرى يوم بدر فنزل الوحي مؤيداً رأى عمر الذى لم يأخذ به الرسول ﷺ . أو يأخذ برأى يتضح فيما بعد أن غيره كان الأصوب (وإن لم يتعرض الوحي لذلك) كما أخذ بمشورة الشبان يوم أحد فخرج من المدينة بجيشه ولم يمكث فيها في انتظار العدو كما أشار الشيوخ ، وترتب على ذلك تعرض جيش المسلمين لما تعرض له في وقعة أحد . ولهذا الشواهد الثلاثة دلالة على أصالة مبدأ الشورى في النظام الإسلامى وعمق موضعه من البناء السياسى للأمة الإسلامية .

١ - فقد كان الله سبحانه وتعالى قادراً على أن يوحى إلى رسوله ﷺ بالمكان الذى ينزل فيه يوم بدر ، والمعركة كلها من أولها إلى آخرها تمت بتدبير الله دون أن يكون للمسلمين إقدام عليها ولا استعداد لها : ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَآتَاكَ فَرِيْقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِيْنَ لَتَكْرِهُوْنَ ۝ يَجْعَلُ لَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كِتَابًا يُكَفِّرُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ۝ فَاذْ بَيْنَكُمُ اللّٰهُ اِحْدَى التَّائِيْنَتَيْنِ اَنْتُمْ اَلْكُفْرُ وَتَوَدُّوْنَ اَنْ غَيْرَ ذَاكِ الشُّكُوْكِ تَكُوْنُ لَكُمْ وَرِيْدُ اللّٰهِ اَنْ يُحْيِيَ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِيْنَ ۝ لِيُحْيِيَ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْغَافِلُوْنَ ﴾ (سورة الأنفال : ٥ - ٨) . ولكن الله سبحانه وتعالى ترك المسلمين يتشاورون في هذا الأمر تقريراً لمبدأ الشورى في مثل هذه الشئون .

٢ - أما فى قضية الأسرى فقد أخذ الرسول ﷺ برأى خطأه الوحى ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُفْضَنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَصَ الذَّنْبِ وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ۖ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٧٥ ۝ لَوْلَا كِتَابٌ نَزَّلَ اللَّهُ سَبْقَ لَسْتُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (سورة الأنفال : ٦٧ - ٦٨) .

والله يعلم سبحانه وتعالى فى سابق علمه أن هذا سيحدث ، ولكنه لم يمنع رسوله ﷺ من الأخذ بالرأى الخاطئ بوحي يوحى إليه قبل تنفيذ المشورة ، ولم يأمر كذلك بمنع مبدأ المشورة بعد ذلك الحادث ، لكى يتقرر فى حياة المسلمين أن المشورة عنصر أساسى فى البناء السياسى للأمة ، ولو جاءت أحياناً برأى خاطئ . فالبشر عرضة دائماً للخطأ ، ولا تقتصر الشورى على الصواب وحده بحيث تسحب من الأمة إذا أخطأت فى المشورة !

٣ - والدلالة فى وقعة أحد أوضح . فإن الأمر لم يقتصر على أن الشبان الذين ألحوا على الرسول ﷺ فى الخروج من المدينة قد خالفوا الرأى الأرجح ، الذى ارتآه الشيوخ من ذوى الخبرة ، بل وصل الأمر إلى مخالفة فريق من الجيش للأوامر الصريحة التى أصدرها القائد ﷺ لهم بعدم مغادرة الجبل بحال من الأحوال ولورأوا المسلمين تتخطفهم الطير ! وترتب على ذلك ما ترتب من هزيمة المسلمين وإصابة الرسول ﷺ بما أحزنه وشماته الكفار فيهم .. الخ .

وعلى الرغم من ذلك كله فقد نزل الأمر الربانى : ﴿ فَأَعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ (سورة آل عمران : ١٥٩) . وفى ذلك دلالة واضحة على أن الشورى لازمة وواجبة ، ولو أدت إلى نتائج غير مرغوبة فى بعض الأحيان ... والإسلام يقرر هذا الحق واضحاً وعميقاً ويؤكد عليه قبل أن تعرفه أوروبا بألف عام ! أما العدل فالإسلام قمة القمم فيه .. القمة التى لم يصل إليها أحد قط خارج الإسلام .

يقول الله للمسلمين وهو يريهم على العدل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ فِيهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَتَاؤُكُمْ عَلَىٰ آلَا تَسَدَّلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ عِقَابِهِ ۖ ﴾ (سورة المائدة : ٨) .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ ﴾ (سورة النساء : ١٣٥) .

ويتحول هذا التوجيه في حياة المسلمين إلى واقع .. وقد رأينا كيف تصرف عمر رضى الله عنه في حق القبلى الذى ضربه ابن عمرو بن العاص . ويطأ عبداً على رداء جبلة بن الأيهم فى أثناء الطواف فيلطم العبد على وجهه فيشتكى إلى عمر فيأمر عمر بالقصاص من جبلة ابن الأيهم ، فيفر ويرتد ولا يترشح عمر عن إقامة العدل . وتضيق درع من أمير المؤمنين على كرم الله وجهه فيجدها عند يهودى فيشكوه إلى قاضيه ، فيطلب القاضى البيعة من على فلا يملك على البيعة يقضى بالدرع لليهودى .

وهكذا يقرر الإسلام العدل فى عالم الواقع لا شعارات ترفع فى الهواء . فأين رأى الناس فى التاريخ كله مثل هذا العدل يطبق فى واقع الأرض ، على كثرة ما كتب وما قيل عن العدل فى التاريخ ؟!

فإذا أردت أن تعرف العدل فى حياة الأمم « الراقية » فاسأل عنه فى التمييز العنصرى فى أمريكا وجنوب أفريقيا . واسأل عنه فى الاستعمار حيثما كان على الأرض . . . واسأل عنه فى أى قضية يكون المسلمون طرفاً مستضعفاً فيها ، ثم انظر كيف تكون الأحكام ! ﴿ لَا يَرْفُثُونَ فِي مُؤْمِنِينَ إِلَّا وَلَا ذِنَةً وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَعَدُّونَ ﴾ (سورة التوبة : ١٠) .

١٠ - المظهر الحقيقى للإيمان بالرسالة المحمدية

ليس الإيمان بالتمنى ولا بالتحلى . ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العمل . لا يكفى أن ندعى الإيمان لنكون مؤمنين . ! إنما لا بد لذلك من واقع سلوكى يصدق هذه الدعوى ويحولها إلى حقيقة .

ولقد مر على المسلمين - فى انحرافهم التدريجى - وقت أصبح الدين فيه معنى قلبياً وجدانياً لا صلة له بالواقع ! ويقول الواحد منهم لا تحكم على بظاهر أعمالى فأنا مؤمن فى داخل قلبى وهذا يكفى ، والله هو المطلع على خفايا القلوب !

من أين جاءوا بهذا التصور المنحرف لحقيقة الدين ؟ إنه أشبه شىء بالمفهوم الكنسى الغربى : « الدين علاقة بين العبد والرب ومحله القلب » أى لا صلة له بواقع الحياة ، وإنما هو مشاعر وجدانية داخل القلب فحسب !

إنما جاء الإسلام ليحول الدين واقعاً يعاش ! لا كما كان العرب في الجاهلية يخالفون أمر الله في الصغيرة والكبيرة ثم يقولون : نحن على دين إبراهيم ! ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ لَأُولُوا الْإِسْلَامِ﴾ أى الاستسلام لله وإطاعة أوامره .

ولا يكون المسلمون مسلمين حقاً وهم يحكمون في حياتهم شريعة غير شريعة الله ، ويتخذون تصوراتهم وأفكارهم وأنظمتهم وتقاليدهم وأنماط سلوكهم من مصدر غير المصدر الربانى ، ويتخذون القلوة لهم رجالاً ونساء من الشرق أو الغرب لا يؤمنون بالله ولا برسوله . إنما الإيمان الحقيقى لا بد له من مظهر سلوكى واقعى ..

إن الإيمان يتلخص فى شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، أى المبلغ من عند الله بالحق .

وإن التصديق بما جاء به الرسول ﷺ من عند الله ، له مقتضى لا بد أن يرى فى واقع الحياة ، ومقتضاه هو السلوك الفردى والجماعى وفق شريعة الله .

فأما الفرد فينبغى أن يلتزم بما أمره به ربه وما نهاه عنه . وأما الجماعة فينبغى أن تحكم شريعة الله وتقوم على هذا الأمر بجهدا كله وترفض أن تحكم بغير ما أنزل الله .

وحين يلتزم الفرد والجماعة بهذا الأمر يصبح الفرد مسلماً والجماعة مسلمة فى عالم الواقع لا بالاسم ولا بالشعارات . ويصبح السلوك الواقعى فى المجتمع سلوكاً إسلامياً حقيقياً ، لا كالذى نشاهده اليوم فى أرجاء العالم الإسلامى : شيئاً أبعد ما يكون عن الإسلام . وإن قوماً ليدّعون حب الرسول ﷺ ويبكون من شدة الوجد حين يذكرون اسمه الكريم .. ثم لا يهمهم بعد ذلك أن يتحاكموا إلى شريعة غير شريعة الله ، ولا أن تجرى حياتهم كلها بعيداً عن منهج الله !

وما هكذا الإسلام ..

﴿لَيْسَ الْإِسْلَامُ كَمَا لَا آمَلُ أَنْ أَمِلَ الْكَتَبَ مَنْ يَمَلُّ نَوَاءَ الْيَزِيدِ وَلَا يَجِدُ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۝ وَمَنْ يَمَلْ مِنَ الصَّالِحِينَ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ (سورة النساء : ١٢٣ - ١٢٤) .

الباب الثالث المعجزة

المعجزة شيء خارق لما لوف البشر يأتي به النبي المرسل من عند الله ويتحدى الناس أن يأتوا بمثله فيعجزون عن ذلك ، فيكون هذا دليلاً على أنه مرسل من عند الله حقاً وليس قائماً بدعوى كاذبة من عند نفسه .

وهي على أنواع فقد تكون معجزة كونية حسية كانشقاق القمر ، وانفلاق البحر أمام موسى وقومه ، واليد والعصا .. الخ . وقد تكون علماً مثل إخبار النبي ﷺ عن الأنبياء المتقدمين بما يوافق ما عند أهل الكتاب من غير تعلم له منهم . وقد يكون إخباراً بالغيب كما خبر الرسول ﷺ عن زوال فارس والروم .

وقد كان كل نبي يأتي بمعجزة من جنس ما اشتهر به قومه ليكون التحدي في الصميم ، ويكون تأثيرها حاسماً في نفوس من تنزل عليهم . فقد كان المصريون بارعين في السحر ، وكان كهنة المعابد الفرعونية متخصصين فيه ، يستخدمونه ليبروا به أعين الناس ، ومن ثم يستعبدونهم للفرعون ، وللآلهة المزعومة التي يقوم أولئك الكهنة - أو السحرة - بطقوس العبادة لها ، وأخذ الأموال والقرايين من الناس باسمها .

لذلك أرسل الله موسى بمعجزة من جنس ما اشتهر به أولئك السحرة ، ليبطل سحرهم ويتبدى الفرق بين صنع الناس وصنع الله .

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يُفْرَعُونَ إِنِّي رَسُولٌ مِّنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَا أَقُولَ عَلَىٰ الْغَوَا إِلَّا أَنَّمَا قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِّنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ۝ قَالَ إِن كُنْتَ بِآيَةٍ فَإِن يَكُونُ مِنَ الصَّادِقِينَ ۝ فَأَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ ثَبَاطُثٌ مِّمَّا يَكْفُلُونَ ۝ وَزَرَعَ يَدُهُ فَإِذَا هِيَ سَيْحٌ مُّجْتَمِعٌ ۝ قَالَ آنَسَلَا مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ عَلَيْهِ ۝ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَ كُفْرَهُمْ مِنْ أَرْضِهِمْ قَالُوا أَنزِيلُهُمْ وَأَرْسِلْ فِي الْمَلَأَيْنِ خَشِيرَتَ ۝ يَا قَوْمِ كُلُّ سَيْرٍ عَلَيْهِ ۝ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ

لَسَا لِأَجْرٍ إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْفَالِغِينَ ﴿١٠٤﴾ قَالَ نَقَمْ فَلَا تَكُمُ لِنَ الْمُفْزِينَ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا يَمُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقَى فَأَمَّا أَنْ تَكُونَ تَحْنُ الْفَالِغِينَ ﴿١٠٦﴾ قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَنْفُسَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِخِصْفٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١٠٨﴾ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠٩﴾ فَغَلِبُوا هَٰؤُلَاءِ وَانْقَلَبُوا مَوْجِزِينَ ﴿١١٠﴾ وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَجِيدِينَ ﴿١١١﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١١٢﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿١١٣﴾ (سورة الأعراف : ١٠٤ - ١٢٢) .

لقد كان السحرة أدرى الناس بحقيقة السحر وحدوده ، لذلك كانوا هم أول من تبين الحقيقة ، وأن ما يصنعه موسى ليس سحراً ، إنما هو شيء فوق طاقة البشر ، وإن كان من جنس ما يقومون به هم من السحر . لذلك خروا ساجدين ، اعترافاً بالآية التي تثبت أن موسى رسول من عند الله .

كذلك أرسل عيسى عليه السلام في قوم برعوا في الطب ، وكانوا يأتون فيه بما يبرر أعين الناس . فناسب أن تكون المعجزة التي يرسل بها عيسى عليه السلام خارقة في نفس الميدان الذي برع فيه هؤلاء ليتبينوا هم أولاً ، ويتبين الناس من ورائهم ، أن المعجزة شيء آخر غير ما يصنعون هم . شيء يعجزون هم عنه رغم براعتهم فلا بد أن يكون آتياً من مصدر غير بشري ، أي من عند الله . لذلك كان من معجزاته معهم إبراء الأكهم والأبرص بغير دواء ولا علاج ، وفي التوراة اللحظة أمام ناظرهم ، وهو أمر يخالف صنع البشر . ثم زاد على ذلك في نفس الاتجاه معجزة إحياء الموتى . فهم قد يعالجون المرضى بأي وسيلة فيتحقق الشفاء على أيديهم . أما إحياء الموتى فلا يقدر عليه إلا الله ، أو إنسان مرسل من عند الله بالمعجزة .

ولقد أرسل الرسول ﷺ إلى العرب وهم أهل فصاحة وبيان ، يتباهون بفصاحتهم ، ويتباهون بها على الأمم حتى ليسمّون غيرهم عجماء ! أي أن لسانهم غير مبين فهم أشبه بالعجماء التي لا تنطق !

لذلك ناسب أن تكون معجزة الرسول ﷺ معجزة بيانية ، من نوع ما برعوا فيه ولكن على مستوى يدركون هم أنفسهم - وهم أهل الصنعة - أنها فوق مستوى البشر ، ويقرون بأنها لا بد أن تكون من عند الله .

إعجاز القرآن الكريم

حين أرسل الرسول ﷺ إلى مشركى العرب كذبوه بادىء ذى بدء ، وكان هذا هو المتوقع حسب سنة الله التى بينها من قبل . فإن الملأ فى كل جاهلية لا يمكن بحال من الأحوال أن يسلموا بلا إله إلا الله ، التى معناها ردّ ما فى أيديهم من السلطة المغتصبة التى يستكبرون بها على الناس إلى صاحبها الحقيقى وهو الله سبحانه وتعالى ، والرضى بمقام العبودية لله - لأنه لا إله غيره - والتخلى عن الربوبية الكاذبة التى يدعونها ، ويحلون ويحرمون بها من دون الله ، فى ظل الآلهة المزيفة التى يعبدونها من دون الله .

أما العبيد فهم كذلك لا يستجيبون بسهولة للإله إلا الله لأنها تخالف ما لفهم ، ولأنهم يخافون من السادة ، ولأنهم غارقون فى الشهوات !

وحين كذبوا الرسول ﷺ كان لا بد لهم أن يفسروا سر الفصاحة العالية التى ينطق بها ﷺ ويقول إنها وحى من عند الله ، وإلا فتن به الناس وخرجوا على طاعة الملأ - وهم قريش - وضاع بذلك سلطانهم الذى يستكبرون به على الناس ! لذلك قالوا إنه كاهن ! وقالوا إنه ساحر ! وقالوا إنه مجنون يأتيه رثى من الجن فيوحى إليه بما يقول !

ولقد كانوا يعرفون جيداً أنهم كاذبون ! والقصة التالية دليل على ذلك . فإن الوليد ابن المغيرة لما سمع القرآن من الرسول ﷺ قال لقومه بنى مخزوم : « والله لقد سمعت من محمد أنفاً كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن . وإن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق . وإنه يعلو ولا يُعلى . » فلما سمعه رجال قريش قالوا : صباً والله الوليد ، ولتصبأ قريش كلها . فقال أبو جهل : أنا

أَكْفِيكُمْوه . وقام إليه فكلّمه بما أحماه . فقام الوليد فأتاهم ، فقال ترعمون أن محمداً مجنون فهل رأيتموه يهوس ؟ وتقولون إنه كاهن فهل رأيتموه يتكهن ؟ وترعمون أنه شاعر فهل رأيتموه يتعاطى شعراً قط ؟ وترعمون أنه كذاب ، فهل جربتم عليه شيئاً من الكذب ؟ يسألهم في كل مرة فيقولون اللهم لا !

قالوا : فما نقول فيه ؟ ففكر الوليد قليلاً ثم قال : نقول إنه ساحر ! أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه ؟ !

وفيه يقول القرآن : ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۖ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ۖ وَبَنِينَ شُهُودًا ۖ وَمَهْدُتٌ لَهُ مَهْيَدًا ۖ ثُمَّ طَلَعُ أَنْزِيدَ ۖ كَلَّا إِنَّمَا كَانَ لَبِيبًا عَمِيدًا ۖ سَازِجُهُ مَصْرُوعًا ۖ إِنَّهُ مَكَرٌ وَفَدَرٌ ۖ فَفِيلٌ كَيْفَ قَدَرٌ ۖ ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَرٌ ۖ ثُمَّ نَظَرَ ۖ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۖ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ۖ فَفَالَ هَذَا أَلَا بُحْرًا يَوْمَهُ ۖ إِنَّ مَثَلًا ۖ قَوْلَ الْبَشَرِ ۖ سَاطِئِيوسَقَرٌ ۖ ﴾ (سورة المدثر : ١١ - ٢٦) .

ومع ذلك فقد نشروا هذه الأكذوبة في أرجاء الجزيرة العربية كلها لتكون سياجاً يمنع الناس من التأثر بالقرآن .. لذلك تحداهم الله سبحانه وتعالى أن يأتوا بمثل هذا القرآن : ﴿ قُلْ لَّيْسَ اجْتَمَعَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ بَعَثَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ۖ ﴾ (سورة الإسراء : ٨٨) . وظل هذا التحدى قائماً بينهم سنوات ، وهم يعجزون عنه ، ومع ذلك لا يسلمون ! لذلك زاد التحدى ! : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَأَدْعُوا مَن اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۖ ﴾ (سورة هود : ١٣) . نعم ! إن إنقاص القدر المطلوب هو زيادة في التحدى ، لأنهم إن عجزوا عن الأقل فهم حتماً سيعجزون عن الأكثر ! وقد عجزوا بالفعل ولكنهم ظلوا على عنادهم واستكبارهم ، فزادهم تحدياً .. ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورٍ مِثْلِهِ وَأَدْعُوا مَن اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۖ ﴾ (سورة يونس : ٣٨) .

وحين أصروا بعد ذلك قال لهم : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۖ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ۖ ﴾ (سورة البقرة : ٢٣ - ٢٤) .

وظل التحدى قائماً منذ ذلك الحين .. عجز عنه فصحاء العرب وبلغاؤهم وعجزت عنه البشرية كلها على مدى أربعة عشر قرناً من الزمان ، وإنهم لعاجزون حتى قيام الساعة ! فقد كان أولى الناس بالرد على التحدى أولئك الذين كانت صناعتهم الفصاحة والبلاغة يتيهون بها على الناس !

ولقد كانت معجزات الرسل كلهم من قبل معجزات حسية وكونية ، تتعلق بالسنن الجارية فى الكون وتحرقها . فمعجزة نوح طوفان مدمر يفرق المكذبين وينجو منه المؤمنون . ومعجزة هود ربح صرصر عاتية تهلك المكذبين ، وينجو منها المؤمنون . ومعجزة صالح - حين عقر قومه . الناقة المرسله آية لهم - زلزلة عظيمة قتلتهم فى ديارهم ونجا هو ومن معه من المؤمنين . ومعجزة لوط نار نزلت من السماء فأهلكت القوم الفاسقين ونجا منها لوط والذين آمنوا معه . وكذلك كانت معجزات موسى وعيسى عليهما السلام التى أشرنا إليها آنفاً ، أشياء خارقة للسنن الكونية .

أما معجزة الرسول ﷺ فهى معجزة عقلية معنوية جامعة وليست معجزة حسية ولا كونية ، وإن كان للرسول ﷺ معجزات أخرى حسية وكونية كالإسراء والمعراج وانشقاق القمر .. الخ . ولكن المعجزة الكبرى التى وقع بها التحدى والتى بقيت على الزمن وخطبت بها البشرية كلها هى القرآن .

ولقد اختص القرآن بالحفظ وعدم التحريف دون الكتب السابقة كلها لأن الله سبحانه وتعالى أراد ذلك وتكفل به ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (سورة الحجر: ٩) . ولذلك وكَّلَ به أمة قوية الحافظة بصورة غير معهودة بين الأمم . وأتاح للرسول ﷺ وللمؤمنين فترة من الاستقرار والتمكين فى الأرض تكفى لتدوين القرآن^(١) فضلاً عن حفظه فى الصدور ، بعد مراجعته على الرسول ﷺ ومراجعة الرسول له على جبريل عليه السلام . فتهيأت كل وسائل الحفظ الذى أراده الله ، وحال هذا الحفظ - بإرادة الله وتقديره - دون أى تحريف يقع فى القرآن على مر العصور .

(١) كان القرآن مدوناً على عهد الرسول ﷺ فى الصحف وعلى جنوع النخل ولكنه جمع على عهد أبى بكر رضى الله عنه .

نواحي الإعجاز في القرآن

القرآن معجز من كل نواحيه ..

ولئن كان الإعجاز اللغوي قد اشتهر خلال التاريخ بسبب تحدى فصحاء العرب وبلغائهم أن يأتوا ولو بسورة من مثل القرآن وعجزهم عن ذلك ، فإن الإعجاز الموضوعي في القرآن هو على ذات المستوى من الإعجاز كالإعجاز اللغوي سواء !

ولا نستطيع هنا التفصيل في الحديث عن إعجاز القرآن لأن ذلك مبحث متخصص .
ولكننا نقول كلمة موجزة عن الإعجاز اللغوي وعن بعض ألوان الإعجاز الموضوعي على سبيل المثال لا على سبيل الحصر ، فتكلم عن الإعجاز التشريعي ، والإعجاز العلمي .

أولاً - الإعجاز اللغوي

كان يكفينا في صدد الإعجاز اللغوي أن نقول إن فصحاء العرب قد عجزوا عن الإتيان بسورة من مثل القرآن . ولكننا نزيد الأمر توضيحاً فنقول إن هذا الإعجاز يبدو في جملة سمات يتميز بها الأسلوب القرآني يلحظها القارئ المتدبر لهذا القرآن . وقد أمرنا بالتدبر في كتاب الله ونحن نتلوه . وإليك بعض هذه السمات :

١ - للقرآن نظم متفرد . فلا هو شعر ولا هو نثر كثر البشر . ولكن فيه من حلاوة الجرس والتنغيم ما يفوق الشعر ، دون أن يتقيد بقيود الشعر الكثيرة التي تتحكم في المعنى في كثير من الأحيان . وفيه ما يشبه القوافي ولكنها ليست رتيبة ولا محددة كقوافي الشعر ولا قوافي السجع المألوف ، لذلك لا تملأ الأذن ، بل يقبل الإنسان دائماً على قراءة القرآن وسماعه بشغف متجدد .

وفضلاً عن ذلك فإن هذا التنعيم يتنوع بتنوع الموضوع المعروض والجو النفسى المصاحب له ، فيشتد مثلاً مع جو الوعيد والعذاب ويلطف ويلين مع جو الود والرحمة أو جو الدعاء والخشوع .

خذ مثلاً من جو الشدة والوعيد : ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۝ تُرْجِمُوهُ إِلَىٰ سَبْعِينَ شَرْعًا ذَرَّاهَا ۝ فَلْيَمْسِكُوا بِهِنَّ الشَّوَاطِئَ ۝ إِنَّهُنَّ أَكْبَرُ ۝ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ۝ وَلَا يَحْضُرُ عَلَىٰ طَعَامِ السَّكِينِ ۝ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَهُنَا حَبِيبٌ ۝ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غَنِينٍ ۝ لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِلُونَ ﴾ (سورة الحاقة : ٣٠ - ٣٧) .

ومثلاً من جو الدعاء : ﴿ كَيْبَصَ ۝ ذَكَرْ رَحِمَ رَبِّكَ عَبْدُكَ زَكَرِيَّا ۝ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ۝ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَقَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَا أُكُنْ بِدُعَايِكَ رَبِّ شَفِيًّا ۝ فَلَمَّ خِفْتُ الْمَوْلَىٰ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَائِزًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ۝ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾ (سورة مريم : ١ - ٦) .

٢ - للقرآن خاصية إحياء المشهد المعروض حتى لكان الإنسان يشاهده لأول مرة إن كان من مألوفات الحس . أو يراه مجسداً إن كان من المشاهد المتخيلة .

فن نماذج النوع الأول كل ما جاء فى القرآن من المشاهد الكونية كالشمس والقمر والنجوم والليل والنهار والشجر والأنهار .. إلخ فهى مشاهد قد ألفها الحس حتى كاد ينساها .. ولكن القرآن يحييها فكأنما يشاهدها الإنسان لأول مرة فينفعل بها وجدانه ، وتهتز لها مشاعره ، فيلتفت إلى القدرة المعجزة فى خلقها على هذه الصورة ، فيتصل قلبه بالخالق سبحانه ويسلم له ويؤمن بوحدانيته .

خذ مثلاً هذا النموذج : ﴿ أَلَمْ نَسْأَلِ آلَ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ رَسَاكِمَ ۖ فَجَمَعْنَا النُّفُوسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ۝ ثُمَّ قَفَّضْنَا إِلَيْنَا أَنْفُسَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ۖ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ لَكُلِّ لَبَاسًا وَالثَّوْبَ مُبَاسًا ۖ وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ۝ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۖ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ۝ لِنُخْشِيَ بِهِ بَلَدَكُمْ فَيَمِينًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْفُسَكُمْ وَأَنَا سَتِي ۖ كَثِيرًا ۖ ﴾ (سورة الفرقان : ٤٥ - ٤٩) .

ومن نماذج النوع الثانى قصص القدماء ومشاهد القيامة ، وهذه وتلك ليست حاضرة أمام الإنسان ، فهو يتتبعها بخياله لا بسمعه وبصره . ولكن القرآن يعرض القصة حية كأنما يشاهدها الإنسان أمامه فى هذه اللحظة ، فينفعل بأحداثها وعبرها ،

ويعرض مشاهد القيامة شاخصة متحركة كأنها حاضرة أمام الإنسان . بل يصل الإحياء فيها إلى درجة أن يعيشها الإنسان كأنها هي الحاضر الموجود ، والدنيا - التي هي حاضر في الحقيقة - كأنها ماضٍ سحيق قد انتهى وزال .

خذ مثلاً للقصة : ﴿ وَقَالَ أَزْكِبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ تَجْبِرُهَا وَمُنْهَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ⑩ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَبْنَئُ أَزْكِبْ مُعَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ⑪ قَالَ سَتَأْتِي إِلَى الْجِبَلِ نَعَصْنِي مِنَ السَّاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَجَعَهُ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ⑫ وَقِيلَ يَا رَجُلُ أَهْلِي وَمَائِكَ وَيَسْمَاءُ أَفْلَحِي وَغِيصَ الْمَاءُ وَفُصِّي الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ نَوْحٌ لِنُوحٍ أَتَى مِنَ الْغُورِ الظُّلُمَاتِ ⑬ ﴾ (سورة هود : ٤١ - ٤٤) .

ومثلاً لمشاهد القيامة : ﴿ إِنَّ الْتَقِينَ فِي جَنَّتٍ وَنَعِيمٍ ⑭ فَكِهِينَ بِمَاءٍ أَتَتْهُمُ رَبُّهُنَّ وَوَقَّتَهُنَّ رَبُّهُنَّ عَذَابَ الْجَحِيمِ ⑮ كَلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا عَاكِفِينَ فَعَسَلُونَ ⑯ مُتَكِبِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْضُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ⑰ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَمَّناهُمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ⑱ وَأَمَدَدْنَاهُمْ بِكَمَّةٍ وَاحِمَةٍ تَبَاشُّهُونَ ⑲ يَتَنَزَّعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوُ فِيهَا وَلَا نَذِيرٌ ⑳ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ زُجْجَارٌ مَلَأَةٌ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكُونٌ ㉑ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ㉒ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلَ فِئَةٍ مِّنْ مُّشْفِقِينَ ㉓ فَفَنَّا اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَأَوْقَيْنَا عَذَابَ السُّمُورِ ㉔ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ㉕ ﴾

(سورة الطور : ١٧ - ٢٨) .

٣ - يتميز القرآن بالتنوع في طريقة العرض ، بحيث لا يتكرر مشهدان في كل تفاصيلهما أبداً على كثرة ما يعرض في القرآن من المشاهد المتشابهة . فهي تتشابه ولكنها لا تتماثل أبداً ، لذلك تبدو في كل مرة كأنها جديدة ! وإن مشاهد القيامة والمشاهد الكونية لهما من أكثر الموضوعات تكراراً في القرآن ومع ذلك لا يوجد مشهد واحد مكرر بجميع تفصيلاته مرتين .. لا بد من التنوع في العرض ولو بتغيير لفظة واحدة ! وأحياناً يكون التنوع بتغيير حرف واحد يغير المعنى !

خذ مثلاً لذلك قوله تعالى في سورة البقرة (آية ٤٩) : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْعَذَابِ الَّذِي يُذَيِّمُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَفْتُونَ يَسَاءَ كَذِبٌ فِي ذَلِكَ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ وقوله تعالى من سورة إبراهيم (آية ٦) :

﴿يَنُومُونَ كَمَا سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَقْبِلُونَ نِسَاءَكُمْ فِي ذَلِكَ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ .

إن الفرق بين النصين حرف واحد ، هو زيادة الواو في الآية الثانية (ويذبحون) ولكن هذا الحرف الواحد يغير المعنى . فالآية الأولى تحدد العذاب بأنه هو تذبيح الأبناء واستحياء النساء . أما الآية الثانية فتدل على أن العذاب كان أنواعاً كثيرة يضاف إليها تذبيح الأبناء واستحياء النساء ! وهكذا يؤثر هذا الحرف الواحد في المعنى ، ويجعل الآيتين غير مكررتين كما يتبادر للذهن أول مرة !^(١) .

٤ - من الإعجاز كذلك أن كل سورة من سور القرآن لها جوها الخاص وشخصيتها المتميزة حتى وإن اشتركت في بعض الموضوعات مع غيرها من السور . وقد تكون السور المدنية مختلفة الموضوعات بطبيعتها ، لاحتواء كل منها على مجموعة من التشريعات والتوجيهات غير الأخرى ، ولاختلاف المناسبة التي نزلت فيها ، وإن كان فيها مع ذلك قدر من الموضوعات المشتركة . ولكن ظاهرة التميز والاختلاف قائمة بوضوح في السور المكية كذلك ، التي تشتمل كلها على موضوعات متقاربة ، إذ كلها دعوة إلى توحيد الخالق ونبذ الشرك ومناقشة لأوهام المشركين وتنديد بهم وإنذار لهم بالعذاب في جهنم ، مع تقديم البشرى للمؤمنين بالجنة . ومع ذلك فكل سورة تعرض هذه الموضوعات المتشابهة بطريقة تخالف الأخرى ، بحيث يظل قارئ القرآن في جو متجدد على الدوام ولو كان الموضوع هو ذات الموضوع !

تلك هي بعض سمات الإعجاز اللغوي في القرآن . ويستطيع الدارس أن يلحظها بنفسه في أثناء تلاوته للقرآن أو استماعه إليه ، كما يستطيع أن يجد غيرها كلما درب نفسه على النظر المتعمق في آيات الكتاب .

(١) بين الآيتين اختلاف آخر في الصياغة فإن سورة « البقرة » تبدأ بقوله تعالى « وإذ نجيناكم من آل فرعون .. » وآية سورة « إبراهيم » تبدأ بقوله تعالى « وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم إذ أنجاكم من آل فرعون .. » ولكننا اكتفينا بإبراز التغيير الذي أحدثه حرف الواو في المعنى .

ثانياً - الإعجاز الموضوعي

لا نستطيع فى الحقيقة أن نفصل بين اللفظ والمعنى . أو بين اللغة والموضوع الذى تعبر عنه . وقولنا إن القرآن معجز لغوياً ، معناه أنه معجز فى التعبير عن الموضوعات التى يشتمل عليها .

ولكننا نضيف إلى ذلك أن الموضوعات التى يشتمل عليها القرآن هى فى ذاتها معجزة ، بمعنى أن البشر لا يستطيعون أن يأتوا بمثلها ولو احتشدوا كلهم لهذا الأمر . فالإعجاز هنا مزدوج : إعجاز الموضوع فى ذاته ، وإعجاز التعبير عن الموضوع . وقد اخترنا موضوعين من الموضوعات القرآنية لنبرز من خلالها حقيقة الإعجاز الموضوعي فى القرآن . وإليك نبذة سريعة عن كل منهما :

١ - الإعجاز فى التشريع :

فى كلمة موجزة نستطيع أن نقول إن الإعجاز فى التشريع يتضح - بغير جهد - من مراجعة التشريعات التى صنعها البشر لأنفسهم خلال ما يقرب من ثلاثين قرناً من الزمان ، أى منذ وجدت كتابات تاريخية محفوظة يمكن الرجوع إليها إلى لحظتنا الراهنة . ولكننا نركز على التشريعات القائمة اليوم باعتبارها أنضج ما أخرجت البشرية من التشريعات فى تاريخها كله ، بالنسبة إلى الزيادة الهائلة الحاصلة فى معلومات البشر ، والتقدم العلمى والمادى الهائل ، والاستفادة من خبرات القرون السابقة جميعاً . فإذا نرى ؟ ينقسم العالم اليوم إلى معسكرين متميزين : المعسكر الرأسمالى فى الغرب والمعسكر الشيوعى فى الشرق ، ولكل منهما تشريع يخالف الآخر . فإذا نجد فى كل من المعسكرين ؟ ١ - نجد بادىء ذى بدء أن كلا المعسكرين قد ذكر العقيدة فى دستوره ، ولكن يا له من ذكر ! .. فأما الدستور السوفيتى فيقول : « لا إله ! الكون مادة ! » . وأما الدساتير الغربية فتتص على حرية التدين ، أى أن الدين مزاج شخصى لا دخل للدولة به ، فمن شاء أن يكفر فله الحرية الكاملة فى أن يفعل ذلك .

وبعبارة أخرى فإن كلا المعسكرين - على اختلاف فى الدرجة والأسلوب - قد

رفض أن يقرر عبودية الإنسان الخالصة لله .

وند يبدو لأول وهلة أن هذه مسألة لا علاقة لها بالتشريع ، لأنها مسألة عقيدية بحثة .. ولكن الواقع أن لها صلة أساسية بالتشريع . لأنه حين لا يكون الله هو المشرع ، لأنه ليس هو المعبود ، فلا بد من جهة ما تكون هي مصدر التشريع . وهذا هو الواقع الذى تنص عليه تلك الدساتير . فالدساتير الغربية تقول - نظرياً - إن الأمة هي مصدر التشريع ، والحقيقة أن الطبقة الرأسمالية هي التى تشرع ، والدستور السوفيتى يقول - نظرياً كذلك - إن دكتاتورية الطبقة العاملة هي مصدر التشريع . والحقيقة أن الحزب الشيوعى الحاكم هو الذى يشرع .

٢ - انطلاقاً من هذه النقطة فإن تشريعات الغرب الرأسمالى موضوعه لحساب الرأسمالية على حساب الطبقة العاملة ، وتشريعات الشيوعيين موضوعه لحساب السلطة الحاكمة على حساب الشعب . بمعنى أن العدالة منتفية فى كلا التشريعين .

٣ - نجد اختلافاً واضحاً - عند المعسكرين كليهما - فى توزيع الأهمية فى التشريع ، مع تميز كل منهما عن الآخر . ففي المعسكر الغربى نجد الاهتمام الأكبر فى الدساتير هو بالجانب السياسى من حياة الشعب ، وفى المعسكر الشيوعى نجد الاهتمام الأكبر هو بالجانب الاقتصادى . وهمل كلاهما التشريعات الروحية إهمالاً كاملاً ، كما أن الاهتمام ضعيف جداً بالتشريعات الخلقية والتشريعات المتعلقة بترابط الأسرة وحفظ كيانه وتماسكها .

٤ - نجد اختلافاً آخر فى تلك التشريعات يتعلق بقضية الفرد والمجتمع وعلاقة كل منهما بالآخر . فالدساتير الغربية تجعل الفرد كائناً مقدساً بصورة تؤدى إلى تفتيت المجتمع وتفكيكه ، خلقياً واجتماعياً وإنسانياً كذلك ، والدستور الشيوعى يجعل المجتمع هو الكيان المقدس (أى الدولة فى واقع الأمر) بالصورة التى تؤدى إلى سحق الفرد وإفناء شخصيته تماماً من الناحية السياسية والاجتماعية والإنسانية .

٥ - لا تنص تلك الدساتير (فى المعسكرين) على تشريعات دولية ثابتة ، لأن هذه أمور متروكة « للسياسة » أى لانتهاز الفرص ، ولا تعتمد على موثيق واجبة الاتباع .

٦ - العنصر الأخلاقي مفقود في معظم هذه الدساتير ، وضعيف الأثر جداً في سائرهما لأنها تشريعات قائمة على المصلحة وليست قائمة على اعتبار أخلاقي أو إنساني . والمصلحة هي دائماً مصلحة الطبقة التي تملك السلطة وان غطت ذلك بالمعسول من الألفاظ ، كالحرية ، والإخاء ، والمساواة ... الخ .

إذا جمعنا هذه الحقائق - وهي ليست كل شيء - بالنسبة للتشريعات البشرية في أنضج صورة لها في العصر الحاضر ، يتضح لنا - بغير جهد - إعجاز التشريع القرآني الذي هو في الواقع الوجه المقابل تماماً لتلك التشريعات الجاهلية !
(١) ينص القرآن بادئ ذي بدء ، على المصدر الذي يحق له وحده أن يضع التشريعات ، وهو الله سبحانه وتعالى^(١) ، وينص على أن هذا جزء أصيل من عقيدة لا إله إلا الله ، التي تجعل المسلمين مسلمين !

(٢) من هذه النقطة تأتي عدالة التشريع لأن الله سبحانه وتعالى لا مصلحة له في ظلم الناس ، ولا مصلحة له في محاباة طبقة على طبقة أو فرد معين على بقية الأفراد ، ولأن الله هو العليم بالخلق الذين خلقهم ، وبما يصلح لحياتهم ، ولأن الناس جميعاً - حكاماً ومحكومين - يخضعون لهذا التشريع بدرجة واحدة من العبودية لله والطاعة له .
(٣) من إعجاز التشريع القرآني شموله لجميع نواحي الحياة الإنسانية في وقت واحد ، والموازنة بينها بدرجة واحدة من الأهمية . فلا يوجد جانب من الحياة سياسياً كان أو اقتصادياً أو اجتماعياً أو خلقياً أو فكرياً أو روحياً أهمله التشريع القرآني ولم يضع له ما ينظمه ، ولا يوجد كذلك اهتمام بأحد الجوانب يطنى على بقية الجوانب ويضعفها أو يقتلها . وظاهرة الشمول والتوازن هذه من أبرز سمات التشريع الإسلامي كما أنها من أبرز سمات الإسلام في جميع الميادين .

(٤) نجد في التشريع الإسلامي موازنة كاملة بين الفرد والمجتمع ، فلكل منهما حقوق

(١) لا ينفي هذا مبدأ الاجتهاد فيما ليس فيه نص . فإنما يتم الاجتهاد بإذن من الله ، ومن هنا تنجى مشروعيته .

وعلى كل منهما واجبات ، وليس لأحدهما وجود مقدس على حساب الآخر ، فالقداسة فى الإسلام هى لله وحده ، رب الجميع ، والكل عبيد له على التساوى : الفرد والمجتمع على السواء .

(٥) يشتمل التشريع الإسلامى على تشريعات دولية ثابتة (هى علاقة المسلمين بغير المسلمين فى السلم والحرب) لأن هذا الأمر فى الإسلام ليس متروكاً لانتهاز الفرص : ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلَهُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ حِفْظًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ٩١ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَقَضَتْ عَهْدَهُمْ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ أَنْ كُنَّا تَخَذُوتُمْ أَيْمَانَكُمْ دَخَلَابَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَعٌ مِنْ أُمَّةٍ ﴾ (سورة النحل : ٩١ - ٩٢) .

(٦) العنصر الأخلاقى عنصر أصيل فى التشريع الإسلامى كله ، سواء كان تشريعاً سياسياً أو اقتصادياً أو اجتماعياً أو تنظيم أسرة أو تعامل أفراد بعضهم مع بعض ، لأن هذا التشريع إنما نزل لينشئ أمة على المستوى الإنسانى اللاتق بالإنسان . ولا يكون الإنسان إنساناً بغير الجانب الأخلاقى .

وتلك كلمة عامة مجملة بالنسبة للإعجاز فى التشريع القرآنى ، وإلا ففى كل تشريع على حدة مجال لبيان هذا الإعجاز لمن أراد التوسع والتخصص ، ولكننا نشير إشارة سريعة إلى تشريعين اثنين :

١ - التشريع الخاص بالحدود (حد القتل والسرقة والزنا) ويكفيها فيه أن نقول إنه لا يوجد مكان فى الأرض كلها يحس فيه الإنسان بالأمن على دمه وماله وعرضه إلا حيث تطبق الشريعة الربانية وتطبق الحدود . مع ملاحظة أخرى هى أن البلاد التى تطبق الحدود هى أقل البلاد جرائم وأقلها قضايا !

٢ - التشريع الخاص بالخمير . فقد عجزت كل بلاد العالم « المتحضر » عن وقف الإدمان على الخمير ، وما يترتب عليه من حوادث القتل والاغتصاب وحوادث الطريق . والمجتمع الإسلامى وحده فى التاريخ كله هو المجتمع الذى قلّ تعاطى الخمير فيه إلى أدنى حد ممكن . وذلك لأن التشريع الإسلامى عامة (بما فيه تشريع الخمير)

قائم على أساس العقيدة ، والتشريعات الجاهلية كلها قائمة على أساس السلطة أو النظام .
 وشتان بين طاعة أمر متصل بالعقيدة وأمر متصل بالسلطة أو النظام ! ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا
 إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ إِنَّمَا
 يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمْ الْمَدَوَّةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ
 أَنْتُمْ مُنْهَوُونَ ﴿ (سورة المائدة : ٩٠ - ٩١) .

ويمكن أن نضيف هنا - بصدد الإعجاز التشريعي - الدقة العجيبة في الصياغة
 بحيث أن الآية الواحدة المشتملة على ألفاظ معدودة تشتمل أحياناً على مجموعة كاملة
 من الأحكام كآية الدِّين مثلاً في آخر سورة البقرة (آية ٢٨٢) ، ولو أن هذا داخل
 في الإعجاز اللغوي ولكنه لصيق الصلة بالإعجاز التشريعي كذلك . فإن مثل هذه
 الأحكام في الصياغة البشرية تستغرق صفحات وصفحات ! ثم يظهر بعد المراجعة
 أن المشرع قد سها عن بعض الأحكام فيضيف إليها إضافات !

٢ - الإعجاز العلمي :

من إعجاز القرآن أنه تحدث عن أمور كونية وعلمية لم تكن معروفة عند العرب
 المخاطبين بهذا القرآن أول مرة ولا عند غيرهم من الأمم في ذلك الحين ، ولم يكشف
 عنها العلم إلا من وقت قريب . فوجودها في القرآن دليل قاطع على أنه من عند الله .
 وأنه لا يمكن أن يكون من قول البشر .

ونشير هنا إلى بعض الحقائق العلمية التي أشار القرآن إليها ، على سبيل المثال لا
 على سبيل الحصر :

- (١) أشار القرآن إلى الجبال بأنها رواسٍ تمنع الأرض أن تميد بالناس ﴿ خَلَقَ
 السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ زُيْنًا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ (سورة لقمان : ١٠) . وفي هذا القرن
 فقط عرف الناس عن طريق العلم أن الجبال تحفظ توازن الأرض وأنه حين يختل هذا
 التوازن لسبب من الأسباب تحدث الزلازل والبراكين التي تعيد إلى الأرض توازنها .
- (٢) أشار القرآن إلى تكوّن اللبن في بطون الأنعام من القرث (وهو الغذاء المنهضوم)

والدم : ﴿ وَإِذْ لَكُمْ فِي الْأَنْفَةِ لَعِينَةٌ تُفِيكُم مَتَا فِي بَطُونِهِ ، مِنْ بَيْنِ قَرْيَتَيْنِ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ فَتَبَوَّأْتُمْ مَوَاقِعَ مِنْهَا خَالِفِينَ سَابِغًا لِلشَّارِبِينَ ﴾ (سورة النحل ٦٦) وتلك حقيقة علمية لم يكشفها العلم إلا في هذا القرن .
(٣) أشار القرآن إلى ظاهرة « الأزواج » في بنية هذا الكون : ﴿ نَبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُثْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يُبْلُغُونَ ﴾ (سورة يس : ٣٦) .

. وفي السنوات الأخيرة فقط كشف العلم عن بعض ما لم يكن معلوماً وقت نزول القرآن وهو أن التفاعل الكيماوى هو فى الحقيقة عملية تزاوج بين المواد المتفاعلة ، ذلك أن ذرة كل مادة مكونة من نواة موجبة وعدد من الكهارب السالبة ، وان هذه الكهارب تدور فى حلقات حول النواة ولكن الحلقة الأخيرة منها لا تكون كاملة . ويتم التفاعل الكيماوى إذا وجد عنصر يكمل للعنصر الآخر حلقة الأخيرة . فلنفرض مثلاً أن عنصراً ما تدور كهاربه فى حلقات كل منها يتكون من تسع كهارب ، وأن الحلقة الأخيرة فيها كهربان اثنان ، فإذا تلاقى هذا العنصر مع عنصر آخر تتكون حلقة الأخيرة من سبع كهارب فإنه يتم التفاعل بينهما ، بإكمال الحلقة ذات الكهربين إلى تسع كهارب كبقية الحلقات !

(٤) أشار القرآن إلى مراحل نمو الجنين : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُكُلَةٍ مِنْ طِينٍ ۝ ثُمَّ بَعَثْنَاهُ نَفْثَةً فِي فَرْجٍ مَعِينٍ ۝ ثُمَّ خَلَقْنَا الطُّفْلَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أُنشَأْنَاهُ خَلْقًا مَثَرًا لَمْ يَمَسَّ رَبُّكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ (سورة المؤمنون : ١٢ - ١٤) . ولم يكشف التشريح وعلم الأجنة عن هذه المراحل إلا فى العصر الحديث .
(٥) أشار القرآن إلى تكون السحاب الركامى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُنْزِلُ سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَن يَشَاءُ يَكادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ﴾ (سورة النور : ٤٣) .

ولم يتمكن العلماء من معرفة هذه الحقيقة إلا بعد أن صعدوا بالطائرات فوق السحاب .
(٦) يقول القرآن : ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (سورة الرعد : ٣) .

وهناك تتابع ملحوظ فى الآفة . ولكن هذا التتابع لم تكن دلالة واضحة عند المخاطبين بهذا القرآن أول مرة . ورويداً رويداً كشف العلم عن جانب منه . فإن وجود الرواسى عامل هام فى تكوين السحب التى يتزل منها المطر فيكون الأنهار ، ذلك أن الرياح المحملة بالأبخرة تصطدم بها فتصعد إلى أعلى فتبرد فى طبقات الجو العليا ويتكاثف ما فيها من بخار الماء فيتزل فى صورة مطر . ومن المطر تتكون الأنهار . ثم إن هذه الأنهار هى التى تسقى الزرع فتتكون الثمار ذات الأزواج - إشارة إلى عملية التلقيح التى تحدث فى الزهرة فتتكون منها الثمرة - ولكن غشيان الليل النهار فى هذا التتابع « العلمى » الملحوظ فى الآفة لم يكن معلوماً دلالة (وربما لم تلحظه الأجيال السابقة) حتى كشف العلم حديثاً جداً عن صلة الظلام (الذى يجىء مع الليل) بتكون الثمرة ! وكان هذا نتيجة حادث عرضى لم يكن فى حساب أحد ! ذلك أن إحدى الشركات فى اليابان أقامت إعلاناً مضيئاً (بالنيون) فى مزرعة أرز يملكها أحد المزارعين ، فلاحظ المزارع أن المحصول قد ضعف فرفع قضية على الشركة المعلنه يطالبها بالتعويض . ويدعى عليها أن الإعلان الباهر الضوء هو السبب فى قلة المحصول ! وإذا كانت هذه مسألة تحتاج إلى تحقيق علمى ، فقد أحالت المحكمة القضية إلى العلماء ليدلوا فيها بمعلوماتهم . ومن ثم أجريت سلسلة من الأبحاث ثبت فى نهايتها أن الإعلان المضئ كان بالفعل سبباً فى قلة المحصول لأنه أقلق راحة النبات فى فترة الليل ، وهى التى تنمو فيها الزهرة ثم تثمر ! وكشف العلماء عن حقيقة أغرب من ذلك وهى أن كل نبات يحتاج إلى فترة معينة من الظلام تختلف عن غيره ! وأن توزيع النبات على سطح الأرض مرتبط بجملة عوامل من بينها طول فترة الليل فى كل منطقة من المناطق . فإذا كان النبات يحتاج إلى اثنتى عشرة ساعة من الظلام فى فترة التزهير فإنه لا ينمو فى منطقة ظلامها عشر ساعات فحسب ، أو إن نما فإنه يكون ضعيفاً ولا يعطى ثمرة ! وهكذا تبين أن إغشاء الليل النهار المذكور فى الآفة هو جزء من التتابع « العلمى » الملحوظ فى الآفة من أولها إلى آخرها مما لم يكن معروفاً خلال أكثر من ثلاثة عشر قرناً منذ نزول القرآن !

هذا وفي القرآن إشارات كونية وعلمية كثيرة ، منها ما كشف عنه العلم ومنها ما لم يكشف عنه حتى اليوم ، وهي تثبت بدليل قاطع أن هذا القرآن من عند الله العليم الحكيم ، وأنه ما كان يتأتى لبشر أن ينطق به من عند نفسه .

ولكننا لا نحتاج أن نجري وراء الكشوف العلمية لاهئين كما يصنع بعض الكتاب المحدثين لإثبات الإعجاز العلمي للقرآن ، فكلما كشف العلم كشفاً جديداً قالوا : لقد تحدث القرآن عنه من قبل !

لا نحتاج أن نصنع ذلك لأن هذه الكشوف ذاتها ما زالت في مرحلة الإثبات ، وكثير منها لم يصبح بعد حقيقة علمية نهائية . فلا يجوز أن نربط تفسيرنا للإشارات الكونية في القرآن بهذه النظريات المتقلبة التي قد يثبت خطأها في الغد . ولأن دلائل الإعجاز في القرآن من الكثرة والثبوت والقطع بحيث لا نحتاج إلى الركض وراء هذه النظريات كأننا ما زلنا في حاجة إلى مزيد من الإثبات ! ويكفيها جداً ما أثبتته العلم على أنه حقائق نهائية . بل إشارة واحدة تكفي لإثبات الإعجاز !

وضع العالم الإسلامى المعاصر

لا شك أن الوضع الحالى للعالم الإسلامى هو أسوأ وضع مرّ به فى التاريخ .
والمسلمون اليوم يبلغون أكثر من ثمانمائة مليون من البشر فى مختلف قارات
الأرض ، وهو أكبر تعداد لهم فى التاريخ ، ولكنهم غُثاء كغُثاء السيل كما تحدّث عنهم
الرسول ﷺ : (يُوشِكُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ الْأُمَمُ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا .
قالوا : أَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قال : بَلْ أَنْتُمْ كَثِيرٌ ، وَلَكِنْكُمْ غُثَاءُ كَغُثَاءِ
السَّيْلِ) .

لم يحدث فى تاريخ الأمة الإسلامية أن تكالب عليها أعداؤها بمثل الضراوة
التي يتكالبون بها عليها فى الوقت الحاضر : يذبحون ويقتلون فى كل مكان غلب عليه
أعداؤهم ، ويشردون من أرضهم وأموالهم ، ويسلط عليهم أعداء من داخلهم أو من
خارجهم يحكمونهم بغير ما أنزل الله ، لحساب أعدائهم الذين لا يؤمنون بلا إله
إلا الله ، وينتقص الوطن الإسلامى مرة بعد مرة بإقامة دول غير إسلامية ، فى أرضه .
وتفتت وحدته ، ثم تقسم الدولة منه إلى دويلات .

والفقر والجهل والمرض يتفشى فى العالم الإسلامى على الرغم من أن تربته تحوى
أكبر ثروات العالم على الإطلاق !

فالثروة المعدنية – والبترونية خاصة – والثروة الزراعية والثروة البشرية الموجودة
على الأرض الإسلامية وفى داخلها تعتبر أكبر من مثيلاتها عند أى دولة أخرى من دول العالم
كله . ومع ذلك فالمسلمون هم أفقر أهل الأرض وأكثرهم تأخرًا فى جميع الميادين .

كيف حدث ذلك وما أسبابه ؟

لقد وعد الله هذه الأمة بالاستخلاف والتمكين في الأرض : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴾ (سورة النور : ٥٥) .

فهل تخلى الله عن وعده لهذه الأمة ؟ حاشا لله أن يخلف وعده ولا يتحقق .

إنما الذي تغير هو وضع هذه الأمة من ربها ومن كتابها .

لقد اشترط الله عليهم شرطاً معيناً مقابل الاستخلاف والتمكين والتأمين : « يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا » ، فأين هم اليوم من هذا الشرط ؟ أين هم من الالتزام بأمر ربهم ونحكم شريعته ؟

لقد أعرضوا عن القرآن الكريم إعراضاً . فلا هو الذى يستمدون منه الشريعة التى تحكمهم ولا هو الذى يستمدون منه منهج تربيتهم ، ولا هو الذى يستمدون منه أخلاقهم وأفكارهم ومشاعرهم وأنماط سلوكهم .

وإنما وجهتهم فى ذلك كله هى أوربا ، شرقها أو غربها سواء .. فكيف يطمعون أن ينصرهم ربهم وهم معرضون عن كتابه ، وأن يمكن لهم فى الأرض وهم مخالفون لشرطه ؟ لقد ابتلى الله إبراهيم عليه السلام ذلك الابتلاء الضخم الذى أبلى فيه بلاء حسناً فكافأه الله على طاعته فقال له : ﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ . وعندئذ أدركته رغبته الفطرية فى أن يكون هذا العهد لذريته من بعده فيكونون أئمة للناس : ﴿ قَالَ وَمِمَّن ذُرِّيَّتِي ﴾ فإذا قال له الله سبحانه وتعالى فى لحظة التقريب والتكريم والإعزاز ؟ ﴿ قَالَ لَا يَبْتَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ (سورة البقرة : ١٢٤) .

فهذه سنة من سنن الله الجارية التى لا تتبدل ولا تحابى أحداً . إن الله لا يعطى الناس التمكين فى الأرض لأنهم من ذرية قوم مؤمنين بل لأنهم هم أنفسهم مؤمنون . فإذا تخلوا عن شرط الإيمان الصحيح فلا ينفعهم يومئذ أن يكونوا ذرية لقوم مؤمنين ! ولقد عرض القرآن علينا سيرة بنى إسرائيل بتفصيل كامل لكى لا نقع فيما وقعوا

فيه ، وحذرنا من ذلك تحذيراً : ﴿ سَلِّ بِحِثِّ اسْرَآءِيلَ كَهَآئِنَهُمْ قَوْلَ آيَةٍ يَنْتَهٍ وَمَنْ يُبْذِلْ نِيْمَةً اَللّٰهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَلَّاهُ فَلَنْ اَللّٰهُ سَكِيْذُ الْعِقَابِ ﴾ (سورة البقرة : ٢١١) .

فماذا كان من بنى اسرائيل ؟ ﴿ خُتِلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خِلَفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ مَاذَا الَّا ذَنْ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا قَاَنَ يَأْتِيهِمْ عَرَضٌ يَشْكُرُوْا بِاُخْذُوْهُ اَلَمْ يُوْخَذْ عَلَيْهِمْ فَيْشَقُ الْكِتَابِ اَنْ لَا يَقُولُوْا عَلَ اللّٰهِ اَلَا اَتَى وَدَّرَسُوْا مَا فِيْهِ وَالنَّارُ الْاٰخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِيْنَ يَنْقُوْنَ اَفَلَا تَعْقِلُوْنَ ﴾ (سورة الأعراف : ١٦٩) .

والأمة الإسلامية اليوم تقف فى الموقف الذى حذرها الله منه . يتركون كتابهم من أجل عرض الدنيا ويمنون أنفسهم بالأمانى الفارغة ويقولون سيغفر لنا ! لا جرم إذن أن يكونوا على حالهم الذى هم فيه ؟ !

مستقبل الأمة الإسلامية

وإنه لا خلاص للأمة الإسلامية مما هي فيه إلا بالرجوع إلى الله واتباع المنهج القرآنى .
لقد جرب العالم الإسلامى أن يقضى أثر الشرق أو الغرب من أجل الإصلاح ..
فكانت النتيجة نكسات تلو نكسات ! والاستضعاف مستمر فى الأرض ، والتقتيل
والتشريد قائم ، وتفتيت وحدة المسلمين يشتد يوماً بعد يوم .

ذلك أنهم ماضون فى مخالفة أمر الله والبعد عن كتابه الكريم .
وقد أخبرهم الله ورسوله أنهم لن يتصروا ولن ينصلح حالهم إلا بالتزام أوامر الله :
﴿ إِن تَصُرُّوا إِلَى نَصْرِكُمْ فَلَا يَنْصُرْكُمُ أَقْدَامُكُمْ ﴾ (سورة محمد : ٧) . ﴿ وَإِنْ تَوَلَّوْا يَكْسِبِ
قَوْمٌ غَيْرَكُمْ وَلَا يَكُونُوا أَمْتًا لَّكُمْ ﴾ (سورة محمد : ٣٨) . وقد آن للأمة الإسلامية أن تعرف
هذه الحقيقة وتعمل بمقتضاها .

آن لها أن تدرك أولاً أن ما بين يديها من كتاب الله وسنة رسوله خير مما يسعون
إلى اكتسابه من مناهج الجاهلية : ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ أَتَجْعَلُ لَكُمْ بَنِينَ وَبَنَاتٍ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ
يُوقِنُونَ ﴾ (سورة المائدة : ٥٠) .

وأن التشريع السماوى الذى يعرضون عنه هو أكمل تشريع وأفضل تشريع ، بينما
شرائع الجاهلية كلها نقص وانحراف واختلال .
وأن منهج التربية الإسلامية هو وحده الكفيل بإنشاء الإنسان الصالح ، وما سواه
كله انحراف .

وتدرك أن الله أخرج هذه الأمة لتكون متميزة بذاتها وتكون فى مركز القيادة
لكل البشرية ، لا ذليلاً لها غير متميز السبات : ﴿ وَلَقَدْ لَكُمُ بَعْلَانِ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ عِنْدَهُ
عَلَى النَّاسِ وَبِكُونِ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ (سورة البقرة : ١٤٣) .

وتدرك أخيراً أنه إن كان قد كتب عليها بسبب إهمالها وتفريطها أن تفقد قوتها العلمية والمادية ، وأن تتلذذ على أوربا في هذا المجال ، فليس معنى ذلك أن تنسلخ من دينها ، وتأخذ عن أوربا نظمها وأخلاقها وأفكارها وأنماط سلوكها ، فكل تلك انحرافات جاهلية حذرنا الله من الوقوع فيها ، وحذرنا من أن أعداءها سيحاولون جذبها إليها : ﴿ وَذُكِّرُوا كَثُورُونَ كَمَا كَفَرُوا فَكُونُوا سَوَاءً ﴾ (سورة النساء : ٨٩) . ﴿ وَذَتْ كَلَابَةَ مِنْ أَمَلِ الْكِتَابِ لَوْ يُبْلِغُونَكُمْ ﴾ (سورة آل عمران : ٦٩) .

ولقد تلذذت أوربا على المسلمين مرة من قبل فأخذت علومهم ومعارفهم لتقيم عليها نهضتها ، وأبت أن تأخذ منهم الإسلام وهو الحق ! أفلا يصنع المسلمون مثلهم فيتعلموا على علومهم ومعارفهم ويرفضوا أفكارهم ونظمهم وتقاليدهم وهي باطل ؟! وحين يستقيم أمر المسلمين على هذه الصورة فيومئذ فقط يتغير واقعهم . إذا أخذوا العلم من أى مكان فى الأرض يجدونه فيه ، وبقوا فى الوقت ذاته على دينهم وعلى التزامهم بأمر ربهم ، فسيكونون هم الستار لقدر الله ليحدث تغييراً هائلاً فى الأرض . ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ (سورة الرعد : ١١) .

فإذا غيّر المسلمون ما بأنفسهم ، وكفّوا عن إغراضهم عن كتاب الله ، وعادوا إلى الأخذ بمنهجهم القرآنى ، فسيعيد الله خيراتهم إليهم - بقدر منه ويجهد يبذلونه تنفيذاً لأمر ربهم - فيصبحون أغنى أمة فى الأرض : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَسَدَتْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ (سورة الأعراف : ٩٦) .

ويصبحون من ثم أقوى أمة فى الأرض ، فإن الغنى هو الذى ينشئ القوة المادية التى ينتصر بها المؤمنون .

ويصبحون أداة سلام فى العالم المهدد بالدمار .. لأن العالم - بمعسكريه - إنما يتنازع على امتلاكنا نحن ! امتلاك خيراتنا واستعبادنا وكسر شوكتنا . فيوم نكون نحن أصحاب ثرواتنا وملاك أنفسنا فسنكون القوة التى تمنع النزاع فى الأرض ، أو فى القليل يكون نزاعهم خارجاً عنا وليس واقعاً علينا كما هو اليوم .

الباب الرابع

الإيمان باليوم الآخر

الإيمان باليوم الآخر هو إيمان الغيب ، لأن أحداً لم يشهده بنفسه ، وإنما أخبرنا به الله سبحانه وتعالى عن طريق رسله الكرام . فسيله هو النقل الصحيح مما جاء في الكتاب والسنة .

ولكن الله الذى أخبرنا عن اليوم الآخر ، وأوجب علينا الإيمان به ، وجعله ركناً من أركان الإيمان ، قد أودع الفطرة البشرية القدرة على الإيمان بالغيب ، وميز الإنسان بهذا الأمر من بين ما ميزه به وكرمه وفضله .

إن الحيوان يعيش فى حدود ما تدركه الحواس فحسب ، وعالمه محصور فى ذلك النطاق . ولكن الله سبحانه وتعالى كرم الإنسان فلم يحصره فى حدود ما تدركه حواسه فحسب ، وإنما فسح آفاقه ووسعها . ومنحه تلك الخاصية ، وهى القدرة على الإيمان بما لا تدركه الحواس ، فأصبحت نفسه أرحب وأعمق من الحيوان وأصبحت آفاقه أوسع وأعلى .

ولكن الجاهليات دائماً تشوه صورة الإنسان وترده أسفل سافلين بعد أن يكون الله قد خلقه فى أحسن تقويم .

والجاهلية المعاصرة تريد أن ترد الإنسان حيواناً وتحصره فى نطاق ما تدركه حواسه فحسب ! تريد أن تنزع عنه تلك الكرامة التى كرمه بها الله ، وتلغى من عالم الغيب كله ، بحجة الواقعية والروح العلمية !! ومن ثم تنتكس بالإنسان روحياً ونفسياً وخلقياً ، وتفقده إنسانيته فى النهاية .

ولكن الله الذي كرم الإنسان وأراد له الرفعة جعل الإيمان بالغيب أبرز صفات المتقين ! ﴿ آتِ ۝ ذَٰلِكَ الْحِكْمُ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُؤْمِنُونَ بِالسَّاعَةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ (سورة البقرة : ١ - ٣) .

نعم ، إن الإيمان بالغيب أمر لازم من أجل الإيمان بالله واليوم الآخر ، ولذلك أبرزه القرآن في مقدمة صفات المؤمنين . ولكنه في ذات الوقت أبرز صفات الإنسان الذي تميزه عن الحيوان ، وتجعل عالمه غير عالم الحيوان .

والله الذي خلق الإنسان وجعله خليفة في الأرض وأقامه لعمارتها: ﴿ هُوَ أَنشَأَكُمُ فِي الْأَرْضِ وَأَنْتُمْ كَارِفُونَ ﴾ (سورة هود: ٦١) يعلم سبحانه وتعالى ما هي الأدوات اللازمة له لكي يقوم بدور الخلافة الراشدة في الأرض ويعمرها بمقتضى المنهج الصحيح . لذلك وهب له كل المتطلبات اللازمة للمهمة التي كلفه بها لكي يكون التكليف في حدود الطاقة : ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ تَفْسًا إِلَّا دُونَ مَقَا ﴾ (سورة البقرة : ٢٨٦) .

لقد وهب له طاقة جسدية على نسق غير النسق الحيواني . فالحيوان ذو قوة بدنية قد تفوق الإنسان عشرات المرات . ولكنه لا يستطيع أن يعمل بيديه ، ولا أن يقف قائماً ، مما يحد من استخدام هذه الطاقة . أما الإنسان - وإن كان أضعف بدنياً من كثير من أنواع الحيوان - فإنه أقدر على استخدام طاقته الجسدية في مجالات شتى لا يقدر عليها الحيوان . وذلك من متطلبات الخلافة وعمارة الأرض .

ووهب له طاقة عقلية ، تفكر وتدبر ، وتخطط وترسم ، وتستطيع أن تصل إلى كثير من الحقائق عن الكون الذي يعيش فيه الإنسان والسنن التي تجري فيه . وهذه الطاقة من أكبر الأدوات المعينة على عمارة الأرض واستخلاص الطاقات المسخرة للإنسان في السماوات والأرض من عند الله : ﴿ وَخَرَرْنَاكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا بِتَنَ ﴾ (سورة الجاثية : ١٣) .

ووهب له كذلك القدرة على الإيمان بالغيب ، وجعلها في مقدمة الأدوات التي تعين الإنسان على القيام بدوره في الأرض ، عن طريقها يؤمن بالله واليوم الآخر ، فتتصل روحه بخالقه ، ويستقيم على أمره ، فتصلح حياته في الدنيا كما تصلح حياته في الآخرة .

بعض الأدلة العقلية والنقلية على وجوب الإيمان باليوم الآخر

يقول الله تعالى : ﴿ أَفَسِبْنَةُ أَنْتُمْ أَنْتُمُ الْبَاطِلُونَ ﴾ (سورة المؤمنون : ١١٥) .

ويقول : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴾ (سورة ص : ٢٧-٢٨) .

ويقول : ﴿ أَرَحِبَ الَّذِينَ أَجْرَحُوا النَّبِيَّانِ أَنْ يَجْعَلَهُمَا كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَخْلُوقًا وَمَا لَهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ (سورة الجاثية : ٢١) .

ويقول : ﴿ أَتَجْعَلُ السَّالِفِينَ كَالْآخِرِينَ ﴾ (سورة القلم : ٣٥ - ٣٦) .
والمعنى الذى تشير إليه هذه الآيات وأمثالها : أن الخلق يصبح عبثاً وباطلاً إذا لم يكن هناك يوم آخر يبعث فيه الناس ويحاسبون على أعمالهم التى عملوها فى الحياة الدنيا . أى أن الحياة تصبح عبثاً ، وخلق السماوات والأرض يصبح باطلاً لو كانت الحياة الدنيا هى نهاية المطاف .

ونستطيع أن ندرك بعقولنا هذا المعنى الذى تشير إليه الآيات .
فنحن نشاهد فى حياتنا الدنيا ظالمين ظلوا ظالمين حتى لحظة الموت ، ومظلومين ظلوا مظلومين إلى آخر حياتهم . أفإن كانت الحياة الدنيا هى نهاية المطاف يكون هذا عدلاً وحكمة ؟ وأين هو العدل والظالم لم يُقتص منه والمظلوم لم يقتص له ؟ وأين هى الحكمة فى خلق حياة تجرى أحداثها على غير مقتضى العدل ، ثم تنتهى على هذه الصورة ؟ .
ونشاهد فى الأرض كفاراً ومؤمنين . تختلف معتقداتهم وسلوكهم ويختلف موقفهم

من الخالق سبحانه . فريق استكبر وأبى أن يعبد الخالق ويطيعه ، وفريق أسلم وجهه لله وهو محسن . وتسير الحياة بأحداثها ، حتى تنتهى بموت أولئك وهؤلاء فهل يستوى المحسن والمسيء ؟ فأما فى الحياة الدنيا فقد نجد الكفار ممكّنين فى الأرض ، منتفشين بالباطل ، والمؤمنين مستضعفين مشردين مطاردين ، ولو لفترة من الوقت هى فترة الابتلاء التى قدرها الله لكل دعوة وجعلها من سنته فى الأرض : ﴿ أَحِبَّ النَّاسَ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ① وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِ فَلَيْسَ بَالِغِ أَلَمٍ لِمَنِ اللَّهُ الْأَلِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَذِبِينَ ﴾ (سورة العنكبوت: ٢- ٣). ويموت ناس وتنتهى حياتهم فى فترة الابتلاء تلك، والكفر مستعلٍ فى الأرض والإيمان مغلوب على أمره لم يمكّن بعد . فهل تستقيم الأمور على هذه الصورة مع الحق والعدل ؟

أىكون من الحق أن يكون أصحاب الحق مشردين فى الأرض مستضعفين ، وأصحاب الباطل ممكّنين منعمين ؟

أىكون من الحق أن الذين أجابوا داعى الله فآمنوا به واستقاموا على طريقه ، يعيشون ويموتون فى الهوان والذل كأنهم هم المفضوب عليهم ، وأن الذين لم يستجيبوا لله ولم يؤمنوا به يعيشون ويموتون هائثين منعمين كأنهم هم الذين نالوا رضوان الله ؟ ! ثم أىكون من العدل أن الذين استقاموا يعاقبون ، والذين ضلوا وغوا يكافأون ؟ ! إنه هكذا تكون الصورة لو انتهت الأمور بالحياة الدنيا ولم يكن هناك بعث ولا حساب فى الآخرة ولا ثواب ولا عقاب .

ونشاهد عصاة لا يقفون عند حدود الله التى أمر بها ، وينتهبون اللذات فى الحياة الدنيا ، وآخرين التزموا بأمر الله فلم يأخذوا من المتاع إلا ما أحلّ الله ، وهو - فى الدنيا - قدر أقل دون شك مما يستمتع به العصاة الغارقون فى الملذات . أفإن كانت الحياة الدنيا هى نهاية هؤلاء وهؤلاء يكون الأمر حقاً وعدلاً ؟ ! هل تستقيم الأمور بأن ينهب من أراد نهبته ويمضى بها بغير حساب ، بينما الملتزم يحرم نفسه من المتاع الزائد ثم يمضى بحرمانه بغير ثواب ؟ !

كلا بغير شك !

ولا يجوز ذلك في حق الله .

لا يجوز في حق عدالته وحكمته سبحانه أن تكون الأمور على هذه الصورة . بل تكون الحياة عبثاً لا معنى له ولا حكمة فيه .

من أجل ذلك نجد القرآن يربط في كثير من الآيات بين خلق السماوات والأرض بالحق ، وبين بعث الناس لسؤالهم مما عملوا في الحياة الدنيا ومجازاتهم بأعمالهم إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ (سورة التغابن : ٣) .

﴿ وَأَسْتَفْتُوا وَحَافَ كُلَّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ۝ مِّنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُنْقَىٰ مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ ۝ يَخْرُجُ مِنْهَا نَافُثٌ وَلَا يَكَادُ بُيُوتُهُ يَأْتِيهِ الْغُوثُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُمْ بِمُعْتِدِينَ ۝ وَرِثَاجُهُ عَذَابٌ غَلِيظٌ ۝ تَتْلُو الذِّكْرَ كَثُرُوا ۝ بَرْنِيَّةٌ أَغْمَلُهُمْ كَرَمًا إِشْدَدَ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَلُ الْبَعِيدُ ۝ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ﴾ (سورة إبراهيم : ١٥ - ١٩) .

والمؤمنون يعلمون أن الله خلق السماوات والأرض بالحق ولم يخلقهما باطلاً ، فيدركون أنه لا بد من بعث وحساب فيدعون الله أن ينجبهم النار :

﴿ إِنَّكَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْيَالِكِ الْبَلِّ وَالنَّكَارِ لَآئِمٌ ۖ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ۝ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا نَّجْنُكَ قِيَمًا عَذَابُ النَّكَارِ ﴾ (سورة آل عمران : ١٩٠ - ١٩١) .

وهكذا يؤكد القرآن أنه لو لم يكن هناك بعث وحساب فإن هذا يكون عبثاً لا يقتصر على حياة الإنسان وحده ، بل يمتد كذلك إلى خلق السماوات والأرض فيصبح كله عبثاً وباطلاً وقائماً على غير الحق !

ولقد أخبرنا الله سبحانه وتعالى أنه خلق الموت والحياة ليبولونا أينما أحسن عملاً :

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي يَمْلِكُ الْمُلْكَ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴾ (سورة الملك : ١ - ٢) .

وأخبرنا كذلك أنه جعل ما على الأرض زينة لها لنفس الغاية : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّمَن يَنْتَبِهُونَ ۚ إِنَّهُمْ أَكْثَرُ غَمَلًا ﴾ (سورة الكهف : ٧) .

فإذا كان الموت هو النهاية التي تنتهى عندها الأمور جميعاً فأين حكمة خلق الموت والحياة ؟ وكيف يتميز الذين أحسنوا العمل من الذين أساءوه ؟ وأين الحكمة فى جعل ما على الأرض زينة لها ؟

إن نقطة الابتلاء فى حياة الإنسان هى هذه الزينة الموجودة فى الأرض : هل يتناول منها الإنسان القدر الذى أباحه الله وأحله ؟ أم ينهب ما حرمه الله ولا يلتزم بطاعته ؟ فإذا كانت نهاية هذا وذاك متساويتين بالموت فقد انضت الحكمة ولم يعد هناك معنى للابتلاء بالزينة ما دام الأخذ منها بالحلال كالأخذ بالحرام سواء ! والمفتون بها عن طاعة الله كالذى نجا من الفتنة واستقام !

لذلك يحمى هذا السؤال الإنكارى : « أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ؟ » « أَفَنَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فى الأرض ؟ أم نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ؟ » .
حاشا لله أن يكون ذلك !

إنما ذلك ظن الذين كفروا ! هم الذين يظنون أن الأمر سواء ، وأنه لا حساب ولا عقاب ! فكأنهم بذلك يقولون إن الله خلق السماوات والأرض باطلاً : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴾ أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فى الأرض ؟ (سورة ص : ٢٧ - ٢٨) .

ولقد نزلت هذه الآية فى كفار قريش الذين كانوا ينكرون البعث . ولكن العجيب أن الجاهلية المعاصرة تنتج نماذج تنطبق عليها الآية كأنما هى مفصلة على قدمها تماماً ! فهذا « سارتر » الكاتب الوجودى الملحد ، يقول إن الوجود كله عبث وكله باطل ! وإن حياة الإنسان لا معنى لها ولا حكمة فيها ! « ذلك ظنُّ الذين كفروا ! فويلٌ للذين كفروا من النار ! » .

إنه حين لا يؤمن الإنسان بالله واليوم الآخر فهكنا تصبح صورة الحياة فى حسه ،

وهكذا تصبح صورة الكون كله : السماء والأرض وما بينهما ، بما فيها حياة الإنسان .
ولا تستقيم الصورة ولا يتبين الحق ، حتى توضع التكملة الطبيعية للحياة الدنيا ،
وهى اليوم الآخر الذى يحاسب الناس فيه فيكرمون أو يهانون . عندئذ يتضح الحق
فى خلق السماوات والأرض . والحق فى خلق الإنسان وحياته على الأرض . وتبين
الحكمة فى خلق الحياة والموت ، والحكمة فى جعل ما على الأرض زينة لها .

ولكن الجاهلية تقطع الصورة فتشوهها ، ثم تقول إن الحياة لا معنى لها ولا حكمة فيها !
ولقد كان الدهريون من قبل على نفس المستوى من حماقة التى عليها كفار اليوم
وفلاسفتهم « الملحدون » ! ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ﴾ (سورة
الجاثية : ٢٤) . وسواء قالوا ذلك استكثاراً على الله أن يقدر على بعث الموتى ، أو نفياً
لوجود الله البتة فقد عجزت بصيرتهم المطموسة عن إدراك الحق الذى خلقت به السماوات
والأرض ، والحياة والموت ، فعاشوا كالسائمة ، لا يدركون لحياتهم معنى ولا
لوجودهم هدفاً : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَسْتَمْتُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾
(سورة محمد : ١٢) .

آثار الإيمان باليوم الآخر فى سلوك الفرد والجماعة

للإيمان باليوم الآخر أهمية بالغة فى حياة الإنسان وآثار عميقة . ونستطيع أن نفهم على ضوء هذه الحقيقة كيف أن القرآن ربط فى كثير من المواقع بين الإيمان بالله والإيمان باليوم الآخر ، فيجئان متتالين ومترا بطين سواء فى الإثبات أو النفى .

﴿ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَهُمْ يُؤْمِنُونَ بِالْغُفْرِ وَبِالنَّكَاحِ ﴾

(سورة آل عمران : ١١٤) .

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ (سورة البقرة : ٨) .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَطْلُوا صَدَقَتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُبْغِي مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ

الْآخِرِ ﴾ (سورة البقرة : ٢٦٤) .

﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآثِهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ

مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ (سورة التوبة : ٢٩) .

﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ فَقَلَّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَآلَتِهِ

وَالْحَيَّ وَالْيَقِينَ ﴾ (سورة البقرة : ١٧٧) .

وهكذا يرتبط الإيمان باليوم الآخر بالإيمان بالله مباشرة كأنه مكمل له .

ونستطيع أن ندرك أهمية الإيمان باليوم الآخر فى سلوك الفرد وسلوك الجماعة إذا عرفنا

نفسية الشخص الذى لا يؤمن بالآخرة وطبيعة تصوره للحياة الدنيا وطريقة شعوره بها .

إن الحياة الدنيا فى حسه هى الأولى والأخيرة . والعمر فرصة واحدة إن لم تنهب

فسوف تضيع ! وإذ كان العمر - مهما طال - محدوداً بسنوات ولذائذ الحس كثيرة

ومتنوعة فالبدار البدار !

هكذا تكون القضية فى حس الذى لا يؤمن باليوم الآخر . فرصة وحيدة محدودة
ينبغى أن تنتهز ويؤخذ فيها أكبر قدر من الملمات .. ولذلك تتكالب الجاهليات دائماً
على متاع الأرض وتتصارع عليه ، وتنحصر اهتماماتها فى حدود الحياة الدنيا .
والجاهلية المعاصرة نموذج لما نقول ..

فما الذى يشغل الأفراد فيها ويشغل الجماعات ؟

أما الفرد فهو يعمل وينتج . ولكن لأى هدف ؟ ليحصل على أكبر قدر يستطيع
الحصول عليه من المال ، ثم ينفق هذا المال فى الحصول على أكبر قدر من المتاع ،
يستوى فى حسه أن يكون من المتاع الحلال أو الحرام ! بل إن فكرة الحرام لا تخطر
على باله على سبيل الجدل ! فالأصل عنده هو الاستمتاع ، قبل أن تفوت الفرصة التى إن
مضت لا تعود ! فما معنى الحرام فى حسه ؟ ! إنه ليس إلا قيداً على المتاع ! وهو قيد
- فى نظره - غير معقول ولا موجب له ، لأنه يضيق الفرص المحدودة التى لن تعود !
لذلك أيضاً فإن قيد الأخلاق وقيد الضمير وقيد المشاعر الإنسانية كلها قيود غير
معقولة ، كقيد الحرام سواء بسواء ! ومن ثم تفسد الأخلاق فى الجاهلية ، ويضعف
وازع الضمير وتحل المصلحة محله . أما المشاعر الإنسانية والقيم العليا فتعتبر سخفاً
وسذاجة لا تليق بإنسان عاقل ، إذا هى فوتت عليه فرصة للمتاع !
أما الأمم والجماعات فقصتها لا تختلف كثير أعن قصة الفرد .

فلأى شىء تعمل ولأى شىء تعيش حين لا تؤمن باليوم الآخر ؟

كل جماعة همها الحصول على أكبر قدر من المتاع (أو المزايا بتعبيرهم !) على
حساب جماعة أخرى ! وكل أمة همها أن تتغلب على أمة أخرى لتسلبها حظها من المتاع
وتأخذ لنفسها فتناً من ذلك الصراعات والحروب .

وأين القيم العليا ؟ وأين حقوق الإنسان ؟ وأين الضمير العالمى ؟ وأين العهود

والمواثيق ؟ وأين التعاون فى سبيل الخير ؟ وأين العدل ؟ وأين الإخاء والمساواة ؟

إنها كلها - فى الجاهلية - ألفاظ ! يلوكها الناس نفاقاً ورياء ، فإذا خلوا إلى

شياطينهم قالوا إنا معكم ، إنا نحن مستهزئون ! لأنها كلها معوقات عن المتاع في
الفرصة الوحيدة المتاحة للمتاع !

ويتقاتل الناس ، ويموت منهم من يموت . ولكنهم يموتون وهم يقاتلون في سبيل هذا
المتاع الأرضي ، فإذا قيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل المستضعفين من الرجال والنساء
والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً ، أو في سبيل الحق المجرد الذي لا
مصلحة لهم فيه مباشرة ، هزوا أكتافهم وأعرضوا عنك ، إن لم يهبوا لمقاتلتك أنت ،
لأنك تدعوهم إلى شيء يفسد عليهم مصالح الدنيا ومتاع الأرض !

ومن ثم تهبط القيم في الجاهليات وتنحصر الآفاق ، كما يضعف الضمير وتفسد الأخلاق .
إنه لا شيء يرفع الإنسان من ثقله الأرض - بعد الإيمان بالله - إلا الإيمان باليوم
الآخر . الإيمان بأن كل متاع زائد يتنازل عنه الإنسان في الحياة الدنيا - طاعة لله والتزاماً
بأمره - يعوض عنه في الآخرة متاعاً أشف وأعلى وأخلد وأبقى . والإيمان في ذات
الوقت بأن كل خروج على أمر الله في الحياة الدنيا - من أجل متاع الأرض الزائل -
سيجازى عليه في الآخرة عذاباً ليس في طوق البشر احتماله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا
سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلًّا نَبُخَتْ جُلُودُهُمْ بِذُنُوبِهِمْ يُجْرُونَ ﴾ [سورة النساء : ٥٦] .

وحين يؤمن الإنسان باليوم الآخر إيمان اليقين تحسم القضية في حسه حسماً
كاملاً وتستقر الأمور . فكل نعم في الدنيا لا يقاس إلى نعم الآخرة . ولا يساوى من جهة
أخرى غمسة واحدة من أجله في العذاب . وكل عذاب في الدنيا - في سبيل الله -
لا يقاس إلى عذاب الآخرة ولا يوازي من جهة أخرى غمسة واحدة من أجله في النعم .
وعندئذ يقدر الإنسان على موازنة ثقله الأرض ، ويقدر على الارتفاع إلى القيم العليا
والأخلاق الفاضلة والمثل الرفيعة ، لأنه يوقن بالجزاء الذي سوف يناله على ذلك كله :
﴿ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ
مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ۝ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا

عَذَابَ النَّارِ ۝ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْتَضْفِينَ بِالْأَنْحَارِ ﴿ (سورة
 آل عمران : ١٥ - ١٧) . ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ
 وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ
 سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَجَنَّتِ نَجْمِيهَا
 الْأَنْهَارِ خَلِيدِينَ فِيهَا وَمَسْجِدَ طَيْبَةٍ فِي بَجَنَّتِ عَدْنٍ وَرِضْوَنٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ
 الْعَظِيمُ ﴿ (سورة التوبة : ٧١ - ٧٢) .

وعندئذ يوجد الفرد الصالح والجماعة الصالحة التي تتعاون على البر والتقوى
 ولا تتعاون على الإثم والعدوان . وتوجد أمة تستحق هذا الوصف : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ
 أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ (سورة آل عمران : ١١٠) .
 أمة تفي بهذا الأمر : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ نُهْدَاءً بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ
 شَتَاؤُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُمُ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (سورة
 المائدة : ٨) . وتوفي هذا الطلب : ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ
 الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمُ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا
 مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا ﴾ (سورة النساء : ٧٥) . وتتوفر فيهم هذه
 الصفات : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝ ١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝ ٢ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝ ٣
 وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ۝ ٤ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝ ٥ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ
 فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝ ٦ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ۝ ٧ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ
 رَاعُونَ ۝ ٨ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝ ٩ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ۝ ١٠ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرَّةَ وَسَ هُمْ فِيهَا
 خَالِدُونَ ﴾ (سورة المؤمنون : ١ - ١١) .

الحقائق التي يشملها الإيمان باليوم الآخر

يشتمل الإيمان باليوم الآخر على مجموعة من الحقائق وردت في الكتاب والسنة فلزم الإيمان بها جميعاً . وهى : فتنه القبر وعذابه ونعيمه ، والساعة وأماراتها والبعث ، والحشر . والحساب وما يتبعه من ثواب وعقاب . والصراط . والجنة والنار .

١ - فتنه القبر وعذابه ونعيمه

كان الرسول ﷺ يتعوذ في دعائه من عذاب القبر (وهو الذى عُفِرَ له ما تقدم من ذنبه وما تأخر !) فيقول : (وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ) .

ويقول الرسول ﷺ : (الْقُبُورُ رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ أَوْ حُفْرَةٌ مِنْ حُفْرِ النَّارِ) (أخرجه الترمذى عن أبى سعيد الخدرى) .

ويقول القرآن عن آل فرعون : ﴿ وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سَوَاءُ الْعَذَابِ ۚ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ۚ ﴾ (سورة غافر : ٤٥ - ٤٦) .

ويقول عن قوم نوح : ﴿ يَمَّا خَلَّيْتَهُمْ بِغَرْتِهِمْ إِذْ دَخَلُوا نَارًا فَمِنْ بَعْدِهَا فَسَعَوْا فِي الْحَبْلِ أَلَمَبًا ۚ ﴾ (سورة نوح : ٢٥) .

ولا نستطيع أن نعلم على وجه اليقين كيف تكون صفة النعيم والعذاب فى القبر ، فذلك غيب لم يحدثنا الله ورسوله عن تفصيلاته ، ولا مصدر لنا لمعرفة إلا ما يحدثنا به الله ورسوله . وكل ما أخبرنا به عن الرسول ﷺ أن الميت حين يدفن فى قبره يدخل عليه ملكان فيقيميانه فيقعدانه ويسألانه عن أعماله كلها فى الحياة الدنيا فلا يجيب إلا بالحق . ثم إنه يجد قبره روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار حسب أعماله

التي سلفت منه . وذلك كله قبل يوم الحساب الأكبر وما يتبعه من ثواب وعقاب .
ومن ثم فإن ما درج على ألسنة الناس من الحديث عن « راحة الموت » ليس حقاً
إلا بالنسبة للمؤمن الذي عمل صالحاً ! أما المسيء فلن يجد في موته ولا في قبره راحة .
إنما يجد العذاب يتسلمه من أول لحظة .. ثم عذاب الآخرة أشد .

عن زيد بن ثابت رضى الله عنه قال : (قال رسول الله ﷺ : إِنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ تُبْتَلَى
فِي قُبُورِهَا . فَلَوْلَا أَلَا تَدَافِنُوا لِدَعْوَتِ اللَّهِ أَنْ يُسْمِعَكُمْ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ الَّذِي أَسْمَعُ)
ثم قال : (تَعَوَّذُوا مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ) قالوا : (نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ) . رواه مسلم .

* * *

٢ - الساعة وأماراتها

من مقتضيات الإيمان باليوم الآخر الإيمان بالساعة . وهي الساعة التي تنتهى فيها
الحياة الدنيا بجميع أوضاعها ، وتبدأ القيامة بكل أهوالها . ويصف القرآن الساعة
وأحداثها وصفاً يهز النفس من أقطارها ، ويبعث الرهبة في أعماقها .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ① يَوْمَ تَرْوُهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ
عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ
عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ② ﴾ (سورة الحج : ١ - ٢) .

﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ① تَتْبِعُهَا الِّرَّادِفَةُ ② قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ③ أَبْصَارُ خَائِفَةٌ ④ يَقُولُونَ أَيْنَا
لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَاوِرِ ⑤ ﴾ (سورة النازعات : ٦ - ١٠) .

﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ① فَلَا النَّجْمَ أَنْكَدَرَتْ ② فَلَا الْجِبَالُ سَوِيَتْ ③ فَلَا أَلْوَسَارُ عُطِلَتْ ④
فَلَا أَلْوَحُشٌ حُشِرَتْ ⑤ وَلَا أَلْبَحَارُ مُجْعِرَتْ ⑥ فَلَا النُّفُوسُ رُويَتْ ⑦ فَلَا أَلْمَوْدُودَةُ سُيِّمَتْ ⑧ بِأَيِّ ذَنْبٍ
قِيلَتْ ⑨ فَلَا الضُّفُفُ نُشِرَتْ ⑩ وَلَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ⑪ وَلَا الْجِبَةُ سُيِّرَتْ ⑫ فَلَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ⑬ عَلَيْكَ نَفْسٌ مِمَّا
أَخْضَرْتَ ⑭ ﴾ (سورة التكويد : ١ - ١٤) .

﴿ إِذَا النُّجُومُ انْفَطَرَتْ ① فَلَا الْكُوكِبُ أَنْتَرَتْ ② وَلَا أَلْبَحَارُ فُجِرَتْ ③ وَلَا أَلْقُبُورُ بُعِثِرَتْ ④ عَلَيْكَ نَفْسٌ مِمَّا
قَدَّمْتَ وَأَخَّرْتَ ⑤ ﴾ (سورة الانفطار : ١ - ٥) .

﴿ كَذَلِكَ نَادَىٰ ذُكْيَا الْأَرْضِ دَكَاذِكَا ۝ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ۝ يَوْمَ يَوْمِيذُ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ ۝ يَقُولُ يَلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ۝ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدًا ۝ ﴾ (سورة الفجر : ٢١ - ٢٥) .

﴿ فَكَيْفَ نَشْفُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ۝ النِّسَاءُ مُنْقَطِعَاتُ الْبُيُوتِ كَذَٰلِكَ وَعْدُهُ مُنفَعُولًا ۝ ﴾ (سورة المزمل : ١٧ - ١٨) .

إنه الهول الذى يشمل السماوات والأرض ، ويغير صورة الكون كله . فتتشق السماء وتنتثر الكواكب ، وترلزل الأرض ، وتسجر البحار فتشتعل ناراً والمألوف فيها أنها هى التى تطفىء النار ! وتنسف الجبال نسفاً :

﴿ وَبَنَّا لَوْلَاكَ عِزَّ الْجِبَالِ فَغُلَّ عَلَيْهَا رَبِّ تَشْفَا ۝ قَبِذْهَا قَاءً مِّنْ صَفْصَفَا ۝ لَا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ۝ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ۝ ﴾ (سورة طه : ١٠٥ - ١٠٨) .

ولا يعود شيء واحد فى مكانه ولا على صورته التى كان عليها .. وفى هذا الهول الهائل يبعث الناس فيسألون !

ولاقترب الساعة أمارات يذكرها القرآن والأحاديث ..

ولقد اقتربت الساعة منذ بعثة الرسول ﷺ ، فقال القرآن الكريم : ﴿ أَقْرَبَ بِالسَّاعَةِ ۖ وَأَنشَأَ الْقَمَرُ ۖ ﴾ (سورة القمر : ١) . وقال الرسول ﷺ : (بُعِثْتُ وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ ..) وأشار بإصبعيه السبابة والوسطى (رواه البخارى ومسلم) .

ولكن مقياس الزمن عند الله غير مقاييسنا ! فحين أنذر الرسول ﷺ مشركى العرب باقتراب الساعة حسبوا أنها أيام معدودة - بحسابهم - ثم تأتى الساعة ، فلما رأوها لم تأتِ قالوا له : أين العذاب الذى أنذرتنا به ؟ وأين يوم القيامة الذى زعمت أنه قريب ؟ فرد عليهم القرآن فى أكثر من موضع :

﴿ بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لُحْمًا أَمَامَهُ ۖ يَتَنَبَّلُ أَن يَأْتِيَهُ الْفِتْنَةُ ۖ ﴾ (سورة القيامة : ٥ - ٦) .

﴿ وَيَسْجَلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنْ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴾

(سورة الحج : ٤٧) .

﴿ اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدِيرُكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ۝ يَسْجَلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ الْأَمَّا الَّذِينَ يُبَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَوْ ضَلَّكَ مَبِيدٌ ﴾

(سورة الشورى : ١٧ - ١٨) .

وتم أمارات أخرى لاقترب الساعة يشملها حديث الرسول ﷺ عن حذيفة بن أسيد الغفاري ، رضى الله عنه قال : (اطلع النبي صلى الله عليه وسلم علينا ونحن نتذاكر فقال : ما تذاكرون ؟ قالوا : نذكر الساعة . قال : إنها لن تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات فذكر : الدخان والدجال والذابة وطلوع الشمس من مغربها ونزول عيسى ابن مريم ويأجوج ومأجوج وثلاثة خسوف : خسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم) . رواه مسلم .

وفي حديث (هذا جبريل أتاكم يعلمكم أمر دينكم) : قال (فأخبرني عن الساعة قال : ما المسئول عنها بأعلم من السائل . قال فأخبرني عن أماراتها قال : أن تلد الأمة ربتها وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان) (رواه مسلم) .
فإذا بدأت أحداث الساعة نفخ في الصور نفخة أولى ثم نفخة ثانية :

﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصُيْعَتْ مَنَ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنَ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴾ (سورة الزمر : ٦٨) .

فالنفخة الأولى يصعق فيها كل من بقى حياً في السماوات والأرض إلا من شاء الله فيخرون موتى . والنفخة الثانية يقوم فيها الناس من أجداثهم ليوم الحشر .

عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : (قال رسول الله ﷺ ما بين النفختين أربعون (سنة) ثم ينزل الله من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل ، وليس من الإنسان شيء إلا يبلى إلا عظماً واحداً هو عجب الذنب ، ومنه يركب الخلق يوم القيامة) . (متفق عليه) .

كان من أشد ما عجب له المشركون في مكة وشككهم في الساعة وكل ما يدور حولها قضية البعث !

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ بَيْنَكُمْ إِذَا مُرِفَتْ كُلُّ مِرْقَةٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝ أَفَرَأَيْتُمْ عَلَىٰ اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ﴾ (سورة سبأ : ٧ - ٨) .
 ﴿ وَقَالُوا إِنَّا كُنَّا عِظَمًا وَرُفَّتْ أَوْنَانَا لَبَعُوثُونَ ۝ خَلَقْنَا جَدِيدًا ﴾ (سورة الإسراء : ٤٩) .
 ﴿ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَمًا أَأَنَّا لَبَعُوثُونَ ۝ أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴾ (سورة الواقعة : ٤٧ - ٤٨) .

وقد كان شكهم مبنياً على جهالات شتى !

فهم أولاً لم يقدرُوا الله حق قدره ، إذ استكثروا على قدرته سبحانه وتعالى أن يبعث الموتى ! ولو كانوا يقدرونه سبحانه حق قدره ، ويستيقنون من عظمته جل جلاله وقدرته التي لا يعجزها شيء ما استكثروا على هذه القدرة شيئاً على الإطلاق .

وهم ثانياً لم يقدرُوا معجزة الخلق الماثلة أمامهم حق قدرها ! ولو قدروها حق قدرها لعرفوا أنها من الضخامة والإعجاز بحيث أن القادر عليها لا يمكن أن يعجزه شيء ، لأنه لا يوجد شيء أكثر إعجازاً من هذا الخلق الماثل أمامهم !

إن الحس يتبدل على الأشياء فيعمى عن دلالتها ! ولأن السماوات والأرض والشمس والقمر ، والليل والنهار ، والموت والحياة ، كلها ماثلة أمام الحس فإنه يتبدل عليها بالإلف والعادة ولا يعود يقدر ما فيها من إعجاز .

وإلا فلو أن الإنسان تذكر أو أزال الغشاوة عن بصيرته فرأى حقائق الكون المذهلة ، لأحس بالإعجاز في الصغيرة والكبيرة ، وأحس أن من أنشأ هذا من العدم - جلت قدرته وجل ثناؤه - لن يعجز عن إعادة خلقه مرة أخرى متى يشاء !

حقيقة إن علمهم بالكون لم يكن قد تقدم كما هو اليوم . ولكن القدر المشاهد

المعلوم من الكون لأى إنسان مهما كان مقدار علمه ، يكفى لرؤية الإعجاز فى صنعة الله .
لذلك كان الله سبحانه وتعالى يخاطبهم بما يرونه أمامهم من معجزات الخلق ، ثم يقول لهم : إن من صنع هذا كله لا يعجز عن إعادته وخلقه من جديد .

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَيْتِ فَإِنَّا خَلَقْتُم مِّن تَرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّفُوسٍ ثُمَّ مِّن عَلَقٍ ثُمَّ مِّن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنَبِّئَنَّ لَكُمْ وَنُفِّرُ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِنَّ أَحْمِلُ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِنَبْلُو أَشَدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّن يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَسْرَى الْأَرْضُ هَاسِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَبْتَتْ مِّن كُلِّ زَوْجٍ بَّهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَلِكَ يَأْتِي اللَّهُ هُوَ الْخَوِيُّ وَأَنَّهُ يُخَيِّ الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ﴾ (سورة الحج : ٥ - ٧) .

﴿ وَهُوَ الَّذِي بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (سورة الروم : ٢٧) .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَتَّخِذْ يَخْلِقِينَ قَدِيرًا عَلِيمًا أَلَمْ يُخَيِّضِ الْفُلُوكَ عَلَى كُلِّ شَجَرٍ فَذِيرٌ ﴾ (سورة الأحقاف : ٣٣) .

وفي سورة « ق » مناقشة مستفيضة لهذه الجهالة على منهج القرآن من لفت نظر البشر إلى معجزات الخلق الماثلة أمام أعينهم ليقسوا عليها ، ويعلموا أن القادر على هذه يقدر على البعث ، لأن البعث ما هو إلا خلق جديد :

﴿وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمَ﴾ ❶ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكُفُورُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ❷ أَوَدَّ
مِنْنَا وَكُنَّا نَرَاهُ إِذَا رَجَعٌ عَيْنُهُ ❸ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيفٌ ❹ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا
جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيعٍ ❺ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهُا مِنْ فُرُوجٍ ❻ وَالْأَرْضَ
مَدَدْنَاهَا وَالْقِينَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ❼ تَبَهَّرَ وَذَكَرَ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ❽
وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ❾ وَالنَّخْلَ أَمْقَصْنَا لَهُا مَاطِعًا لِنُؤْتِيَهُ الْفَاكِهُ الْكَافٍ ❿
وَأَنبَتْنَا بِهِ بَلَاحًا قَدْ كُنَّا الْفَاعِلِينَ ❿ كَذَّبَ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ❻ وَعَادُ وَفِرْعَوْنُ ذَاخِرُونَ لِمُحِيطٍ ❼
وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُسُوعَ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدُ ❽ أَفَمِنْ أَعْيُنِنَا الْخُلَافَاءُ الْأَوَّلُ يُذَكِّرُ فُلَانٍ مِنْ خَلْقٍ

وكذلك كان رد القرآن الكريم على ذلك المنكر المتبجح الذى تناول قطعة عظم رمية من الأرض ففركها بين إصبعيه ونفخها فى وجه الرسول ﷺ وقال فى جهالة منطمة البصيرة : أيستطيع ربك أن يبعث هذه ؟!

﴿ أَوَلَيْسَ الْإِنْسَانُ أَنْخَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ٧٧ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ٧٩ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقَدُونَ ٨٠ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِذِيرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِنْهَا بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ٨١ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ٨٢ فَسُبْحَانَ الَّذِي يَدْعُوهُ مَلَكُوتٌ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ٨٣ ﴾ (سورة يس : ٧٧ - ٨٣) .

إن قضية الخلق واحدة فى الأولى والآخرة . والذى يسلم عقله بأن الله هو الذى خلق كل ما فى الكون من موجودات حاضرة ينبغى له - بنفس المنطق - أن يسلم بقدرة الله على البعث والخلق من جديد . فإن الكون حين خُلق لم يكن موجوداً البتة فأوجده الله من العدم . أفكانت قدرة الله موجودة مرة واحدة من قبل ثم كفت عن الوجود ولم يعد الله قادراً على خلق من نوع الخلق الأول بل أهون منه ؟ وحتى هذه الشبهة الساذجة لا موجب لها فإن الخلق - بكل معجزاته - قائم ومستمر ! فمن أين يأتى كل جنين يولد ، ولم يكن كائناً من قبل ، ومن أين تنبت الأرض ما تنبت من زرع ؟ أليس هذا خلقاً متجدداً يرويه أمام أعينهم ؟! فإن قال أحد كما يقول المتبجحون اليوم إن هذا كله يتولد من بنور حية ، فمن الذى أودع الحياة فى البذور أول مرة ، ومن أودع فيها القدرة على النماء ؟!

كلا .. إنه انطماس البصيرة ليس غير !

إن الناس يأخذون قضية الخلق الراهنة كأنها حادثة من تلقاء ذاتها . وتلك مصيبة الناس حين تنطمس بصيرتهم فيعمون عن آيات الله المعجزة فى الخلق ، فيستكثرون على قدرته سبحانه أن يخلق من جديد !

والجاهلية المعاصرة مصيبتها أكبر ! فقد عرفت عن طريق العلم إلى أى حد هذا

الكون معجز في خلقه ومعجز في كل تفصيلاته . وفغروا أفواههم عجباً كلما كشف لهم العلم جديداً من أسرار الكون الدقيقة ، - وخاصة في عالم الذرة ومحتوياتها . ومع ذلك يستكبرون ! ويفرون من مجابهة الحقيقة فيقولون إنها الطبيعة ^(١) ويصنعون كما صنعت الجاهلية القديمة فينكرون على الله أن يقدر على البعث !

وما زال تحدى القرآن ماثلاً أمامهم : ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخُلُقُونَ ﴾ (سورة الطور : ٣٥) . وما زال وعيده لهم قائماً : ﴿ فَذَرَهُمْ حَتَّى يَلْقَوا تَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يَصْعَقُونَ ۝ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ (سورة الطور : ٤٥ - ٤٦) .

ذلك أنهم علماء مزيفون : ﴿ يَتَكَلَّمُونَ ظَاهِراً مِنْ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَفِلُونَ ﴾ (سورة الروم : ٧) .

أما العلماء الحقيقيون فهم أولى الناس بالإيمان بالله والإيمان بالبعث : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ (سورة فاطر : ٢٨) .

٤ - الحشر

يبعث الله الموتى ثم يحشرهم جميعاً ليقفوا بين يدي مولاهم يسألهم عن أعمالهم . ويصف القرآن الكريم هول الحشر كما وصف أهوال الساعة :

﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝ وَأُمِّيهِ وَأَبِيهِ ۝ وَصَدِيقِهِ ۝ وَبَيْنِي وَبَيْنَكَ ۝ لِكُلِّ أُمَّةٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَانٌ يُغْنِيهِ ﴾ (سورة عبس : ٣٤ - ٣٧) .

إنه الهول الذي يفرق بين الأقرباء والأصدقاء ، ويشغل كل إنسان بنفسه عن الآخرين ولو كانوا ألصق الناس به في الحياة الدنيا . ﴿ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنتَشِرٌ ۝ تَهْلِكُ مِنْهُ الْبَنَاتُ ﴾ (سورة القمر : ٧ - ٨) .

﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ وَرَاءَهُمْ كَأَنَّهُمْ لِقَابٌ يُفُوضُونَ ﴾ (سورة المعارج : ٤٣) .

ويصف الرسول ﷺ يوم الحشر فيقول - من حديث عائشة رضي الله عنها - :

(١) لا يناقش أولئك الجاهليون قضية « الطبيعة » مناقشة منطقية ولا مناقشة علمية ، فاهى على وجه

التحديد ؟

(يُخْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حُفَاةً عُرَاءَةً غُرْلًا . قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، النساءُ والرجالُ جميعاً يَنْظُرُ بعضهم إلى بعضٍ . قَالَ يَا عَائِشَةُ : الْأَمْرُ أَشَدُّ مِنْ أَنْ يَنْظُرَ بعضهم إلى بعضٍ) . متفق عليه .

ولكن الناس ليسوا سواء في ذلك اليوم العصيب . إنما تختلف أحوالهم باختلاف أعمالهم :

﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّاضِرَةٌ ۖ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۚ ۝١٣ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ۖ تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ۚ ۝١٤﴾

(سورة القيامة : ٢٢ - ٢٥) .

﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۖ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ۚ ۝١٥ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۖ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ۚ ۝١٦ أُولَٰئِكَ هُمُ

الْكَاذِبُونَ ۚ ۝١٧﴾ (سورة عبس : ٣٨ - ٤٢) .

﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ نَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ ۝١٨﴾ (سورة الزمر : ٦٠) .

﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۚ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝١٩

وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ يَفْلِتُهَا وَرَهَقُهَا ذَلَّةٌ قَاتِلَةٌ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَذَابٍ كَانَتْ أَغْشَىٰ

وُجُوهُهُمْ قُلُوبًا مِنَ الْبَلِّ مُظْلِمًا ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝٢٠﴾ (سورة يونس : ٢٦ - ٢٧) .

﴿ يَوْمَ نَخْشِرُ الثَّقَيْنَ إِلَىٰ الرَّحْمَنِ وَفْدًا ۝٢١ وَنَسُوقُ الْفَجْرِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَزْدًا ۝٢٢﴾ (سورة مريم : ٨٥ - ٨٦) .

﴿ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَخْشِرُ الْفَجْرِينَ يَوْمَئِذٍ نُّذْرًا ۝٢٣ يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ۝٢٤ نَحْنُ أَعْلَمُ

بِمَا يَفْعَلُونَ إِذْ يَقُولُ أَفْلَهَ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ۝٢٥﴾ (سورة طه : ١٠٢ - ١٠٤) .

﴿ وَمَنْ مَّدَّ اللَّهُ فَوْقَ الْكُفْرِ وَمَنْ يَضِلُّ فَلَنْ يُجِدَ لَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ ۚ وَنَخْشِرُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِكُمْ عَذَابًا

وَيُحْكِمُكُمْ وَأَصْحَابًا ۝٢٦﴾ (سورة الإسراء : ٩٧) .

وعن المقداد رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (تُدْنَى الشَّمْسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

مِنَ الْخَلْقِ حَتَّى تَكُونَ مِنْهُمْ كَمِقْدَارِ مِثْلِ ، فَيَكُونُ النَّاسُ عَلَى قَدَرِ أَعْمَالِهِمْ فِي الْعَرَقِ .

فَنَهُمُ مَنْ يَكُونُ إِلَى كَعْبِيهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى رِكَبَتِيهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى حَقْوِيهِ ،

وَمِنْهُمْ مَنْ يُلْجِمُهُ الْعَرَقُ إِلْجَامًا) . (رواه مسلم) .

وهكذا تختلف أحوال الناس فمنهم من يلقى في روعه الفرع والخوف نتيجة سوء

عمله فهو ذاهل مضطرب ، مظلم الوجه مكفهر ، وفوق ذلك يلقى الإهانة فيساق سوقاً

كالبهائم . وإلى شر مكان يساق . ومنهم من يلقي في روعه الطمأنينة والاستبشار فهو ينتظر تحقيق وعد ربه بدخول جنات النعيم ، وفوق ذلك يلقي الحفاوة والتكريم . إنه من المتقين الذين يحشرون إلى الرحمن « وفداً » والوفد دائماً يلقي الحفاوة وحسن الاستقبال .

٥ - الحساب

بعد أن يُحْشَرَ الناسُ في هذا الهول الذي يَشْغُلُ الإنسانَ عن أقرب المقربين إليه في الدنيا .. يبدأ العرض والحساب : ﴿ وَغَرَضُوا عَلَى رَيْكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْتُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا ﴾ (سورة الكهف : ٤٨) .

والناس في الدنيا يرهبون أن يقفوا صفًّا ليعرضوا أمام أحد من الحكام مهما صغر مقامه ليتبين البريء منهم من المذنب بعد السؤال والتحقيق . وهو بشر مثلهم لا يزيد عليهم في شيء إلا السلطة التي يملكها في يديه ! وتزداد رهبتهم كلما عظم مقام الحاكم أو عظمت السلطة التي يملكها . ويستبطلون الزمن الذي يمر عليهم وهم في حالة الترقب والانتظار هذه حتى يقضى في أمرهم ، وهو زمن محدود لا يزيد على ساعات أو أيام إذا طال . تمر الدقيقة منه كأنها دهر !

فكيف يكون حالهم وهم وقوف بين يدي الملك العزيز الجبار ؟ وفي يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ؟ ﴿ تَرْجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ① فَأَصْبَرَ صَبْرًا جَمِيلًا ② إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ③ وَرَأَوْهُ قَرِيبًا ④ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْهَيْلِ ⑤ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِزِّ ⑥ وَلَا يَشْفُلُ حِجْبٌ حَيْثُ جَاءَ ⑦ ﴾ (سورة المعارج : ٤ - ١٠) .

إن الخيال ليعجز عن التصور . وكل ما يملكه أن يقيس حال الناس وهم معروضون أمام الحاكم ليحقق معهم ، ثم يظل بضاعفه أضعافاً ليقرب من تصور ذلك الموقف الرهيب بين يدي رب العالمين : ﴿ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا نَسْكًَا ⑧ يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ إِلَّا مَنْ أِذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ⑨ يَسْأَلُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ ⑩ عَمَّا ⑪ وَعَنْ أَلْوَاهٍ ⑫ إِلَيْنَا أَفْتَوْمٌ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ⑬ ﴾ (سورة طه : ١٠٨ - ١١١) .

ثم يأتي دور السؤال ..

واحد بعد واحد من هذا الصف الطويل الذى يحتوى البشر كلهم من أول آدم ،
الى آخر الخلق ، يجرى دوره فيُسأل :

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْفَعْنَهَا أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (سورة الحجر : ٩٢ - ٩٣).

ولئن كان الغرض مهولاً ، فالسؤال أشدَّ هولاً .

ألا ترى إلى البشر وهم واقفون أمام الحاكم ليسألهم كيف يكون حالهم حين يجيء دورهم في السؤال ؟! إن وجوههم لتكفهر وهم في العرض لم يصلوا بعد إلى السؤال ، فإذا جاء دورهم اضطربت أنفاسهم ، ووجبت قلوبهم ، وزاغت أبصارهم ، حتى يبدأ السؤال فتبدأ معه محتشم إن كانوا مذبذبين .

هذا وهمٌ يملكون اللف والدوران ، ويملكون الكذب على الحاكم ، والتهرب من مواجهة السؤال ! ... فكيف وهم في الموقف الرهيب لا يملكون حتى ألسنتهم ! فإنها تشهد عليهم وحتى جلودهم وجوارحهم ...

﴿يَوْمَ نَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ يَوْمَذِي يُوفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ

اللَّهُ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿٢٤﴾ (سورة النور : ٢٤ - ٢٥) .
 ﴿الْيَوْمَ نَخِيذُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ آفَةً وَنُكَلِّئُكَ آفَئِيهِمْ وَنَشْهَدُ أَنَّ جُلُودَهُمَ كَانَ نَارًا يُكَفِّرُونَ﴾ (سورة يس : ٦٥) .
 ﴿وَالْيَوْمَ يُخْرِجُنَا عَنْهُ فَهُوَ إِلَهُ آلِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءَهُ مَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ
 وَقُلُوبُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ وَقَالُوا لِمَ لُوحِدُنَا فِي شِهَادٍ ثُمَّ لُفَّتْنَا قَالُوا أُنْظِرْنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْشَأَنَا قُلُوبَ كُلِّ
 شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَآلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَضِئُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا
 أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَذَلِكَ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ
 بِرَبِّكُمْ أَزْوَاجُكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٠﴾ لَئِنْ بَشِيرًا قَائِلًا تَمُوتُوا لَمْ تَكُنْ بِمُتَّبِعِينَ فَاسْتَبِيرُوا فَسَاهَرْتُمْ

﴿وَيَوْمَ يُخْسِرُونَ أَعْيَاءُ ۖ فَلَا تَنفَعُ الْإِنْسَانُ نَفْسُهُ يَوْمَئِذٍ ۚ وَنُفُوسٌ كَاظِمَةٌ ۚ وَنُفُوسٌ مُّسْتَفْسِخَةٌ ۚ وَنُفُوسٌ مُّطَهَّرَةٌ ۚ وَرُجُوعٌ مُّسْتَقِيمٌ ۝١٠﴾
 ﴿وَقَالُوا لِيَجْزِيَ رَبُّهُمُ الَّذِي آتَى الْإِنسَانَ الْإِزْفَاقَ ۚ كُلُّ شَيْءٍ بِحِسَابٍ ۚ وَهُمْ مُّكَذِّبُونَ ۝١١﴾
 ﴿وَمَا كُنْتُمْ تُكْفِرُونَ بِاللَّهِ إِذْ كُنْتُمْ يُعْذَرُ ۚ فَتَكْفِرُونَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝١٢﴾
 ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِّ ۚ وَكَانَ بِرَبِّكَ أَزْدٌ ۝١٣﴾
 ﴿فَإِنْ يَسْأَلُوا فَاسْأَلْهُمْ عَنْ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ۝١٤﴾
 ﴿سُورَةُ الْفُتُوحِ ۝﴾ (سورة فصلت : ١٩ - ٢٤) .

أَلَا إِنَّهُمْ لَا يَمْلِكُونَ إِلَّا أَنْ يَعْتَرِفُوا بِذُنُوبِهِمْ ، وَأَنْ يَشْهَدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ .
﴿ يَنْقُصُ الرِّجْزُ وَالْإِنْسِ الْإِسْمَ زُنْدُكُمْ يَخْضُونَ عَلَيْكُمْ ، ابْتِغَاءَ لِقَاءِ رَبِّكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَقْنَاهُمُ الْحَمِيمَ الذُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴾ (سورة الأنعام : ١٣٠) .

[illegible]

وشهدوا أو لم يشهدوا .. لا مفر !

هذه هي الموازين توضع ، وتوزن فيها الأعمال .

﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَئِنْ كَانَ مِنْكُمْ خَافِدٌ
أَتَيْنَاهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَسِيبِينَ ﴾ (سورة الأنبياء : ٤٧) .

﴿ يَبْقَىٰ إِلَهُنَّ إِنَّكَ بِشِقَاكِ خَدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَفْوَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ بِإِذْنِ اللَّهِ
إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ (سورة لقمان : ١٦) .

وهذا هو كتاب الأعمال قد سجلت فيه الكبيرة والصغيرة ، فهو وثيقة لا تحتمل التكرذب !

﴿ وَلَدَيْنَا مَكْتَبٌ بِمَا تَعْمَلُونَ وَالَّذِينَ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (سورة المؤمنون : ٦٢) .

﴿ وَوَضِعَ الْكِتَابَ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ فِي مَا فِيهِ وَيَقُولُونَ بَوَيْلَنَا مَا لَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ
صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظِلُّمُ لِرَبِّكَ أَحَدًا ﴾ (سورة الكهف : ٤٩) .

﴿ يَوْمَ نَحْمَدُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّخَضَّرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ شَرٍّ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ

أَمَدًا بَعِيدًا ﴾ (سورة آل عمران : ٣٠) .

﴿ وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مِنْشُورًا ﴾ اقرأ

كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ (سورة الإسراء : ١٣ - ١٤) .

ويختلف وضع الناس من كتابهم ، بعضهم يؤتاه باليمين وبعضهم يؤتاه بالشمال

(أو من وراء ظهره) :

﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوِّيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَقُولُوا هَؤُلَاءِ أُوِّيُوا كِتَابَهُ ۖ لَنُؤْتِيَنَّكَ حِسَابَهُ ۖ فَتُرَىٰ عِشْرَةً

رَاضِيَةً ۖ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۖ قُلُوبُهَا دَازِيَةٌ ۖ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَتَّكَلَّمْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ۖ وَأَمَّا مَنْ أُوِّيَ كِتَابُهُ

بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ بَلَيْتَنِي لَأُوِّيَ كِتَابِي ۖ وَلَئِنْ أَدْرِمَ مَا حِسَابِي ۖ يَلَيْتُنِي لَأَنْتَ الْقَاضِيَةُ ۖ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَا لِي ۖ هَٰذَا كِتَابِي ۖ

سُلْطَانِيَّةٌ ۖ خُذُوهُ فَذُلُّوهُ ۖ ذُرِّيُّهُ سِلَاسٌ ۖ دَرَعَاهُ سَبْعُونَ دَرَعًا ۖ فَاسْلُكُوهُ ۖ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِإِلَهِ

الْعَظِيمِ ۖ وَلَا يَحْضُرُ عَلَىٰ طَعَامِ الْيَتَامَىٰ ۖ فَكَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ مَهْجَاتِهِ ۖ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غَنِينٍ ۖ

لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِلُونَ ﴾ (سورة الحاقة : ١٩ - ٣٧) .

﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوِّيَ كِتَابُهُ بِشِمَالِهِ ۖ فَتَوَفَّيْ حَسَابًا يَبِيدًا ۖ وَيَنْفَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ۖ

وَأَن تَأْمَنَ أَوْ رَكَّبَ كِتَابَهُ وَرَأَىٰ ظَهْرَهُ ۖ فَتَوْفَّيْذُهُ يَرْجُفُ فَتَوَلَّىٰ ظَهْرُهُ ۖ فَتَتَوَلَّىٰ يَدُكَ يُنْشَرُ ۚ وَيَعْلَلُ السَّعِيرَ ﴿١٢﴾ (سورة الانشقاق: ٧-١٢).
وأولئك هم الذين يسميهم القرآن أصحاب اليمين وأصحاب الشمال أو أصحاب
اليمين وأصحاب المشأمة .. ولكل منهما مصير !

(٦)

الصراط

فإذا انتهى العرض والسؤال ، ووزنت الأعمال ، وتقرر المصير ، فكل يؤخذ
إلى مصيره : فريق إلى الجنة وفريق إلى السعير .

وهم في طريقهم يمرون على الصراط . فأما من كان مصيره إلى النار فهو يهوى
من الصراط إلى جهنم حيث يتسلمه العذاب على التو . وأما من كان مصيره إلى الجنة
فهو يرى النار رؤية من بعيد ، ليعرف فقط مصير الكفار ، وليعرف أى عذاب أنجاه الله
منه ، ثم يستمر في طريقه إلى حيث يرحب به الملائكة الأبرار .

﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّنَا حَتْمًا مَّقْضِيًّا ۖ ثُمَّ نُنْجِي الَّذِينَ أَتَقَوَّا وَنَدَّرُ الظَّالِمِينَ فَبِمَا حَسِبْنَا ﴾

(سورة مريم : ٧١ - ٧٢) .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (يَجْمَعُ اللَّهُ النَّاسَ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَقُولُ : مَنْ كَانَ يَعْبُدُ شَيْئًا فَلْيَتَّبِعْهُ . فَيَتَّبِعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الشَّمْسَ الشَّمْسَ ،
وَيَتَّبِعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الْقَمَرَ الْقَمَرَ ، وَيَتَّبِعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الطَّوَاغِيتَ الطَّوَاغِيتَ إِلَى أَنْ قَالَ :
وَيُضْرَبُ الصِّرَاطُ بَيْنَ ظَهْرَيَّ جَهَنَّمَ فَأَكُونُ أَنَا وَأُمْتِي أَوَّلَ مَنْ يَجْزِي) . متفق عليه .

وعن أبى سعيد الخدرى : قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا الْجِسْرُ ؟ قَالَ : (دَخَضُ مَزَلَةٍ فِيهِ
خَطَاطِيفٌ وَكَلَالِبٌ وَحَسَكٌ ثُمَّ قَالَ أَبُو سَعِيدٍ : بَلَغْنِي أَنَّ الْجِسْرَ أَدَقُّ مِنَ الشَّعْرَةِ وَأَحَدٌ
مِنَ السِّيفِ) . رواه مسلم .

وعن حذيفة قال : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (فِي حَافَتِي الصِّرَاطِ كَلَالِبٌ مُعَلَّقَةٌ
مَأْمُورَةٌ بِأَخْذِ مَنْ أَمَرَتْ بِهِ ، فَخَدُوشٌ نَاجٍ وَمَكْدُوشٌ فِي النَّارِ) . رواه مسلم .

الجنة والنار

هنا نصل إلى نهاية المطاف ..

نهاية الرحلة الطويلة التي بدأ طرف منها على الأرض في الحياة الدنيا ، واليوم

تصل إلى نهايتها بعد البعث والحشر والعرض والسؤال :

﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ۖ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا

الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّنتَهُونَ ۚ ﴿٣٠﴾ (الأعراف : ٢٩ - ٣٠) .

هنا تكتمل الصورة ، ويحقّ الحق ، ويصل كل شيء إلى قرار .

أما الذين استقاموا في حياتهم الدنيا على الطريق ، فأمنوا بالله ، والتمزوا بأوامره

وأيقنوا بيوم لقائه ، فتجنبوا سخطه وسعوا إلى رضاه ، وكدوا في سبيل ذلك وكدحوا ،

واحتملوا ما احتملوا من مشقة ، وصبروا على ما لاقوا من الأذى والنصب في الطريق .

فأولئك قد استحقوا رضوان الله وجنته . استحقوا أن يصلوا إلى دار الأمان حيث

لا شيء يقلق ولا شيء يخيف ، ولا شيء ينقص النعم : ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ

وَوَقَّهْمُ عَذَابَ الْجَحِيمِ ۖ ﴾ (سورة الدخان : ٥٦) .

وأما الذين كفروا وكذبوا ، وأصروا على غيهم ، وخالفوا عن أمر ربهم ورسله

واستمعوا في الحياة الدنيا بغير الحق ، وكدحوا ولكن للشيطان .. وفرحوا بأعمالهم

الخاطئة فطفخوا بها وتجبروا .. فقد استحقوا أن يصلوا إلى الجحيم ، حيث لا موت

ولا حياة ، ولا يخفف عنهم ولو يوم من العذاب ا

هنا - في الصورة المكتملة في نهاية المطاف - تبدى عدالة الله ، ويتبدى الحق

الذي خلقت به السماوات والأرض وخلق به الموت والحياة .. ويتلقى كل إنسان دينه

بالحق ، وتكتمل دلالة كل شيء في هذه الحياة .

* * *

ولقد جاء وصف الجنة والنار ووصف النعم والعذاب في مواضع كثيرة جداً من

القرآن . ولا تكاد تخلو سورة من السور من إشارة ولو عابرة إلا في القليل النادر .

ولا نحتاج إلى ذكر الشواهد الكثيرة ، فالقرآن بين يدي الدارس ، وحيثما تصفحه فسيجد فيه بغيته من وصف مشاهد القيامة ، إنما نقول كلمة مجملة عن النعم والعذاب ثم نأتى بنماذج قليلة من الآيات .

يوصف النعم في القرآن بأنه نعم حسى ومعنوى فى ذات الوقت . كما يوصف العذاب كذلك بأنه عذاب حسى ومعنوى وهذا هو الذى يتلاءم مع طبيعة « الإنسان » . فالإنسان الذى يعيش فى الدنيا مزيج من الجسد والروح . من الحسيات والمعنويات وهو هو الذى يكرم فى الآخرة أو يهان . فإذا كرم فإنما يكرم كله ، بجسده وروحه ، وإذا عذب فإنما يعذب كله ، بجسده وروحه سواء .

وقد وصف الله لنا جنته وناره وصفاً دقيقاً شاملاً ولكن خيالنا قاصر عن الإحاطة بهما ، فإن الرسول ﷺ يقول عن الجنة : (فِيهَا مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ) . (رواه البخارى) .

فنحن نتصور النعم - سواء الحسى منه أو المعنوى - فى حدود خبرتنا وتجاربنا فى الحياة الدنيا . ولكنه فى حقيقته أجمل من كل ما نستطيع أن نتخيل ، فليس الشجر كالشجر وليست الثمار كالثمار . وليست الحور العين كأي جمال نستطيع أن نتصوره فى الأرض . وكذلك الرضوان ﴿ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ (سورة التوبة : ٧٢) . إن أى تصور لهذا الرضوان ، ومدى الراحة النفسية له والفرحة الروحية به لا يمكن أن يصل إلى شىء من الحقيقة .. ولكن هذه طبيعة البشر مع اللغة ، لا يستطيعون أن يدركوا من معانيها إلا ما يدخل فى دائرة تجربتهم وتصورهم !

والأمر مع العذاب كذلك .. إننا لا نستطيع أن نتصور من أمر النار إلا ما شاهدناه فى حياتنا الدنيا . وقد تضاعف القدر فى خيالنا مرات ومرات . ولكننا مع ذلك لا نصل إلى حقيقة عذاب الحريق الذى ينتظر الكفار فى جهنم والعياذ بالله . وكذلك الأمر بالنسبة للعذاب النفسى من خزي وندم وحسرة وهوان .

فلنقرأ إذن وصف الجنة والنار فى القرآن . ولنحاول - ما استطعنا - أن نقرب

نجبالنا من حقائق الأشياء !

أولاً - أوصاف الجنة وأهلها :

١ - ﴿ وَلَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتُ ۝ فَيَأْتِي آلَؤُنْجًا تُكَذِّبَانِ ۝ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ۝ فَيَأْتِي آلَؤُنْجًا ۝ يُكْذِّبَانِ ۝ فِيهَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ۝ فَيَأْتِي آلَؤُنْجًا تُكْذِّبَانِ ۝ فِيهَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ رَوْحَانٌ ۝ فَيَأْتِي آلَؤُنْجًا ۝ رِيحُهَا يُكْذِّبَانِ ۝ مُتَكِدِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَاطِسُهَا مِنْ إِنْسَنَافٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ۝ فَيَأْتِي آلَؤُنْجًا تُكْذِّبَانِ ۝ فِيهَا قَصِيرَاتُ الْظُرْفِ لَمْ يَطْمِئِنَّ أَنْسَ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌ ۝ فَيَأْتِي آلَؤُنْجًا تُكْذِّبَانِ ۝ كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالزُّبَانُ ۝ فَيَأْتِي آلَؤُنْجًا تُكْذِّبَانِ ۝ قُلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ ﴾ (سورة الرحمن : ٤٦ - ٦٠) .

٢ - ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فِي جَنَّتِنَا نَعِيمٌ ۝ فَلَهِمْ بِمَا أَتَتْهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَعَتْهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابٌ مُجِيمٌ ۝ كَلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۝ مُتَكِبِينَ عَلَى سُرُرٍ مَقْصُوفَةٍ وَرَوَّحْتُمْ بِحُورٍ عِينٍ ۝ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ ۝ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ۝ وَأَمَّا دَنَاهُمْ فَبُكَاهٌ وَلَهُمْ فِيهَا شُهُورٌ ۝ يَتَزَوَّجُونَ فِيهَا كَأَسَا لَا تُفَرِّقُهَا وَلَا تُلَاقِيهَا ۝ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلَاقٌ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ لَوْلُؤٌ مُكُونٌ ۝ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ۝ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلَ فِي أُمَّلَيْنَا مُشْفِقِينَ ۝ فَمَنْ أَلَّهِ عَلَيْهِمَا وَقَعْنَا عَذَابَ السَّمُورِ ۝ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴾ (سورة الطور : ١٧ - ٢٨) .

٣ - ﴿ وَجَزَاءُ لَهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةٌ وَحَرِيرٌ ۝ مُتَكِبِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرْبَابِ لَا يُغْرُونَ فِيهَا شَمْسٌ وَلَا زَمِيرٌ ۝ وَدَانِيَةٌ عَلَيْهِمْ ظِلُّهَا وَذُلَّتْ قُطُوفُهَا نَدِيلًا ۝ وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ ثَانِيَةً مِنْ فَضَّةٍ وَأَنفَاسٍ كَأَنَّهُمْ وَقَاهِدٌ ۝ قَوَائِرُ مِنْ فَضَّةٍ قَدَرُوا مَنَادِيرًا ۝ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأَسَا كَانِ زِينَتُهُمْ فِيهَا ۝ عَيْنَاهُ شَتَّى سَلْسِيلًا ۝ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنُورًا ۝ مَا ذَرَأْتِ ثَمَرًا رَأَيْتَ فِيهَا وَثِلًا كَبِيرًا ۝ عَلَيْهِمْ نَبَاتٌ مُنْدُسٌ حُضْرٌ قَانِسِرٌ وَحُلُوفٌ أُسَاوِدٌ مِنْ فَضَّةٍ وَنَقَعُهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاكًا طَهُورًا ۝ إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا ﴾ (سورة الإنسان : ١٢ - ٢٢) .

٤ - ﴿ وَزَعْنًا مَا فِي ضُؤْرِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ۝ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا هَافٌ وَمَا مِمَّا مِنْهَا مُخْرَجِينَ ﴾ (سورة الحجر : ٤٧ - ٤٨) .

ثانياً - من أوصاف النار وأهلها :

١ - ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كَلَّا نَبْغِثُ جُلُودَهُمْ بِذَلَّتْهُمْ جُلُودًا ۝ غَيْرَ مَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ﴾ (سورة النساء : ٥٦) .

(١) أى ما نقصناهم .

٢ - ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَازِنَةِ الْجَهَنَّمَ اَدْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ ۖ قَالُوا اَوْزَلْتُمْ
لَا يُكْرَرُ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ۚ قَالُوا بَلَّيْنَا مَا دُعَوْنَا وَمَا دُعُوا الْكَافِرِينَ ۚ لَا فِيْ ضَلٰكِلٍ ۙ
(سورة غافر : ٤٩ - ٥٠) .

٣ - ﴿ وَوُزِنَ الْجَبَدُ لِقَابِهِمْ ۖ وَقِيلَ لَهُمُ اتَّيْتُمْ مَقْدُورَكُمْ ۖ مِّنْ دُونِ اٰقْوٰهٖ هَلْ تَصُرُوْنَكُمْ
اَن تَنْصُرُوْهُمْ ۚ فَكُتِبَ عَلَيْهِمُ الْمُرُوْا الْعَاقِبَةُ ۖ وَجُنُوْا اِلَيْهِمْ اَجْمَعُوْنَ ۖ قَالُوا وَفَرِّقَا
بَيْنَ عِمْلَيْنِ ۖ قَالُوْا كُنَّا اِلٰى سَلٰكٍ مُّبِيْنٍ ۖ اِذْ تُسَوِّدُكُمْ رَبُّ الْعٰلَمِيْنَ ۖ وَمَا اَخْلٰنَا اِلَّا الْبٰخِرِيْنَ ۖ فَاَلَا تٰمِنُ
شٰفِعِيْنَ ۖ وَلَا صٰدِقِيْنَ حَسْبٍ ۖ فَلَوْ اَنَّ لَّكَ اَنْ تَمُوتَ مِّنَ الْمُؤْمِنِيْنَ ۙ (سورة الشعراء ٩١ - ١٠٢) .

٤ - ﴿ هٰذَا وَاٰلُ الْظٰلِمِيْنَ لَشَرٌّ مَّا بَ ۖ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَيَنسِفُ الْيَمَادُ ۖ هٰذَا قَلِيْدٌ وَّقُوْهُ حِمِيْدٌ وَعَنَاقُ ۖ وَآخِرُ
مِنْ شَعْلِهِ ۖ اَرْوَجُ ۙ هٰذَا مَوْجٌ مُّتَعَجِّجٌ مَّعَكُمْ ۚ لَا مَسْجِدًا يَّمُوتُ اِنَّهُمْ سَالُوْا النَّارَ ۖ قَالُوا بَلْ اَنْتُمْ لَا مَرْجَا يَكُمُ ۚ
اَنْتُمْ قَدْ مَتَّوْهُ لَآ فَيَنسِفُ الْقَرَارُ ۖ قَالُوْا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هٰذَا فِرْدَوْهُ عَذَابًا ضِعْفًا ۚ فِي النَّارِ ۖ وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرٰى
رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِّنَ الْاَشْرَارِ ۖ اَتَخَذْتُمْ اٰمُرًا غَنَ عَنْهُمْ الْاَبْصٰرُ ۖ اِنَّ ذٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ
اَهْلِ النَّارِ ۙ (سورة ص : ٥٥ - ٦٤) .

٥ - ﴿ اِنَّا اَعْدَدْنَا لِلظٰلِمِيْنَ نَارًا اَحَاطَ بِهٖمْ مُّرَادُهَا ۚ اِنْ يَسْتَغِيثُوْا فَاِذَا نُوْا بِمَا اَوَّلُ الْهَلٰلِ يَشُوْى الْوُجُوْهُ يَنسِفُ
الشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَعًا ۙ (سورة الكهف : ٢٩) .

٦ - ﴿ لَمَّا كُنْتُمْ اِيَّهَا الضَّالُّوْنَ لَكَذِبُوْنَ ۖ لَا يَكُوْنُ مِنْ شَجَرَةٍ مِّنْ زَيْتُوْنَ ۖ فَمَالُوْنَ مِنْهَا الْبٰطِلُوْنَ ۖ فَتَشْرَبُوْنَ عَلَيْهِمْ مِّنَ
الْحَمِيْمِ ۖ فَتَشْرَبُوْنَ شَرِبَ الْهَمِيْمِ ۖ هٰذَا زُلْمَةٌ مِّنَ الَّذِيْنَ ۙ (سورة الواقعة : ٥١ - ٥٦) .

وهكذا نجد المقابلة تامة بين الجنة وأهلها والنار وأهلها . فبينما الأولى تحوى كل ما
يتخيله الإنسان من ألوان النعم ، بل فوق ما يستطيع تخيله ، وأهلها فى سمر ومودة ،
راضية قلوبهم ، ضاحكة وجوههم ، ناعمة مشاعرهم ، يتجلى عليهم ربهم برضوانه ،
إذ بالنار فى الآخرة تحوى كل ما يتخيله الإنسان من ألوان العذاب الحسى ، وفوق
ما يتخيله كذلك ، والحزى والندم والحسرة هى عذابهم النفسى الدائم ، ويجيشهم مع
العذاب التبكيت والتوبيخ والتفريع .

ربنا آتانا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار !

(١) أى الجمال .

الباب الخامس الإيمان بالقدر

لا يتم إيمان الإنسان حتى يؤمن بالقدر خيره وشره أنه من عند الله ، وأنه لا يكون شيء في الكون كله إلا ما قدره الله

ووجوب الإيمان به واضح السبب لا يحتاج إلى جهد لفهمه . فإن الأحداث التي تجري في الكون كله وفي حياة الناس إما أن تكون - في تصور الإنسان - آتية من عند الله ، هو الذي برأها وقدرها ، وإما أن تكون في تصوره آتية من عند غير الله أباً كان المصدر الذي يتخيله . فإن كانت الأولى فقد آمن بالله حقاً ، وإن كانت الثانية فقد أشرك إذ ليس الشرك محصوراً في تقديم شعائر التبعيد لغير الله ، ولا التحليل والتحريم من دون الله . إنما يكون الشرك في هذه الحالة في أصل الاعتقاد في « لا إله إلا الله » .

إن المعنى الأول للا إله إلا الله هو أنه ليس في هذا الكون كله إله متصرف في شئونه إلا الله ومن ثم ترتب المعاني الأخرى : أنه لا معبود يستحق العبادة إلا الله . ولا أحد تنبغي له الطاعة إلا الله . ولا حاكمية إلا لله .

فتصور أي إنسان أن أحداث الكون وتصاريف الحياة تأتي من أي مصدر غير الله سبحانه وتعالى هو شرك في أصل الاعتقاد ومعناه أن الله ليس هو المتصرف وحده في شئون الكون إنما هناك من يشترك معه في هذا الشأن .

وحتى لو اعتقد معتقد أن الأحداث تقع بالمصادفة - كما يعتقد بعض الجاهليين في القديم والحديث - لا بتدبير الله وعلمه وتقديره ، فهو على ذات الدرجة من الشرك . لأنه في الواقع قد تخيل قوة وهمية - ليست هي الله سبحانه وتعالى - قد أنشأت

الأحداث وأجرتها بحيث تقع فيها للمصادقة المزعومة على النحو الذى وقعت به .. وهو وإن قال بلسانه إن الأحداث تقع بغير تدبير ولا قصد ، إلا أنه يفترض فى خياله أنها كانت سائرة أصلاً بدافع ما ثم تصادم بعضها مع بعض ، أو تصادف بعضها مع بعض بغير قصد .. فهو فى النهاية يفترض أن هناك من يسيّر الكون وأحداثه غير الله . وهذا هو الشرك الأصيل !

ومن ثم فقد لزم لزوماً أن يؤمن الإنسان بالقضاء والقدر أنه من عند الله . وأنه لا يحدث شيء فى الكون كله إلا بتقدير الله . وإلا فهو ليس بمؤمن أصلاً بلا إله إلا الله ! ولقد نص القرآن كما نصت الأحاديث على وجوب الإيمان بالقدر .

يقول الله سبحانه وتعالى ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ (سورة التغابن : ١١).

ويقول : ﴿ قُلْ أَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾

(سورة التوبة : ٥١) .

ويقول : ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾

(سورة الحديد : ٢٢) .

ويقول : ﴿ وَمَا كَانَ لِتَقِيرَ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كَذَبُوا كِتَابَ اللَّهِ ﴾ (سورة آل عمران : ١٤٥).

ويقول : ﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَضِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾

(سورة الرعد : ٨) .

ويقول : ﴿ لَنَسْأَلُ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ بِقَدْرِ ﴾ (سورة القمر : ٤٩) .

أما الأحاديث فكثيرة . فى مقدمتها حديث (هذا جبريلُ أتاكم يعلمكم أمراً دينكم) إذ جاء فيه : (قال وما الإيمان ؟ قال أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره) . (رواه مسلم) .

ويقول الرسول ﷺ (اعملوا فكل ميسر لما خلق له) . (رواه البخارى ومسلم

عن على رضى الله عنه) .

ويقول : (المؤمن القوى خيرٌ وأحبُّ إلى الله عزَّ وجلَّ من المؤمن الضعيف وفى كلِّ

خير . احرصْ على ما يَنْفَعُكَ واستعينْ بالله ولا تعجز . وإن أصابك شيء فلا تقلْ : لو أنى فعلتُ لكان كذا وكذا . ولكن قلْ : قدر الله وما شاء فعل ، فإن لو تفتح عمل الشيطان . (رواه مسلم) .

وعن حذيفة بن أسيد يبلغ به النبي ﷺ قال : (يَدْخُلُ الْمَلِكُ عَلَى النُّفَةِ بَعْدَ مَا تَسْتَقِرُّ فِي الرَّحِمِ بِأَرْبَعِينَ أَوْ خَمْسَةً وَأَرْبَعِينَ لَيْلَةً فيقولُ : يا ربِّ أَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ ؟ فيَكْتُبَان . فيقول : أَيْ رَبِّ : ذَكَرٌ أَوْ أَنْثَى ؟ فيَكْتُبَان . ويَكْتُبُ عَمَلُهُ وَأَثَرُهُ وَأَجَلُهُ وَرِزْقُهُ . ثم تُطَوَّى الصُّحُفُ فلا يُزَادُ فيها ولا يُنْقَصُ) . (رواه مسلم) .

أما مراتب الإيمان بالقدر فهي كمراتبه في كل شعب الإيمان الأخرى . فالإقرار شرط الإيمان ، ولا يكون الإنسان مؤمناً حتى يقرّ بأن القدر خير . وشره من عند الله . ولكن هناك درجة التسليم والرضى بقدر الله وهي مرتبة الإحسان التي يصل إليها الإنسان حين يعمق إيمانه ويرسخ ، فيعرف أن لكل قدر حكمة ، وأن قدر الله كله خير للمؤمن المستقيم على الطريق .

* * *

أثر الإيمان بالقدر على الوجه الصحيح

(١) الإيمان بالقدر - في حياة المؤمن - أقوى حافز للعمل الصالح والإقدام على عظام الأمور بثبات وعزم وثقة .

ولقد كانت الصورة الصحيحة للإيمان بالقدر في حياة الأجيال الأولى من المسلمين هي التي صنعت تلك العجائب التي سجلها تاريخهم ، والتي ثبتت الدعوة في الأرض ونشرتها على نطاق واسع في فترة وجيزة من الزمن لا مثيل لها - في قصرها - في التاريخ . وهي التي أقامت هذا البناء الشامق في كل ميدان من ميادين الحياة .

نعم ، لقد كان من أول ثماره الباهرة ذلك الاستبسال في الجهاد في سبيل الله وفي سبيل نشر الدعوة .

لقد وعى المسلمون قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ (سورة التوبة : ٥١) .

فإذا كان لا يصيب الإنسان إلا ما كتبه الله له ، سواء كان قاعداً في بيته أو في ميدان القتال ، ففهم الجبن ، وفهم الفرار من القتال خوفاً من الموت ؟ فهل القتال هو الذى يقتل ؟ أم قدر الله لإنسان ما أن يموت في لحظة معينة في حالة معينة هو الذى يمته ؟ وإذا كان كتب عليه الموت فهل يعفيه منه ألا يذهب إلى القتال ؟ وإذا كان لم يكتب عليه فهل يقتله الذهاب إلى الميدان ؟

هكذا كان الأمر في حسم فأقبلوا على الجهاد في ثقة وثبات وعزم ، وكان منهم ما سجله التاريخ من مواقف رائعة من الشجاعة والصبر على الشدة مع الاطمئنان إلى قدر الله سبحانه .

ولقد وعى المسلمون كذلك الدرس الذى نزل عليهم في سورة آل عمران بشأن غزوة أحد . حين قال المنافقون : ﴿ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ فرد عليهم ﴿ قُلْ إِنْ أَلَأَمْرَ كُفَّةٍ لِلَّهِ ﴾ وحين قالوا : ﴿ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ مِنْ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا ﴾ فرد عليهم : ﴿ قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ ﴾ وحين قال الله للمؤمنين : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُخَيِّمُ وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ٥٨ وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمُ لَغَيْرِهِ مِنْ اللَّهِ وَرَحْمَةً خَيْرٌ مِمَّا يَحْشُمُونَ ٥٩ وَلَئِنْ مَثُتُمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تَحْشُرُونَ ﴾

(سورة آل عمران : ١٥٦ - ١٥٨) .

وعوه فأيقنوا أنه لا يموت إلا من كُتِبَ عليه الموت ولو كان في مضجعه في بيته . وأنه إن لم يكن كُتِبَ عليه الموت في تلك اللحظة فكل هول الحرب وكل سهام الأعداء وسيوفهم لن تصيبه بالموت !

وأيقنوا كذلك أنه حين يكون الإنسان في القتال ويموت - بقدر من الله - فأمامه المثوبة والأجر وهو الكاسب بهذا القدر الذى قدره له الله . لذلك كان القتال في سبيل

الله أمراً محبباً إلى نفوسهم ، فنصروا الله فنصرهم وثبت أقدامهم كما وعد سبحانه :
﴿إِنْ نَصَرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَلَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ . (سورة محمد : ٧) .

كذلك كان الإيمان بالقدر على هذه الصورة هو حافزهم للانسياح في الأرض ،
سواء لنشر الدعوة ، أو طلب الرزق ، أو اكتشاف المجهول من الأرض . فكان لهم
في كل مكان ميدان من هذه الميادين نشاط ملحوظ وآثار مشهودة .

ففي نشر الدعوة نجد أن الإسلام قد امتد من المحيط غرباً إلى الهند شرقاً في فترة
من الزمن لا تتجاوز نصف قرن ١١ وهي سرعة لا مثيل لها في التاريخ ! وانتشر مع
الإسلام سلطان الدولة الإسلامية بما أربح أعداء الله ، وانتشر معه كذلك اللسان العربي
بسرعة تفوق الوصف في انتشار اللغات في الأرض .

وفي ميدان طلب الرزق تدفقت الثروات على العالم الإسلامي حتى صار المسلمون
أغنى أمة في الأرض . لأنهم يجوبون البحار والقفار تجاراً وصناعاً فيأتي إليهم المال
من كل سبيل ، وتتاح معه فرصة العمران والحضارة .

وفي ميدان الكشف الجغرافي كان المسلمون هم الذين ارتادوا البقاع المجهولة
- أول من ارتادها - ورسموا لها الخرائط الجغرافية الدقيقة التي مكنت فاسكو داجاما
وماجلان فيما بعد من القيام برحلاتهما حول أفريقيا وآسيا ، كما كشفوا منابع النيل
ورسموا خرائطه التي جاء المكتشفون الأوروبيون على هداها من بعد ليزعموا أنهم
هم المكتشفون !

وهكذا امتدت الحياة بجميع صورها شرقاً وغرباً بهذا الدافع الإيماني العميق .

(٢) والإيمان بالقدر عصمة من الوهن والجزع عند حلول المصائب :

فالإنسان عرضة دائماً لأن تصيبه النوائب والأحداث لأن هذه سنة الله في الأرض .
وما من بشر في الأرض كلها لا يصاب . على الأقل يصاب بموت عزيز عنده ، إن لم
يصب هو شخصياً بما يصيب الناس عادة من أمراض أو آلام .

ومن شأن المصائب أن تهز النفوس . وما من إنسان لا يتأثر بما يصيبه ولو كان

صلد المشاعر عديم الاكتراث . ولكن التأثير بالأحداث شيء والوهن والجزع عند حلولها شيء آخر .

لقد تأثر رسول الله ﷺ لفقد ولده إبراهيم ، ولكنه قال : (إِنَّ الْعَيْنَ لَتَدْمَعُ وَإِنَّ الْقَلْبَ لَيَحْزَنُ وَلَا نَقُولُ إِلَّا مَا يَرْضَى رَبُّنَا ، وَإِنَّا عَلَيْكَ يَا إِبْرَاهِيمَ لَمَحْزُونُونَ) .

أما الوهن الذى يفتت العزيمة ويقعد بالإنسان عن معاودة النشاط والانطلاق فى الحياة فهو الأمر غير المرغوب . وهو الذى يتعرض له الإنسان حين لا يؤمن بالقدر ولا يسلم له . لذلك يقول الله سبحانه وهو يربى المسلمين :

﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَجْعَدِ لَهُ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾
(سورة التغابن : ١١) .

﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مَقْدُورٍ إِنَّا تَنَزَّلُ الْقُرْآنَ بِكَلَمٍ مَثْوًى فِي السَّمَاءِ الْعُلَى فَاتْلُوهُ فَتَذَكَّرُوا أَنَّكُمْ أَنْتُمْ مُنْذَرُونَ ﴾ (سورة الحديد : ٢٢ - ٢٣) .

وبذلك يسترد الإنسان عزيمته ، ويمضى فى طريقه مطمئناً لقدر الله ، يستمد منه مزيداً من العزم ، ويرجو من الله التخفيف .

ولكن عقيدة القدر أصابها فى نفوس المسلمين - على مر الزمن - كثير من الانحراف فقد وجدت طوائف ضالة قالت إن الإنسان مجبر على ما يفعل ، ومن ثم فليس بمسئول ! قالت طائفة القدريّة (الجبرية) إنه ما دام كل شيء يتم بقدر الله ، ولا يتم إلا به ، فكل ما يقع من الإنسان من عمل هو مقدر عليه بحيث لا يملك إلا أن يعمل . فأرادته إذن متنفية فلا مجال لمحاسبته على ما يفعل ! والسلف الصالح لم يفهم قط من عقيدة القدر هذا الفهم الخاطئ الذى يلغى مسئولية الإنسان عن عمله

فهم السلف الصالح للقدر

لقد فهم المسلمون من درس أحد أن ما وقع لهم كان مقدراً لهم من عند الله ، ولكنه كان فى ذات الوقت من عند أنفسهم بسبب معصيتهم للرسول ﷺ : ﴿ أَوَلَمْ أَنْبِتْكُمْ مِصْبَةَ قَدَاصِهِمْ تَبَيَّنَتْ لَهُمْ أَنَّ هَذَا قُلُوبُومِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ وَمَا أَصَبَكُمْ يَوْمَ الْقَدَرِ

اَلْمُعَانِ فَاِذْنِ اللّٰهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِيْنَ وَلِيَعْلَمَ الَّذِيْنَ نَافَقُوْۤا ﴿ (سورة آل عمران : ١٦٥ - ١٦٦) .

فلا تعارض في حس المؤمن الصحيح الإيمان بين الإيمان بقدر الله وتحمل الإنسان مسئولية عمله وتعرضه للحساب عليه .

وإن الاحتجاج بالقدر على الكفر أو المعصية أو العجز والقيود عن العمل ليس هو السبيل الصحيح للمؤمنين . إنما يندد القرآن بالمشركين لأنهم قالوا مثل هذا تبريراً لكفرهم .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذِبٌ لِّهَؤُلَاءِ فِيهِ ﴿٣٥﴾ ﴾

﴿ سَبِّحُوا الَّذِينَ آتَوْكُمُ الْقُرْآنَ أَفْهَمَ مِمَّا آتَوْكُمُوهُ وَلَا يَزِيدُكُمْ حَسْبًا وَلَا أَكْثَرًا ۚ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا كَذَّبُوا الْقُرْآنَ بِأُولَٰئِكَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ۚ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ أَسْمَائِهِمْ سُرًّا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ ۚ فَلَهُمْ حُزْنَ فَلْهُمُ أَصْغَرُ ۚ ﴾ (سورة الأنعام : ١٤٨ - ١٤٩) .

فهل يملك أولئك المشركون الذين يلقون تبعة شركهم على الله سبحانه وتعالى
دليلاً على أن الله منعهم من الإيمان وهم راغبون فيه ؟

حقيقة إن الله قد قدر ألا يكون الناس أمة واحدة (على الإيمان وعلى الكفر سواء) ولو شاء سبحانه لهدى الناس أجمعين . ولكنه قدر أن يترك للإنسان اختيار طريقه ، بعد أن عرفه طريق الهدى وطريق الضلال ، وأعطاه القدرة على الاختيار بينهما . ﴿وَفَنسٍ وَمَا سَوَّيْنَاهَا ۝ فَاَلْمَهَا فجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ (سورة الشمس: ٧-١٠) . فمن آمن فقد زكى نفسه ، ومن كفر فقد دساها .

وإذا كان القدرية قد انحرفوا في عقيدة القدر بشأن الحساب يوم القيامة ، فإن
 جموع المسلمين قد انحرفت في العصور الأخيرة في عقيدة القدر بشأن ما يجري في
 الحياة الدنيا .

لقد أصابهم التواكل فيما أصابهم من انحرافات . وأدى بهم التواكل إلى العجز والكسل والقفود .

لقد فهموا من معنى أنه لا يحدث في الكون إلا ما يريد الله ، أنه لا حاجة للإنسان أن يعمل ! فإن قدر الله ماضي سواء عمل الإنسان أو لم يعمل ! فلا ضرورة للكد في طلب الرزق لأن « مالك سوف يأتيك » ! ولا ضرورة للنشاط والحركة لأنها في زعمهم ضد التوكل الصحيح !!

كما فهموا كذلك من معنى التسليم لقدر الله القعود عن تغيير ما أصاب الإنسان من فقر أو مرض أو جهل أو حتى معصية ! لأن كل ذلك مقدر من عند الله فلا ينبغي مقاومته إنما ينبغي الاستسلام له !

وهذا التواكل وهذه السلبية ليست من الإسلام في شيء على الإطلاق ! وإلا فلو كانت من الإسلام فكيف غابت عن الرسول ﷺ وعن صحبه الكرام الذين تلقوا عنه المفاهيم الصحيحة لهذا الدين !؟
مرة أخرى نعود إلى درس وقعة أحد ..

فقد وعى المسلمون من الدرس كما أسلفنا أن كون الهزيمة تمت بقدر من الله لا ينفي أنها في ذات الوقت « من عند أنفسكم » . أي أن وقوع شيء بقدر الله لا ينفي مسئولية الإنسان عن خطئه . فليس لمخطيء أن يهز كتفيه ويقول : إنما وقع الخطأ مني بقدر من الله ! ولو قدر الله ألا أخطئ لما أخطأت ! فلست مسئولاً عن الخطأ !

كلا ! إن العقيدة الصحيحة للمؤمن لا يتنافى فيها أن يكون الحدث مقدرًا من عند الله وأن يكون الإنسان مسئولاً عن عمله في ذات الوقت ..

كذلك وعى المسلمون من وقعة أحد وأحداثها درساً آخر ..

إن عليهم أن يسلموا لقدر الله .. ولكن ما معنى التسليم ؟ هل معناه القعود عن تغيير ما أصابهم ، ولو أنه قد أصابهم بقدر من الله ؟

إنما قال لهم : ﴿ فَاتَّبِعُوا عَمَّا يُنْفِرُ لِكَيْ لَا تَكُونَ مِمَّنْ ظَنُّوا أَنَّهُمْ لَا مَسَّ لَكُمْ بِهِمْ ﴾

(سورة آل عمران : ١٥٣) .

فالحزن يفتت العزيمة ويوهنها . وهو الأمر الذي لا يريده الله لهم . فوجههم

إلى التسليم بقدر الله لكيلا يحزنوا وتتفتت عزيمتهم . ولكن هل طلب منهم الاستسلام لما أصابهم بمعنى عدم العمل على تغييره ؟!

إن أحداث المعركة سارت في خط مختلف تماماً . فقد جمع الرسول ﷺ مشاعر المسلمين وعزائمهم كما جمع صفوفهم ليدخل بهم المعركة مرة أخرى على أثر الهزيمة . وفي ذلك يقول القرآن :

﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْكَمُوا مِنْهُ وَانْقَرَأَ أَجْرٌ عَظِيمٌ ۝
الَّذِينَ قَالَ لَهُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ۝
يَنْفِكُ مِنَ اللَّهِ وَفَضِيلَ لَمْ يَنْسَهُمْ سُوءُ مَا اتَّبَعُوا رِضْوَانِ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾

(سورة آل عمران : ١٧٢ - ١٧٤) .

لقد صرف الله أعداءهم فلم تقع المعركة . ولكنهم كانوا قد استعدوا للقتال تماماً . استعدوا له بأرواحهم ومشاعرهم ، فجمعوا عزائمهم رغم تخويف الناس لهم وعزموا على لقاء العدو متكئين على الله . وهذا هو التوكل الحق الذي يطلبه الله من المسلمين . إن القعود عن تغيير الأمر الواقع بحجة أنه واقع بقدر من الله جهالة عظيمة لا تنبغى للمسلم . نعم إن ما وقع بالفعل قد وقع بقدر من الله - وإن كان لا ينفي مسئولية الإنسان - ولكن من يعلم ما يكون عليه قدر الله غداً ، بل في اللحظة القادمة ؟ هل علم ذلك القاعد المتواكل أن قدر الله القادم لن يكون مغايراً لقدر الله الواقع ؟! أليس في الاحتمال ان الله قد قدر للحظة القادمة قدراً غير القدر الذي كان في اللحظة الماضية ؟ فكيف يقعد عن العمل بزعم أنه متوكل على الله مستسلم لقدره ؟

ثم إن توجيهات القرآن للمسلمين منافية للتواكل تماماً .

أنظر هذه الآية من سورة الأنفال: ﴿وَلَا يَخْشَى الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْزِرُونَ﴾
(سورة الأنفال : ٥٩) .

فما معناها ؟ معناها أن الكفار الذين يرغبون في إزالة هذا الدين من الأرض وعدم التمكين له لن يسبقوا قدر الله الذي قدر لهذا الدين التمكين والظهور : ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ

يَهْدِي وَيُذِي الْحَقَّ لِظُهُرِهِمْ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿ (سورة الصف : ٩) . ولن يعجزوا الله عن تنفيذ قدره الذي قدره بالتمكين لهذا الدين .

فهل معنى ذلك التواكل على قدر الله وعدم الأخذ بالأسباب ، ما دام الله قد قدر هزيمة الكفار في محاولتهم ، وقدر النصر والتمكين لهذا الدين ؟

انظر إلى الآية التالية مباشرة تجد فيها الجواب : ﴿ وَأَعِذُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَسْلُوبُهُمْ اللَّهُ بِعَبْلِهِمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَغْلِبُونَ ﴾ (سورة الأنفال : ٦٠) .

إذن - وقدر الله مؤكد الوقوع ، وهزيمة الكفار مقدرة ومقررة - لا بد من الأخذ بالأسباب . لا بد من إعداد القوة والجهاد بالأنفس والأموال .

ذلك هو الفهم الصحيح لعقيدة القدر كما فهمها الجيل الأول من المسلمين رضوان الله عليهم . لا تنفى مسئولية الإنسان عن عمله ، ولا تدعو إلى القعود عن تغيير الواقع ، ولا تدعو إلى التواكل وعدم الأخذ بالأسباب انتظاراً لقدر الله !

وذلك هو الفهم الذى ينبغى أن يعود المسلمون إليه ، ليزول عنهم ما أصابهم من فقر وجهل ومرض وتواكل وعجز ، وما ترتب على ذلك كله من غلبة عدوهم عليهم ، وهوانهم على أنفسهم وعلى الناس !

وكتاب الله وسنة رسوله ﷺ هما المرجع الذى ينبغى أن نرجع إليه من أجل تصحيح مسيرتنا كلما انحرفت خطواتنا على الطريق .

خاتمة

العقيدة الإسلامية

تحدثنا فى هذا الكتاب والكتابين السابقين عن أركان العقيدة الإسلامية :
الإيمان بالله والملائكة والكتاب والنبين واليوم الآخر والقدر خيره وشره .
ونريد هنا أن نختم حديثنا بكلمة عامة عن العقيدة الإسلامية نتحدث فيها عن
خصائصها وأثرها فى الحياة الإنسانية .

(١)

خصائصها

إن هذه العقيدة - بادية ذى بدء - هى العقيدة التى ارتضاها الله لنا وأنعم بها علينا :
﴿ أَتَوَمَّ أَكُنتُمْ لَكَ دِينُكُمْ وَأَنْتُمْ عَلَىٰ نَفْسٍ وَرَضِيتُمْ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾
(سورة المائدة : ٣) .

وهى من ثم منهج الحياة الصحيح الذى رسمه الله لنا لنفوز بنجى الدنيا والآخرة ،
ولنكون محققين لشروط الخلافة التى خلقنا الله من أجلها : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ
فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ (سورة البقرة : ٣٠) . ولنقوم بعمارة الأرض على الوجه الذى أراده
الله : ﴿ هُوَ أَنْشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ (سورة هود : ٦١) . فى حدود العبادة لله
التي هى غاية الوجود الإنسانى كله : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾
(سورة الذاريات : ٥٦) .

وهذه الصورة المجملة تعطينا لمحة عن خصائص هذه العقيدة ، وهى الشمول
والتكامل ، والتوازن .

ولنتحدث عن كل من هذه الخصائص بإيجاز :

أولاً - الشمول :

إن هذه العقيدة تشمل الإنسان كله ، جسمه وعقله وروحه . كما تشمل سلوكه وفكره ومشاعره . كما تشمل دنياه وآخرته .

ليس في كيان الإنسان ولا في حياته شيء لا يتصل بهذه العقيدة ولا تتصل العقيدة به . إنها تصاحبه في كل لحظة من لحظات حياته ، وفي كل عمل يعمل به ، أو فكر يفكره ، أو شعور يختلج في ضميره .

أليس الركن الأول من هذه العقيدة هو الإيمان بالله ؟ بلى ! وإن الصورة المثلى للإيمان بالله ، كما نراها ممثلة في سيرة الرسول ﷺ ، هي اتصال القلب الدائم بالله ، في كل لحظة وفي كل عمل أو فكر أو شعور !

وقد لا نقدر نحن على ذلك كما كان يقدر عليه الرسول ﷺ . ومن رحمة الله بنا أنه لا يكلفنا فوق طاقتنا ، ويقول لنا « فاتقوا الله ما استطعتم » ويقول لنا الرسول ﷺ (سدّدوا وقاربوا) . ولكن هذا لا ينفي الأصل في هذه العقيدة ، وهو الشمول . ويتضح لنا الشمول في مجالات متعددة ، وعلى محاور مختلفة ، تلتقي كلها في النهاية :

(١) ففي مجال الاعتقاد تشمل - كما رأينا - الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والنبين والكتب السماوية والقدر خيره وشره .

(٢) وفي مجال العمل تشمل العمل للدنيا والعمل للآخرة في ذات الوقت .

(٣) وفي مجال الكائنات البشرية تشمل حركة جسمه وتفكير عقله وانطلاقة روحه .

(٤) وفي مجال المجموع البشري تشمل الفرد والجماعة والأمة والدولة في ذات الوقت .

(٥) وفي مجال العلاقات تشمل علاقة الإنسان بربه وعلاقته بنفسه وعلاقته بغيره

(في داخل الأسرة وفي داخل المجتمع وفيما بين المسلمين وغير المسلمين ، وفيما بين الإنسان والكون كذلك !) .

ولن توجد دائرة أوسع من هذه ولا أشمل . لأن هذه تشمل كل شيء في الوجود !

ثانياً - التكامل (أو الترابط) :

إن هذه العقيدة لا تتسم بالشمول الذى ذكرنا مجالاته ومحاوره المختلفة فحسب ، بل بالتكامل والترابط كذلك . وهذه مستقلة عن الشمول ، وإن كانت وثيقة الصلة به . ولنأخذ هذه المجالات واحداً واحداً لنرى أثر الترابط فيه بالإضافة إلى الشمول .

(١) فى مجال الاعتقاد :

قلنا إنها تشمل الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبين والقدر خيره وشره . ولكن الشمول فى ذاته لا يعنى ترابط هذه المعتقدات بعضها ببعض . فقد تكون موجودة بعضها إلى جوار بعض ، دون ترابط بين أركانها المختلفة ، كل منها يعمل فى حقل مستقل غير مرتبط بالآخر . وليس هذا هو الحال فى هذه العقيدة . فإن كل ركن من هذه الأركان ذو صلة وثيقة بسائرها ، بحيث تكون فى النهاية كلاً متكاملاً ، يؤثر بمجموعه المترابط فى حياة الإنسان .

وإن شئت الدقة فقل إن سائر أركان العقيدة الإسلامية مرتبط بركانها الأول وهو الأكبر وهو الإيمان بالله .

فالإيمان بالله هو الأساس ، وهو لب العقيدة وصلبها ، ثم تأنى بقية الأركان فتتصل به فتكامل .

فالإيمان باليوم الآخر - كما رأينا فى حديثنا عنه - مرتبط بعدل الله وحكمته وبالحق الذى خلق الله به السماوات والأرض ، وخلق به الحياة والموت . أى أنه مرتبط ارتباطاً مباشراً بتصورنا لصفات الله جل وعلا ، بحيث يصبح تصورنا لها ناقصاً ومختلاً إذا لم تؤمن بذلك اليوم الذى يحق فيه الحق وتكتمل الصورة ويصل كل شئ فيه إلى دلالة الحقيقية الكاملة .

والإيمان بالملائكة متصل بقدرة الله من جانب : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةَ رُسُلًا أُولَى أَبْجَهِ مَشْنَى وَتِلْكَ وَرُبِّعٌ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (فاطر : ١) . ومتصل بمعرفة المنهج الذى يريد الله أن تسير حياتنا عليه من جانب آخر ، لأنهم

هم الرسل الذين يرسلهم الله ليلغوا وحيه لمن يختارهم من البشر لهداية البشرية .
وبذلك لا يكون الإيمان بالملائكة ركناً منفصلاً في هذه العقيدة قائماً بذاته
وإنما هو متصل بالإيمان بالله ، ومترايط مع بقية الأركان .

ونستطيع على هذا الضوء أن ندرك ترابط بقية الأركان بعضها ببعض ، وترابط
سائرنا بالإيمان بالله . فالإيمان بالكتب متصل مباشرة بالمنهج الرباني أى بما يشرعه
الله للبشر لتستقيم حياتهم في الدنيا والآخرة . وكذلك الإيمان بالنبين ، لأنهم هم
الذين يحملون إلينا المنهج الرباني بما يوحى الله إليهم عن طريق ملائكته .

أما الإيمان بالقدر فقد رأينا في حديثنا القريب عنه كيف أنه متصل بإيماننا بوحداية
الله مباشرة ، لأنه هو الإجابة المباشرة على هذا السؤال : هل هناك في الكون من يشترك
مع الله في تدبير شئونه وإجراء أحداثه ، أم أنه هو الله وحده ؟
وبذلك يتضح لنا الترابط جلياً بين هذه الأركان كلها في مجال الاعتقاد .

(٢) وفي مجال العمل :

قلنا إن العقيدة تشمل العمل للدنيا والعمل للآخرة في ذات الوقت . وهنا نقول
إن من خصائص هذه العقيدة أنها لا تفصل بين العمل للدنيا والعمل للآخرة .
فليس هناك في الإسلام عمل هو للدنيا وحدها وعمل هو للآخرة وحدها ! إنما الأعمال
كلها للدنيا والآخرة في وقت واحد .

العبادات التي يظن أنها للآخرة وحدها ، كلها ذات مقتضى متصل بالحياة الدنيا :
﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾ (سورة العنكبوت : ٤٥) . أى هنا في الحياة الدنيا
﴿ كَتَبَ عَلَيْكُمْ الصِّيَامُ كَمَا كَتَبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (سورة البقرة :
١٨٣) . وهكذا في سائر العبادات هي للآخرة وفي ذات الوقت لها غاية تتحقق هنا في الأرض .
والأعمال التي يظن أنها للدنيا وحدها من جانب آخر كالطعام والشراب والملبس
والمسكن والجنس وعمارة الأرض .. إلخ كلها تعمل في الدنيا ولكن يشترط فيها
شروط تربطها بالآخرة . يشترط فيها التزام الحلال والحرام والالتزام بأمر الله من

أجل الثواب أو العقاب الذى يترتب على ذلك فى الآخرة . وكلها فى نظر الإسلام « عبادة » متى ما روعى فيها الالتزام بأمر الله ، وتوجه بها الإنسان إلى الله . بل هى « العبادة » التى تشير إليها الآية : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (سورة الذاريات : ٥٦) . والآيتان الأخريان : ﴿ فَلَا تَبْصُلُونَهُ إِنَّهُ عَلَى الْعَرْشِ مُتَّكِئٌ وَمَلَأَ الْمَقَامَاتِ ۚ وَهُوَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مُبِينٌ ﴾ (سورة الأنعام : ١٦٢ - ١٦٣) .

وبذلك تتصل الدنيا والآخرة وترابط فى عقيدة الإسلام .

(٣) وفى مجال الكائن البشرى :

قلنا إنها تشمل حركة جسمه وتفكر عقله وانطلاقة روحه . ولكن هذه ليست مستقلة بعضها عن بعض . صحيح أن هناك ساعة تغلب فيها حركة الجسم كالطعام والشراب والجنس وساعة يغلب فيها تفكر العقل كساعات التأمل أو ساعات التفكير فى شأن من شئون العلم أو العمل ، وساعة تغلب فيها انطلاقة الروح كساعة التعبد . ولكن الإسلام لا يدع واحدة من هذه تنفصل انفصلاً كاملاً بحيث تنقطع صلتها عن الباقيات .

فى الطعام والشراب والجنس .. إلخ ، يتحرى الإنسان الحرام والحلال ويذكر اسم الله . فلا تعود حركة جسد مستقلة !

وفى التفكير كذلك يتوقى الإنسان التفكير الشرير ويتحرى التفكير الخير ، ويتقى الله . فلا يعود تفكراً عقلياً خالصاً !

وفى العبادة الإسلامية يتحرك الجسد ويعمل العقل مع انطلاقة الروح . وخذ الصلاة مثلاً . إنها ليست انطلاقة روح مستقلة . إنما يشارك فيها الجسم بالقيام والقعود والركوع والسجود ! ويشارك فيها الفكر بالتدبر فى آيات الله ، ويقول الرسول ﷺ ، (لَيْسَ لَكَ مِنْ صَلَاتِكَ إِلَّا مَا وَعَيْتَ) .

وبذلك يترابط الكائن البشرى كله فى أداء متطلبات هذه العقيدة فلا ينفصل جسمه عن عقله أو عن روحه !

(٤) وفي مجال المجموع البشري :

قلنا إنها تشمل الفرد والجماعة والأمة والدولة .. ونقول هنا إن هذه العقيدة لا تأخذ أيّاً من هذه بمعزل عن الأخرى . فهي لا تنشئ الفرد الصالح بمعايير ، والجماعة الصالحة بمعايير أخرى . إنما هي ذات المعايير وإن اختلفت التكاليف بين الفرد والجماعة . المعايير هي الإيمان بالله وتقوى الله والالتزام بما أنزل الله . ثم تكون بعد ذلك تكاليف يقوم بها الفرد بمفرده وتكاليف أخرى تقوم بها الجماعة مجتمعة . ولكن يلتقى الفرد والمجموع معاً على أسس واحدة وتربية ذات اتجاه موحد . ومن ثم لا تفرق الأمة - حين تلتقى - إلى طوائف وشيع متنافرة كل منها يعمل في اتجاه ، ولا إلى فرد متخاصم مع المجموع . ولا تتحول كما يحدث في الجاهليتين المعاصرتين في الغرب والشرق إلى فرد طاغ ومجموع مفكك ، أو مجموع طاغ وفرد مسحوق !

وكذلك تلتقى الأمة والدولة على أمر واحد ، هو عبادة الله والحكم بما أنزل الله ، وهو أمر من صلب الاعتقاد ، لقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَجْعَلْ يَمَّا أُنْزِلَ اللَّهُ فَالْوَلِيَّكُمْ مُرَ الْكُفْرُونَ ﴾ (سورة المائدة : ٤٤) . وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهو مقتضى الإيمان بالله لقوله تعالى : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ (سورة آل عمران : ١١٠) . فيحدث الترابط بينهما والاتفاق .

(٥) وفي مجال العلاقات :

قلنا إنها تشمل علاقة الإنسان بربه وعلاقته بنفسه وعلاقته بالآخرين . وهنا نقول إن هذه كلها ترابط وتلتقى عن طريق المحور المشترك فيها جميعاً وهو الإيمان بالله وعبادته . فعلاقة الإنسان بربه هي الإيمان والعبادة . وعلاقته بنفسه هي تركيتها والتركية تتم عن طريق الإيمان والعبادة وعن طريق الالتزام بأوامر الله وهو مقتضى الإيمان والعبادة . وعلاقته (أو علاقاته) بغيره تتم كلها عن طريق تنفيذ أوامر الله والتحاكم إلى ما أنزل الله .

وبذلك تنتظم العلاقات كلها في سلك واحد قوامه الإيمان بالله ..

وهكذا يبدو الترابط والتكامل بين أركان هذه العقيدة على جميع المحاور وفي جميع المجالات .

ثالثاً - التوازن :

مع شمول هذه العقيدة وترابطها فهي تنسم أيضاً بالتوازن .

ويبدو هذا التوازن كذلك على مجموعة من المحاور المختلفة ومجموعة من المجالات :

١ - توازن بين الروح والجسد أو عالم المعنويات وعالم الحس .

٢ - توازن بين عالم الغيب وعالم الشهادة .

٣ - توازن بين الدنيا والآخرة .

٤ - توازن بين الإيمان بالقدر والأخذ بالأسباب .

٥ - توازن بين جوانب الحياة المختلفة : السياسية والاقتصادية والاجتماعية .. الخ .

ولنقل كلمة سريعة عن كل مجال من هذه المجالات :

- ١ - الإنسان قبضة من طين الأرض ونفخة من روح الله . وهناك توازن دقيق بين عنصريه المكونين له ، يختل إذا أعطينا أحدهما من العناية والالتفات أكثر من حقه . والجاهليات دائماً تختل في هذا الأمر فتؤكد على جانب الروح وحدها كالهندوكية والبوذية أو جانب الجسد وحده كالجاهلية المعاصرة في شرق أوروبا وغربها سواء . ومن خصائص العقيدة الإسلامية أنها توازن بينهما التوازن الصحيح . فمن ناحية هي تخرج بين عالم الجسد وعالم الروح وتشركهما معاً في مجال العمل ومجال التعبد سواء ، ومن ناحية أخرى تعطي كلاً منهما حقه . فلا تشغل الإنسان بعالم الحس وتكبت روحه كالجاهلية المعاصرة ، ولا تشغله بأمور روحه على حساب كيانه المادى ومطالب جسده كالجاهلية الهندوكية والبوذية : (ألا إني لأخشاكم لله ولكنني أصوم وأفطر ، وأقوم وأنام وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني) . (رواه الشيخان) . وتقوم الحضارة الإسلامية المنبثقة من العقيدة على أساس الجانب المادى والجانب الروحي سواء .
- ٢ - يتطلب الإسلام الإيمان بالغيب ، لأنه عن طريقه يؤمن بالله واليوم الآخر ،

ولكنه لا يطلب منه أن يهمل عالم الشهود . بل إنه في عرضه لحقائق العقيدة يكثر من الإشارة إلى آيات الله في الكون لكي يتدبرها الإنسان ويصل عن طريق تدبرها إلى الإيمان بالله . ومن هنا لا يلجأ الإسلام إلى الغيبوبة الروحية التي يقع فيها بعض المتطرفين في العبادة زعماً منهم أنهم يستغنون بشهود الذات الإلهية عن شهود الكون الذي خلقه الله ، وكذلك لا يقبل أن ينشغل الإنسان بالكون المشهود عن عالم الغيب فيقطع صلته بالله واليوم الآخر كما تصنع جاهلية اليوم .

٣ - قلنا من قبل إن الإسلام لا يفصل بين الدنيا والآخرة . ونقول هنا إن هذا الربط ذاته هو الذي يوازن بين الدنيا والآخرة في هذه العقيدة إذ يحدث عدم التوازن حين تنفصل الدنيا عن الآخرة في حس الإنسان ، فيقوم بأعمال على أنها للدنيا وحدها منفصلة عن الآخرة ، وأعمال أخرى على أنها للآخرة وحدها منفصلة عن الدنيا . عندئذ لا بد أن يحدث الاختلال في حسه فتغلب مجموعة من الأعمال على الأخرى . فإما أن تجذبه الدنيا رويداً رويداً حتى ينسى الآخرة ، وإما أن تجذبه الآخرة رويداً رويداً حتى ينسى الدنيا . وكلاهما في نظر الإسلام اختلال . فالأول ينشغل بالسعى وراء الرزق والحصول على أكبر قدر من متاع الدنيا ، والآخر يزهد في متاع الدنيا وينشغل عن طلب الرزق وتعمير الأرض . ويصبح كل منهما متصراً وآثماً في حق الله .

إنما يحدث التوازن الذي تشير إليه الآية : ﴿ وَأَنْشِغْ فِيهَا أَنْتَ أَفْهَ الدَّارِ الْآخِرَةِ وَلَا تَنْسَ نَسِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾ (سورة القصص: ٧٧) . حين ترتبط الدنيا والآخرة في حس الإنسان فيعمل للآخرة وهو يعمل للدنيا في ذات الوقت . فلا يهمل العبادة ولا يهمل عمارة الأرض .

٤ - تحدثنا في باب الإيمان بالقدر عن التوازن في حس المسلم بين الإيمان بالقدر وبين الأخذ بالأسباب . وهو من أجمل خصائص العقيدة الإسلامية . إن المتواكلين يزعمون أنهم يتوكلون على الله ثم يهملون الأخذ بالأسباب جملة فيصيبهم ما يصيبهم من فقر ومرض وجهل وعجز وهوان في الأرض . وإن الجاهلية الأوربية من جانب آخر تأخذ بالأسباب منقطعة عن الله وقدره ، فتنتج إنتاجاً مادياً ضخماً وتكفر في ذات

الوقت وتنحط أحلامها وتهبط إنسانيتها إلى الحضيض ، ثم يصيبها ما يصيبها من قلق واضطراب وأمراض عصبية ونفسية وجنون وانتحار وضياح لأنها تفقد الطمأنينة التي يجدها المؤمن لذكر الله ولقدر الله .

والإسلام يوازن موازنة جميلة بين هذين الحدين المتطرفين . فهو يعلم الناس أن هناك سنناً ربانية يدير الله بها الكون المادى والحياة البشرية . وأنه لا بد من اتباع هذه السنن ومجاراتها إذا رغبتنا في الوصول إلى نتائج معينة ، ومقتضى ذلك هو الأخذ بالأسباب . ولكنه في الوقت ذاته يربى المؤمن على ألا يتكل على الأسباب الظاهرة فيحبط عمله . إنما يظل قلبه موصولاً بالله ، متطلعاً إليه أن ينجح مسعاه ويوصله إلى النتائج المرغوبة . ويعلمه أن هذه السنن هي من قدر الله ولكنها لا تحد من مشيئة الإنسان التي أودعها الله فيه . وبذلك يتوازن الإنسان في سعيه في الأرض ، لا يهمل الأسباب ويتواكل ، ولا يكف عن التطلع إلى قدر الله .

هـ - أخيراً نقول إن هذه العقيدة توازن بين جوانب الحياة الإنسانية المختلفة فلا يطفى منها جانب على جانب . فكما أن الجانب الروحي لا يطفى على الجانب المادى ، فكذلك لا يطفى الجانب السياسى على الاقتصادى . ولا الاقتصادى على الخلقى .. وهكذا . بل تتوازن جوانب الحياة كلها على محور العقيدة الرئيسى الذى مقتضاه الإيمان بالله والالتزام بما أنزل الله ، فتسير كلها متوازنة متوازنة في آن واحد .

(٢)

أثرها في الحياة

الإنسانية

في إمكاننا أن نحكم على أثر هذه العقيدة في الحياة الإنسانية من الواقع التاريخي للأمة الإسلامية التي اعتنقتها وعاشت بها في دنيا الواقع . فإن من فضل الله على هذه الرسالة التي ارتضاها الله للمسلمين ديناً أن منحها واقعاً تاريخياً ضخماً طبقت

فيه فى واقع الحياة ، فلم تعد مجرد شعارات ، ولا مثلاً خيالية ، بل واقعاً مشهوداً يحفظه التاريخ .

ويكفى من آثارها أن تكون قد أخرجت « خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ » فى التاريخ البشرى كله ، لأنها طبقت القرآن فى واقع حياتها ، وأصبحت ترجماناً له بالقدر الذى يتيسر للبشر أن يبلغوه فى حدود بشريتهم .

لذلك يكفيننا أن ندرس الواقع التاريخى لهذه الأمة خاصة فى أجيالها الأولى ، وجيلها الأول على وجه أخص ، لتتعرّف على أثر العقيدة الإسلامية فى الحياة الإنسانية فى صورة واقعية .

إن أبرز ما فى هذه العقيدة هو التوحيد : ويتضح لنا من دراسة الواقع التاريخى أن التوحيد ذو أثر ضخم فى حياة الإنسان حينما يعيشه واقعاً فكرياً وشعورياً وسلوكياً . وأن الإنسان يستطيع حينما يتشبع بالتوحيد على هذه الصورة أن يبذل من الجهد وأن يأتى من الأعمال ما لا يستطيعه الإنسان العادى الخاوى من العقيدة .

لو تصورنا جهازاً ما أخذ شحنته الكهربائية المضبوطة من مصدر صاف لا خلل فيه ولا اضطراب ، فقام بمهمته على الوجه الأكمل .. إن هذه أقرب صورة للإنسان المؤمن بعقيدة التوحيد الصافية إيماناً صحيحاً . إنه يأخذ « شحنته » الكاملة من العقيدة ، فيعمل بطاقة الكاملة ويؤدى مهمته على الوجه الأكمل ، لأنه « فى أحسن تقويم » . إن النماذج الفريدة التى صنعها الإسلام فى جيله الأول على وجه الخصوص ، هى نماذج فذة بالنسبة للتاريخ البشرى كله . وإنها ليست محصورة فى أبى بكر وعمر وعثمان وعلى رضى الله عنهم ، ولا فى تلك الأسماء اللامعة التى يحفظها التاريخ - وإن كانت هذه الأسماء فى قمة البشرية جميعاً - ولكنها تشمل ألوفاً وألوفاً غيرهم ، لم يتسع التاريخ لذكر أسمائهم واحداً واحداً ، أو قل : إن تاريخ هذه الأمة كان من الثراء بحيث اكتفى المؤرخون بذكر القمم الشاهقة واكتفوا بإشارات عابرة إلى القمم الأخرى لأنها كانت شيئاً عادياً فى نظرهم بالقياس إلى أثر هذه العقيدة فى النفوس !

كيف نقول في ذلك الجندى الذى خرج يقاتل في سبيل الله وفي يده تمرات
فيقول لئن بقيت حتى آكلها كلها إن هذا لأمر يطول ! فيلقى بها ليستشهد في سبيل
الله ، وينال الشهادة بالفعل ؟

وكيف نقول في ذلك المقاتل - في حرب فارس - الذى لبس درعه فإذا فيه ثلثة
صغيرة فنبهه إخوانه إليها ويدعونه إلى تغيير الدرع . فيقول باسمًا : إني لكريم على
الله إن أصبت من هذا الموضع ! فيدخل المعركة فيصيبه سهم فيدخل في الثلثة ..
فيستشهد وهو قرير العين شاعر بأنه كريم على الله لأنه لبي رغبته في الشهادة !

وكيف نقول في الذين تجمعوا حول تمرات يأكلونها هي كل ما يملكون من الزاد
فيدخل عليهم ضيف فيطعمي صاحب البيت المصباح ويقدم له التمرات ، حتى لا يكتشف
الضيف أنها كل الزاد الموجود فيمتنع عن الطعام ، فيترل الله فيهم قوله : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا
الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قُلُوبِهِمْ يُخْشَوْنَ مِنْ هَاجِرٍ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ
وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ (سورة الحشر : ٩) .

ألوف وألوف من النماذج في كل اتجاه ، كلها قمم على أعلى مستوى بلغته البشرية .
ولنحاول هنا أن نلخص أبرز آثار العقيدة في حياة الأمة المسلمة في نقاط محدودة ،
ثم نخرج على بعض آثارها في بقية البشرية ممن لم يعتنقوا هذا الدين :

١ - عمق الشعور بتقوى الله وخشيته ، والخوف من حسابه يوم القيامة ، وما ترتب
على ذلك من انضباط السلوك وحساسية الضمير تجاه مسئولية الإنسان عن أعماله .
ولنأخذ نموذجاً لذلك موقف عمر رضى الله عنه من الدريهمات التى كان يتقاضاها
من بيت المال ، وقولته الشهيرة (لو عثرت بغلة بصنعاء لكنت مسئولاً عنها لِمَ لِمَ أَسْوَ
لها الطريق) !

٢ - صدق الجهاد في سبيل الله بالأنفس والأموال ، وما ترتب على ذلك من
التمكين لهذا الدين في الأرض ، والعجائب التى تكررت في الفتوح الإسلامية من
انتصار الفئة القليلة على أضعاف أضعافها في العدد والعدة .

٣ - تقرير مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وما يترتب عليه من رقابة الأمة على الحاكم لتعينه إذا أحسن وتقوّمه إذا أساء .

٤ - تقرير مبدأ التكافل الاجتماعي في الأمة ، وما يترتب عليه من تماسك هذه الأمة وتعاونها على الخير وخلوها من الضغائن والأحقاد التي تفتت الأمم وتذهب ريحها ، وانتشار روح البر في المجتمع الإسلامي مما تبدّى في الأوقاف (الأحباس) الكثيرة التي وقفها المسلمون لأعمال البر .

٥ - الوفاء بالمواثيق ، وهي خصيصة نادرة في التاريخ البشري لم تتوفر لأحدٍ كما توفرت للأمة الإسلامية .

٦ - تطبيق العدل الرباني في واقع الأرض مما لا مثيل له في تاريخ الشعوب ، وخاصة بين المسلمين وغير المسلمين ، وبين الفاتحين والبلاد المفتوحة .

٧ - التسامح الديني مع الطوائف غير المسلمة في ظل الحكم الإسلامي .

٨ - المحافظة على الأخلاق في المجتمع الإسلامي حتى حين انحرف المسلمون درجات من الانحراف ، فقد ظلت نسبة الفاحشة فيهم أقل ما عرفته البشرية في أي شعب من شعوبها ، وكذلك الخمر . وظلت التقاليد الإسلامية والمحافظة على الأعراض سارية في المجتمع إلى عهد جد قريب^(١) .

٩ - النشاط الحركي الفذ الذي نشر الدعوة في أرجاء واسعة من الأرض في زمن شديد القصر ونشر معها اللسان العربي .

١٠ - الحركة العلمية الضخمة التي قام بها المسلمون بتوجيهات القرآن وتوجيهات الرسول ﷺ ، وأبرز ما فيها تحويل العلم من نظريات إلى منهج تجريبي قائم على المشاهدة والملاحظة والتجربة . وتحويله من النظرة الذاتية التي كانت تمثلها الفلسفة إلى النظرية الموضوعية .

(١) حتى تخلت بعض الشعوب الإسلامية عن إسلامها ، ودخلت في الجاهلية المعاصرة باسم التقدم والرفق .

١١ - الحركة الحضارية الإسلامية التي امتدت في جميع نواحي الحياة ، وأبرز ما فيها أنها حضارة روحية مادية في ذات الوقت لا تفصل بين مطالب الروح ومطالب الجسد ، ولا تفصل بين الدنيا والآخرة .

١٢ - تحقيق معنى « الأمة » في واقع الأرض . الأمة التي تلتقي على العقيدة في الله قبل أن تلتقي على الأرض واللغة والجنس والمصالح والتي جعلت المسلم يتنقل في بلاد العالم الإسلامي من المحيط إلى المحيط فلا يحس بالغربة في أى بلد من بلاد المسلمين رغم اختلاف الحكومات وتطاحناتها في كثير من الأحيان !

تلك هي أبرز الآثار الواقعية التي نشأت عن هذه العقيدة داخل المجتمع الإسلامي . وكلها نابع من تلك الانطلاقة الضخمة التي انطلقها المسلمون بعد أن تشبعوا بالعقيدة وتوجيهاتها وتطبيقاتها السلوكية العملية . نستطيع أن نستخلص منها ان هذه العقيدة تنشئ « الإنسان الصالح » وهو الإنسان العابد لله بالمعنى الواسع للعبادة ، الذي يشمل - إلى جانب شعائر التعبد - كل عمل وكل فكر وكل شعور يراعى فيه وجه الله ويلتزم فيه بأمر الله : ﴿ قُلْ إِن مَلَائِكَتِي وَنُفُوسِي وَمَنَاسِكِي وَعِبَادِي وَمَنَاسِكِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (سورة الأنعام : ١٦٢ - ١٦٣) . الإنسان المستعلى على شهوات الأرض . المتحرر بعبوديته الحققة لله من كل عبودية لأحد أو لشيء سواه ، المتوازن في سلوكه وفي فكره وفي شعوره الذي يعمر الأرض بجهدده وهو يتطلع إلى رضوان الله .

أما آثار تلك العقيدة في حياة البشر عامة ، ممن لم يعتنقوا الإسلام ، بل ممن حاربوه حرباً شعواء في الحروب الصليبية وغيرها ، فيمكن تتبع بعضها فيما تعلمته أوروبا من الإسلام والمسلمين .

فإن أوروبا - في عصورها الوسطى المظلمة - كانت واقعة في الجهالة العلمية التي حرص عليها حكام شعوبها كما حرصت عليها الكنيسة ليظل سلطانها الرهيب قائماً في قلوب الناس وأرواحهم . وكانت واقعة تحت وطأة الإقطاع ، ممزقة لا رابط بينها - وإن كانت كلها مسيحية - لأن السيد الإقطاعي يمثل في إقطاعيته السلطان المطلق ، فهو السلطة التشريعية والسلطة القضائية والسلطة التنفيذية في وقت واحد . وواقعة من

جهة أخرى تحت سطوة البابوية التى تستعبد أرواح الناس وأفكارهم وتأكل جهدهم كما تأكل أموالهم بالباطل : ﴿ تَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَخْبَارِ وَالزُّهْبَانِ لِيَآخُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَبْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (سورة التوبة : ٣٤) .

وبينما أوروبا فى حالتها هذه التقت بالإسلام يحيط بها من كل جانب . التقت به سلمياً فى الأندلس والشمال الإفريقى وصقلية وغيرها ، والتقت به حربياً فى الحروب الصليبية التى استغرقت حوالى قرنين من الزمان .

ثم كان من نتيجة هذا اللقاء السلمى والحربى تلك الآثار فى أوروبا :

١ - أخذت أوروبا العلوم الإسلامية كلها ، وبصفة خاصة المنهج التجريبي فى البحث العلمى وأقامت عليه نهضتها العلمية الحاضرة .

٢ - أخذت معنى « الأمة » التى يربطها رباط واحد وتحكمها شريعة واحدة ولكنها لم تستطع إقامتها على أساس العقيدة لفساد العقيدة عندهم وفساد القائمين عليها من الكهنوت ، فأقاموها على شكل قوميات ، هى الأساس الذى قامت عليه دول الغرب الحالية .

٣ - حاولت إصلاح الفساد العقيدى والكنسى فى حركات كالفرن ومارتى لوتر وغيرهما وإن كانت لم تحقق إلا إصلاحات جزئية فى داخل الفساد الشامل ، وذلك لأنها رفضت الإسلام ابتداءً وهو الطريق الوحيد للإصلاح الحقيقى .

٤ - أخذت نظام الجامعات الإسلامية وأنشأت جامعاتها على غرارها .

٥ - قامت فيها حركات فروسية تحاول أن تقلد ما وجدوه عند المسلمين من الشجاعة والنجدة والأخلاق العالية .

٦ - بدأت فكرة « الدساتير » التى تشمل أسساً واضحة للحكم غير هوى الحكام وشهواتهم الشخصية . واقتبست أوروبا كثيراً من الفقه الإسلامى . ومما يذكر فى هذا الصدد أن القانون المدنى الفرنسى مأخوذ معظمه من فقه مالك لأنه كان أقرب المذاهب إليهم فى الشمال الإفريقى

٧- تأثرت أوروبا بالنظم المعمارية الإسلامية ، وقلدتها في بعض مبانيها الدينية وغير الدينية . كما تأثرت بالقيم الحضارية الإسلامية بصفة عامة (خذ مثلاً بسيطاً على ذلك إدخال الحمامات في البيوت وتنظيف الأبدان بالاستحمام . ولم تكن أوروبا تمارسه حتى التقت بالمسلمين) .

٨- استفادت أوروبا من الكشف الجغرافية والخرائط الإسلامية فبدأت تنساح في الأرض على هدى هذه الخرائط .

وباختصار ، فإن أوروبا قد أخذت بذور نهضتها الحالية كلها من الإسلام ، وإن كانت جمدت أثر الإسلام والمسلمين في حياتها ، ورفضت في عصبية جاهلية أن تعتنق الإسلام !

* * *

واليوم ننظر حولنا في العالم الإسلامي فلا نكاد نرى أثراً للعقيدة الإسلامية الصحيحة ! فهل كُفَّت العقيدة الإسلامية عن التأثير ؟!

كلا .. إنها لا تفقد فعاليتها بحال من الأحوال . فهي المنهج الرباني المؤثر ، الذي تستقيم به الحياة تلقائياً وتنطلق تبذل نشاطها المثمر السليم .

إنما المسألة أن هذه العقيدة لا تعمل إلا بجهد يبذله البشر في ذات أنفسهم وفي واقع حياتهم : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ (سورة الرعد : ١١) .

وتلك سنة ربانية لا سبيل إلى تغييرها . إنه بغير جهد يبذله البشر ، وبغير اتخاذ الأسباب المؤدية إلى النتيجة لا تتغير أحوال الناس . والعقيدة الإسلامية هي الدافع الذي لا يشبهه دافع آخر في تسيير دفة الحياة البشرية . ولكنها لا تدفع إلا من يعتنقها ويقبل عليها ويعزم على تطبيقها في واقع حياته .

تصور مولداً للطاقة الكهربائية ، مستعداً أبداً للعمل ولكن لا أحد يقوم بتشغيله . أو تصوّره يعمل ولكن لا أحد يذهب إليه ليستمد الطاقة منه ! هل نقول يومئذ إنه كفّ عن التأثير ؟! أم نقول ان الناس كفوا عن استخدامه ؟

هذا هو مثل العقيدة الإسلامية بين الذين يحملون اليوم أسماء المسلمين دون أن يكون في حياتهم رصيد واقعي من الإسلام . يملكون خير الدنيا والآخرة ولكنهم لا يستخدمونه ولا يتوجهون إليه . فتتهدر حياتهم إلى الحضيض . ثم إذا فكروا أن يقوموا من حضيضهم لم يتجهوا إلى من يتشلهم حقاً ، إنما اتجهوا إلى من يزيدهم ارتكاساً وهوياً إلى الحضيض !

إن المسلمين في حاجة لأن يراجعوا موقفهم من ربهم ومن عقيدتهم التي ارتضاها الله لهم .. في حاجة لأن يعودوا إلى حقيقة الإسلام ، ليأخذوا منه الدفعة التي تسير حياتهم في الطريق الصحيح ، بدلاً من أن يتخطوا ذات اليمين وذات الشمال كالذي يتخطه الشيطان من المس !

وإن حركات البعث الإسلامي القائمة اليوم في الشباب المسلم في شتى بقاع الأرض لها بشير الخير بالنسبة للمستقبل ، وإن كان هذا المستقبل يحتاج إلى جهد ضخم لتأمينه . وسينفذ الله وعده ووعد رسوله بالتمكين لهذا الدين في الأرض من جديد . ولن يقف المتخاذلون والمنسلخون من دينهم في طريق وعد الله . إنما ينطبق عليهم النذير الرباني : ﴿ وَإِنْ تَوَلَّوْا يَنْتَبِذْكُمْ فَمَا غَيْرِكُمْ ۖ لَا يَكُونُوا لَكُمْ ﴾ (سورة محمد : ٣٨) .

أما الآخرون الذين يتمسكون بهذا الدين ويجاهدون لتمكينه في الأرض فسوف ينالهم وعد الله : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴾ (سورة النور : ٥٥) .

اللهم اجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه .

وما التوفيق إلا من عند الله .